


الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية

وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

جامعة الجزائر 2 (أبو القاسم سعد الله)

كلية العلوم الانسانية

النشاط التجاري في آسيا الوسطى وسواحل المحيط الهندي

من القرن الرابع إلى التاسع الهجري

(10- 15م)

أطروحة مقدمة لنيل شهادة دكتوراه علوم في التاريخ الوسيط

إعداد الطالبة:

شفيقة عيساني

إشراف :

أ.دعبد العزيز بوكنة

لجنة المناقشة			
الاسم واللقب	الرتبة العلمية	المؤسسة الأصلية	الصفة
أ.د/ لطيفة بن عميرة	أستاذة التعليم العالي	جامعة الجزائر 2	رئيساً
أ.د/ عبد العزيز بوكنة	أستاذ التعليم العالي	جامعة الجزائر 2	مقررا
أ.د/ أحمد شريفي	أستاذ التعليم العالي	جامعة الجزائر 2	عضوا مناقشا
أ.د/ قويدر بشار	أستاذ التعليم العالي	جامعة الجزائر 2	عضوا مناقشا
د/فاطمة بوعمامة	أستاذ التعليم العالي	المدرسة العليا للأساتذة	عضوا مناقشا
أ.د/ موسى هيصام	أستاذ التعليم العالي	جامعةالمدية	عضوا مناقشا

السنة الجامعية: 1440هـ / 2018- 2019م

إهداء

إلى روح أمي الغالية والى والدي العزيز حفظه الله

الى الحبيبة عائشة غطاس

تغمدها الله برحمته

أهدي ثمرة جهدي المتواضع

شكر وعرفان

الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، وشكري وامتناني الى أشقائي الغاليين لمساندتهم وتشجيعهم، ولأستاذي المشرف عبد العزيز بوكنة على سنده العلمي والمعنوي،وتذليله لصعوبات البحث، فساهم بقدر كبير حتى يخرج هذا العمل الى النور،كما لا أنسى ان أتوجه بالشكر الى كل الزملاء الذين شجعوني وقدموا لي النصح ولو بكلمة طيبة، والشكر موصول لكل المكتبيين لاسيما مكتبة الجامعة المركزية، والمكتبة الوطنية الجزائرية، ومركز البحوث الاسلامية في اسطنبول ISAM والقائمين على المكتبة الملكية الفرنسية بباريس College de France، والمكتبة الوطنية الفرنسية *BNF* على تقديمهم لي يد المساعداة و تسهيلاتهم مماسمح لي فرصة الإستفادة من أرصدتهم المعرفية .

قائمة المختصرات:

ج.إ: سلسلة الجغرافيا الإسلامية.

B.O.A. S : Bulletin of Oriental and Africain studies.

C.A.J: central Asiatic Journal.

D.C.C : dictionnaire de la civilisation chinoise.

E.I : Encylopaedia of Islam.

E.IR: Encyclopaedia Iranica.

E.W.M : Encyclopaedia of the world Muslims.

H.J.A.S : Harvard Journal of Asiatic studies.

I.C: Islamic culture.

I.G : Islamic géography.

J.A :Journal Asiatique.

R.M.M :Revue du monde Musulman.

R. O.CH : Revue de l'Orient Chrétien.

T.P : T'oung Pao.


مقدمة

– مقدمة:

يتناول هذا العمل الموسوم بـ" ***النشاط التجاري في آسيا الوسطى وسواحل المحيط الهندي من القرن الرابع الى التاسع الهجري/ 10-15م*** " أحد أكثر المواضيع سِحْراً وجَذْباً للباحثين فى التاريخ الاقتصادي ألا وهو "**طريق الحرير التجاري البرِّي والبحرِّي** "، ذلك الطريق الذي تسعى الصين منذ خريف عام 2013م لإحيائه من خلال إطلاق مشروعها الاقتصادي الضخم "حزام واحد، طريق واحد " *One Belt one Road* ، لتصل الصين بالعالم. ويعالج بين صفحاته، فترة من أزهى الفترات، التي نَشُطت فيها الحركة التجارية العالمية على " طريق الحرير"، شاملا العصر الذهبي لها حتى ظهور القوة البحرية البرتغالية في المحيط الهندي، حين عرفت تراجعاً كبيرا وفقدت خصائصها وتقاليدها القديمة.

والملاحظ أن هذا الموضوع أخرج إلى النور مجموعة كبيرة من الحقائق في مجال التوثيق التأريخي"*Historiographie*"،حول العلاقات التجارية والفكرية والثقافية بين شعوب وإمبراطوريات الغرب من جهة، وأقطار شرق آسيا بممالكها وإمبراطوراتها من جهة أخرى،وفتحت أمام الباحثين آفاق واسعة، للبحث في هذا المجال.

وبالرغم من الانتشار والاستخدام الواسعين لتسمية "طريق الحرير"التي أطلقها في القرن التاسع عشر، العالم الألماني فرديناند فون ريختهوفن Von Richthofen Ferdinand، إلا أن المصطلح تعرض للإنتقاد، بكونه تعوزه الكثير من الدِّقة، فهو لا يعكس معطيات واضحة في الوثائق التاريخية، ويكاد يكون محدود المفهوم، حيث يفتقر الى جمع كل حيثيات الحركة الإنسانية والتي كانت تجارة الحرير جزءا أساسيا منها، فهي

مجموعة من الطرق والدروب وليست دربا واحدا؛ كما انها طريق لعبور منتجات ثمينة ومتنوعة كالشاي والخزف والتوابل وللأحجار الكريمة . الى جانب كونها مسلكا للسفارات الديبلوماسية والثقافية، والدينية في مقاربة تحكمها الجغرافية التاريخية .

دوافع إختيار الموضوع : والملاحظ أن معارفنا حول تاريخ النطاق التجاري الآسيوي البعيد ونشاط شعوبه، أقل ما يقال عنها أنها غير كافية، ذلك على الرغم من أهميتها الاقتصادية، لاسيما منطقة ما وراء نهر بلخ أوالمعروف بجيحون لدى المسلمين، ومناطق السواحل الآسيوية المطلة على المحيط الهندي،و ذلك على الرغم من ان قسم كبير منها،كان قد أصبح جزءا من دار الإسلام، منذ بداية القرن الأول الهجري /السابع الميلادي، ووقع تحت تأثير الثقافة الإسلامية، سواء عن طريق الفتح الإسلامي، أو مع تردد حركة التجار على الأسواق البرية والمرافئ البحريةالآسيوية للمحيط الهندي،ولم يمنعها بُعدها عن بؤرة التفاعل السياسي والعسكري في حوض البحر المتوسط من وقوعها تحت التأثير الحضاري، والسياسي، والاقتصادي للأمم الفارسية والتركية وغيرها، والأمة الإسلامية .

وفي هذا السِّياق يرى المستشرق الفرنسي جان سوفاجيه Jean Sauvaget والإنجليزي أرنولد ARNOLD.T.W المهتمين بتاريخ الحضارة الإسلامية، أن عملية احتكاك الشعوب الآسيوية بالبَّحارة، وبالتجار المسلمين من مختلف جنسياتهم، كانت من أقوى العوامل التي ساهمت في انتشار الإسلام، في المناطق الآسيوية المعزولة وفي جزر جنوب شرق آسيا. ومن جهة أخرى أشار المؤرخ الصيني شانغ جيه مينغ Cheng Jih Ming، والمستشرق دي فيريا Devéria Gabriel، الى أنه منذ ان فتحت الصين الطريق التجاري في حدود القرن الثاني قبل الميلاد، لم يصبح وسط آسيا النطاق التجاري

الأكثر حيوية، وملتقى التجارة العالمية، فحسب بل ومنطقة صراع بين القوى العالمية حينها؛ الإمبراطورية الصينية والممالك التركية المجاورة لها، والإمبراطورية الفارسية حول النفوذ العسكري فيها، ومع ظهور الاسلام، أُضِيفَ لآسيا الوسطى والمحيط الهندي، قوة سياسية لا يستهان بها في معادلة القوى العالمية في المنطقة حينها، وعنصرا جديدا فعَّالا بين مجتمعات الأمم المُتاجرة ، فكانت هذه الإشارات هي دافعي لدراسة حركة النشاط التجاري، في شقَّيْه البري والبحري.

الإشكالية : في أي ظروف تاريخية برزت الأهميته التجارية لمنطقة آسيا الوسطى أو تركستان الكبرى ، وماهو المجال الجغرافي لإقليم آسيا الوسطى ،و الى أي مدى تحكمت الصين في المنطقة بوصفها هي من فتح النشاط التجاري فيها؟ وكيف كان شكل العلاقة الصينية بالممالك التركية في أقاليم آسيا الوسطى ؟ والى أي مدى انعكست التجارة على مصير المنطقة واستقرارها ؟ وما الذي عجزت الصين عن خلقه بين أهالي تركستان الكبرى طيلة قرون من الهيمنة العسكرية، في حين نجح الإسلام فيه فغيَّر مصير المنطقة، ووجه الخارطة السياسية والثقافية فيها.

وماهي العوامل التي ساهمت في نجاح التجار المسلمين،في أخذ موقعهم، ضمن طوائف تجارية في مرافئ شبه القارة الهندية وجزر الجنوبية لآسيا والصين وكسبهم ثقة ملوكها ؟ ثم ما هو حظ التجار الأوروبيين اللاِّتين من خيرات التجارة الآسيوية ؟ و كيف تطور شكل النشاط التجاري البحري للإمبراطورية الصينية في المحيط الهندي في القرن التاسع الهجري / 15م، وأخذ منحى مختلف عما اعتادت عليه شعوب المنطقة ؟

للإجابة على هذه الاشكالية انتُهجت الخطة التالية،حيث قُسِّم البحث الى خمسة فصول:

تناول الفصل الأوَّل الموسوم ، ***بآسيا الوسطى الموقع الاستراتيجي والأهمية الاقتصادية***، التعريف بالمنطقة من الناحية الجغرافية، كالموقع والحدود والتضاريس الحالية، لتوضيح أهميتها الاستراتيجية، ثم تناول المبحث الثاني آسيا الوسطى في كِتابات الرحّالة والجُغرافيين المُسلِمين والاجانب ، وتناول الثالث الإمبراطوريّة الصّينيّة وعَلاقَتِها الاستراتيجية بآسيا الوسطى وسيطرتها العسكرية عليها طيلة خمسة قرون تقريبا ، ثم تعرض المبحث الرابع الى الفتح الإسلامي لآسيا الوسطى ،وعالج المبحث الخامس الصِّدام العسكري الصّيني الإسلامي حول السيادة على آسيا الوسطى، وجسدته المعركة المنسية الحاسمة طلاس/طرَاز عام 134 هـ ـ751م،التي غيَّرت مصير المنطقة للأبد فأصبحت منذ ذلك العهد جزءاً من العالم الاسلامي ، وفي نفس الوقت كانت بداية لتقارب تركي ـ إسلامي ترسَّخت من خلاله هُوِّية وثقافة المنطقة.

أما **الفصل الثاني**؛ الموسوم ***بالنّشاط التّجاري في آسيا الوسطى في عَهد السّيادة الإسلاميّة من ظهور الإسلام الى عشية الغزو المُغولي***، يرصد مبحثه الأول مكانة التاجر والتجارة في الثقافة الإسلامية،لاسيما في العهدين الأموي والعباسي، أما المبحث الثاني ففيه دراسة لتسمية" طريق الحرير" وأبعادها التاريخية، مع عرض لطرق المُواصَلات والتجَّارة عبر جبال تيان شان شمالا، وحوض التاريم Tarimجنوبا وجبال الباميرPamir في آسيا الوسطى، الى آليات وصعوباتك المسالك التِّجاريّة، ودور مؤسسة الخانات ـ الفندق ـ في تيسير مشاق الطريق على القوافل التجارية، كمايتناول المبحث الثالث بالدراسة أكبر الوُسطاء التجاريين في آسيا الوسطى، الذين امتهنوا التجارة وخبروا دروبها وسلعها في المنطقة، منذ القديم وكوَّنوا حلقة وصل حقيقية بين تجار الصين وباقي التجار القادمين من البلاد الغربية، ويأتي في مقدمتهم تجار من أهالي المنطقة،وهم : التجار الصغد soghdak، والتجار الفرس

اليهود الأجانب التجار نشاط جانب الى،Ortaq والتجار الترك ،Sartaktay الرُّذهانيةRadhanites القادمين من الغرب الأوروبي.وعرض المبحث الرابع الأهمية الاقتصادية والتجارية لإقليم آسيا الوسطى، بينما المبحث الخامس فتناول أشهر البَضائع المتداولة بين التجار.

أما **الفصل الثّالِث** فخُصّص لدراسة ***النّشاط التّجاري في آسيا الوسطى في العَهد المُغولي***، وهي الفترة التي اصطبغت " بالعالمية" – حسب وجهة نظر المستشرقين– وذلك حين نشط فيها التجار القادمين من غرب أوروبا لاسيما من إيطاليا، وحظوا بمكانة خاصة لدى خانات المُغول فمنذ عهد جنكيزخان، فتحت لهم أبواب التعاطي المباشر مع تجارة الشرق الاقصى، تناول المبحث الأول موقع النشاط التجاري لدى المُغول،وعرض المكانة الهامة التي تبوأتها التجارة في سياسة جنكيزخان، وحادثة مقتل التجار المُغول المسلمين في "أُترار Otrar" هي الذريعة التي تسببت في الغزو المُغولي لإقليم ما وراء النهر والسيطرة على مسالك التجارة ، أما المبحث الثاني فيحتوي على عرض للتنظيمات المغولية لآليات السفر وحركة القوافل التجارية، ويتناول الثالث المسالك التجارية الجديدة التي فتحها المغول،ثم خصّص المبحث الرابع لدراسة نظام العملةالمغولية وأسلوب التبادل التجاري في آسيا الوسطى وجنوب " سيبيريا"، كما تناول هذا المبحث أشهر البضائع الرائجة في آسيا الوسطى وهي الاحجار الكريمة، من خلال مصادر معاصرة صينية واسلامية، أما المبحث الخامس والسادس فقد خُصّصا لدراسة الإرساليات التّنصيريّة الكاثوليكية لدى المغول، بداية من منتصف القرن السابع الهجري /13م، لكونها المُمَّهد الأول لوصول التجار الإيطاليين إلى المنطقة، وللعلاقة الوطيدة بين الطرفين،مع دراسة معالم تأرجح أهداف الإرساليات بين التحالف الاستراتيجي، والأطماع الاقتصادية، ورصد لخط سير رحلات أبرز الرهبان في

آسيا، وتمَّ اختيار ثلاث نماذج لمبعوثي البابوية الأوائل ومقتطفات من نصوص رحلاتهم، وتناول المبحث السابع عرض لنَشاط التُجّار الإيطاليين في القرن السابع والثامن الهجري/13_14م، ويعرض المبحث الثالث المَسالِك التّجاريّة المعروفة لدى التجار نحو آسيا الوُسطى والصِّين في العَهد المغولي،أما المبحث الرابع فتطرق الى أسلوب التّبادُل التّجاري في العَهد المَغولي، عبر كل أراضي الخانات المغولية لاسيما في آسيا الوسطى والصين بحكم أن كل المنطقة تسير وِفقاً لقوانين الخان الأول جنكيز .

وخُصِّصَ **الفَصل الرّابِع** لدراسة، ***الشراكة التجارية في مرافئ المحيط الهندي من القرن 2-6هـ/8-12م***و فيه، أولا؛ لمحة عن النشاط التجاري في مرافئ المحيط الهندي قبل ظهور الإسلام، ثم ثانيا؛رصد لحركة التّجارة في شَواطِئ المُحيط الهِندي منذظُهور الإسلام، حينها برزت قوَّتَان هيمنتا على تجارة المحيط الهندي؛الخلافة الإسلامية، والإمبراطورية الصينية، فكان ماعرف بشراكة تجارة المرافئ ***the Emporia Partnership Trade*** ، يتناول المبحث الأول العلاقات الديبلوماسية والعسكرية بين القوتين العالميتين حينها، ودورها في توسيع النشاط التجاري، أما المبحث الثاني منه فيعرض الوسيط التجاري الأول في تجارة المحيط الهندي ألا وهو العنصر الفارسي المعروفون في الصين حينها ب " بوسي – Po see". أما العنصر الثالث ؛ فتناول شكل المعاملات والعقود التجارية في أسواق المحيط الهندي، وخُصِّصَ العنصر الرابع لعرض المراكز التجارية الكبرى الواقعة على السواحل الآسيوية ؛ سواء تلك الواقعة على السواحل الهندية ، او في مملكة سرنديب (جزيرة سيرلانكا)، او تلك الواقعة في أسواق الجزر الإندونيسية وبورنيو وجزر المولوك في أقصى الشرق، المعروفة حينها بمملكة جاوة، وبلاد الملايو و كمبوديا، ثم وصولا إلى أشهر موانئ الصين في هذه المرحلة وهو مرفأ "كانتون"التجاري.

يأتي الفصل الخامس و الأخير، الذي أُفرِدَ لدراسة ***التجارة البحرية في مرافئ المحيط الهندي من القرن السابع الى منتصف التاسع الهجري /13 -15م***، وهي الفترة التي شهدت فيها الحركة التجارية، في المحيط الهندي تحولات واضحة، حين استخدمت الامبراطورية الصينية تحديدا، منطق القوة في التبادل التجاري، واصطبغ بصبغة القوة العسكرية، الذي بدأت ملامحه في عهد أسرة صونغ، لتظهر بوضوح في عهد أسرة مينغ، وعلى هذا قسمت الفصل الى ثلاث عناصر أساسية ؛

أولها يعرض المراكز التجارية الساحلية الكبرى منها ما بقي محافظا على مكانته الحيوية، ومنها ما برزت أهميته في الفترة المدروسة،مثل هرمز، وكمباي combay ومدن ساحل المالابار، جزيرة سيلان (سيريلانكا)،قاليقوت calicut ، وفي الجزر الإندونيسية، مع عرض أكثر السلع طلباً وتداولاً في الأسواق في الفترة المدروسة .

ثاني عنصر تناولت نشاط الصين التجاري في المحيط الهندي في الفترة من القرن 7 – 8 ه/13-14م من خلال أبرز مدنها التجارية ؛ مدينة" زيتون" التي مثلت المركز التجاري العالمي في المنطقة حينها، ومدينة "خنسا".

ثالثها عالج أهم الفترات التي شهدت هيمنة أسرة مينغ الصينية على تجارة المحيط الهندي واستخدامها للقوة العسكرية في النصف الأول من القرن التاسع الهجري/15م، حين حدث انقلاب عام 1402م، وعرفت الصين تحول كبير في سياستهاالخارجية، وانعكس ذلك على النشاط التجاري في مياه المحيط الهندي، وفي هذا الاطار تَمَّ عرض الحملات الصينية العسكرية في المنطقة عبر الفترة806 – 836ه / 1404- 1433م،وأهم النتائج المُترتَّب عليها.

أما عن المنهج المُتَّبع في هذه الدِّراسة ، فقد اعتمدت المنهج الوصفي التحليلي في إعادة طرح المادة الخبرية العلمية، مع مقارنتها ما أمكن، ثم عرض النتائج المستخلصة ، وبما أن الجوهر الأساسي للدراسة هو رَصْدِ موقع النشاط التجاري بالنسبة للأحداث التاريخية الفاصلة، وانعكاساته الحضارية ، ابتداءً من عصر الخلفاء العباسيين مرورا بفترة الغزو المغولي ومُتغيراتها، حتى قبيل الوصول البرتغالي لمياه المحيط الهندي، التزامت بالترتيب التاريخي الكرونولوجي، في عملية سرد المادة الخبرية المُستخلصة وفق فترات زمنية واضحة.

واستعنت بما أمكنني جمعه من مصادر متنوعة ذات أهمية من الدرجة الأولى، أفادت في إثراء الموضوع من كل جوانبه، منها مدونات إسلامية وأخرى أجنبية القريبة من الفترات الزمنية المدروسة، ومنها ما هو شرقي؛ صيني أو كوري مترجمة إلى اللغة الإنجليزية والفرنسية، وأخرى مصادر عبرية تم ترجمتها الى لغات أجنبية، وأخرى فارسية تمَّ تعريبها، ومنها ما هو غربي أوروبي؛ ترجم من اللاتينية الى لغات حديثة،سيأتي التعريف بها لاحقا، وبالنظر الى تنوعها ووفرتها سأقتصر على عرض أبرزها وأكثرها إسهاما في إثراء فصول العمل .

يأتي في المصاف الأول للمصادر الإسلامية مُدونات الرحَّالة والجغرافيين المسلمين المتقدمين، الذين افادوا الفصل الأول والرابع خاصة، أمثال سليمان التاجر وأبو زيد السيرفي من القرن الثالث الهجري، الذين جمعت مُدَّونتَيهما حول الجزر والبلاد الشرقية في كتاب " سلسلة التواريخ "، وابن خرداذبة 205-280هـ وكتابه" المسالك والممالك"، واليعقوبي (ت 292هـ) صاحب كتاب البلدان ، وجغرافيي القرن الرابع من أمثال ابن حوقل(ت 367هـ) وكتابه صورة الارض ، وكتاب الجاحظ" التَبَّصُّر بالتجارة في وصف ما يستظرف في البلدان

من الأمتعة الرفيعة والأعلاق النفيسة والجواهر الثمينة"، ذو الأهمية حيث تحدث بإسهاب عن السلع المتداولة في الأسواق، وذكر موصفاتها وبيَّن درجة الإتقان والغش فيها و حتى مصادرها، كما أفادني المؤلف المجهول صاحب كتاب "حدود العالم " و القزويني في كتابه بمعارف دقيقة حول آسيا الوسطى، سكانها وشكل الحياة الاقتصادية لاسيما وأن لهما معرفة مباشرة بالمنطقة وأهلها لكونهما منها وأعلم بأحوالها، وغيرهم من كتب جغرافيين المسلمين، التي رصدت أحوال التجارة في حدود القرن الرابع والخامس الهجري تمهيدا للعهد المغولي .

هذا إلى جانب رحلة ابن بطوطة الذي زار المنطقة في القرن السابع الهجري/ 14م، وهي تحت حكم المغولي فجال كما هو معلوم في الصين والهند وآسيا الوسطى واطلع على أحوال أهلها وأورد وصفا دقيقا لها ولنشاط التجار بها، والجغرافي التاجر الرَحَّالة أبو الفدا الحموي 671-731هـ/ 1273-1331م.

أما المصادر الصينية التي ساهمت في توضيح الكثير من حقائق عن شكل النشاط التجاري في آسيا الوسطى، وأهم البضائع المتداولة فيها، مجموعة المصادر التي ترجمها من الصينية الى الفرنسية ونشرها العالم الفرنسي آبل ريموزا في مصنفه" مقتطفات نقدية ومذكرات متعلقة بالديانات والعلوم " ***Abel Rémusat ; Recueil de morceaux de critique et de mémoires relatifs aux religions aux sciences***، ومن أكثرها أهمية بالنسبة لموضوع الرسالة، نصوص رحلة هيوان شانغ ***Hiouen Thsang***، الرَّحالة الصيني الشهير الذي زار إقليم تركستان في آسيا الوسطى، في القرن السابع الميلادي، في نفس الفترة التي بدأت فيها الفتوحات الإسلامية تُغير الوجه السياسي والحضاري للمنطقة، فأفادت نصوصه الفصل الأول في تغطية، القسم الخاص بأوضاع آسيا الوسطى زمن الفتوحات الاسلامية، الى جانب الموسوعة التاريخية الصينية التي ألَّفها الكاتب الصيني الشهير **مه**

توان لين*Ma Touan Lin* في القرن الثالث عشر، سماها "**بحث معمق عن الآثار القديمة** "، وهي جملة من الإقتباسات تفيدنا بمعلومات مهمة، حول الشعوب التتارية والمغولية، والتركية والتبتِّية والصُغدية والهندية وكذا شعوب الجزر الشرقية، كلها تندرج ضمن الجغرافيا التاريخية وهي حوالي أربع مجلدات عكف الفرنسي أبيل راموزا على ترجمتها.

كما أستفادت الدراسة من نصوص رحَّالة الشرق الاقصى القادمين من الصين وكوريا، وأبرزها " **يوميات رحلة الحاج البوذي الكوري "هاي كو"** "***The Hye Ch'o Diary***" في بلاد الهند وآسيا الوسطى، الذي وصف المنطقة بعد الفتوحات الاسلامية لها وما عرفته من تغيرات في أوضاعها السياسية والثقافية، كما إستعنا بالمصدر الصيني "شو فان شي" ***Chu-Fan-Chi*** للكاتب شو جو كوا ***Chu-Ju-Kua*** الذي ألَّفه حوالي عام 1226م، وهو من أشهر المؤلفين الصينيين الذين كتبوا في الإثنوغرافيا والنشاط التجاري، فقد كان موظفا لدى الحكومة الصينية، ومفتش التجارة الأجنبية في عهد أسرة سونغ 960 ــــ1274م، في مدينة فوجيان الساحلية، وقد أورد معلومات ذات أهمية أساسية حول التجارة العالمية في البحار الشرقية وعن أحوال البلاد الاجنبية ومن ضمنها آسيا الوسطى، والبضائع الواردة إلى الصين والصادرة وقد اعتمد في جمع معلوماته على سجلات الحوليات الصينية منذ عهد أسرة تانغ 663ـ 906م حتى عصره، كما اعتمد على الروايات الشفوية من أفواه التجار الأجانب المُترددين على بلاد الصين في الوقت الذي كانت فيه تجارة الشرق الأقصى تحت أيدي التجار العرب والفرس والهوي هوي المسلمين.

الى جانب كتاب تاريخ جيهانكيشاي أو " تاريخ فاتح العالم" ألَّفه علاء الدين عطا ملك الجويني (ت682هـ/1283م)، سجَّل أحداث السنوات العشر الأخيرة من حكم جنكيزخان، وكان علاء الدين مرافقا لوالده، الذي كان في خدمة المُغول، وحضر مجلس القوريلتاي

Kuriltai الذي نصب فيه مانغو خان خلفا لوالده، وأفاد الدراسة في القسم الخاص بالظروف التي أحاطت بالغزو المغولي لإقليم ماوراء النهر، وكيف كانت التجارة هي المحرك الخفِّي لذلك كما يُفَصِّل في آليات التنظيم المغولي للسفر والمواصلات والمسالك التجارية ومراكز البريد والخانات التجارية، ويعتبر الكتاب من المصادر التي لا يمكن الاستغناء عنها لدارسة تاريخ المنطقة في العهد المغولي، وكذا المهتمين بدراسة تاريخ الأتراك الأيغور، كما استْعنت بقسم من كتاب "جامع التواريخ" لرشيد الدين فضل الله الهمذاني ولد حوالي 645هـ/1247-1317م، عيَّنه محمود غازان خان (ت 703هـ/ 1304م) وزيرا 1298م، وبقي في الوزراة في عهد أولِجايو Oldjaito (ت 716هـ= 1316م)، ويوجد في ما دوَّنه معلومات دقيقة حول مدن تركستان الشرقية والصين في العهد المغولي، والقبائل البدوية من تاتار وأتراك وغيرهم، وتكمن أهمية ما كتبه رشيد الدين في كونه اطلع على الحوليات المغولية المعروفة ب"**ألتن دفتر**"***Altindefter*** أي الكتاب الذهبي الذي كان في خزينة غازان خان واستند عليه في استقاء معلوماته، وقد ترجم جزءً منها من الفارسية المؤرخ هنري يول***Henry Yule*** في الجزء الثالث من مجموعته***Cathay and the way thither*** الخاصة بمصادر تاريخ الصين في العصر الوسيط. ومن جملة المصادر الصينية الاساسية المتعلقة بالنشاط التجاري في المرافئ الكبرى لسواحل المحيط الهندي خلال النصف الاول للقرن التاسع الهجري/15م، ما كتبه ***مه –هوان*** ***Ma-huan*** المترجم لدى الحكومة الصينية في عهد أسرة مينغ، بعنوان" ***The Overall survey of the Océan shores***"،فقد كان أحد مرافقي الملاَّح الكبير شانغ هو***Cheng-Ho***في ثلاث رحلات بحرية من جملة سبعة من أكبر الحملات العسكرية البحرية الصينية في المحيط الهندي، في محاولتها السيطرة على المسالك البحرية لتجارة التوابل والحرير، ويعتبر ما سَّجله مه- هوان في أسفاره، مادة دسمة يهتم بها علماء الأنثروبولوجيا والمهتمين بالتاريخ الإقتصادي،فهي تعتبر مصدرا من الدرجة الأولى لمعرفة

أحوال الملاحة والمبادلات التجارية في سواحل المحيط الهندي قبيل وصول البرتغاليين، وهو ما جعل مؤسسة هاكلويت اللندنية ***the Hakluyt Society***، تعطي عناية خاصة بها، وتسعى الى ترجمتها مع جملة الرحلات والمصادر النادرة التي عنيت بنشرها ووضعها بين يدي المؤرخين والدارسين.

كما ترك بعض **التجار اليهود** مدونات سجلت نشاطهم على مسالك الطريق التجاري البري والبحري لآسيا، وتضمنت معارف دقيقة عن التجارة والسلع المتداولة والتدابير التي كان يتخذها التجار المسافرين في حلِّهم ترحالهم، منهم الرِبِّي بن يامين التيطلي الأندلسي***Benjamin de Tudèle***، الذي كتب رحلته باللغة العبرية، وانهى كتابتها عام1173م في قشتالة،ونشرت لأول مرة في القسطنطينية عام 1543، وقد استغرقت رحلته ثلاثة عشرة عاما زار خلالها الهند وجزر جنوب شرق آسيا وحدود الصين، فأفاد الموضوع في كل ما يتعلق بأشهر السلع الرائجة ومواطن جلبها.

ولعل من المصادر النادرة والحصرية التي خرجت مؤخرا الى النور،وحظيت هذه الدراسة بالاستفادة منها، كتاب للتاجر والعالم العبري **يعقوب بن سليمان الأنكوني** ***Jacob ben salamon D’Ancône***، وهو من يهود مدينة "أنكون " الإيطالية الشمالية المُطِّلة على البحر الأدرياتيكي، زار الهند والجزر الجاوية والصين ومكث في مدينتها الساحلية زيتون "فوجيان" قبيل الغزو المغولي لها عام1277م، فسبق في ذلك التاجر الرحالة البندقي ماركو بولو الى المنطقة، واستغرقت رحلته من 1270–1273م،ترك مخطوطة بالألوان باللغة الإيطالية، يضم أخبار رحلته، وهي ممتازة من حيث دقة المعلومات وغزارتها، أثرت الفصل الثالث والرابع بمعارف هامة عن نشاط التجار الأوروبيين وخط سير رحلاتهم البحرية نحو الصين، والمحطات التي عادة ما يقفون عندها،ومن أين تشحن أجود انواع السِّلع والأكثر

طلبا عليها وأين تُصْرَف أخرى، والتدابير التي يتخذونها في سبيل انجاح رحلتهم وسبل جني الأرباح من تجارة التوابل والأحجار الكريمة، و معلومات عن أسرارهم ومخاوفهم وتفاصيل كثيرة، الرِّحلة الموسومة ب"**مدينة النور**"، ***la cité de lumière*** اعتبرت من الكتب المفقودة، التي كانت ضمن سلسلة جرد مكتبة دوقية أوربينو Duché D'Urbinoالإيطالية(1633–1657)، والأرجح أنها أُخفِيَت بين كتب المجتمع اليهودي في أوربينو، لما تتضمنه نصوص رحلته من انتقادات لاذعة للمسيحيين الكاثوليك،فحسب المترجم دافيد سالبورن ***David Selbourne***الذي عكف على ترجمة المخطوط من الإيطالية الى الإنجليزية طيلة(1991–1996م)، فإن المخطوط كان في حيازة أسرة يهودية "لأجيال عديدة"، قبل ان تصبح في يد مالكها الحالي، وهو من جنسية إيطالية لم يفصح عن شخصيته، ويرجع التكتم على المخطوط حسب المترجم الى الآراء الخطيرة ليعقوب الأنكوني والمتعلقة بالمسائل الدينية، فكان حذره مُبرَّر زمن محاكم التفتيش التعسفية، ويبدو أن سِرِّية ملكيته نُقِلت من جيل الى جيل، حتى أن مالكه الحالي بالرغم من أنه ليس يهوديا، يعي ذلك ويتكتم على المخطوط، كما ان الشيء الذي يعطي مخطوط يعقوب قيمته المعرفية والتاريخية، هو أسبقيته بالنسبة، لنصوص ماركو بولو، بعد أن كان يُظَّن خطأً ، أن التاجر البندقي هو أول أوروبي لاتيني يزور الصين وبلاد الشرق الأقصى، وأفاد يعقوب أوروبا بشهاداته العينية من جهة، فضلا على دقة معلوماته وتنوعها ذلك لان ما دوَّنة التاجر يعقوب كان يُسجَّل على شكل مذكرات يومية، حيث كلَّف دليله الترجمان ليفانليLifenli بتدوين تفاصيل الرحلة من حوارات أو مناظرات في حينها *وزمانها*،مُزَوَّدة بتاريخ تدوينها بشكل يومي حسب التقويمين العبري والمسيحي، وأمره بأن يقوم " **بترتيب صفحة بصفحة كل ما قمنا بتسجيله**" وهذا ما يؤكد بأنهما عملا سوية على جمع وتسجيل المعلومات، وبالنظر الى الالتزام الذي اتصف به عمل المترجم، منحه التاجر اليهودي جائزة معتبرة حين حان وقت

انفصالهما، حسب ما أشار اليه يعقوب، وهذا ما يعطي نصوصه قوة ومصداقية أكثر، على خلاف التاجر ماركوبولو الذي دوَّن مشاهداته بعد عودته من رحلته وعن طريق إملائها لأحد الجنويين، مما جعلها عرضة لانتقادات كثيرة، كاتهامه بالنسيان وانعدام الدِّقة، أدى إلى صعوبة تحديد بعض المواقع على الخريطة، وذهب بعض الدَّارسين الى التشكيك في حقيقة تواجد ماركوبولو في الصين لا سيما في جزر جنوب شرق آسيا، منهم" **ف.وود *F.Wood*** " الذي يعتبر أكثر من أثار ضجة من خلال كتابه :

"**هل ذهب ماركو بولو إلى الصين**" "***Did Marco polo go to china***" حيث رأى أن ماركوبولو لم يقم بزيارتها.

كثيرون هم الرَّحالة والسفراء الأوروبيون، الذين جالوا في آسيا الوسطى أو على السواحل الجنوبية والشرقية لآسيا ابتداء من منتصف القرن الثالث عشر الميلادي،والشاهد على ذلك عدد المخطوطات المعروفة والمجهولة، التي تضمها المكتبات الإيطالية وخاصة مكتبة الفاتيكان، ولقد حاولت هذه الدراسة الاستفادة قدر الإمكان، من نصوص رحلاتهم لاسيما في القسم الخاص بالإرساليات الأوروبية سواء كانت من قبل البابا، أو من قبل ملوك أوروبا، إلى خانات المغول في آسيا الوسطى والصين، وما احتوت عليه تقاريرهم من معلومات عن ثروات البلاد الشرقية وشكل المبادلات التجارية فيها سواء في البَّر الآسيوي أو المحيط الهندي، كان في صدارتهم جان دي بلان كاربان***Jean de plan Carpin***المبعوث البابوي الذي وصل الى قاره قورم *Kara Koram*عاصمة المغول عام 1246م، ثم وليام دي روبروك ***Guillaume de Rebrouk*** سفير لويس التاسع ملك فرنساالى مانغوخان عام 1251م، فضلا عن تقارير الرَّاهب جون أوف مونتي كورفينو ***John of Monté corvino***1247 _1328المؤرخة ب 1305م/1306م، والتي ترجمها يول. هـ ***Henry yule*** ضمن مجموع المصادر التي أشرفت

على نشرتها مؤسسة هاكلويت في مطابع جامعة كمبردج الإنجليزية ***The Hakluyt Society***، في ثلاث مجلدات تحت عنوان ***Cathay and the way thither***، وكان الرَّاهب أوف مونتي كورفينو قد أبحر من ميناء هرمز على الساحل الفارسي، الى مدينة "زيتون"الصينية عام 1291م، وعُيِّن رئيس أساقفة كنيسة خان باليقKhan Balik "بكين" حاليا، من طرف البابا كليمنت الرابع،الى جانب ما تضمنته رسائل أندرو أسقف مدينة زيتون ***Andrew Bishop of zeitoun*** ، تقرير الراهب الفرانسسكاني الشهير أودوريك دي بوردنون ***Odoric de Perdenone***، كانت بداية رحلته التي دامت اثنى عشر عام، من1318واستمرت الى1330 أقام ثلاث سنوات منها في الصين 1324-1327م، وزوَّدنا بمعارف عن المنطقة وحركة التجارة فيها، وتعتبر نصوص رحلته مُلفتة للانتباه، وجديرة بالاهتمام، لسلاسة أسلوبها واحتواءها على ملاحظات عالية الدِّقة، مع إعطاءها كما هائلا من المعلومات، ساهمت في تسليط الضوء على جوانب من العلاقات الأوروبية مع آسيا في النصف الاول من القرن الرابع عشر،ولا يعتبر ما دوَّنه الرَّاهب أودوريك تكملة لما شرع فيه ماركو بولو، وإنما يعتبر منجم حقيقي لمعارف حصرية، اطَّلع عليها وسمحت له إقامته الطويلة بين الصين وجزر جنوب شرق آسيا؛ بورنيو، جاوة، سومطرة، من جمع كمٍّ كبير من المعلومات الخاصة، في حين انه يوجد من ينفي تواجد ماركو بولو في الأماكن المذكورة (*Henri Cordier :les voyages.. Introduction,PP.LV,LVI*).

و نصوص الرَّاهب جيوفاني مارينيولي ***Giovani Marignolli***ينتمي الى أسرة "مارينيولي أوف سان لورانزو***Marignolli of san Lorenzo***"أعرق العائلات الفلورنسية 1338-1353م، زار السواحل الهندية والجزر الأندونيسية والصين عام 1340م، وكان قد أفادنا بمعلومات قيمة حول مزارع الفلفل في المالابار، الساحل الجنوبي الغربي للهند، واحتكار الرهبان القديس توماس المسحيين لزراعته وتسويقه في الفترة المذكورة بعد ان كان التجار

المسلمون هم المُروِّجين له وقد انبهر مارينيولي بثراء الجزر والسواحل الآسيوية للمحيط الهندي فكتب ***"لا يوجد على وجه الأرض كلها، جنَّة حقيقية مثل تلك المناطق المُطِّلة على المحيط الهندي، الواقعة في الجهة الشرقية للبلاد الهندية وجزيرة سيلان حيث يوجد أجود أنواع الفاكهة وأروع النباتات العطرية من التوابل".*** ويبقى ما سجله التجار الإيطاليين عن التجارة في آسيا يتسم بالتفصيل والدِّقة، و ينتمي الى نفس الفترة التاجر فرانسيس بالدوتشي بيغولوتي ***Francis Baldutcci Pegolotii***وكان مفاوضا تجاريا في خدمة شركة عائلة باردي الفلورنسية "ملوك التجار" ***the Bardi of Florence***، منذ 1315م، وصاحب كتاب "وصف البلدان والموازين المستخدمة في الاعمال وأمور أخرى يحتاج الى معرفتها التجار من كل أطراف العالم" ويعرف أيضا ب"ممارسة التجارة " ***pratica dela Mercatura***"الذي ألفه حوالي 1340، خاص في التجارة وفن التسويق وقد أفاد البحث في فصله الرابع المتعلق بالتجارة في القرن الثامن الهجري /14م، وفي أوجه كثيرة لاسيما وأنه دليل حقيقي للتاجر الأوروبي في أسواق آسيا، وصف بيغولوتي الطريق ومحطاته والخانات التجارية ودورها، وآليات السفر ومُتغيراتها، ومابنصح به التاجر من تدابير للانتفاع من تجارة الشرق، مُستخدماً مصطلحات عصره وشارحاً لها ولأُصولِها، الشيء الذي عكس بوضوح كبيرا تأثير الحضارة العربية الإسلامية على جانب المعاملات التجارية في إيطاليا بحكم الاحتكاك والقرب الجغرافي.

وكان من أهم المصادر التي اعتمدت عليها الدراسة في تغطية القسم الخاص بالنشاط التجاري في سواحل المحيط الهندي في نهاية العصور الوسطى (القرن التاسع الهجري /15م)،ما دوَّنه التاجر البندقي الإيطالي نيقولو دي كونتي ***Nicolo de Conti***،الذي انتقل في شبابه الى دمشق حيث تعلم اللغة العربية وانطلق منها ببضاعته نحو أسواق الهند ضمن قافلة تكوَّنت من سِتَّةُ مائة تاجر، واستغرقت الفترة من 1414-1439م، وكتب تفاصيل

إقامته وتجوله في المنطقة ومعارفه حول التوابل الهندية والسلع المتداولة ومن أين تجلب أشهر منتجاتها، ونشاط التجار في المنطقة.

ورحلة عبد الرزاق إبن إسحق، سفير الشاه روخ إبن تيمورلنك إلى الصين845هـ/1442م، وصف فيها نشاط المدن التجارية الكبرى، التي مرَّ بها مثل "هرمز" و"كلهات" الهندية، مع بروز مدينة قاليقوت في هذه الفترة كملتقى للتجار من كافة الأرجاء .والى نفس الفترة ينتمي كتاب دون كلافيجيو ***Don Clavijio*** سفير ملك قشتالة إلى تيمورلنك في سمرقند، وسجل فيها أحوال إقليم آسيا الوسطى من تنظيم لمسالك السفر وتيسير لسبل النشاط التجاري فيه .

أما فيما يخص الدراسات الحديثة المختصة التي أفادت الدراسة، فيمكن القول انه قد تم الرجوع إلى أعمال العلماء الأوربيين المتخصصين في التاريخ التركي والصيني وأواسط آسيا يأتي في مقدمتهم عالم الصينيات الفرنسي بول بيليو ***Paul Pelliot***أحد أعمدة المؤسسة الآسيوية***la Société Asiatique*** التابعة للكلية الملكية الفرنسية ***Le collège de France***، من خلال ما نشره في الدورية " تونغ باو; ***Toung Pao***" أي " الأرشيف" باللغة الصينية،التي كان من مؤسسيها عام 1890م،وقد أسهمت هذه الدورية المتخصصة بنشر معارف هامة حول تاريخ الصين وآسيا الوسطى، بالاعتماد على مصادر ووثائق التاريخية، التي جُمعت أو تلك التي تم العثور عليها في أحد كهوف البوذية الواقعة على طريق الحرير، في مدينة دان هوانغ ***Dan houang*** بتركستان الشرقية، كما تهتم الدورية بنشر أكبر عدد من المصادر المتعلقة بتاريخ آسيا الوسطى، والصين وكوريا واليابان والهند الصينية وماليزيا، وأشرف عليها ونشر فيها، أبرز المختصين في تاريخ آسيا الشرقية من أمثال هنري كورديي ***Henri Cordier***، و إدوارد شافانُ ***Edouard chavanne***،الذين عكفا على ترجمة النصوص التاريخية المتعلقة بتاريخ المنطقة من الصينية الى الفرنسية، هذا

الى جانب مجموعة المصادر التي نشرها الألماني بريتشنيدر ***E. Bretschneider***في مجلدين حول تاريخ الشرق الاسيوي الموسومة ب بحوث في العصر الوسيط من خلال مصادر آسيوية من القرن 13 الى 17 الميلادي ***Mediéval Researches from eastern Asiatic sources***، فضلا عما ألفه الروسي بارثولد ***Barthold.w***عن تاريخ أتراك آسيا الوسطى، وماكتبه ليون كاهون ***Léon Cahun*** عن تاريخ نفس المنطقة، ومؤلفات روني غروسي ***Grousset René***حول تاريخ آسيا الشرقية، والدارسين الآسيويين المختصين في التجارة في المحيط الهندي من أمثال شودهوري ***Chaudhuri*** وغيرهم.

أما عن المصاعب التي يواجها الباحث في أثناء المسار البحثي، من مشاق السَّعي وراء المصادر الأولى والحصرية المتعلقة بالموضوع، والاطلاع على الدراسات المتخصصة التي عالجته، بالتنقيب في المكتبات المحلية ثم الأجنبية، هي من صميم البحث العلمي ولا يمكن عَدُّها من الصعوبات بقدر ماهي تشويق ومتعة للباحث، لكن الصعوبات الحقيقية تكمن في القدرة على نسْجِ المادة الخبرية العلمية المتناثرة، بين مصادر على اختلاف ألوانها التاريخية من كتب في التاريخ العام والفتوحات وكتب الجغرافيين والرحلات الإسلامية والأجنبية وحتى في تقارير السَّفارات التنصيرية في آسيا وغيرها وصياغتها في أسلوب سلس و بسيط والوصول بها الى المتلقي.

و لا يسعني إلاَّ أن أتقدم بوافر الاحترام والتقدير والشكر، لأستاذي المشرف الدكتور عبد العزيز بوكنة، الذي أفادني بتوجيهاته العلمية، وتصويباته وملاحظاته السديدة، دون أن أنسى ذكر أستاذنا الدكتور الشيخ موسى لقبال رحمه الله الذي كان يدفعنا الى خوض غمار المواضيع الحيوية والغامضة والبعيدة جغرافيا واللصيقة بنا حضاريا. كما يجدر بي التوجه بجزيل الشكر والتقدير الى كل من ساهم وساعد في اخراج هذا العمل من مكتبيين في

مكتباتنا الوطنية والجامعية المركزية ، وفي مراكز البحث التركية في إسطنبول؛ مكتبة مركز الدراسات الإسلامية "إسام" ***ISAM*** و مكتبة "مركز البحوث التاريخ والفنون والثقافة الاسلامية إرسيكا" ***IRCICA***، والقائمين على المكتبة الصينية التابعة للمؤسسة الآسيوية ***La société Asiatique*** بباريس على دعمهم وتعاونهم . وإلى القائمين على إدارة قسم التاريخ على تفهمهم ومساندتهم خاصة وانني والزملاء، كُلٌّ كان في سباق مع الزمن، في سبيل إخراج البحوث الى النور في ظل هذه الظروف الصعبة. كما أتوجه بشكري وامتناني الى السادة الكرام أعضاء لجنة المناقشة والحكم، بتفضلهم قبول مناقشة هذا البحث .

وفي الأخير فإن كل عمل إنساني لابد أن يعتريه النقص، فآمل أن يُسَّد الخلَل ويُصَحَّح الخطأ من خلال ملاحظات أساتذتي الأفاضل أعضاء لجنة المناقشة، والله ولي التوفيق.

الفصل الأول

آسيا الوسطى الموقع الاستراتيجي والأهمية الاقتصادية

أولا: دراسة لجغرافية آسيا الوسطى.

1- الموقع والحدود.

2- مناخ وتضاريس آسيا الوسطى.

ثانيا: آسيا الوسطى في مدونات الرحالة والجغرافيين المسلمين.

1- التسمية.

2- حدود إقليم ما وراء النهر.

3- جغرافية ماوراء؛ النهر الأنهار والجبال.

ثالثا: آسيا الوسطى في استراتيجية الإمبراطورية الصينية

1- حملة تشانغ كيان Tchang K'ien 138ق.م.

2- حملات بان تشاو Pan-Tchao94 -100م.

3- الإدارة الصينية لآسيا الوسطى.

رابعا: الفتح الإسلامي لما وراء النّهر.

1- طلائع الفتوحات الأولى.

2- قتيبة بن مسلم الباهلي وتثبيت الفتح.

3-معركة طرَّاز والصِّدام الصيني- الإسلامي 134هـ/ 751م.

أولا: دراسة لجغرافية آسيا الوسطى

منذ سنوات عديدة، شغلت آسيا الوسطى "L'Asie Centrale" اهتمام الجغرافيين ورجال الاقتصاد، والمؤرخين لاسيما المسلمين منهم، وخصَّصُوا لها دراسات جادة، وذلك بالنظر إلى الأهمية التي تكتسيها المعارف الجغرافية للمنطقة، في فهم طبيعة تطورها التاريخي والسياسي، تبعًا لخصائصها ونشاطاتها الاقتصادية ومميزات ثرواتها الطبيعية وأهمية موقعها الجغرافي، ذلك لأن تكامل كل العناصر السابقة الذكر، جعل منها منطقة جذب اقتصادي بامتياز منذ القديم[1].

فمن المهم تحديد الإطار الجغرافي لإقليم آسيا الوسطى وحدودها بكل دقة، والتعرف على أشهر مقاطعاتها.

1- الموقع والحدود:

حسب الإطار الجغرافي، فإن أراضي آسيا الوسطى تتوزع بين قسمين:

الأول تركستان الغربي أو الروسي الذي كان تابعًا للاتحاد السفياتي سابقا- وهو منظم على هيئة خمس جمهوريات مستقلة، لم يُراع في تقسيمها الواقع البشري أو اللغوي وهي؛ جمهورية تركمنستان Turkmanistan، أوزبكستان Ouzbekistan، كيرغيزستان Kirghizistan، كازاخستان kazakhistan، طاجيكستان Tajikstan.[2]

1- Bensidoum Sylavain: "L'Asie centrale caracteristiques Physico-géographique d'après E.Mourzaev", in, Annales de géographie, année 1964, volume 37, n° 398, P.490.

2- Roux Jean Paul: L'Asie centrale histoire et civilisation, Fayard, Paris, 1997, P.21; voir aussi Ben sidoum Sylvain: op.cit, P.491.

أما القسم الثاني فهو تركستان الشرقي[1]، أو" الصيني" كما تسميه الصين،ذلك لانه يقع أكبر قسم منه تحت النفوذ الصيني، وهو يشملعلى أربعة أقاليم واسعة من آسيا الوسطى، يضم من ناحية الشمال الجزء الجنوبي لمنغولياMongolie extérieure، ومن ناحية الجنوب إقليمي التبت Le tibet وقانصو Gansu=Kansu، والصين كيانغ Xinjiang=sin-kiang من الناحية الشرقية، والحاصل أن أراضي آسيا الوسطى يقع قسم منها خاضعًا للصين والآخر استقل عن روسيا.[(2)]

فالمنطقة التي نحن في صدد دراستها –بوصفها آسيا الوسطى– عرفت من الناحية التاريخية تحت تسمية "تركستان" وفيها إشارة إلى العنصر التركي الغالب على سكانها، مع وجود عناصر بشرية أخرى وإن لم تكن بنفس الكثافة السكانية، فيعيش في تركستان الشرقي في منطقة الجبال الشمالية والغربية عنصر الكرغيزKyrghyz، وفي منطقة الغابات يتواجد أشقائهم الدولانDoulan، والبقية هم الفلاحون المستقرون، الذين يُعدون أعرق وأقدم السكان وأكثرهم من حيث الكثافة السكانية يغطون كل إقليم تركستان الشرقي 1.500.000 شخص ينتشرون في كل قراها ومدنها ما عدا قره شهر وضواحيهاKarachahr التي تسكنها قبائل جونغا المغولية Djounga[3].

---

[1]– الفرس هم من أطلق تسمية تركستان على كل المنطقة، ومن المهم الاشارة الى أنأهالي تركستان الشرقية " الاتراك الأيغور" لا يتداولون التسمية الصينية باعتبار ان الوجود الصيني احتلال لبلدهم، وإنما يستخدمون عبارة "موجولمان يورتي"«Mouçoulman Yourti» أي أرض المسلمين، أو حيث يقطنالمسلمون مُوجولْمَان خالِكْMouçoulman Khalk ، أو الذين يتحدثون بلغة الإسلام«Mouçoulmân Tili».

Grenard Fernand: Le turkestan chinois et ses habitants,dans la haute Asie, Pierre Palpante, 2011 ,P.11-12.

[2]– Roux Jean Paul:L’Asie centrale ,Histoire et civilisation, édition Fayard,Paris,1997, P.21.

[3]–Grenard Fernand: Le turkestan chinois P.11.

فيما يخص حدودها فتعتبر السواحل الشرقية لبحر قزوين هي الحدود الغربية لآسيا الوسطى، ومن الناحية الشمالية تعتبر سهول أمباL'emba وحوض نهر السيرداريا، أو ياكزاراتYaxartes وحدودهُ من حيث مصبه في بحر الأرال، إلى غاية الخط الذييفصل فروعه البعيدة مع فرع نهر تورانت Torrent الذي يصب في بحيرة بالخاشBalkhach، حيث تجتمع الأنهار التي تقطع اشبس الكرغيزي الكبير هي حدودهُ الشمالية[1].

من الناحية الشرقية يمكن اعتبار حدود تركستان الشرقية، التي تفصل الأراضي الصينية هي الواحات الشرقية لإقليم آسيا الوسطى، ويعرف اليوم بتركستان الصين، وأخيرًا من الناحية الجنوبية فتمتد حدودهُ جنوب سلسلة قراه قورمKarakorum لتُشكل جبال الهندوكوش حدودها الجنوبية الشرقية وإقليم خرسان حدودها الجنوبية الغربية.[2]

1- De RialleGirard: Mémoire sur l'Asie centrale son histoire, ses populations,2ème éditions, Ernest L'ernoux, Paris, 1875, P.1-2.

2- Ibid, P.2.

2- مناخ وتضاريس آسيا الوسطى:

أ- المناخ:

يتسم مناخ إقليم آسيا الوسطى باعتبار موقعهُ البعيد عن البحار المفتوحة، وارتفاع أراضيه بالنسبة لمستوى سطح البحر، بخصائص المناخ القاري القاسي فهو جاف وراكد، ذو موسمين طويلين: حار وبارد يمتد الفصل الأول من شهر ماي إلى سبتمبر، تتراوح درجة الحرارة ما بين 70° إلى 80° درجة، ويمتد الفصل البارد من شهر أكتوبر إلى أفريل وتميزهُ الرياح القادمة من القطب الشمالي والعواصف الثلجية الباردة[1].

ففي منطقة أورغاOurga في منغوليا تتجاوز درجة الحرارة 38° في فصل الصيف، وتنخفظ إلى أقل من −42° في فصل الشتاء، هذا باستثناء مناخ هضبة التبت وجبال تيان شان t'ien chan وجبال الألتاي Altai حيث ساهم عُلُّوها على حيازتهاغطاء نباتي خاص من غابات وأصناف نباتية مُميزة ونادرة.[2]

وتبعًا لهذا التباين الواضح؛ تميزت طبيعة آسيا الوسطى بالتنوع الكبير، فإذا وضعنا خطًا عموديا بمحاذاة خط طول 67°، وقسمنا آسيا الوسطى إلى قسمين الشرقي والغربي نلاحظ أن لكل قسم مميزاته الخاصة التي تجعلهُ مختلفًا تمامًا عن الآخر؛ فمن ناحية الشرقية توجد منطقة الاستبس، ذات الرمال والصحاري والمياه المالحة، تشقها المجاري الجنوبية للنهرين الكبيرين سيرداياSyrdaria والأموداريا Amudaria التي بفضلهما تكونت

1- Bensidoum Sylvain: opcit, P.492.

2- Grousset.René: L'empire des steppes, Attila, Gengis khan, Temerlan, 4ème éditions, Payot, Paris, 1985, p.17.

على شواطئها واحات ذات خصوبة كبيرة، كما يعبرها نهر "مرو" ونهر زرافشان اللذان يرويان بمياههما مدينتي سمرقند وبخارى.[1]

أما على اليمين فهي بلاد السلاسل الجبلية والهضاب الواسعة والبحيرات والمجاري المائية السريعة والحقول الجليدية في قمم الجبال وسهول وافرة الظلال بها مدن محاطة بحدائق ومزارع فلا يوجد أدنى تشابه بين هذين القسمين الطبيعيين لآسيا الوسطى.[2]

ب- الأنهار:

تحتوي المنطقة على أنهار كثيرة، نشأت على ضفافها حضارات عريقة فكانت قنوات للتواصل البشري ثقافيًا واقتصاديًا ويقع قسم كبير من هذا الإقليم إما تابعًا لنهر الجاكزراتJaxarates أو لنهر الكسوسOxus اللذان يصبّان في بحر الأرال L'Aral الداخلي. فنهر ياكزاراتJaxartes=Iaxartes هو التسمية القديمة لنهر سيردايا Syrdaria، المعروف بنهر سيحون في المصادر العربية، ينبع من حقول الجليد الواقعة في أعالي جبال تيان شانTienchan أو الجبال السماوية، ويعبر الجمهوريات الثلاثة؛ أوزبكستان، طاجيكستان وكزاخستان.

تكوَّن السيرداريا عند إلتقاء نهر نارين Naryn وكاراداريا Qaradarya في شرق وادي فرغانة، ويجري من الشرق باتجاه الشمال الغربي حتى يصب في بحر الآرال L'Aral بطول

1- De Rialle.G: opcit, P.3.

2- Ibid.

يقدر بـ 1375 ميل (2212 كم)، وهذا مع حساب طول نهر نارين حيث يعتبر سيرداريا أطول الأنهار الموجودة في آسيا الوسطى[1] وهناك من قدَّر أن طوله يبلغ 3000 كم[2].

ويعتبر نهر نارين Narynالبالغ طولهُ 807 كم أطول أنهار كرغيرستان، ينبع تحديدًا من قمم إسيك كول Issyk-Kulفي جبال تيان شان، ويجري نحو الغرب ويساعدهُ السَّد الإصطناعي طوكتوغول Tok Togul في تنظيم سَيْرِه نحو أوزبكستان، وهو نفس مسار نهر جومغالDjumgal، الذي تكون في نفس الظروف تقريبًا، وكغير من أنهار المنطقة ينبع من الشرق متجهًا نحو الغرب،فاصلاً بين سهول حوض بحيرة بالخاش Balkhachعن الاستبس الكرغيزي، وينحرف في مدينة خوجندKhodjend، ليأخذ منحى الجنوب الشرقي باتجاه الشمال الغربي عبر السهول الإستبسية المحيطة بالجبال وهناك يستعيد مسارهُ نحو الغرب ليصب في بحر الآرال[3].

أما ثاني أكبر الأنهار في آسيا الوسطى فهو نهر الأمودارياL'Amoudaria المعروف في المصادر اليونانية والرومانية القديمة بالأُكسوسL'Oxus، وعرف لدى الجغرافيين المسلمين بتسميتين "جيحون" و"نهر بلخ"، يجري من الشرق نحو الغرب، وينبع من الحقول الجليدية المتجمدة في أعالي جبال البامير؛ Pamir، الواقعة جنوب شرق جبال تيان شان، وبعد أن ينحدر من المرتفعات إلى الهضاب تلتحق به جميع النهار المنحدرة من جبال الهندكوش Hindoukouch وجبال واخان Wakhan، وبادخشان Badakhchan

1- Bensidoum.S: op.cit, P.492

2- Roux Jean Paul: op.cit, P.22.

3- Bensidoun.S: op.cit, P.492; Girard de Rialle: op.cit, P.3-4.

ومن سلسلة جبال قارة داغ Karadag ويأخذ نهر الموداريا طريقهُ عبر الاستبس ليصب هو الآخر في بحر الآرال[1] بطول يبلغ 2540 كم[2].

كما تنحدر من جبال ألتاي –الواقعة شمالاً في إقليم منغوليا– أنهار تتجهُ نحو الشمال الغربي، أشهرها نهر الإينسي L'Ienissei وأنهار أخرى تضيع في المستنقعات كنهر إيلي L'Ili ونهر تشوTchouيصبان في بحيرة إسيكول Issiq-Koul، ونهر طلاسTalas، ونهر الإرتيش L'Irtych، إلى جانب نهر التاريم Tarim ينتهيان في صحراء تكلاماكان Taklamakan، وكل هذه النهار تقع إلى الشرق من نهر سيرداريا[3]

جـ- الجبال:

تُبيِّن تضاريس آسيا الوسطى والعليا، أن المنطقة تعرضت إلى تحرك جيولوجي عنيف جدًا لطبقات الأرض، أدى إلى بروز سلاسل جبلية وهما سلسلتين جبليتين عظيمتين؛ أولها سلسلة تيان شانT'ien chan والألتاي L'Altaï لترسمعلى حافتها حوض الصغد وهضاب سيبيريا في أونغاراL'Angara مُشكلةً قوسًا يحيط بإقليم آسيا الوسطى من الناحية الجنوبية الشرقية إلى الشمال الغربي. ثاني هاتين السلسلتين تقع جنوبًا مُشكلة قوسًا أخر مقابلاً لسلسلة الأولى، وهي سلسلة جبال الهيمالاياL'Himalaya. [4]

1- Girard de Rialle: op.cit, P.4.

2- Roux Jean Paul: op.cit, P.22.

3- Ibid.

4- Grousset Réné: L'empire des steppes, P.17.

تعتبر جبال "الألتاي Altai" الموطن الأصلي للقبائل البدوية التركية كالكرغيز والكيماك وغيرهم، وتربط بين كل من كزخستان، وروسيا، ومنغوليا، والصين، وتصل أعلى قممها بيلوخا Belukha إلى 4500 م.

أما جبال تيان شان Tian-chan/ T'ien chan هي الصيغة الصينية لتسميتها التركية تانغري داغ Tengri Dagh أيضا" بتانجير-تو Tanger.Tu"، و معناها جبال الرَّب أو الجبال السماوية باللغة التركية الكيرغيزية، فهي تغطي مساحة 6500 كم^2 أو أكثر، وبها منابع أكبر الأنهار في العالم، والمنطقة فحقولها الجليدية كثيرة تصل إلى 3000 حقل جليدي.[1]

ويلاحظ المُتمعن في جغرافية آسيا الوسطى أن مرتفعات جبال البامير، التي تَبلغ أعلى قمة فيها 7000 م، هي المركز الرابط بين مرتفعات هذا الإقليم، حيث يرتبط شرقا بسلسلة الهيمالايا والهندوكوش، الممتدة نحو الغرب عن طريق الكوهي بابا Kohi-baba، وجبال السفيد-كوه Sefid-koh، وتمتد إلى ان تتصل بالجبال الشمالية الغربية لخرسان، وهذه الأخيرة متصلة بجبال ألبورز Elbourz في القوقاز حيث تتواجد أيضا جبال أرمينية وزاغروس Zagros زاغروس (غرب ايران وشرق العراق) وطوروسTaurusالتركية .

وفي الشمال تتصل جبال البامير بسلسلة جبال أسفرهتاغ Asferah- tagوبالهضاب عن طريق مرتفعات قارة تاغ Kara tag، بينما من الناحية الشرقية فتتصل البامير بالجبال

1- Bensidoum Sylvain: op.cit, P.492-493; Cahun Léon: introduction à l'histoire de l'Asie, Turcs et Mongols des origines a 1405, Armond colin, Paris 1896, P.4.

السماوية لتختفي بالتدرج في الاستبس الغربي حيث التركستان الروسي الذي يتوسطهُ سهل منخفض حوالي 50 متر تحت مستوى سطح البحر.[1]

تشرف كل من جبال ألتاي والتيان شان والبامير والهندوكوش على هضاب كهضبة منغوليا والدزونغاري Dzoungarie، وحوض التاريمTarim، وممراتها الضيقة والمرتفعة تصل أحيانًا إلى 3000 متر.[2]

وتتخلل هذه الجبال وبالقرب من سفوحها سهول أشهرها سهول فرغانة الخصبة التي تغطي شرق أوزبكستان وجنوب كيرغيزستان وشمال طاجيكستان وتمتد على مساحة تقدر بحوالي 22.000 كم^2.[3]

---

[1] - Bensidoum: op.cit, P.493; De Riall Gerard: op.cit, P.5.

[2] - Roux Jean Paul: op.cit, P.22.

[3] - Bensidoun.Sylvain: op.cit, P.492-493.

د- الصحاري في آسيا الوسطى:

ما يُميز آسيا الوسطى بُعدها عن البحار المفتوحة، فهي تقع ضمن الكتلة القارية الأورو آسيوية Euro-Asiatique، يحدها من ناحية الشمال الغابات الروسية والمُغُولية التي تتلاشى في إتجاه الجنوب لتحل محلها صحَاري جافة،ويمكن حصرها في نطاقين: القسم الغربي حيث صحراء كيزيلكوم Kizilkum أي الرمال الحمراء جنوب بحيرة الآرال، وصحراء قَره كورام Qaraquouram أي الصحراء ذات الرمال السوداء الواقعة جنوب نهر أموداريا، وصحراء أَقْ كوم AQ-Kum أي الرمال البيضاء، الواقعة شرق نهر سيرداريا والمتصلة بصحراء كيزيلكوم أما في القسم الشرقي تمتد في حوض التاريم Tarim المغلق صحراء تكلا ماكان المتصلة بصحراء قوبي Gobiالممتدة على نطاق واسع من الجنوب الغربي إلى الشمال الشرقي، ويلتقيان في لوب نور Lob.Norإلى خنغان Khingan في حدود منشوريا.(1)

تشكل هذه الصحاري تهديدًا مستمرًا للسهول الإستبسية، ومراعي آسيا الوسطى فهي في نشاط لتصحير المنطقة كخلايا سرطانية خطيرة سريعة الانتشار، ويرى المؤرخ غروسيه أن وقوع هذه الصحاري جنوب الإستبس المُغولي الشمالي، حيث غابات بايقالBaïkal وسهول أورخون Orkhan وكيرولن Kéroulen والاستبس المُغولي الأوسط حيث مراعي؛ آلاشان L'Ala-chan والأوردو L'ordos وتشخار Tchakhar وجيحول Jéhol، هو الذي منع كثير من الممالك والإمبراطوريات المحلية التركمُغولية من البقاء والاستمرار، ابتداء من مملكة

-[1] Roux Jean Paul: op.cit, P.21.،أنظر الملحق رقم:4 ورقم 2

الهيونغ نو Hiong- Nou قديما، إلى مملكة توكيو T'ou-kiue Tu-kiue في بداية العصر الوسيط، التي وقعت تحت سيطرة الخيم المُغُولية الشمالية[1].

كما كان لزحف هذه الرمال على حوض التاريم– الواقع تحت هيمنة الصين– وأراضيه الرّعوية، أن كان السبب في فُرِضَ النمط الاقتصادي التجاري، بدل المراعي الخضراء، فتكون الطريق التجاري المُزدوج المُقوس شمالاً وجنوبًا بمحطاتهِ، ففي الشمال: توانغ هوانغ Touang-Huang، هامي (Hami)، طورفان Tourfa ، قاره شهر Karachahr، كوتشا Koutcha، كشغرد Kachgar، فرغانة Ferghana.

أما المحطات الجنوبية في توانغ هوانغ، خوتان (Khotan)، ياركندا (Yarkand) ووديان البامير وإقليم بلخ، هي القلب النابض لما عُرِفَ اصطلاحًا بطريق الحرير أو طريق الحج، فتبوأت وَاحات التاريم مكانة محورية في العلاقات التجارية، حيث أصبحت حلقة وصل بين الغرب بإمبراطورياته وممالكه من فرس وروم وغيرهم مع ممالك الشرق الأقصى وإمبراطورياتها وفي مقدمتهم الصين، وذلك بالرغم من هشاشة هذا الطريق وصعوبتهِ لما يحيط به من الصحاري والجبال الشاهقة المحفوفة بالمخاطر، واستطاع أن يحافظ في فترات تاريخية على الحد الأدنى من التواصل بين مجتمع النمل الصيني وباقي مجتمعات الهندوأوروبية وكان طريقا للتبادل التجاري والثقافي (الديني) في آن واحد[2].

1– Grousset René: L'empire, des steppes, P.18.

2– Grousset René: L'Empire, des steppes, P.18-19، أنظر الملحق الخريطة رقم:4.

ثانيًا: آسيا الوسطى في كتابات الرّحالة والجغرافيين المسلمين:

1- التسمية:

إن المنطقة المعروفة حاليا لدى الجغرافيين المعاصرين بآسيا الوسطى "Asie central"بحدودها الواسعة -كما مرَّ بنا-هي تقريبا ذاتها المنطقة، التي كانت محط اهتمام الجغرافيين والمؤرخين المسلمين، بوصفها منطقة الثغور الشرقية لدار الإسلام وفيها مراكز التجارة الحيوية. وأطلقوا عليها تسميات ذات دلالات مختلفة منها ما هو جغرافي أو عرقي أو اقتصادي أو ذو دلالة تاريخية. فهو غالبًا إقليم أو بلاد ما وراء النهر ويقصد به نهر بلخ/ جيحون، الذي كان يعرف قديمًا لدى الإغريق بالإكسوس L'Oxusومنه اشتَقت تسمية ترانسو كزيانTransoxiane ما وراء النهر المعروف حاليا بأموداريا، وقد اعتبر في عهد الإمبراطورية الفارسية الحد الفاصل بين النَّاطقين بالفارسية والنَّاطقين باللغة التركية أي الحد بين بلاد إيران وبلاد طوران، فكل المناطق إبتداءًا من الضفة اليمنى الشرقية لهذا النهر بمدنها وبراريها عرفت عند المسلمين بما وراء النهر.[1]

فقد كتب أقدم الجغرافيين المسلمين كاليعقوبي (ت 284هـ/897م) أن بلاد ما وراء النهر ذات غالبية تركية فممالكهم تُحيط بخرسان[2]، وبالنظر إلى أهميتها الإقتصادية والتجارية خاصةً، وصفها ابن خرداذبة (205-300هـ) "**بِبُلدان التجارة الواقعة فيما وراء نهر جيحون وهو نهر بلخ".[3]** ومما أشار إليه ياقوت الحموي أن تسمية النهر ونسبه

1- Le strange Guy: the land of eastern caliphate, in (I.G) Vol 85, P.433.

2- اليعقوبي: كتاب البلدان، في (ج.إ)، مج 40، ص.295.

3- ابن خرداذبة: المسالك والممالك، (ج.إ)، مج.39، ص. 179؛ إبن الفقيه: مختصر كتاب البلدان، مج 28، ص.116.

إلى مدينة بلخ ما هو إلاّ مجازًا ذلك لأنهُ لا يمُّر بمدينة بلخ نفسها وإنما بأعمالها وقريب منها.[1] فهي على بعد إثنى عشر فرسخ من نهر جيحون (بلخ).[2]وقد اعتبر الجغرافيون الأوائل أن ما وراء النهر تقع ضمن "إقليم المشرق" الذي كان تابعًا لخرسان بادئ الأمر، أي منذ الفتح الإسلامي لها.[3] كما عُرف إقليم ما وراء النهر في المصادر الإسلامية ببلاد هَيْطَل أو بلاد الهياطلة[4] وذَكر الجغرافيون المسلمون أن أصل التسمية تعود إلى أحد أبناء عالم بنسام بن نوح وهو هيطل شقيق خرسان حيث استوطن الأول المنطقة الواقعة إلى الشرق من

---

[1]- ياقوت الحموي: كتاب معجم البلدان، في (ج.إ)، مج. 212، ص.172.

[2]- ابن الفقيه: المصدر السابق، في (ج.إ)، مج.28، ص.324.

[3]- ابن خرداذبة: المسالك والممالك، ص.18؛ المقدسي: أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، في (ج.إ)، مج.36، ص. ص.240.

[4]- **هياطلة** صيغة الجمع لمفرد هيطل وهي تعريب للتسمية الإغريقية البيزنطية هيفتاليتس Eph–ta–li–tae Ephthalites/Hephthalites/، أو الهون البيض White Huns، يُعرفون في المصادر الصينية بـ "يي-ثَا-إ-لي-تو= yé–tha–i–Li–To" حيث تشير نصوص والسجلات الصينية أن موطنهم الأصلي هو البلاد الواقعة شمال السور الكبير للصين أي منغوليا، وبين 452-465 م في عهد أسرة "وَيْ" la Dynastie des Wei إنتقلوا إلى غرب خوتان Khotan واتخذوا من مدينة "باذغيس" Badeghis عاصمة لهم، فموطنهم الأصلي هو الاستبس المغولي في حدود القرن الرابع والخامس الميلادي نزحوا واستقروا على طول نهر الاكسوس وأسسوا مملكة قوية هناك، ثم ظهروا في خرسان حوالي خمسة عشرة عامًا قبل أن يظهروا في أوروبا، كما عُرفوا حينها بالشيونيتيون "The Chionites" وأصل التسمية فارسي وهو كزيون Xiyon ويقصد بها الهون، وكانوا أعداء الفرس في البداية حيث شنوا هجمات على حدودهم الشرقية في 350هـ إلاّ أن الملك شابور IIتصدى لهم، ثم انظموا إليه وتحالفوا معهُ في حملته على الروم في أراضي الجزيرة Mezopotamie، ويرى كورفن ماك Mc.Corven أنهم نزحوا نحو طوخارستان جنوبًا، ويرى منورسكي أن قبائل كثيرة في أفغانستان كقبيلة غيلزاي خالجي Ghilzai–khaldji الناطقين بلغة الباشتو Pashtou، أو قبائل الخلاج Khaladj في إيران الناطقين باللغة التركية هم هياطلة، وبقيت مملكة الهياطلة تابعة للفرس الساسانيين وداعمة لهم إلى عام 557 م حين تحالف الملك االفارسي خوسروا أنوشيراوان Khusraw Anüshirwan مع خان الترك للقضاء عليهم وبعد معركة طاحنة شُتتوا وقسمت مملكتهم بين الأتراك والإمبراطورية الفارسية الساسانية، ولم يبق لهم إلاّ مملكة صغيرة في هراة وغيرها حيث تصدوا للمسلمين الفاتحين، وذكر ياقوت أن بادغيس Badghis هي دار مملكة الهياطلة حيث كان ينطلق منها ملكهم طارخان ينزاك في حروبه ضدَّ الولاة المسلمين أمثال قتيبة بن مسلم، بينما كان مركز حكمهم قبل هذا في مدينة كوندوز Gunduz، للمزيد يراجع: SPECHT.M.Edouard: «Etudes sur l'Asie centrale, D'après les historiens chinois», in **Journal Asiatique**, Octobre–Décembre, 1883, PP.339–340.

Bivar A.D.H: "Hayatila", in Encylopedia of Islam, new édition E.J.Brill, Leiden 1986, vol 3, P. 303–304.

نهر جيحون (بلخ) وسميت ببلاد هيطل نسبة لهُ والثاني استوطن غرب النهر فنسبت إليه وعرفت ببلاد خرسان، واختلف أهل الجانبين في الرسوم واللسان والخلق".[1]

وفي نفس السياق يورد الجغرافيون المسلمون رواية خروج أبناء عالم بن سام بن نوح وهما خرسان وهيطل من العراق حين "تبلبلت الألسنفي يوم واحد فنزلوا بلادهم التي تسمى بهم فأما هيطل فولدهُ من وراء بلخ." وأضاف ياقوت أن المسلمون هم من أطلق تسمية "ما وراء النهر" على البلاد التي كانت تعرف ببلاد الهياطلة.[2]

وفي محاولة للتعريف بهم وبأصولهم ذكر البلاذري أنه يشاع بأنهم أتراك وكما يقال أنهم قوم من أهل فارس.[3]

والحاصل أن أن المصادر الإسلامية من جغرافيين ومؤرخين عمَّموا تسمية بلاد الهياطلة على كل المنطقة إبتداءا من النهر جيحون وساكنيها دون تدقيق، وفي نفس الوقت استخدموا تسميات أخرى "**تركستان**" أو "**باب تركستان ومقصد التجار**" أو "بلاد الترك"[4] في إشارة إلى غلبة العنصر التركي عليها رغم وجود عناصر بشرية أخرى كالصغد والفرس

1- شمس الدين أبي عبد الله محمد بن أحمد المقدسي: أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، في (ج.إ)، مج.36، ص.291؛ ياقوت الحموي: المصدر السابق، في (ج.إ)، مج.212، ص.402.

2- ابن الفقيه الهمذاني: المصدر السابق، في (ج.إ)، مج.28، ص.314؛ ياقوت الحموي، المصدر السابق، في (ج.إ) مج.217، ص.999؛ مج. 216، ص.400.

3- البلاذري: "فتوح البلدان" ص.403.

4- Anonymouse (the): Hudud Alalam, the region of the word a Persian Geographer 372 ah–982 ad, Translated by: v. Minorsky, In (I.G), Vol. 101, P.112. وانظر أيضا: شرف الزمان طاهر المروزي: فصول حول الصين والترك والهند، في (ج.إ)، إصدار فؤاد سزكين منشورات معهد تاريخ العلوم العربية والإسلامية، جامعة فرانكفورت، 1993، مج.125، ص. 17-23؛ اليعقوبي: المصدر السابق، في (ج.إ)، مج.40، ص.295.

والتبتيين وغيرهم بنسب مختلفة. وانفرد تقريبًا– ياقوت الحموي بإيرادهِ تسمية "**بلاد توران**" [1] على إقليم ما وراء النهر وحتى هذه التسمية مرتبطة بالعنصر التركي، وتدل على سيادة هؤلاء ونفوذهم فيها وذكر ابن خرداذبة أن من أشهر الملوك الأتراك الذين كانوا تابعين لسلطة الفرس في عهد من العهود القديمة، هو توران شاه أو "ملك الترك"[2] وعليه عرفت البلاد ببلاد توران كما فصَّل ياقوت في ذلك حيثكتب "تُورَانْ بضم التاء وسكون الواو وراء وألف ونون يقال لمجموع بلاد ما وراء النهر أو هي بلاد الهياطلة، ويقال لمكلها توران

---

[1]–**توران** كلمة إيرانية يقصد بها الترك كما تطلق على البلاد الواقعة في الشمال الشرقي من إيران، حسب المصادر الفارسية فإن الشعب المعروف بـ"توره" أو "تره" هو شعب بدوي ووصفبـ"آسو أسيه" ومعناها أصحاب الجياد" الذين كانواعلى عداءمع الشعب الإيراني، ويرى المؤرخ بلوشيه Blochet في مقال "Le nom des turks dans L'Avesta" أن لفظ "توره" هو عينهُ لفظ الترك فهذا الأخير قد إشتق منهُ وكان متداولاً قبل القرن السادس الميلادي بعهد طويل، وكما عرفت في الفارسية تقريبا بنفس المعنى أي الشجاع أو الباسل، وتذكر الأسطورة الفارسية القديمة أن العالم قُسِّم بين أبناء أفريدون– هرقل الإيرانيين ـ والذي يتبين من قصته أنه نوح – حيث قسَّم الأرض بين أبناءه الثلاثة "فعين "سلم" وهو أكبر أبناءه على أرض الروم وبلاد المغرب وماتاخمها، و"تور" (توران) بلاد الصين والترك وسائر ما ينضاف إليها من تلك الولايات وأعطى "إيرج" ممالك العراق مع أرض بابل إلى آخر بلاد الهند"؛ وفي شرحهِ للمصطلح ذكر المستشرق جيرارد دي ريال Gerard de Riall"، أن تسمية تورانيين ليست دقيقية علميًا للدلالة على العنصر التركي وإنما التسمية الأدق هي العنصر الأورالو ألطائيين Les Ouralo–Altaïques لأنهُ يعكس بوضوح الموطن الأصلي لكل الشعوب التورانية وهي المنطقة التي تشمل السلسلتين الجبليتين التي احتضنت منشأهم وتطورهم وكلها تنتمي إلى لسان إثني واحد وتنقسم إلى خمس فُروع؛ 1– فرع التونغوس Tangouse مستقرهُ آسيا الشمالية الشرقية وإليها ينتمي الماندشو Mandchou الذين حكموا الصين، 2– فرع ساموياد Samoyèd في شمال سبيريا، 3– فرع الفينوزيين Finnoise غرب الأورال وشمال روسيا وشمل كل الناطقين بالفينوازية من مجغارية Magyar والإستهونية L'Histhonien، 4– الفرع المُغولي المتمركز في الوسط ويشمل المُغول الكالموك Kalmoukوالبورياط Bouriate، 5– فرع الترك والتتار وهو مرتبط بباقي الفروع ويُكوّن هو الآخر ثلاث فروع: أ– الأيغور Ouïghour، أوزبكOuzbec، جغطاي، ب– فرع التتار الذي يضم اللسان الكيرْغيزي، الباشكرز، كارالبك...، جـ– فرع الأتراك الأصليين ويشمل كل اللهجات التركية لأتراك فارس والعثمانيين. للمزيد يُرَاجَعْ: مينورسكي.فلاديمير: مادة "توران" في دائرة المعارف افسلامية، نقلها إلى العربية محمد ثابت أفندي وآخرون، القاهرة 1933، مج.5، ص.543–549؛ أبو القاسم الفردوسي: الشاهنامه، تر: الفتح بن علي البنداري، تصحيح وتعليق عبد الوهاب غرام، ط2، دار سعادة الصباح، القاهرة، 1413هـ–1993 م، ج1، ص.39، 41–43؛ De Riall Gérard: Mémoire, P.79–80

[2]– ياقوت الحموي: معجم البلدان، في (ج.إ)، مج 211، ص.892؛ أبو الفدا: تقويم البلدان، في (ج.إ) مج. 13، ص.471؛ ابن خرداذبة: المصدر السابق، (ج.إ)، مج.39، ص.17.

شاه"[1]والملاحظ أن الصبغة الإثنية طغت عمومًا على أغلب المسميات التي تداولتها المصادر الإسلامية منذُ القرن الثالث إلى السادس الهجري، فقد اعتبر اليعقوبي وابن خرداذبة أن القبائل المنتشرة في ما وراء النهر الناطقة باللغة التركية، كثيرة ومتعددة ولذلك عرفت "ببلاد التُّرك"[2]

1- ياقوت الحموي: كتاب المشترك وصفًا والمفترق صقعًا، في (ج.إ)، مج.209، ص.85.

2- **التُّرْكْ: تُرْكْ Türk/ توروكTürük** أطلقت هذه التسمية بادئ الأمر على قبيلة تركيةمن قبائل الطوقوز أوغوز، وهي تعني القوة أوالأقوياء؛ كما عُرِفُوا بالحدَّادين وهي حرفتهم منذ أن كانوا في جبال الألطاي Altaï ويرجع ظهور العنصر التركيإلى فترات قديمة جدًا غير أنه لا وجود لأي مؤشر لهذهِ التسمية في المصادر التاريخية قبل القرن السادس الميلادي، حيث كانوا يعرفون قبل هذا التاريخ لدى الصينيين ضمن "الهيونغ-نو""Hioung-Nou" وهم القبائل البدوية "البربرية" المجاورة للصين، وتشمل الأتراك والماندشو والهون وغيرهم المقيمين شمال نهر الأصفر، حتى أن الإمبراطوريةالصينية أنشأت عام 214 ق.م، صور الصين العظيم لصد هجمات هؤلاء البربر، وتعود أقدم إشارة إليهم الى القرن 5 الميلادي في المصادر الصينية تحت مسمى تو-كيو**Tou-Kiou وفي** المصادر البيزنطية الى القرن 6 م وعُرِفوا بتوبكزوي Toup xoi وبرزواحين قضوا على مملكتين كبيرتين في منطقة آسيا الوسطى، **أولها** إمبراطورية جوان جوان "Jouan-Jouan" (407-552 م) البدوية للمغول القدامى (الأقار Avares) التي امتدتمن حدود الصين الى منغوليا، حوالي 540 م حيث كانوا أتباعهم وكانوا يقطنون شمالاً بجبال الأطاي Altaï، وبعد نشوب خلاف تمردّ الأتراك وقضوا على مملكة جوان جوان، وأصبح زعيمهم بومين Buminخاقان في 552 م، ولكن سرعان ما توفي وخلفهُ إبنهُ موغان Mogan ولقب بخاقان الأتراك الشرقيين (553-572 م)، في نفس المرحلة قام إيستامي Istami (555-575 م) أصغر أبناء "بومين"، بمصاهرة ملك الفرس "خَسِرُوا أنوشروان" الذي إستعان بهم للقضاء على مملكة الهياطلة وضم كل ممتلكاتهم (553-567)، وحمل إيستامي لقب يابغو- Yabguواصبح زعيما على الأتراك الغربيين وشملت مملكته كل بلاد الصغد، وأصبح نهر بلخ هو الحد الفاصل بين الإمبراطورية الفارسية والأتراك الغربيين. فانقسم الأتراك إلى فرعين: التراك الشرقيين في منغوليا وشمال الصين وعرفوا بفرع أورخون ولقب زعيمهم بخاقان منغولياKaghan، والأتراك الغربيين أو أتراك القبائل العشرة. وتراجعت مملكة الترك حوالي 630 م، حينها هيمنت الصين على الأتراك الشرقيين ثم الغربيين، وبالرغم من ذلك بقيت المنطقة تحت إدارة الأتراك الكارلوك طيلة القرن 8 م وكانت مدينة بالاساغون Balāsāghun على نهر تشو Tchou عاصمةً لهم. للمزيد يُرَاجع: Ghity Nashat: "Turks" in: **Encycl Paedia of the world Muslims**, Tribes, castes and communities, Vol.4, Publishing House, Delhi, India, P.1458, 1460, **Barthold.w :**Histoire des Turcs et Mongols des =turcs, PP.24-25; Léon Cahun: Introduction à L'Histoire de l'Asie origine à 1405, Armond colin, Paris, 1896, P.43, 108-109. Yule, Henri: Cathayand the wey thisher Priliminary Essay, Vol.1, London, MDCCCCXV, PP.58-60.

أو تركستان[1] وفي هذا السياق ذكر بارثولد أن أمام الجدل الكبير بين المؤرخين حول تسمية "الترك" ودلالاتها، وحدَهُم الجغرافيين المسلمين الذين أعطوا المفهوم الدقيق للمصطلح وذلك بالاعتماد على اللغة المعروفة به إلى اليوم، بمعنى أنهم اعتبروا "تُركا" كل الممالك والقبائل الناطقة باللغة التركية فيما وراء النهر وعلى رأسها القبائل التي كانت على علاقة بالعالم الإسلامي منذالأول الهجري/ القرن السابع، في حين لم يكن الغرب كالروس والأوروبيين الغربيين يُميِّزون بين أصول القبائل التركية التي كانوا يَعرفونها، لاسيما في المراحل التاريخية الأولى، فلم يعتبروا البشناق Petchénaque أو البولوفتسي Polovtsy، والقُومان (Comans)، أتراكًا، ولم تُعرف لديهم تسمية الترك إلاّ في فترات متأخرة وارتبطت عندهم بالسلاجقة الأتراك ثم للدلالة على العثمانيين.[2]

أسهب الرحالة و الجغرافيون المسلمون الأوائل منهم والمتأخرون في وصف الأتراك وتعداد قبائلهم، ومهاراتهم الحرفية وصفاتهم الخَلْقية والخُلقية، فكثيرٌ ما يوصفون بأنهم أمة عظيمة كثيرة الأجناس، والممالك،و قبائل موزعين بمحاذات وداخل إقليم ما وراء النهر، منهم ساكنوا البلاد والقرى، ومنهم ساكنوا البراري والصحاري وأكثرهم أهل خيام، يُحارب بعضهم بعضًا ومنازلهم القباب (الخيم) التركية المضلعة، ومساميرها سُورُ– كما وصفها اليعقوبي– من جلود الدواب ، والبقر وأغشيتها اللبود[3] ، و من شعر باقي

---

[1]– اليعقوبي: المصدر السابق في (ج.إ)، م,40، ص.295؛ ابن خرداذبة في(ج.إ)، مج.39، ص.31؛ القزويني: آثار البلاد، في (ج.إ)، مج.198، ص.345؛ أبو سعيد عبد الحي بن الضحاك بن محمود الجَرْدِيري (ت 443هـ): زين الأخبار، ترجمة: عفاف السيد، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، 2006، ص.370.

[2]– Barthold.w: op.cit, P.25-26.

[3]– **لُبُود** من تَلَبَدَ الشَعر أو الصوف أو الوبر، والْتَبَدَ تَدَاخَلَ ولَزِقَ، وكل شعر أو صوف مُلْتَبِد بعضهُ على بعض فهو لِبْدٌ ولِبْدَة ولُبْدهُ، والجمع أَلْبَادْ ولُبُود، ولَبِدَ الصوف يَلْبَدُ لَبْدًا ولَبَدَهُ: نَفَشَهُ بماءٍ ثم خاطه. أنظر: ابن منظور مادة "لَبَدَ"، لسان العرب، ص.386 ، مج.3.

الدواب [1]، "يستقرون في فصل الصيف وفي الشتاء على طول أراضي المراعي، وثروتهم الحقيقية الجياد والبقر والغنم، والسلاح وآلات الحرب، و**أكثرهم تجار** ولديهم من الأخلاق" نشاطهم الأول في ترويض الخيل والفروسية وتسلق الحبال و الصيد، يتميزون بالشجاعة والجسارة في الحرب، منهم من أسلم وحَسُن إسلامهم وأصبحوا يحاربون من لم يُسلِم من القبائل التركية.[2] وتأتي قبيلة "الغُّزْ" في صدارة القبائل التركية، التي اشتهرت بالقوة والبأس و ذكر المروزي أنها نحو إثني عشرة قبيلة يسمى بعضها التغزغز[3]

---

[1]-اليعقوبي:المصدر السابق، ص.295، المروزي بشرف الزمان طاهر: فصول حول الصين الترك والهند، في (ج.إ)، منشورات معهد تاريخ العلوم العربية والإسلامية، جامعة فرانكفورت، 1993، مج.125، ص.17، 23.

[2]- القزويني: آثار البلاد، ص.346؛ Anonymous: op.cit, P.100-101

[3]- **تُغُزْغُزْ أو "الغُز" Oghuz** في المصادر الإسلامية، هم الطوغوز أوغوز Toguz-Oghuz أي قبائل الأوغوزْ التسعة وهي تسمية تركية، تعرف بها مجموعة من القبائل التركية الموحدة، ولقد إلتُبِس في استخدامها وفي دلالاتها، فالنصوص الإسلامية الأولى استخدمتها للدلالة على الأيغور Ouyghur إلى حدود القرن الخامس الهجري/11 م، بينما أشارت إليهم المصادر الصينية في 630 م تحت مسمى "شيو- هسينغ Chiu-hsing" أي "الألقاب التسعة" بمعنى القبائل أو التكتلات التسعة، ومن الناحية الإثنية فإن الأويغور هي واحدة من مجموع هذه القبائل المتحدة والتي نجدها تذكر في المصادر الصينية أيضا تحت مسمى "الأون أوك" "On-oq" أي السهام العشرة باللغة التركية، وأشهرها قبيلة تركش Turgesh، وقد سيطرت في القرن السادس على كل المنطقة المغولية وما يجاورها، أما باقي القبائل الطوغوزاوغز الثمانية فهي بوكوات(T) Buku، هان/كون= Hun/kun، بايركو=Bayirku، تونغراTongra، سيكار=Sikar، شي بي=Ch'i-Pi، أ.بو.سو=A.Pu.ssu، كو-لون-وو.كو=Kulun-wu-ku، في المراحل الأولى لتاريخهم لم تكن تعرف هذه القبائل البدوية زعيمًا أو ملكا يُدير أمورها وإنما اغلبة لمن لهُ القوة، وحسب رشيد الدين. فإن قبائل "الأون أويغور" أو" الطوقوز أيغور"، كانت كلها تعيش على الروافد العشرة للنهر On-Orghun، والحاصل أن هذه القبائل تمكنت من تأسيس إمبراطورية بدوية اشتغرقت ممن القرن 6 إلى 8 الميلادي وامتدت حدودها من الصين إلى حدود إيران وبيزنطا وعرفت بإمبراطورية توكيو T'ou-Kiue عاصمة "المخيم الملكي والحربي" لها Army/Royal camp city وتعتبر نقوش أورخون Orkhon أقدم المصادر المادية للتاريخ التركي، وتعود إلى القرن الثامن الميلادي وذكرت أن إمبراطورية الأتراك الشرقيين وقعت تحت الهيمنة الصينية فيما بين 630-680 م كما تذكر النقوش أنهُ نتيجة الصراع الداخلي بين القبائل أن تغلبت قبائل الأيغور على باقي القبائل الطوغوز أغوز في التركستان =الشرقي عام 745 م، وقبلها بأعوام قليلة فقد الفرع الغربي للأوغوز استقلالهُ السياسي في حربه ضدّ توسع الفتوحات الإسلامية فيما وراء النهر. للمزيد يراجع:

Ibrahim Moosa: "Toghuz.oghuz" in Encyclopaedia of the world Muslims, Tribes, Castes and communities, Delhi, India, 2001, PP.1445-1446; Barthold: op.cit, PP.25-31-37.

وبعضهم أُيْغُر[1]، كما يجاور الثغور الشرقية لما وراء النهر الترك الخَرْلُخِية والكيماك مع التغرغز من الناحية اليسار أي الشمال والغرب.[2]

2- حدود إقليم ما وراء النهر في المصادر الإسلامية:

كثيرًا ما أشار المؤرخون والجغرافيون المسلمون إلى شساعة إقليم ما وراء النهر وإلى أهمية موقعهُ، وذلك بالنظر إلى امتدادِهِ الواسع في قلب آسيا، وباعتبارِهِ منطقة ثغور إسلامية حساسة لمجاورتها الممالك التركية والإمبراطورية الصينية.

ففي الوقت الذي نجد فيه الجغرافي المجهول،صاحب"كتاب حدود العالم" يصف شساعتها وأهم مقاطعاتها حيث سجل: "هي بلاد واسعة تتوزع بين مقاطعات كثيرة، منها ما

[1]-**أُيْغُرْ Uyghur** تسمية تطلق حاليًا على أتراكالكزين جيانغ "xinjiang" ذات الحكم الذاتي في الصين ويصل تعدادهم 6 ملايين نسمة، وأتراك الاستبس الروسي ويصل تعدادهم 227.000 نسمة، واشتقت هذه التسمية من أحد أقدم الشعوب التركية التي عاشت في الاستبس المغولي في القرن 8 الميلادي، ويمكن أن تكون التسمية أقدم من ذلك، حيث يرزوا منذ القرن 6 م في خضم صراع القبائل البدوية حول الهيمنة على هضاب منغوليا حيث كانوا أبطال ضمن عصبتين متعاديتين الأولى: هي الطوغوز أوغوز Toghur oghuz التي تشمل القبائل التسعة التركية والأيغور واحدة منها، والثانية المعروفة بـ كا.و.شي Kao-che وأغلبهم سكان غابات جبال الألتاي وغرب سهوب سبيريا، وبالرغم من انتصارهم ضمن الطوغور في انشاء إمبراطورية في الاستبس عام 552 م، إلاّ أنهم فشلوا في الانتقال من النمط البدوي إلى النظام المدني المركزي، وكانت قبيلة الإيغور طيلة فترة الحكم الإمبراطوري "التوكيو" الأول (552-630 م)والثاني (680-744 م)، الحليف الأكثر تقلبًا، فغالبًا ما كانت تقف إلى جانب أعداء الحكم الأغوزي إذا كان لا يخدم مصالحها، وفي الأخير اغتنمت فرصة انهيار الحكم المركزي في 743م، ليصبحوا أسياد الاستبس المغولي عام 744م، وفي 840 م أُبْعِدوا عن منغوليا وتأخذوا من تركستان الصيني، مُستقرًا لهم وبانتشار الإسلام بين القبائل التركية أسلم الأيغور على المذهب السني وكانوا الأكثر إخلاصًا، وكغيرهم من أتراك آسيا الوسطى أثرت فيهم الطرق الصوفية وعلى رأسها النقشبندية ووصلت ذروتها خاصة في عهد تيمورلنك ثم القرون التي تليه. للمزيد يراجع:

Moses.L.W: "Uyghür" in E.W.M, Vol4, PP.1504-1505-1506; Jean sellier et andré sellier: Atlas des peoples D'orient, Moyen-orient caucase. Asie centrale, La découverte, Paris, 2006, P.164-166.

[2]- ابن خرداذبة: المصدر السابق، ص.31، اليعقوبي: المصدر السابق، ص.295، الدمشقي: المصدر السابق، ص.221، Anonymouse: op.cit, P.112-112

يقع شرقها ومنها ما يقع إلى الغرب، ففي ناحية الحدود الشرقية تقع بلاد التبت والهندوستان ويقع إلى جنوبها خرسان وغربيها حدود صاغانيان وفي الشمال تشمل أُسْرُوشُنَة وكلها أقاليم تنتمي إلى ما وراء النهر"[1]. نلاحظ أن أبو الفدا عجز عن تحديد حدودها الشرقية والشمالية لشساعتها ومجاورتها للمالك التركية والأراضي الصينية[2]. وجمع صاحب كتاب حدود العالم بين التنويه بخطورة الموقع الإستراتيجي الحساس لإقليم ما وراء النهر ومرابطة أهله في سبيل المحافظة عليه وبين ثراءهُ الإقتصادي؛ فحدودهُ الشرقية والشمالية الشرقية محاطة بالتبتيين و"الأتراك الخالوخ"/ كارلوك Karluk والأتراك الغُز Oghuz وهو ما يجعل أهلها على أهبة الاستعداد لرَدِّ غزواتهم المتكررة و"سكانها يحبون الحرب فهم مقاتلون شجعان، والمجاهدون منهم في الثغور يعرفون ب "غازي بيشا" "Ghazi-Bisha"، وهم من أحسن رماة السِّهام، ذوي إيمان راسخ ونقي، "وهي البلاد التي يعم فيها العدل والمساواة، خصبة وطيبة، في جبالها يوجد عدد كبير من مناجم الذهب والفضة وكل أنواع الأحجار والجواهر الثمينة ومختلف العقاقير"[3].

وفي نفس السياق أبرز ياقوت الحموي الأهمية الإستراتيجية والحساسة للمنطقة بالنسبة لدار الإسلام، فقد كانت لها مميزات مناطق الثغور، فَعُدَت دار حرب حيث تجاورها من حدود خوارزم إلى أسفيجاب الأتراك الغزية Oghuz، ومن إسفيجاب إلى أقصى فرغانة يحاذيها الأتراك الخرخلية Karluk فالمنطقة مهددة من كل جانب بغزواتهم، إلاّ أن أهالي منطقة ما وراء النهر "أشد شوكه منهم ويمنعونهم من دار الإسلام".[4]

كما يمكن التعرف على حدود إقليم ما وراء النهر من خلال رصد مقاطعاتِهِ الموصوفة في مُدَّونات الجغرافيين المسلمين، ومجاورته لبلدان وأقوام عديدين فهي حسب ترتيب مواقعها

1- The Anonymous: op.cit, p.119.، وأنظر خريطة أبن حوقل الملحق رقم:3.

2- أبو الفدا: كتاب تقويم البلدان، في (ج.إ)، مج.13، ص.483.

3- The Anonymous: op.cit, P.112.

4-ياقوت الحموي: معجم البلدان، ص.402.

تمتد من جنوب نهر جيحون حيث سلسلة البامير Pamir إلى أن تتصل بالشمال الشرقي لنهر سيحون وفيها بلدان منها ما يقع شرقها ومنها ما يقع إلى الغرب منها.[1]

من الناحية الجنوبية الشرقية يقع إقليم طوخارستان Tukharistan على الرافد الأيمن لنهر باذخشان، وهو أحد أهم الروافد العُليا المُغذية لنهر جيحون (الأكسوس) ويحد هذا الإقليم جنوبًا أراضي الهندوستان كباميان وكابل[2] أي شمال أفغانستان الحالية، وتنقسم هذه المقاطعة بين الجمهوريات الثلاثة طاجيكستان وأوزبكستان وتركمستان. وذكر بارثولد أنأصول الطوخاريين من تركستان الصين، انتقلوا إلى هذه المقاطعة واستوطنوها وتعتبر لغتهم من أهم لغات التراث الأدبي البوذي في آسيا الوسطى.[3]

إلى الشرق من طوخارستان تقع كورة[4] بولور Bolor[5] على حدودهِ الجنوبية نهر الهندوس وجبال قشمير، ويشمل الجبال الشهيرة كاراكُورَم Karakoram، فمقاطعة بولور

1- The Anonymous: op.cit, P.119.

2- اليعقوبي: البلدان، في (ج.إ) مج40، ص.295، أبو الفدا: المصدر السابق في(ج.إ)، مج.13، ص.471.أنظر الملحق رقم :1.

3- W.Barthold: Histoire des Turcs D'Asie centrale Traduit par: M.Donskis, Adrien- Maisonneuve, Paris, 1945, P.24.

4- الكُورَة جمع كُوَرْ هي المدينة أو الصُقْعُ، للمزيد أنظر أبُو الفضل جمال الدين محمد بن منظور، لسان العرب، دار صادر، بيروت، ط1، 1300هـ، مج.5، ص.156.

5- تمثل جبال بولور مبدأ السلسلة الجبلية الكبيرة التي أطلق عليها الصينيون تسمية تيان شان T'ien chan أي الجبال السماوية، وتقع في أقصى الشمال، وتعرف بولور تاغ أي جبال بولور باللغة التركية، كما تعرف لدى المغول بـ تانغيري Tengkiriوأحيانا بآلاك Alak، وتمتد جبال بولوريين دزونغاري في الشمال، وشرقًا إقليم قانصوKan. So وتركستان الشرقي في الجنوب. P. Debry de Thiersant: Le Mahométisme en chine et Dans le Turkestan oriental, Tom1, Ernest Leroux, Paris, 1878, P.249.

منفذ التجار إلى بلاد التبت فيها المعبر التجاري Karakoram Pass، ومعبر نحو بلاد الهند بعبور قشمير، فهي حدود ماوراء النهر الجنوبية.(1)

وإلى الشمال من طوخارستان تقع مقاطعة باذخشان على الطريق التجاري القادم من التبت وإلى الصين عن طريق كاره كورم وأحد أهم الطرق المؤدية إلى الصين، يميز الدمشقي بين باذخشان العليا وباذخشان السفلى وفي هذا السياق ذكر ابن حوقل أن نهر جيحون (أموداريا) ينبع من أعالي هذا الإقليم وتحديدًا من مرتفعات واخانWakhan، ليصب في بحيرة خوارزم المعروفة حاليًا ببحر الآرال "L'Aral".(2)

في نفس الناحية، تجاور طخارستان شمالاً مقاطعة الخُتَّل، الختلان، الخطلان Khuttalan الواقعة بين الجبال العالية، بلاد نقية وأراضيها خصبة زراعية، وسكانها محاربون ومجاهدون على الثغورو جبالهاغنيةبمناجم الذهب والفضة(3) ومنها يجلب أحسن أنواع الجياد "الخيل الهماليج" (4) ليس في النواحي مثلها" كما وصفها القزويني(5)

وحسب الجغرافيين المسلمين الأوائل–القرن الثالث الهجري/ الرابع ميلادي– تعتبر بلاد الختل هي الحدود الشرقية لما وراء النهر مع بلاد التبت[2]، فجبال "الفامر" وهي البامير

---

[1]– ابن حوقل النصيبي أبي القاسم: كتاب صورة الأرض، في (ج.إ)، مج.25، ص.475؛ المقدسي: المصدر السابق، ص.284؛ The Anonymous: op.cit, P.71، أنظر الملحق رقم:2.

[2]–الدمشقي، شمس الدين محمد (ت727هـ): كتاب نخبة الدهر في عجائب البر والبحر، نشره م.فيران ثم أغسطس مهران، إصدار فؤاد سزكين ضمن الجغرافيا الإسلامية،،منشورات معهدتاريخ العلوم العربية والإسلامية، جامعة فرانكفورت،1992/1413، مج.203، ص.221، ابن حوقل النصيبي: المصدر السابق، ص.459، The Anonymous: op.cit, P.119. أنظر الملحق رقم:4.

[3]– The Anonymous: op.cit, P.119

[4]–هَمْلَجَ: الهِمْلاَجْ: من البراذين(الخيل) واحد الهَمَالِيجْ، ومَشْيُهَا الهَمْلَجَة، لفظ فارسي مُعَرَّب، والهملجة والهِمْلاَج حسن سير الدّابة في سرعة وبَخْترة، أنظر: ابن منظور: لسان العرب، مج.2، ص.393–394.

[5]–القزويني: كتاب آثار البلاد وأخبار العباد، في(ج.إ)، مج.198، ص,352.

Pamirحاليا، ومنطقة" الراشت" الواقعة في شمال أعالي نهر جيحون تقع ضمن المقاطعة والحدود الشرقية لما وراء النهر.[1]

ويقع إلى الغرب من الختل مقاطعة الصَاغَنْيَان وتمتد مدنها على الرافد الأيمن لنهر جيحون بمحاذاتها خرسان[2] والمرجح أن عاصمة هذه المقاطعة هي المدينة الحديثة صارى آسيا Sari-Asya الواقعة على المجرى العلوي لنهر صاغانيان المعروف أيضا بنهر زاميل Zamil وكانت مدينة "ترمذ" هي أهم وأكبر مدن هذه المقاطعة وفيها يلتقى نهر جيحون بأحد أهم الروافد المغذية لهُ وهو زاميل.[3]

ويقع إلى الشمال الشرقي من الختل والصاغنيان، مقاطّعتي فرغانة السهلية وأَسْرُوشَنَة، وهي من أخصب أقاليم ما وراء النهر، فاعتمادًا على الجغرافيين الأوائل فإن فرغانة كانت تقع على الخط الأعظم أي الحدود مع الممالك التركية، وبها سهول خصبة وكثيرة المياه بفضل الجبال المحيطة بها[4] ، وتتغذى بذلك بكميات وفيرة من الرافد العلوي لثاني أكبر أنهار آسيا الوسطى حيث تقع، وهو نهر سيحون (سيرداريا Syrdaria)، ويجاور فرغانة في الشمال

---

[1]– الإصطخري أبو اسحاق إبراهيم بن محمد الكرفي: كتاب المسالك الممالك، في (ج.إ)، مج. 24، ص.286، ابن حوقل: المصدر السابق، ص.459؛ .Le Strange GuyM the land of eastern caliphate, I.G, Vol.85, P.434

[2]–ابن حوقل: المصدرالسابق، ج.إ، مج.25، ص.475؛ The Anonymous: op.cit, P.71، أنظر الملحق رقم:1.

[3]– Le strange: op.cit, I.G, Vol.85, P.440.

[4]– اليعقوبي: المصدر السابق، ج.إ، مج40، ص,295؛ The Anonymous: op.cit, (I.G), Vol.101, PP.116–117.

الغربي مقاطعة "بلاد الشاش"[1] وهي طاشقند الحالية، وتعرف في المصادر الإسلامية بقرية الشاش، ونظرًا لمرور نهر سيحون بهذه البلاد سُمِّيَ أيْضًا به، فعُرف بنهر الشاش.[2]

وكانت مقاطعة الشاش ثغرًا من الثغور الإسلامية البالغة الأهمية، وكان لها دورٌ في صدِّ هجمات الترك الشرقيين والإمبراطورية الصينية في العهدين الأموي والعباسي، فعُدَّت من مدن الخط الأعظم، فكانت طاشقند –كما وصفها ياقوت– "**أكبر ثغر في وجه الترك**" لمتاخمتها بلادهم وهي كلها مُسْتَنْزَهة بالخُضْرَة".[3]

كما حوت نصوص الجغرافيين والرحالة المسلمين حول هذه المقاطعات– فَرْغَانَة، أشروسنة، الشاش– إشارات ومعلومات كثيرة حول تحصيناتها وقدراتها العسكرية والقتالية، فقد كانت تحتوي على أكبر عدد من الحصون على طول مدنها فيما وراء نهر سيحون(سيرداريا)، ففي أسْرُوشَنَة وحدها ما يزيد على أربع مائة حصن على جبال البتم "Buttam"الحصينة،

---

[1]– كلمة **الشاش** تتكون من حرفين أساسين هما شينان معجمتان وبينهما ألف وهذا الإسلام يطلق على الإقليم والمدينة ويقابل هذا الإسم بعض التسميات التي أطلقت عليه في اللغات الأخرى وتغير مع مرور الزمن، ففي اللغة الصينية عرفت بـ"جاج"، ولدى الفرس عرفت بـ"جاج" وفي العهد الإسلامي استبدل "ج" بالشين، ثم كان أن عرفت بـ"جاجكند"، ثم "تاشكند"، ثم طاشقند، ويبدو أن هذا التغيير كان على لسان السكان الناطقين باللغة التركية بعد تتريكهم للمنطقة، والخرائب المعروفة اليوم بطاشقند القديمة هي موضع المدينة التي سماها العرب "الشاش"، كما كان يعرف نفس الإقليم بـ"بنكت" وذلك على غرار كثير من أسماء مدن ما وراء النهر التي تحمل تسميتين إيرانية وطورانية. للمَزِيدْ يُرَاجَعْ: عبد الله جمعة محمود: إقليم الشاش من الفتح الإسلامي حتى نهاية القرن الخامس الهجري، دراسة تاريخية حضارية، دراسة مقدمة للحصول على درجة ماجستير في الحضارات الآسيوية، جامعة الزقازيق، 2006.

[2]– ياقوت الحموي: المصدر السابق، في (ج.إ)، مج، ص.233، الدمشقي: المصدر السابق، ج.إ، مج، ص.94؛ Le Strange guy: op.cit, in (I.G), Vol.85, P.434

[3]–ياقوت: المصدر السابق، في (ج.إ)، مج، ص.234.

الغنية بملح النوشادر والذهب والفضة، وهي متصلة بجبال فرغانة ذات الحصون المنيعة الشاهقة وبها قرى آهلة ويغلب عليها شدة البرد[1].

وفي الناحية الغربية تَقَعُ مقاطعة الصغد بين نهرين سيري داريا، وأموداريا وهي مساحات كبيرة من السهول، وأكبر مقاطعات ما وراء النهر وهي المعروفة لدى الإغريق بصُغديانة Soghdiana وفيها المدينتين الشهيرتين لدى المصادر الإسلامية وغيرها؛ بخارى وسمرقند،ونظرًا لوقوعها بين "النهرين العظيمين سيحون وجيحون، فهي أخصب بلاد ما وراء النهر، وهي المعروفة اليوم بسهول زِرَافشَان Zérafchan[2]، ووردت في المصادر الإسلامية نحو "بلاد الصُّغد" بالضم ثم السكون وآخرِهِ دال مهملة، ويقال السُّغد بالسين مكان الصَادْ[3] ويقال لهُ وادي السُغد وهو من حد بخاري إلى جبال البتم. وهو مشتبك الخضرة والبساتيين دون انقطاع، كما وصفها أبو الفدا[4]، من شدة خضرتها وامتداد بساتينها لا يتبين المسافر القرية حتى يصل إليها لكثرة أشجارها وتشابكها، غزيرة الأنهار ويقطعها وادي تشرب منهُ كل الناحية يعرف بوادي الصغد[5] وهو نهر زِرافشان حاليًا وقد شبههُ الدمشقي بأنهُ بحجم الفرات[6]، ومن أشهر مدن هذه المقاطعة؛دبوسية، وكشانية، وكش، ونخشب، وأعظمها امتناعًا وأكثرها رجالاً وأبطالاً مدينة سمرقند[7].

ويجاور مقاطعة الصغد من الناحية الشمالية الغربية، آخر وأهم أقاليم ما وراء النهر وهو خوارزم الذييمثل الحدود الغربية لما وراء النهر، وفي القرن الرابع الهجري كانت

[1]–أبو الفدا: المصدر السابق، في (ج.إ)، ص.484؛ القزويني: كتاب آثار البلاد، في (ج.إ)، مج.198، ص.342؛ الدمشقي: المصدر السابق، في (ج.إ)، مج، ص.222.

[2]– Le Strange.G: op.cit, PP.333, 460; De Rialle Gérard: op.cit, P.17.

[3]– الفيروز آبادي: القاموس المحيط، ص.369؛ ياقوت الحموي: المصدر السابق، ص.349.

[4]– أبو الفدا: المصدر السابق، في (ج.إ)، مج.13، ص.484.

[5]– ياقوت: المصدر السابق، ج.إ، مج214، ص.349.

[6]– الدمشقي: المصدر السابق، ج.إ، مج، ص.223.

[7]– اليعقوبي: المصدر السابق، ص.293؛ ياقوت: المصدر السابق، ص.214؛ المقدسي: المصدر السابق، ص.266.

عاصمتها "كات" kath،حسب صاحب كتاب حدود العالم، متجر الأتراك والخزر وكل التجار يقصدونها وهي "باب الأتراك الغز"[1] وتعرف حاليا ب "خيوه "khivah وتشمل دلتا الأكسوس.ويرى الدمشقي ان كبر مساحة خوارزم تجعلها تمتد على حافتي أسفل نهر جيحون وتلامس بلاد الروم، وفي هذا اشارة الى انها كانت تحاذي في أطرافها الشمالية الغربية الأراضي البيزنطية.[2]

كما أضاف الدمشقي أن شساعة خوارزم تجعلها تُكوِّن لوحدها إقليما قائما بذاته، تترامى أطرافه بين ماوراء النهر جيحون شرقا، وبين إقليم خرسان غربا، ودليل ذلك ان لها قصبتين، الأولى "كاث" الواقعة على الرافد الشرقي للنهر في بلاد الهياطلة، والقصبة الثانية هي "الجرجانية" الواقعة غرب النهر المكور وعلى الأراضي الخراسانية[3]

والحاصل مما سبق عرضهُ حول حدود ، ومقاطعات منطقة ما وراء النهر حسب وصف الجغرافيين المسلمين يتبين أن مبدأها كان الضفة الشرقية لنهر أموداريا جيحون لتحاذيه جنوبًا جزء من أراضي السند والهند وبلاد التبت حيث تمثل سلسلة جبال الهندوكوش والهيمالايا حدًا فاصلاً لها ومن الناحية الشرقية كانت سلسلة جبال البامير (فامر) وجبال تيان شان تمثل حدودها مع بلاد الصين، وأما من ناحية الشمال الشرقي فكان قسمًا كبيرًا مما بعد نهر سيحون (سيرداريا) يقع ضمن إقليم ما وراء النهر حيث تُعتبر مدن الشاش (طاشكند) وأوزجند وطلاس- طراز لدى الجغرافيين المسلمين- هي ثغور المسلمين المحاذية لخانات أو

[1] – المقدسي: ص.284؛ Anonymouse: op.cit, IG, Vol.101, P.115-121

[2] – الدمشقي:المصدر السابق،ج.إ، مج .36، ص.284؛ Le strange.G : op.cit,in IG, vol.85,P.433-434

[3] ـ الدمشقي : المصدر السابق، ج.إ، مج. 36، ص.287_288.

ممالك الأتراك الشرقيين من كارلوك وطغوزغوز ومن الناحية الشمالية الغربية كانت حدود ولاية خوارزم هي حدود منطقة ما وراء النهر وبالتالي فإنهُ يمكن اعتبار أن السواحل الغربية لبحر الخزر (قزوين)، كان بابًا ومنفذًا لما وراء النهر للقادمين من الشمال ومن أوروبا عامة.

فكل هذه المعطيات تجرنا إلى القول أن ما يعرف اليوم بآسيا الوُسْطى Asie centrale هي منطقة ما وراء النهر المعروفة في مدونات الرحالة والجغرافيين المسلمين، والتي كانت دار تجارتها ومنطقة ثغورها، وهي تتوزع اليوم بين الجمهوريات التركية المستقلة عن روسيا المذكورة سابقًا.

3- جغرافية ما وراء النهر؛ الأنهار والجبال:

أخذت أنهار إقليم ما وراء النهر حيزًا كبيرًا في كتب الجغرافيين، والرحالة المسلمين المتقدمين منهم والمتأخرين، فخصصوا لها قسمًا وصفيًا لابأس به، مفصلين فيه منابعها ومصباتها والمقاطعات التي تمر بها بدقة متناهية، لاسيما الأنهار الكبيرة والشهيرة منها، ليس هذا فحسب بل نجد منهم من ذهب إلى حدِّ الحديث عن الأنهار والقنوات الإصطناعية التي شُقَّت من الأنهار الكبرى بهدف استغلالها في رَيّ الأراضي الزراعية.

عرفت أشهر وأكبر الأنهار في الإقليم وهي؛ أموداريا Amudaria (أوكسوس= Oxus)، وسيرداريا Syrdaria (جاكزارتس=Jaxartes)، عند الجغرافيين المسلمين تحت تسمية، جيحون وسيحون واقترنا ببعضهما كما إقترن نهر الدجلة بالفرات، وأصل التسمية غير واضح بدقة لكن الغالب، أن المسلمين نقلوه عن الكتب العبرية وأُدخِل عليهما بعض التغيير، وأصلها جيهون Jihon وبيزون Pison[1].

ولكن في العهد المُغولي، لم تَعد هذِهِ التسمية متداولة كما كانت، حيث أصبح جيحون يُعرف بأموياه Amûyah أو أموداريا بينما أصبح سيحون يعرف بـ سرداريا Syrdaria أما عن أصل التسمية فالغالب أن النهر ينسب إلى أكبر مدينة يَمُرُ بها، فاشتق الأول من مدينة آمُول Amul ذات التسمية الفارسية الأصل، كما كان معروفا من قبللدى المسلمين باسم "نهر بلخ" نسبة الى مدينة بلخ الواقعة بالقرب من النهر.[2]

1- Le Strange. G: op.cit, P.434.

2- Ibid.

تناولت مدونات الجغرافيين المسلمين، أنهار منطقة ما وراء النهر باهتمام كبير مبرزة أهميتها الحيوية، فوصفتها بأنها عظيمة وذات سعة كبيرة، ويأتي جيحون في مقدمتها، حيث تُبحِرُ فيه السفن الكبيرة الحجم، ويجري من المشرق بإتجاه المغرب، وهو المسار الذي تسلكهُ كل الأنهار في المنطقة، وبينما أشار ابن خرداذبة حين ذكر-بصفة غير دقيقة وتحمل لُبْسًا حول منابع نهر جيحون- أن مخرجهُ من جبال الصين وما وراء الصين[1]، وُفِّقَ أغلب الجغرافيون مسلمون في فترات لاحقة في تحديد الجبال التي ينبع منها هذا النهر الشهير.

فذكر صاحب كتاب "حدود العالم" أن في ما وراء النهر نوعين من الأنهار؛ الطبيعة والاصطناعية، أما الأولى فتكون بفضل البحيرات المتجمدة الموجودة في قمم الجبال وسيول الثلوج الذاتية، وتشق طريقها حينما يكون مجراها متوسطا لا واسعا ولا ضيقاً، فتَجري بصفة منتظمة إلى أن تصب في البحر أو البحيرة. وبينما يمكن للسفن أن تمر في الأنهار الطبيعية في بلاد ما وراء النهر، لا يمكنها ذلك في أغلب الأنهار الاصطناعية لصغر سعتها، لأن معظمها قنوات ثمَّ حفرها لتستخدم في المدن أو لرَيّ المزارع في الكور والمقاطعات، فتستخدم مياهها للشرب أو لسقي الحقول، وتعرف بـ"قشت أو بارز" "Kisht.u.Barz"، أو الحدائق والرياض "غِيا-خوار"Giyā-Khwār"، ولا يمكن تحديد عدد الأنهار بدقة لأنها معرضة للازدياد أو النقصان [2].

---

[1]- ابن خرداذبة: المصدر السابق، ص.179، الدمشقي: المصدر السابق، ص.94.

[2]- The Anonymouse: op.cit, P.69.

وغالبًا ما يتم حفر هذا النوع من القنوات المائية حينما يكون مجراها يصب في اتجاه البحر فتُشَّق حتى يستفاد منها[1] في السنوات التي يقل فيها تساقط الأمطار، وتعرف هذه القنوات اليوم بالأَريك "Aryk" بمعنى قنوات السقى.[2]

والملاحظ عمومًا في المعارف التي أوردها الجغرافيون المسلمون سواء عن النواحي البشرية أو الكوزموغرافية الطبيعية، تدرجاًمن حيث تطور ودقةالمعلومات، في مواضع كثيرة ومع مرور الزمن، فحول منابع نهر جيحون (أموداريا)، تسجل أقدم الإشارات تعود إلى القرن الثالث الهجري فيما كتبهُ إبن خرداذبة أن منبعهُ من شعبتين في جبال الصين وما وراء الصين[3] ويبدو أنهُ كان يقصد جبال تيان شانوجبال البامير المحاذية،لها ويبدو أن معلوماتهِ كان بها الكثير من الالتباس وبالتالي نجد صعوبة في معرفة الموقع بدقة.

ثم نجد فيما كتبهُ الاصطخري- والذي نقل عنهُ أغلب الجغرافيين- معلومات أكثر دقة، فحسب وصفه؛ فإن منابعهُ تقع في جبال "الفامر" أي البامير Pamir، ومرتفعات بذخشان Badakhchan[4]، وزادها ابن رسته دِقَّة حين ذكر أن "وخشاب"[5] هو أحد أعظم الأنهار المغذية لجيحون، ومنابعهُ الأصلية تقع في أعالي بلاد الترك "الخرلخية"، وفي هذا إشارة

1- The Anonymouse: op.cit, P.70.

2- Kouznietsov Pierre: La Lutte des civilisations et des langues dans l'Asie centrale thèse de doctorqt d'université de Paris faculté des lettres, Jouve et éditeurs Paris 1912, P.6.

3- ابن خرداذية: المصدر السابق، ص.179.

4- الإصطخري: المصدر السابق، ج.إ، مج24، ص.286؛ ابن حوقل: المصدر السابق، ص.459؛ الدمشقي: المصدر السابق، ص.221.

5- إشتق الإغريق من إسم هذه المنطقة وخشاب/ وخش Oxus، التسمية التي أطلقوها على نهر أموداريا Oxus river، ويعرف هذا الجزء من النهر اليوم بنهر سُرْهَاب "Surbâb" أو النهر الأحمر Red River للمزيد يراجع: Le Strange.G: op.cit, P.435-436

دقيقة إلى المنابع الأساسية للنهر، فالأولى توجد في أعالي جبال البامير وتحديدًا في منطقة واخان Wakhan وهي نفسها "وخشاب" حيث النهر *wakhan darya*وهي "من بلاد التُبَّت" فأشار الجغرافيون المسلمون، أن هذه المنطقة جزء من بلاد التبت، لوقوعها ضمن حدودها الشمالية، وتاريخيا فان المنطقة المذكورة كانت طيلة القرون من السابع الى التاسع الميلادي تابعة للامبراطورية التبتية، أما عن مساره فهو ينحدر بإتجاه الشمال الغربي في أراضي الختل القريبة من بلاد الراشت وهي قارة تغَين Kara teghin الحالية [1].

أما المنبع الثاني للنهر فيقع في أعالي باذخشان ويعرف بنهرها، ويمر بمقاطعة طوخارستان ثم نحو بلخ، ويجري بمحاذات أراضي خرسان لينحدر نحو خوارزم حيث يصب في بحيرة خوارزم، المعروف اليوم ببحر الآرال "L'Aral"[2]

ويلاحظ فيما أوردهُ القزويني الكوزموغرافي ـ علم وصف الكون ـ من معلومات حول نهر جيحون حوصلة لكل ما سبقهُ حيث ذكر أن للنهر مصادر عديدة أهمها تلك التي يتغذى بها من جبال باذخشان وجبال البتم الواقعة جنوب فرغانة، وتوجد لهُ منابع هامة أخرى في وخش (أي وخشاب=واخانwakhan)، ثم يجتمع ليمر على مدن عديدة إلى أن يصب في بحيرة خوارزم، ومن جملة ما أشار إليه القزويني تجمد النهر في فصل الشتاء، وذلك عند انخفاض درجة الحرارة فيتكون من القطع المتجمدة المجتمعة والملتصقة ببعضها وهكذا حتى يصبح النهر سطحًا واحدًا ويتماسك حتى يصير مقدار خمسة أشبار وسيتحكم

1- ابن رسته: المصدر السابق، ص.33، 92، 93؛ Kouznetsov: op.cit, P.16، أنظر الملحق رقم:1.

2- ابن حوقل: المصدر السابق، قسم II، ص.459؛ القزويني: آثار البلاد، ج.إ، مج.198، ص.353-354، ياقوت: المصدر السابق، ص.210.

حينها تعبر عليه القوافل والعجول والأبقار ويبقى على هذهِ الصفة مدة شهرين، فإذا ارتفعت درجة الحرارة عاد ينقطع قطعًا ويعود إلى حالتهِ وجريانهِ.[1]

أما نهر سيرداريا المعروف في المصادر الإسلامية بسِيحُون بكسر السين،كما ورد سَيْحُون بفتح السين، وعُرِفَ بنهر الشاش[2] نسبة إلى أكبر المدن الواقعة على أحد روافدهِ وهي مدينة الشاش –طشقند حاليا– ويبدو أن تغير اسمه إلى سيرداريا كان في حدود القرن الثامن الهجري، حيث عُرف لدى المُغول بسيرداريا Sirdaria،و ب" سيرسو Sirsû"عند الأتراك.[3]

وهناك مدينتان كبيرتان تقعان على ضفاف هذا النهر، وهما فرغانة على الرافد العلوي الجنوبي، والشاش "طشقند" الممتدة نحو الشمال الغربي والمحاذية لأراضي بلاد الكرلوك التركية وكل هذهِ الأراضي الواقعة شمالا تمثل تخوم المسلمين مع الخانات التركية وأكبر مدنها الثغرية اسفيجاب وطراز أي طلاس Talas وأوزجند.[4]

ومما يشار إليه حول هذا النهر أنهُ يجمد في الشتاء حتى أن القوافل تعبره ويَمر هذا النهر بأرض سغد، ويسقيها ويصب مثل جيحون في بحيرة خوارزم (الآرال).[5]

---

[1]– القزويني: آثار البلاد، ج.إ، مج.198، ص.354.

[2]– ياقوت: المصدر السابق، ج.إ، مج.214، ص.210، الدمشقي: المصدر السابق، ص.94.

[3]– Le Strange G: op.cit, P.476.

[4]– الإصطخري: المصدر السابق، ج.إ، مج24، ص.286؛ يثاقوت: المصدر السابق، ص.233؛ Le Strange.G: op.cit, I.G, P.434.

[5]– ياقوت: المصدر السابق، ج.إ، مج214، ص.ص. 210–211؛ القزويني: المصدر السابق، (ج.إ)، مج197، ص.181؛ الدمشقي: المصدر السابق، ص.94–95.

ثالثا: آسيا الوسطى في إستراتيجية الإمبراطورية السماوية:

في النصف الثاني من القرن الثالث قبل الميلاد، لم تكن الصين[1]، التي أسسها الأمير الإقطاعي كين شي هوانغ دي(*Ts'in shi huang Di=Quin shi huang Di*)[2] بشساعة الصين المعروفة اليوم، حيث كانت تتمركز بداية في الحوض الأوسط لنهر هوانغ هو Houang hoأي النهر الأصفر، وحول سهول فرعه "وي" *"Wei"*، ولم تكن تهتم الصين في هذه المرحلة بـ"**البلاد الغربية**" وهي التسمية التي تطلقها على آسيا الوسطى.[3]

---

[1]– حسب المؤرخ أميو جوزيف أخذ الأوروبيون تسمية الصين chine عن المسلمين العرب الذين إستخدموها للدلالة على الإمبراطورية الصينية، وقد اشتقت من تسمية أول الأسر الحاكمة والمؤسسة لها وهي أسرة تسين "T'sin" والمعروفة أيضًا بـ "كين"Qin، نسبة لمؤسسها كين شي هوان غدي.وعُرِفَت الصين في المصادراليونانية القديمة بـ سيناي Sinaeأوثيناي Thina، كبطليموس Ptolemy وبيريبلوسPériplus، فوردت لدى بطليموس تحت تسمية بلاد سيرا Séra وسيرسSéres، وهذه هي أشهرها وأكثرها تداولاً حتى في ما نظمهُ الشعراء اللاتنين في عهد الإمبراطور الروماني أغسطس حيث كانت الصين معروفة لديهم لقربها من الهند وآسيا الوسطى وَوُصف شعبها بالذي يعيشون طويلاً..للمزيد يراجع: Yulle.H: op.cit., T_1, PP.14-15 ويراجع: Amiot Joseph: Mémoire concernant L'Histoire, Les sciences les Arts Les mœurs, Les usages.. Des chinois par les missionnarres de Pekin 1780, Nyon L'ainé, Paris MDCC.LXXX, Vol05, P.1.

[2]– تسين شي هوانغدي/ كين شي هوانغدي Quin Houang Di / Tsin Houang Di(259-210 ق.م) مُوَحِّد الممالك السبعة الإقطاعية ومؤسس أول الأسر الإمبراطورية الحاكمة للصين وهي أسرة كين أو تسين، حيث قاد آخر حملاتهِ العسكرية التي وحّدَ الصين على أثرها عام 221 ق.م وكان أول من تَلَقَّب بلقب هوان غدي Houang أي الحاكم الإله بمعنى الإمبراطور، قضى على النبلاء الإقطاعيين ونفوذهم بأن جرَّدهم من السلاح شَرَّع القوانين التي أرست دعائم الإمبراطورية وسارت عليها كل الأسر التي توالت على حكم الصين إلى غاية مطلع القرن العشرين ووضع الآليات الإدارية لتسيير شؤون الإمبراطورية، دُفِنَ في مقاطعة لين تونغ Lin Tong حيث أمر بإنشاء مقبرة للجيش المصنوع من الطين، وقد اكتشفت عام 1974. يراجع:

Schiper Kristofer: "**Shi Huangdi**" in dictionnaire de la civilisation chinoise, Encylopaedia universalis, Albin Michel, Paris, 1998, PP.635-635.

[3]– Derby de thiersant, Roux Jean Paul: L'Asie centrale, Histoire et civilisation, Fayard, Paris, 1997, P.96.

وحتى حكم أسرة هان، لم يكن للصين إلاّ معلومات ضئيلة وغير واضحة عن البلدان الواقعة إلى الغرب من حدود جبال البولور Bolor والجياد التي مبدأها في الهندوكوش متصلة بـ الأولوك تاغ L'oulouk-Tag[1].

لكن مع نهاية القرن الثاني قبل الميلاد، تغيرت السياسة الخارجية للصين، حيث أوفد الإمبراطور وو.تي Wou-ti[2]، عام 138 سفارة إلى الأقاليم الغربية، وكان هذا أول احتكاك فِعْلِي للصين مع حكام تلك البلاد في محاولة منها لإيجاد حليف لها، حيث كانت تعاني من ضربات خصم عنيد مجاور لها، في الناحية الشمالية منذ قرون، وهم "الهيونغ نو" Hioung-Nou[3] البدو–الأتراك الأوائل–، فأرسل عام 138 ق.م القائد تشانغ كيان Zhang

---

1- Darby De thiersant.P: Le Mahometisme en chine et dans le Turkestan, Oriental, T1, Ernest Leroux, Paris, 1878, P.57.

2- وو.تي Wou.ti/ وودي Wu.Di، 140–87ق.م، إمبراطور الصين من أسرة هان "Han" عرفت الصين في عهدهِ رخاء كبيرًا، واجه خصومةُ الشماليين الهيونغ نو وحقق انتصارات كبيرة، اهتم بتوسيع رقعة الإمبراطورية وبسط سيطرتهُ على المناطق الشمالية والغربية للصين.

للمزيد يُراجع: Dieny Jean Pierre: "**WUDI**", in **D.C.C**, P.767.

3- عرفوا ب**الهيونغ** نو كما عرفوا بـ **كزيونغ نو Xiong–nu**، هي تسمية صينية، يقصد بها كل القبائل البدوية التي كانت تقطن الأراضي من شمال النهر الأصفر– الذي كان يمثل الحدود الشمالية للصين منذ العصر القديم إلى جنوب منغوليا حيث غاباتها السبيرية الواسعة، وقد برزت هذهِ القبائل على شكل إتحادية لكهنة البَدْو مع نهاية القرن الثالث قبل الميلاد وتزامن ذلك مع ظهور الإمبراطورية الصينية، فدخلت القوتان في علاقة مركبة بين صراعات وحروب طاحنة أحيانا، وتكامل أحيانًا أخرى، حتى أن الصين أنشأت سورها العظيم في 214 ق.م، لحماية أراضيها من هجمات هؤلاء الهيونغ نو، ذوي المهارات القتالية العالية، فلهم فرسان سريعي التنقل بفضل خضوعهم للتدريب المنتظم والمنظم، وقد تمَرّسُوا الهجمات المفاجئة الحاسمة، ولديهم مهاراة كبيرة في رمي السهام مع حيازتهم نظام استخباراتي متطور، كل هذا جعل منهم أعداء حقيقيون للصين، وبالنظر إلى التصنيف العام للتسمية الصينية "الهيونغ نو" التي يقصد بها كل القبائل البدوية القاطنة في منغوليا حتى حدود القرن 2 الميلادي، فإنهُ يمكن تصنيف الهَون les Huns والترك، المُغول والماندشو Mandchou من الهيونغ نو، وتحت ضربات قوية من أسرة هان الصينية Dynastie des han، تفرق الهيونغ نو إلى جماعات، منهم من تسرب عبر سور الصين العظيم ودخلوا الصين حيث تصنينوا بالثقافة الصينية، ومنهم من إتجه نحو الإمبراطورية الرومانية ووصلوا إلى السهول المجرية فعرفوا بالهون les Huns تحت قيادة زعيمهم أتيلا Attila. يراجع: Aubin françoise :Xiongnu,in D.C.C,P.777 ; Cahun léon :Introduction,P.47

Qian=Tchang K'ien برفقة حامية مكونة من مئة جندي إلى ملك مملكة اليوتشي Yue-tche ببلاد الصُغد في سهول زرافشان Zérafchan (207 ق.م-200 م) قصد التحالف معهُ ضد قبائل الهيونغ نو القاطنة حينها في منغوليا الشمالية إلى حدود الصين، ولكنهُ وقع أسيرًا لدى الهيونغ نو أنفسهم مدة عشر سنوات، وبعد أن أطلق سراحهُ أبى إلاّ أن يستكمل مهمتهُ فغادر إلى بخارى، وعرض على ملكها مشروع التحالف ولكن ملك بلاد الصغد رفض الفكرة خاصة، وأن بلادهُ كانت تتمتع بالرخاء الاقتصادي بعد ضمِّ جنوب فرغانة إلى سلطتها، كما أنهُ كان على علاقة سلمية مع جيرانهِ الهيونغ نو، بينما بلاد الصين وحاكمها أبعد عنهُ جغرافيا[1]، وبالرغم من فشل سفارة تشانغ كيان، إلاّ أن مكوثهُ في المنطقة طيلة إثنى عشرة عامًا، جعلهُ يقف على أهمية موقعها الإستراتيجي بالنسبة للصين، باعتبارها منفذًا نحو الممالك الغربية فضلاً عن ثراء أراضيها، فدوَّن في هذه الرِّحلة كل ما يميز هذا الإقليم، ووحثَ الإمبراطورية الصينية على الإهتمام به أكثر والسعي للسيطرة عليه.[2]

في نفس العام الذي رجع فيه تشانغ كيان إلى الصين، أرسل الإمبراطور "ووتي" حملة عسكرية إلى إقليم قانصو Kan-sou عام 128 ق.م، وأسند قيادتها إلى تشانغ كيان Tchang K'ien، الذي وصلت حملتهُ العسكرية إلى ضفاف نهر الاكسوس (جيحون)، وتكريمًا لإنجازاتهِ مُنِحَ لقب ماركيز بو- وانغ marquis de Po-wang[3]، وهو الذي مَهَّدَ للسيطرة على التاريم Tarim وجبال البامير لتكون ما عُرِف بالحدود الجديدة الصين كيانغ

1- Derby thièrsant: le Mahometisme en chine, P.57; De Rialle.Gerard: op.cit., P.32.

2- Roux Jean Paul: L'Asie centrale, P.96.

3- Chavannes Edward: Trois généraux chinoi de la Dynastie des Han Orientaux, in T'oung Pao, archives concernant l'Histoire les langues, la Géographi et l'éthnographie de l'Asie Orientale, E.J.Brill, leide, 1906, serie2, Vol 7, P.217.

Sin Kiang وتشكل أحد المسلكين التجاريين في جبال تيان شان، عُرِفَ الأول بتيان شان بي لو T'ien-chan-Pe-louوهو المسلك الشمالي المعْرُوف أيضا بدزونغاري، أما المسلك الثاني فهو تيان شان تان لو T'ien chan -Nan Lou يقع في الجنوب ويدعوهُ الصينيون بصين كيانغ.[1]

كما عرفت في السجلات الصينية ب " **كزيو** "**Xiyu**"[2]، وقد كلفها هذا أن دخلت في صراع وحروب ضدَّ القبائل البدوية، استمرت مدة قرنين من الزمن، لاسيما وأن الإبقاء على هذهِ المستوطنات في تركستان الشرقية تابعة لها شكل أساسًا لسياستها الخارجية.[3]

وابتداء من هذا العهد "أسرة هان" أصبح حوض التاريم بمسلكيه الشمالي والجنوبي تحت هيمنة الصين. فكان هناك أربع مسالك تربط بين الصين والغرب هي:

1- طريق توان هوانغ Touen Huang جنوب لوب نور Lob Nor، عبر شارشان charchanثم خوتان Khotan.

2- طريق تون هوانغ، نحو شمال لوب نور، ثم قورلاKurla، جنوب قاره شهرKarachahr، ثم كوشا فأقصو Aksu.

1- Roux Jean Paul: L'Asie, P.96-97, De thiersant p. Debry: Le Mahométisme.., P.250.

2- أخذت هذهِ التسمية الصينية مفهومين الأول واسع ويعني البلاد الواقعة بين الحاميات الأربعة الصينية من شرق آسيا الوسطى إلى حدود البحر الغربي -البحر المتوسط- وتضم بذلك أراضي بيرنطا وفارس والعرب التي كانت تربطها علاقة بالصين، أما في مفهومها الثاني وهو الأدق فكان يقصد بها منطقة الحاميات الصينية الأربعة في شرق آسيا الوسطى وهي؛ قارة شهرKara chahr، كوشا Kucha، كاشغردKashghar ، خوتان Khotan.يراجع: Chang Jih- Ming: Les Musulmans sous les tang(618-905), Taipei, 1980, p.177، أنظر الملحق رقم:4.

3- Roux Jean Paul: L'Asie, P.98.

3- طريق هامي Hami عبر طورفانTurfan، ثم كرشا حيث يلتقي بالطريق الثانية المذكورة آنفا.

4- طريق هامي عبر بحيرة بارقولBarkul، ثم عبر المرتفعات الشمالية لجبال تيان شان.[1]

ونشطت التجارة بشكل ملحوظ في شمال وجنوب حوض التاريم، وكانت الفترة الممتدة من نهاية القرن الأول قبل الميلاد وبداية القرن الأول الميلادي هي الفترة التي لمست فيها الصين الأهمية الحيوية للمنطقة نتيجة للمردود الاقتصادي الكبير الذي عاد إلى خزينتها من فوائد المعاملات التجارية[2] .

وتبعًا لذلك عملت الصين جاهدة على منع الهيونغ نو من السيطرة على المنطقة، وأصبح الصراع الدائر بين الطرفين حول من ينفرد بإدارة منطقة الواحات الشمالية والوسطى لحوض التاريم، فالصين تمكنت بفضل هيمنتها على منافذ ومسالك توان هوانغ -T'ouen Houang من أحكام سيطرتها، أما قبائل "الهيونغ نو"فكانت تراقب حوض التاريم من خلال موقعها الاستراتيجي في مرتفعات جبال الألتاي Altaïشمالاً.[3]

في نفس الوقت كان لفتح هذه الطريق التجاري الرابط بين القارات ؛ بين الفرس والروم من جهة وإمبراطورية الهان من جهة ثانية، أن اكتسبت ممالك الواحات الواقعة في

1- Yule Henri: Cathay and the way thisher, a collection of medievol notices of china Vol1, Preliminay essay, London MDCCCCXV, P.58.

2- Roux Jean Paul: L'Asie.., P.98.، أنظر الملحقين رقم: 4 و5.

3- Grousset.R: L'zmpire des steppes, attila, Gengiskhan, Tamerlan, Payot, Paris, 1985, P.80.

الحوض أهمية تجارية كبيرة بصفتها القلب النابضلطريق الحرير،وقد كتب بطليموس واصفًا تلك المسالك : "تصل طرفي هذا الطريق بين أنطاكية –عاصمة سوريا في العهد الروماني– مرورًا بالفرات عبر هيرابوليس "Hierapolis"ـ منبج حالياـ ثم الأراضي الفارسية عبر إكباتان Ecbatane (همذان)، ثم رهاج Rhagés ـ أي الرَّي القريبة من طهران ـ ثم منها إلى هيكاتومفيلوس Hécatompylos – شاه روض ثم مَرْو لتصل إلى بلخ Bactra، ومن ثمَّ إلى طخارى التي منها يصل طريق الحرير إلى مراكزهِ الحيوية، في سفوح جبال "البامير حيث تتواجد أبراج من الحجر، يتبادل هناك التجار القادمين من بلاد الإغريق والرومان السلع مع القوافل المشرقية".(1)

ولم يكن اهتمام الصين بالمنطقة بغرض الهيمنة والتأمين على تجارة الحرير مع الغرب فحسب؛ وإنما كان من دوافعها حيازة الأراضي الخصبة ومراعي البدو، حيث علمت بأنها كانت تُحْصَدُ مرتين في العام الواحد، ووصفت بمركز التمرين بالحبوب والقمح(2) ونجد في الرسائل التي كان يبعث بها القادة العسكريون الصينيون وفي مقدمتهم " بان تشاو" مثالاً عن ذلك حين كتب يقول أن: "أنا يا مولاي أحد عبيدك، أعتبر أن أراضي "سو.كيو" "Sokiu" (ياركند) وسو–لي "Sou–le" كشغرد هي الأخصب والأوسع، ومراعيها أجود والأوسع في كل المنطقة فهي لا تقارن بمثيلتها في توانغ هوانغ وشان شان".(3)

والحاصل أنهُ مع مطلع القرن الأول الميلادي أصبح للصين حاميات أو مستوطنات في منطقة تركستان الشرقية وهي المقاطعات الثمانية موزعة على الشكل التالي ؛ المقاطعات

1– Grousset R: L'empire…, P.79.

2– Roux J.P: L'Asie, P.99.

3– Chavannes.E: Trois généraux, in "T.P", serie2, Vol7, P.226.

الشمالية من طورفان Tourfan إلى دزونغاري Dzoungari ما عرف بالممالك الستة، والمقاطعات الجنوبية المعروفة بالحاميات الأربع وهي؛ قارەشهرKarachahr، كوتشا Kutcha، كاشغرKachghar، خوتانKhôtan، وكل هذهِ المقاطعات تابعة للمحافظ العام الصيني وهو بمثابة نائب الإمبراطور الصيني في المنطقة.(1)

وتحت سلطة نائب الإمبراطور على آسيا الوسطى " تركمنستان " موظفان حكوميان أحدهما كان قائمًا على شؤون إقليم "بي–لو Pé-Lou" أي الحدود الشمالية باللغة الصينية وتضم بارقولBarkoul، الإيلي «L'Ili» وطرباغاطايTarbagataï وعرفت حكومتهم بحكومة بي–تينغ Pi-Ting وهي التسمية الصينية لمدينة باش باليغ Beş Balik أما الحكومة الثانية فعُرِفَت بحكومة نغان–سي Ngan-siوكان مقرها في كوتشاKoutcha وهي نان لوNanlou أي الحدود الجنوبية وتضم كل الحاميات الأربعة ؛ كوتشا، طوقماقTokmak، كشغردKashgar وخوتانKhotan، بينما كانت محميات جبال البامير وبلاد الصغدLa Sogdiane، وباكتريان La Bactrianeوكابول تابعة لحكومة نغان سي وأصبح إمبراطور الصين يرسل شهادات تنصيب لملوك المنطقة، مثلما أصدر الإمبراطور كاوتسونغ Kao- tsongمن أسرة تانغ شهادات تنصيب لملك سمرقند عام 650 م، وملك بخارى 656 م وفرغانة 658 م وأخرى لملك قندهار عام 650م.(2)

والحاصل أنهُ تَمَّ فتح العلاقات بين الإمبراطورية الصينية والبلاد الغربية، وشرع الموظفون في القصر الإمبراطوري، بجمع ما يمكن جمعهُ من معلومات حول الممالك

1- Chang Jih–Ming: Les Musulmans.., P.177, Roux Jean Paul: L'Asie P.99. أنظر الملحق رقم:4.

2- Grousset René: Histoire de l'Asie, L'Inde et la chine l'Inde ancienne la chine jusqu'à la conquête Mongole les civilisation de l'Indochine, Paris, 1922, T2, P.230.

والشعوب، وذلك من خلال السفارات القادمة من الغرب تارة، ومن أفواه التجار الذين يقصدون الصين، في قوافلهم التجارية لتبادل السلع تارة أخرى، لكن في نفس الوقت لم تكن كل تلك المعلومات تتسم بالدِّقة المطلوبة والوضوح، ولكنها احتفظت بالمسميات الأساسية فضلاً أن الهدف كان جمع أكبر قدر من المعلومات، وتسجيلها، وتعريف المجتمع الصيني بها، فعُرفَ منذ ذلك الحين الفُرس بـ "بو- سي= PO-sze" والعرب بـ " داشي Ta-che "[1]، بينما عُرِفَت بلاد الهند لديهم بـ تيان-تشو-كُوي T'ien-Tchou-Koue[2].

وفي فترات الاستقرار الداخلي، دأبت الصين على تنظيم حملات عسكرية دورية من فترة إلى أخرى على شرق منطقة آسياالوسطى أو تركستان الشرقية، لفرض سيطرتها، وكانت أكثر الحملات العسكرية تثبيتًا للهيمنة الصينية هناك، هي تلك التي قام بها

[1]- يشار للمسلمين العرب في المصادر الصينية بـ "داشي أوتازي Tachi/Tazi"، وقد عرف العرب عند الصينيين عن طريق العنصر الفارسي، كما عُرِفَ المسلمون الأيغور في عهد أسرة تانغ بـ هواي-هو Hwei-Ho، وفي عهد أسرة سونغ Sung Dynasty (960-1279 م) وصل عدد سفراء الداشي أكثر من عشرين سفيرًا، ونحن لا نملك تاريخًا دقيقًا يؤرخ لدخول المسلمين إلى الصين عدا بعض الكتابات والنقوش في المساجد، ثَبُتَ أن قدمها مسجد تسيوان شو Ts'iuan-chou يعود إلى نوفمبر 1310 م، والأقدم منها الوثيقة التي اكتشفت في اليابان وهي وثيقة صينية-عربية ترجع إلى عام 1217، وهناك إشارات إلى العَرب في الحوليات الجديدة لأسرة تانغ Sin-Tang-chou ولقد نشرت في عهد أسرة سونغSung، وفيها معلومات تشير إلى العرب، ولكن تعوزها الدقة حيث تذكر أن الداشي (العرب المسلمون) أتباع للفرس، ذوي أنف بارز وبشرة سمراء ولحية كثيفة ونساءهم ذوات بشرة بيضاء وجمالهن مُلفِتْ، ومن عادَتهن تغطية وجوههن بستار، ويصلون خمس مرات في اليوم، والرجال يرتدون حزامًا يضعون فيه سرة أموالهم وسكين طويل، لا يشربون الخمر ويمنعون المعازف، ويعبدون السماء الله في معابد واسعة وكبيرة وعالية. De Thiérsant Debry.P: Le Mahometisme en chine, P.59; Yulle.H: op.cit., T1, P.88

[2]- De Thièrsant.D : op.cit, P.57-58

القائد "بان تشاو" ***Pan-Tchao***[1]، في العهود الأخيرة لحكم أسرة هان، فكانت حملاتهُ التي قادها على المنطقة منذ (73 م–100 م)، حملات حاسمة حيث أزاح خيمة الهيونغ نو من المنطقة، وسيطر على كشغرد وأخضع في عام 94 م باش باليغ Bes Balik، ووصل إلى بخارى وحتى حدود بحر قزوين، وكان سيهاجم الفرس والروم حين أن أرسل إليه الإمبراطور الصيني طالبًا منهُ العودة. [2] واستغل الخلافات بين الخيم البدوية في تحالفاته، حتى يُمعِن في إضعاف خصومهِ العنيدين، فهو صاحب المقولة الشهيرة ***إستخدم البرابرة لمهاجمة البرابرة***".[3]

سيطر بان تشاو على أكثر من خمسين خيمة بدوية وأرسل ولاة عهودها إلى القصر الإمبراطورية كرهائن ضمانًا لوفاء وطاعة رعاياهم للحاكم الصيني.[4]

1- بان شاو Pan'chao (32-102) من أكبر القادة العسكريين الذين أنجبتهم الصين كان يُدعى بتشونغ شانغ Tchong-tcheng، من أسرة فقيرة من محافظة شان سي Chân-si، كان أصغر أبناء بان بياوُ Pan-Piao محافظ سِيْو "Siu"، إنتقل بان شاو إلى العاصمة رفقة أمهِ، ليلحق بشقيقهِ الذي إستدعاه الإمبراطور للعمل كموظف لدى الدولة، عمل نساخًا وبعد مدة تمرد على مهنتهِ بِحُجة أنها لا تُرْضي طموحهُ، وفي عام 73 م شارك في أحد الحملات الصينية على هامي Hami برتبة سيوما sseu-ma وحقق فيها انتصار وظفر بالقضاء على عناصر كثيرة من الهيونغ نو في منطقة قريبة من بحيرة الباركولLac Barkol في منغوليا ومن ثمَّ ذاع صيتهُ فكلفهُ الإمبراطور بالقيام بعمليات عسكرية في هذهِ الأقاليم منذ ذلك الحين وقادها بنجاح إلى عام 100 م عندما طلب من الإمبراطور إعفاءهُ من مهامهِ نظرًا لتقدمهِ في السن. للمزيد يراجع: Chavannes Edouard: Trois généraux, in "T.P" serie2, Vol7, 1906,PP.217-219, 220-221-239.

2- Reinaud.M: Relations Politique et commerciales de L'empire Romain avec l'Asie Orientale (L'Hycarnie, l'Inde, la bactriane et le chine), imprimerie impériale, Paris, MDCCCLXIII, P.221; cahun Léon: op.cit, P.98.

3- Gib.H: Arab conquests.., P.40; Roux Jean Paul: Histoire des turcs deux milles ans de passifique a la Méditerranée, Fayard, Paris, 2000, P.48-49.

4- Reinaud.M: op.cit, P.222.

وأمام تعدد الهجمات من كل جانب تشتت مملكة الهيونغ نو البدوية تحت ضربات الصين من جهة والأيغور والتتار ممن جهة ثانية، وهربت جماعة منهم واحتمت بجبال الألتاي وشعابها السحيقة، ليخرجوا من جديد، بعد مرور أربعة قرون من جبال "أركِنَهْ كون" L'Erkené -Koun بمنغوليا، تحت قيادة حداد وذئب رمادي- كما تذكر الروايات- واختفت تسمية الهيونغ نو لتحل محلها تسمية "التوكيو" في الترك.[1]

ومع تعاقب الأسر الحاكمة، وبالرغم من فترات الضعف أو عدم الاستقرار الداخلي الذي كانت تعاني منه الإمبراطورية الصينية، من حين إلى آخر إلاّ أن سياستها في إحكام قبضتها العسكرية، على حوض التاريم والممرات الجبلية لتيان شان والبامير، وحتى مملكة بخارى في الغرب، بقيت هاجسها الأكبر، لكن بفاعلية تتراوح بين القوة والضعف ، فقد كلفتها الحملات العسكرية ميزانية كبيرة سُحِبت من خزينتها، هذا دون إغفال مخصصات الهيئة الإدارية والموظفين المكلفين بتسيير هذا الإقليم الحيوي فخلال النصف الأول من القرن الثامن الميلادي، خصصت الصين ثلث عائداتها من تجارة الحرير إلى تمويل مصاريف إدارة حدودها الشمالية والغربية، وخصصت لهذهّ الأخيرة جُلّ اهتمامها، فمن إجمالي 8,8 مليون قطعة حرير، تم تخصيص 5,4 مليون قطعة منها، لإدارة هذا الإقليم، وهو ما يُبَيِّن حجم أهميتهُ الاقتصادية، قِسْمٌ من تلك الحصة كان يوضع تحت تصرف الجيش لتغطية حاجياتهُ

1- Cahun Léon: op.cit, P.98.

من الملابس العسكرية، وقسم كبير منهُ كان يوجهْ إلى المبادلات التجارية في الأسواق المحلية.[1]

وحظيت كل الحاميات الصينية في هذا الإقليم بنفس الاهتمام، حتى أن أبعد مستوطنة مثل كوشا Kucha الواقعة في أقصى الغرب كان يُوَّجَه إليها سنويًا 620.000 قطعة من الأقمشة، خُصِّصَ منها 120.000 لمبادلتها بالحبوب، وكان على التجار تسويقها إلى مناطق أبعد من ذلك، ومن الثابت أن عملية تسويق هذهِ البضاعة الثمينة –الحرير– كان بتوجيه من الدولة، بعيدًا عن احتكار التجار الخواص، على الأقل في فترات التوسع الصيني في شرق آسيا الوسطى.[2]

وحتى مع بداية القرن السابع الميلادي، دأب خاقانات "التوكيو" T'ou k'iueالغربيين على كسب ود ومساندة الصين، بدفعهم الجزية وإعلانهم التبعية لأسرة سوى"Soei"، وذلك منذ عهد الخاقان "تونغ شي هو" T'ong che hou عام 619 م، كما ذكرته سجِّلات الحكومة الصينية التي ترجم جزء مهم منها العالم إدوارد شافان.E Chavannesوالتي تعود إلى عام 1013م.[3]

غير أن القبضة الصينية على آسيا الوسطى لا تبقى على نفس القدر من الهيمنة التحكم حيث دخل العنصر الغربي–الإسلامي والتبِّتي على خط مزاحمتها في السيادة هناك،

1– Trombert Eric: Textiles et tissus sur la route de la sois, éléments pour une géographie de la production et des échanges, in: la sérindé tèrre déchange, Roncontre de l'école du louvre, la documentation française, Paris, P.110.

2– Trombrt Eric: Textiles…, P.110.

3– Chavannes E: Notes Aditionnelles sur les T'ou kiue (Turcs) occidentaux, in T.P, Bril, 1906, serie2, Vol5, P.2.

فمنذ النصف الثاني من القرن السابع الميلادي استقر المسلمون في منطقة ما وراء النهر- آسيا الوسطى وتوسعوا نحو فرغانة، ومَدّ التبتيون سيطرتهم على كشغرد وأعالي سهول قشمير [1].

رابعاً-الفتح الإسلامي لما وراء النهر:

هيمن في بداية القرن السابع الميلادي على منطقة شرق آسيا قوَّتان سياستانِ وهما: الإمبراطورية الصينية والفارسية الساسانية، وكانت دائما على توافق كبير نظرًا للمصالح التجارية المشتركة بينهما، وكان يقع بين هذين القطبين ممالك التوكيو T'ou kieu، أو الأون أوك"on.ok" السهام العشر، الشرقيين في أورخون ومنغوليا والغربيين الذين استوطنوا ما بين نهري سيحون وجيحون وذلك منذ منتصف القرن السادس الميلادي (552 م)، ولم يَستطع الفرس إخراجهم منها. وكانوا يتأرجحون بين القوة والاستقلالية أو الضعف والانقسام والتبعية لإحدى القوتين المحاذية لهما وكان للتجارة ومنافعها، أكبر العناصر المؤثرة والمحركة لعلاقة السِّلم والحرب بين الأطراف. حتى بيزنطا لم يَكن لها دورٌ يذكر في تجارة الشرق حيث أنها لم تتمكن من تخطي الفرس الذين كانوا يشكلون سدًّا منيعًا أمامها، منعها من تبوء دور أساسي في ذلك المجال واكتفت بالتعامل كأكبر زبائن الفرس ووسيطُها التجاري المهم .[2]

ولكن مع ظهور الإسلام وإنهيار الإمبراطورية الساسانية أمام موجة الفتح، عرفت المنطقة تحولات كبيرة امتدت لتغير أوضاعًا سياسية معقدة لكيانات مشتتة ومتصارعة ضمن أخلاف غير مستقرة لاسيما في آسيا الوسطى فبعد انتصار المسلمين في المعركتين

---

[1] - Grousset.R: Histoire de l'Asie, T2, P.241.

[2] - Cahun léon: op?cit, P.274; yule henri: op.cit, Vol1, P.58.

الحاسمتين في القادسية 16هـ/637 م، وفي سهول نِهَاوند[1] 21هـ/642 م، واصل المسلمون فتوحهم لبلاد فارس ومطاردة آخر ملوكهم الساسانيين يازدجرد الثالث الذي قتل عام 31هـ/ 651 م في إحدى مطاحن مَرْو.[2]

وفي عام 32هـ/ 652 م فتح المسلمون بلخ ووصلوا بذلك إلى أقصى الحدود الشرقية للأراضي الفارسية حيث نهر بلخ (جيحون)، الفاصل بين فارس وخاقانات التوكيو الغربيين.[3]

1- الطلائع الإسلامية الأولى فيما وراء النهر:

لم تتم سيطرت المسلمين على بلاد فارس وخرسان، إلا بعد مرور عشر سنوات تقريبًا من معركة نِهاوند، وذلك في عهد الخليفة الراشدي عثمان بن عفان، الذي كان قد ولى عبد الله بن عامر بن كريز[4] على البصرة قبل عام 28 هجرة /648م، فخرج على رأس جيش

---

[1]- حسب الحوليات الصينية التي تعود إلى عهد أسرة تانغ فإن ملك البوسي "Bodi" (الفارسي باللغة الصينية) يزدجرد طلب مرات عديدة مساعدة الصين، لمساندته ضدّ المسلمين فأرسل "موشبان" أحد رجاله وكان ذلك عام 638 م، ولكن أسرة تانغ بقيت صمَّاء أمام صرخات الاستنجاد الفارسي، حتى أن ابنهُ فيروز لجأ إلى طوخارستان حيث طلب المعونة من الصين لكن دون جدوى، وانتهى به المطاف في مدينة شنغان changan حيث عينهُ الإمبراطور عام 673 قائد للحرس العسكري الأيمن وتوفي هناك في 677 م، للمزيد يراجع: Chang Jih.Ming: les Musulmans sous les tang (618- 905), Tapei, 1980, P.08-09

[2]- Gib.H: Arab conquest, P.15, Boulnois luce: la route de la soie, dieux guerriers et marchands, olizane, geneve, 2010, P.274; Jih Ming.

[3]- Grousset®: L'empire... P.166.

[4]- عبد الله بن عامر بن كريز بن ربيعة بن حبيب بن عبد شمس وكان يُكنى أبا عبد الرحمن استعملهُ عثمان بن عفان على البصرة وأعمالها فافتتح اصطخر وكورًا من فارس وخرسان وسجستان وكابل... يراجع: البلاذري: كتاب أنساب الأشراف: ج.9، ص. 356 وما يليها.

إلى خُرسان أخضع فيها بقايا الهياطلة في هراة وبادغيس وبوشنج دون أدنى تمرد[1] وكان أول صدام لهُ مع خان طوخارستان في سهل مورغاب Murghab على رأس أربعة آلاف مقاتل عربي وألف من الفرس، واضطر إلى التراجع إلى مروالزود وقد فتحت أطراف هذهِ البلاد عنوة وصلحًا وذلك في سنة 31 هـ في أيام الخليفة عثمان بن عفان بإمارة عبد الله بن عامر بن كُرَيْز.[2]

ثم توالت الحملات على المدن الفارسية على الرافد الأيسر لنهر بلخ عام 33هـ/654 م، فكانت حملة الأقرع بن حبيس التي سيطر فيها على فارياب وطلقن وبلخ، وقام قسم آخر صغير من الجيش بالإغارة على قلعة سِمْجَان على حدود طخارستان وحاكمها الأمير روب خان التركي Rub Khan، وهجمات أخرى ناجحة على مايامورغ ببلاد الصغد.[3]

كان العمل على إستقرار أمور خرسان في هذه المرحلة هو الهدف الأول للخليفة عثمان بن عفان، فكانت الحملات العسكرية على حدود ما وراء النهر لا تتعدى أن تكون استطلاعية ولتأمين الجبهات الأمامية[4]، وتوقفت عمليات الفتح العسكري في أثناء فتنة مقتل الخليفة عثمان، ونقلاً عن المصادر الصينية فإن انسحاب المسلمين في هذه الفترة، كان متبوعًا بقيام طخارستان بتنصيب فيروز بن يزدجرد ملكا على كل فارس. وبقى بذلك الوجود الفارسي يعرقل تقدم الفتوحات الإسلامية[5]،لاسيما وأن الأمراء وخانات الأتراك فيما وراء النهر تعاطفوا مع فيروز بحكم علاقاتهم القديمة وتبعية بعضهم إليه، ولقد كان هناك خاقانات في بيكند

1- البلاذري: فتوح البلدان، ص.403-404.

2- ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج.إ، مج.212، ص.409.

3- البلاذري: المصدر السابق، ص.404؛ Gib.H: Arab conquest, P.15

4- Gib.H: op.cit, P.15.

5- Gib.H: op.cit, P.16.

ورامتينRamtin، ووارادانزي wardanzi، وسمرقند، وفرغانة، وكلها كانت تابعة –حسب النظام الإقطاعي للمنطقة حينها– إلى طارخان بخارى وكانت تُديرهُ حينها السيدة خاتون، وكانت ذات سلطة وهيمنة على باقي الأمراء، في حين كانت هي تابعة لملك خوارزم، وكان هو الآخر تابعًا لخاقان الأتراك الغربيين.(1)

ذكر المؤرخ بارثولد أن زمن الفتوحات الإسلامية لإقليم ما وراء النهر، كانت قبيلة التوركش Turgech من الأوغور Oghuz هي المهيمنة على باقي قبائل الترك الغربيين المعروفين في المصادر الصينية بالأون أوك "on.ok" أي السهام العشرة باللغة التركية، فكانت منقسمة إلى قسمين خمسة منها سكنوا شمال نهر إيلي "Ili" والخمسة الباقية إلى الجنوب منهُ وإليهم ينسب آخر الخاقانات الأتراك الغربيين الذين واجهوا الفاتحين المسلمين.(2)

كان على المسلمين الفاتحين لمنطقة ما وراء النهر، مواجهة هذهِ القوةالتركية العنيدة التي وصفتها مصادر التاريخ الإسلامي بالرجال الشجعان والأبطال الأشداء، فقد امتازوا بالجلادة(3) كما كان تحت حكم هؤلاء إيرانيو ما وراء النهر وهم؛ الموغ أو الماج= les Moughs, les Mages والصغد les Sogdums أو الصغداق les Sougdaks، مع الهون البيض ومهاجرون أتراك كلهم كانوا في مواجهة الفاتحين الجدد.(4)

1- Gérard de Riall: op.cit, P.47.

2- Barshold .w : Histoire des turcs, P.31.

3- المقدسي: أحسن التقاسيم، ج.إ، مج.36، ص.ص.260-261؛ Anonymous: op.cit, P.112؛ القزويني: آثار البلاد، ج.إ، مج.198، ص.345.

4- Léon cahun: op.cit, P.129.

وبعد استقرار أمور الخلافة إثر مقتل الخليفة عثمان، عام 41هـ/661 م؛ استأنف والي خرسان ابن عامر وقادتهِ الحملات العسكرية، لكن يبدو أنه لم تكن لديهم خطة حربية واضحة ودقيقة حيث كانت غاراتهِ في كل إتجاه.إلى أن تولى أمور خرسان عبيد الله بن زياد، الذي أدرك خطورة تنامي القوة الفارسية، فنظم حملة عام 47هـ/667 م وأوكل قيادتها للحكم بن عمر الغفاري[1] واعتمد في تجهيزها على ثروات طخارستان ومتخذًا من مرو مركز إدارتها، وإتجهت الحملة إلى الجنوب حيث دحرت جيش فيروز وأجبرتهُ على الهرب واللجوء إلى الصين.[2]

وكان أمير الجيش الحكم بن عمر الغفاري أول من صلّى في منطقة ما وراء النهر وفتح ضغانيان عام 50هـ[3]، وفي نهاية عام 53هـ وبداية 54هـ (672-673 م)، خرج عبيد الله بن زياد وعبر نهر جيحون وكان يبلغ من العمر خمسة وعشرين عامًا، على رأس أربعة وعشرين ألفا، وحاصر مدينة بخارى وهي ثاني أكبر مدن بلاد الصغد، وكانت الخاتون والدة الأمير الصغير طاغشاده هي حاكمتها، وقد استطاع عبيد الله خلالها، من فتح " بيكند" "ورامتين" وحاصر بخارى وأخذ الكثير من رقيقها، وحاولت الخاتون مفاوضة ابن زياد وطلبت منهُ مُهلة، موهمة إيَّاه بالطاعة في حين كانت تطلب مساعدة باقي خوانين الترك للمواجهة، فتمكنت بهذهِ المواجهة من جمع جيش عظيم، وبالرغم من ذلك انهزمت وتم عقد الصلح على أن تدفع مليون درهم كجزية، وعاد ابن زياد ومعهُ أربعة آلاف من الرقيق.[4]

1-البلاذري: المصدر السابق، ج.إ، مج.42، ص.410.

-2Gib.H: op.cit, P.16.

3- البلاذري: المصدر السابق، ص.410.

4- النارشخي: المصدر السابق، ص.64.

وحين أسند الخليفة معاوية بن أبي سفيان ولاية خرسان إلى سعيد بن عثمان بن عفان[1] قطع هذا الأخير نهر جيحون بعد أن نكثت الخاتون بالعهد ولكنها حين علمت بعبور سعيد للنهر عاودت وطلبت الصلح وتعهدت بدفع الإتاوة ودخل سعيد مدينة بخارى ثم فتح سمرقند وإعانتهُ الخاتون في ذلك، كما فتح "ترمذ" صلحًا.[2]

وبقيت غزوات المسلمين غير منقطعة على سهول ما بين نهري سيحون وجيحون مع استماتة الأهالي من فرس وأتراك في عرقلة الفتوحات الإسلامية التي جلبت معها عنصرًا بشريا جديدًا للمنطقة وهم العرب المسلمون ، والملاحظ أن أهلها –لاسيما بخارى وسمرقند– ظلوا يتمردون بعد كل عملية فتح أو غزو، مستغلين الحصانة العسكرية لمنشآتهم وشدة بأس رجالها وشجاعتهم إلى أن جاء عهد الوليد بن عبد الملك (86–96هـ)[3] الأموي، حيث عرفت الفتوحات العسكرية تغييرًا كبيرًا، لم تشهدهُ طيلة الفترة السابقة ابتداء من عبد الله بن كريز إلى غاية المهلب بن أبي صفرة.[4]

1– سعيد بن عثمان بن عفان يُكنى أبا عثمان، ولاَهُ معاوية خُرسان فتح سمرقند وكان أعورًا نحيلاً أصيبت عينهُ بسمرقند، وكان لهُ غلمان أسرى أبناء ملوك الصُّغد، وعندما عزلهُ مُعاوية خشية أن يطالب بالخلافة، رجع إلى المدينة ونزع عن الأمراء الصغد ثيابهم ومناطقهم وألبسهم جباب الصوف وألزمهم الأعمال الشاقة هذا ما جعلهم يحقدون عليه ويقتلونهُ في مجلسهِ ثم قتلوا أنفسهم. أنظر: البلاذري أحمد بن يحي بن جابر ت(279هـ/892 م): كتاب جمل الأنساب الأشراف، تحقيق: سهيل زكار، رياض زركلي، دار الفكر، ط1، 1417هـ/1996 م، ج.6، ص.ص. 245–246.

2–البلاذري: المصدر السابق، ص.411، اليعقوبي: كتاب البلدان، ج.إ، مج,40، ص.392.

3- البلاذري: المصدر السابق، ج.إ، مج، ص.421؛ النرشخي: تاريخ بخارى، ص.73؛ اليعقوبي: المصدر السابق، ج.إ، مج.40، ص..392.

4– أبو سعيد المهلب بن أبي صفرة ظالم بن سراق الأزدي العتكي (7–83هـ/628–702 م) أمير بطاش جَوّاد، قال فيه عبد الله بن الزبير "هذا سيد أهل العراق" ولد في "دبا" وقدم المدينة مع أبيه في أيام عمر، وفقعت عيْنُه بسمرقند ولاهُ عبد الملك بن مروان ولاية خرسان فقدمها عام 79هـ/698 م ومات بها، يراجع: الزكلي: الأعلام، ج.8، ص.620.

2- قتيبة بن مسلم الباهلي وتثبيت الفتح الإسلامي:

كانت الجيوش الإسلامية، طيلة الفتوحات الإسلامية الأولى للمنطقة، تغزوا ما وراء النهر في الصيف وتغنم غنائم كثيرة وتعود في الشتاء وكانت الخاتون تحارب كل من يأتي مدة ثم تصالحهُ، إلى أن وَلّى الحجاج بن يوسف الثقفي، قتيبة بن مسلم الباهلي[1]ولاية خرسان ومن خلال رصد تحركاته في المنطقة يبدو أنهُ كان يمتلك خطة حربية محكمة، حيث وسَّعَ من هجماته في كل الإتجاهات؛ سيطر خلالها على خوارزم في الشمال الغربي، وكل مدن بلاد الصغد كدبوسية وكشانية، ونسف (نخشب)، وبخارى وسمرقند وصالح دهاقينها[2] وأحكم سيطرتهُ عليها[3] وفي فتحهِ لمدينة بخارى ذكرت المصادر أنهُ خرج إلى فتحها عام 87هـ وأمر أصحابهُ بالجد في القتال وهزموا قتلاً وأسرًا وتحصن من بالمدينة بداخلها، فأمر بهدم السور فسألوهُ الصلح فصالحهم فلما ابتعد عن بخارى مسافة خمسة فراسخ نقضوا

---

[1]- أبو حفص قتيبة بن أبي الصالح مسلم بن عمر بن الحصين بن ربيعة بن خالد بن أسيد الخير بن كعب بن قضاعي بن هلال الباهلي أمير خرسان زمن عبد الملك بن مروان من جهة الحجاج بن يوسف الثقفي، لأنهُ كان أمير العراقين وأقام بها ثلاثة عشرة سنة، فاتح خوارزم وسمرقند وبخارى، وفتح فرغانة في أواخر عهد الوليد بن عبد الملك وبلغ قتيبة في غزو الترك والتوغل في بلاد ما وراء النهر من إفتتاح قلاع واستباحة البلاد وأخذ الأموال ما لم يبلغهُ المهلب بن أبي صفرة ولاغيرهِ وكان قتيبة شريفًا عاقلاً، وكان مائلاً مع الوليد بن عبد الملك على سليمان حينما أراد خلعهُ وتقديم إبنه عليه، فلما وُلِّيَ سليمان خلعهُ قتيبة، فمالت عليه بنوتميم فقُتِلَ. للمزيد يراجع: البلاذري أحمد بن يحي بن جابر ت(279هـ/892 م): كتاب جمل الأنساب الأشراف، تحقيق: سهيل زكار، رياض زركلي،دار الفكر، ط1، 1417هـ/1996 م، ج.13، ص.5607.
ابن خلكان أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد أبي بكر: وفايات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق: إحسان عباس، دار صادر بيروت، 1971، مج.11، ص.86-87.

[2]- الدّهقان بالكسر والضم لفظ أعجمي مُعَرَّبْ جمع دهاقنة ودهاقين، والاسم دَهْقَنَة وهي "بهاء"، والقوي على التصرف مع جدَّة، كزعيم فلاحي، رئيس إقليم، التاجر. يراجع: الفيروز آبادي مجد الدين محمد بن يعقوب: القاموس المحيط، تحقيق: محمد نعيم العرقسوسي، ط2، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1993 م، ص.1546.

[3]- اليعقوبي: المصدر السابق، ص.392.

الصلح وقتلوا العامل ومن معهُ، فرجع ونقب سورهم فسألوهُ الصلح فلم يقبل ودخلها عنوة وقتل من كان بها من المقاتلة وغنموا أواني الذهب والفضة.[1]

وذكر ابن الأثير أن الفتح النهائي لبخارى كان عام 90هـ/ 709م، حين أمر الحجاج، القائد قتيبة المسير إلى حاكمها "وردان حداة" وكان ابن الخاتون، بعد أن ارتد، وحينما استعصت عليه بعث إلى الحجاج يخبرهُ بذلك، فأمرهُ أن يُصَّوِر المدينة لهُ، فبعث قتيبة إليه بصورتها حينها كتب لهُ الحجاج من أي مكان يدخلها، وكتب لهُ أن "إياك والتحويط" أي محاصرتها دون جدوى وأن "دغي من ثنيات الطريق" ولقد بذلت القبائل الأزدية ومن بني تميم الكثير في قتال الأتراك ببخارى، وبسقوطها في قبضة المسلمين سارع ملك الصغد طرخان سمرقند بطلب الصلح ودفع الفدية.[2]وبالنظر لطول فترة الزمنية التي استغرقتها عملية فتوح بخارى يبدو واضحًا أنها لم تكن سهلة، ويمكن رد ذلك إلى ما امتازت به فضلاً عن تحصينات أسوارها، وتجارتها الزاهرة وخصوبة أراضيها فهي كثيرة البساتين، ووفرة الحرف فيها، جعلتها ذات ثقل اقتصادي قوي، مما جعلها تصمد في وجه الحصار الحربي.[3]

وبعد أن أتمَّ قتيبة فتح بخارى، شّن قتيبة حملة واسعة عام 87هـ، لفتح منطقة أعالي نهر جيحون وسيحون في إقليم طخارستان وفتح صاغانيان وكش والشاش. وغزار أكبر المدن التجارية الجنوبية وهي بيكند .، وقد ذكر النرشخي أن قتيبة لقى مصاعب وعنتًا شديدًا من أهلها لأنها كانت في غاية الحصانة، وكان أغلب أهلها تجارًا، يترددون على الصين ويركبون

---

[1]- ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج.4، ص.244.

[2]- ابن الأثير: المصدر السابق، ج.4، ص.249، 299.

[3]- البياتي بهجت محمد : "الفتح الإسلامي لبخارى في المصادر العربية" في مجلة كلية التربية، المجلد، 23، ج.4، عدد 2012، ص.1067.

البحر، وكانوا شديدي الثراء، وحين غزاها قتيبة كان أغلبهم في رحلة للصين للتجارة، فخُرِّبَت المدينة وتم سبي النساء والأطفال، وذكر النرشخي أنهُ عند عودت تجار المدينة من الصين قاموا بفدية أهاليهم وقيل أنهُ لم تخرب مدينة ويعاد تعميرها سريعًا على يد أهليها إلاّ بيكند.[1]

وذاع صيت قتيبة وانتصاراتهِ فقال الشاعر المختار بن كعب الجعفي واصفًا بطولاته:

دَوَّخَ السُّغد بالقبائل حتى ترك السُّغد بالعراء قعودًا [2]

ذهب الامير القائد قتيبة بن مسلم بعيدًا في فتوحاتهِ، ووصل الأراضي التي كانت تحت سيطرة الإمبراطورية الصينية، وجزء من حاميتها الأربعة في إقليم نان–لو Nan–lou– الحدود الجنوبية، فاجتاز جبال البولو Bolor وفتح كشغر، وكاد حينها أن يجر القوتين الصينية والإسلامية إلى التصادم العسكري، حيث روي ابن خلدون أن في عام 96هـ،فتح قتيبة حامية كاشغر، فبعث إليه الإمبراطور الصيني طالبا منهُ إرسال أشراف العرب،ليعرفونه بهم ويخبرونه عن دينهم، فاختار قتيبة عشرة كان من بينهم هبيرة بن شَمْرَج الكتابي وأخذوا معهم متاع وهدايا حسنة من أقمشة من الخز والوشي وأربعة خيول، وأمرهم بإعلامهِ أنهُ لم يصل إلى هذهِ الأراضي إلاّ ليفرض سيطرت المسلمين عليها ويُدفع لهم خراجها وجزيتها.[3]

ورأى المستشرق هنري يول H.Yulle أن الإمبراطور الصيني جنَبَّ بلادهُ حينها غزو إسلاميا وشيكاً، وذلك حين أحسن إستقبال سفراء قتيبة بن مسلم، فحسب المصادر الصينية التي استند إليه،ا فإن السفارة المذكورة، هي دون شك ، تلك التي استقبلها الإمبراطور هوان

---

[1]-البلاذري: المصدر السابق، ص.419-420؛ النرشخي: المصدر السابق، ص.ص. 36-37، 74.

[2]– البلاذري: المصدر السابق، ص.421، النرشخي المصدر السابق، ص.73.

[3]– عبد الرحمن ابن خلدون: العبَر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، تاريخ ابن خلدون، بيت الأفكار الدولية، الأردن، ج.3، ص.85.

تسونغ Hwen Tsung عام 94هـ/ 713 م، ذكَر أن أعضاءها رفضوا الركوع لحضرة الإمبراطور، فأوشك أن يعاقبهم لولا نصيحة مستشاره، الذي أخبرهُ أن هذا من صميم دينهم، وأنهم لا يقصدون إهانته، حينها أكرم الإمبراطور ضيوفهُ، وأعجب بسجايا "أعداءهُ".[1]

تبيَّن من خلال ما سبق أن القائد قتيبة بن مسلم، جمع بين صفتين أهلتهُ للسيطرة على ما وراء النهر، فالى جانب خبرته العسكرية، والمهارة القتالية والتفوق في وضع الخطط الحربية، كان يتمتع بحنكة سياسية نادرة، حيث كان يتبع انتصاراتهِ العسكرية، باستمالة الأهالي بأن يرفع عنهم الضرائب التي كانوا يدفعونها للمعابد البوذية والمجوسية، ولكي يؤلف قلوبهم للإسلام شجعهم بالعطايا.

كما فرض قتيبة على أهالي بخارى أولاً، ثم باقي المدن المفتوحة إجبارية انضمام أعداد منهم إلى الجيش المحلي، ما بين عشرة إلى عشرين ألف رجل للخدمة مع الجيش العربي وهذا ما يُفسّر نجاح قتيبة في الفتح وفي زمن قياسي مقارنة مع مراحل الفتح الأولى.وفي هذا السياق يرى المستشرق جيب هملتون Gib.Hamilton، أن في نعت القائد قتيبة بعديم الرحمة والمتوحش –لدى المستشرقين– فيه مبالغة كبيرة، وَدليل ذلك أنهُ كان يلجأ إلى استخدام الدبلوماسية والحلول السلمية تمامًا مثل استحدامه للقوة، لاسيما إذا كان هناك أدنى احتمال للنجاح، وكثيرًا ما فُسِّر اعتدالهُ ورحمتهُ خطأ سواء من أصدقائهِ أو من أعداءهِ. وليس أدلَّ على نجاحهِ في إقليم ما وراء النهر وتأثيرهُ الإيجابي في الأهالي، مكانته المميزة

1- Yulle.H: op.cit, T1, P.91.

بينهم حتى يومنا هذا،فبعد مقتلهِ أصبح يعرف بـ"قتيبة الشهيد" وأصبح قبرهُ في فرغانة مزارًا ومقصدًا لكل أهالي المنطقة.(1)

ومهما يكن من أمر فإن الثابت تاريخيًا أن أهم مراحل الحسم في العمليات العسكرية الإسلامية في آسيا الوسطى وأكثرها رسوخًا فيها، هي تلك التي حدثت ما بين عام 86-96/705-715 م وذلك حين كان قتيبة بن مسلم واليا على خرسان وأميرًا على جيشها.(2)فرض فيها استقرارًا للوجود الإسلامي في كل مدن ما وراء نهر جيحون إلى نهر سيحون وضفته اليُسرى وأصبح للمسلمين موضع قدم الصين كيانغ أي منطقة الحدود الجديدة الصينية وأصبح الصدام الإسلامي الصيني قاب قوسين أو أدنى من الوقوع، في انتظار أن تشعلهُ أدنى المُسَبِبَاتْ.

3- معركة طَرَّاز والصدام الصيني-الإسلامي 134هـ/751 م:

لم يكن التواجد الإسلامي في كل منطقة ما وراء النهر تحديًا لقوة الخاقانات التركية في إقليم تركستان كلّهِ الشرقي منهُ والغربي، وبلاد طخارستان وفرغانة فحسب، وإنما تحديًا للإمبراطورية الصينية التي كانت تَعْتبِر القسم الشرقي من ما وراء النهر منطقة تابعة لها وممرًا تجاريا حيويًا لبضائعها نحو الممالك الغربية وعرفت بإقليم "أكزيو" Xiyu، لاسيما وأن القائمين عليها يعرفون بموظفين الحكومة الصينية في الأقاليم الغربية- في جبال البامير وجبال تيان شان، وقد مَرَّ بناكيف سَخَّرت الصين كل قوتها العسكرية منذ النصف الثاني من القرن الثاني قبل الميلاد إلى حدود القرن الثاني بعد الميلاد في سبيل توطيد سيطرتها على

1- Gib.H: op.cit, P.40.

2- Barthold.w: op.cit, P.31; Roux Jean Paul: L'Islam en Asie, Payot.Paris, 1958, P.35.

هذا النطاق التجاري الحيويوفي منتصف القرن الثامن الميلادي كانت الصين في أقوى حالاتها ففي عهد أسرة تانغ (626-907 م) وسعت من حدودها وسيطرت على أعدائها بإضعَافهم واستغلال صراعاتهم من أتراك ومغول وماندشو وتبتيون، فكانت المتحكمة في حوض التاريم وحوض الإيلي L'Ili ومنطقة إزيق كول Issiq–koul وطاشقند والمتحكمة في ممرات البامير وتيان شان، وحامية طوخارستان وكابول وكشمير، وتدير كل هذهِ المناطق من كوتشاKotcha، وطيلة عهد أسرة تانغ القوية لم يكن لأحد أن يزاحم الصين في هيمنتها على ممرات تيان شان شمالاً وحدود منغوليا، وممرات جبال البامير جنوبا حيث حدود الهند وكابل فأحكمت سيطرتها باستغلال صراعات شعوب المنطقة من أتراك ومُغُول وماندشو وتبتيون على الأتراك الكارلوك في حوض التاريم وحوض الإيلي L'Ili ومنطقة إزيق كول–Issiq Koul وطاشقند وحامية طوخارستان، وكابول، وقشمير. [1]

وفي أواخر العهد الأموي وبسبب سياسة الولاة الأمويين تجاه الأهالي[2]، تأرجح حينها خاقانات بخارى وسمرقند في ولائهم بين المسلمين والصين، فأعلن ملك بخارى نفسهُ تابعًا للصين 100.99 هـ/ 718–719، وكذلك فعل خاقان سمرقند 100ـ 112هـ/ 719–731م،

---

[1]- Grousset.R: L'empire des steppes, P.171, Cahun Léon: op.cit, P.127.

[2]– كانت حاجة الأمويين كبيرة إلى الأموال الكثيرة لسَّدِ حاجات الرباطات والفتوحات،و لاصطناع الأحزاب وتهدئة الثورات فدفعهم ذلك إلى زيادة الضرائب وجمعها فأخذت الجزية من المغلوبين حتى بعد إسلامهم، فقد كان الانتشار الواسع للإسلام يعني إعفاء الأهالي من الضريبة وكان هذا يتعارض مع مصلحة الدولة المالية ومصلحة الدَّهاقين المادية، ففرضوا الضريبة على من أسلم وحرموا من دخل الجيش من الموالي من العطاء فكان ذلك مدعاة لتذمر الخرسانيين وأهالي ما وراء النهر– بالرغم من محاولات الإصلاح في عهد عُمر بن عبد العزيز، ووالي خرسان نصر بن السيَّار (738–758 م)– إلاّ أنهُ غلب على السياسة الأموية اللامساواة مع الرَّعية بالنسبة للموالي.

للمزيد يُراجَع: فلوتن فان:**السيادة العربية والشيعة والإسرائيليات في عهد بني أمية**،ترجمة:حسن إبراهيم حسن ومحمد زكي إبراهيم، مكتبة النهظة المصرية، القاهرة،1965، ص ص.49،50؛ الدوري عبد العزيز: **العصر العباسي الأول دراسة في التاريخ السياسي والإداري والمالي**، دار الطليعة، بيروت، ط3، 1997، ص.ص. 12،13،16.

وطلبوا مساعدة الإمبراطور الصيني ضد المسلمين، وهو ما فعلهُ حاكم "طخارستان" و"قندوز" ولكن الصين ترددت واكتفت بإرسال شهادات شرفية من قبل الإمبراطور.[1]

ويمكن وصف الموقف الصيني من التواجد الإسلامي في العهد الأموي بالسياسة المزدوجة ففي الظاهر، يبدو التزامهِ الحيادية إتجاه الخلافة الإسلامية، وعدم مجاهرتها بالعداء، فسادت العلاقات الديبلوماسية الجيدة فيما بينهما، حيث تذكر الحوليات الصينية التي ترجمها العالم إدوارد .شافان Chavanne. E أنهُ الشهر الثاني عشر من عام 741 م وصل سفير بلاد الداشي Tache (العرب) للبلاط الإمبراطوري، وقدم تحيات واحترام سيدهُ، وقد تم منحه لقب القائد العام لحرس كيو.وKiu-ou، كما كُرِّم بمنحه رداء بنفسجيا مع زنار مزدان بالفضة وفي هذا دليل على العلاقات الجيدة التي كانت بين الطرفين.[2]

لكن في نفس الوقت كانت الصين تنهج نهج الدَّاعم والمُحرِّض لخانات الأتراك في بلاد الصغد وبلخ، وإقليم طوخارستان على التمرد ضد الأمويين المسلمين بإرسال شهادات شرفية تعترف بتبعية ملوك سمرقند وبخارى وفرغانة وقندُوزGünduz، فلم تنقطع مراسلاتها معهم في السنوات 718، 719، 727، 731 م، وكُلها تحتوي على طلبات من خانات الأتراك بحماية ممالكهم وإتباعهم بالصين، وشهادات صينية بالتبعية، ولكن لم يَتعدى الموقف الصيني المساندة المحتشمة، حيث تفادى الإمبراطور الصيني هييوان تسونغ Hiuan-Tsong، إرسال جيشه إلى بلاد الصغد وإقليم بلخ والدخول في مواجهة عسكرية مباشرة مع الأمويين وكان نتيجة لهذهِ السياسة أن قام الأتراك بتمردات عديدة، منها تَمرُد ملك سمرقند

1- Grousset.R: L'empire des steppes, PP.719,727.

2- Chavannes.E: "Notes additionnelles sur les tou-kiue", in T'oung Pao, série2, vol5, Brill, leiden 1906, P.67.

غوراق Ghourek في 111-112هـ/ 730-731 م بمساعدة مملكة تورقش Turgâch ولم يستعد المسلمون سمرقند نهائيًا إلاّ في حدود 119-120هـ/ 737-738 م.[1]

فيبدو واضحًا أن الصين كانت تُدرِك صُعوبة التفوق على المسلمين الأمويين، في مواجهة عسكرية مباشرة، لذا عملتْ على إرهاقهم بتشجيع التمردات الداخلية وعدم استقرار ما وراء النهر.

واغتنم الإمبراطور الصيني مينغ هوانغ، الأوضاع الداخلية غير المستقرة للدولة الأموية بثورة بني العباس ليعيد بسط نفوذهِ على كشغرد وأعالي سهول قشمير وممرات جبال البامير حيث أنفد جيشا قويًا بقيادة قائدهُ الصلب كاوسيان شي Kao-Sien-tche عام129-130هـ/ 747-748 م،حيث طرد التِّبتِيين الذين كانوا قد سيطروا على قشمير وجلجيت Gilgit وياسينYasin، وبالتبستانBaltistan، وأصبح نائب الإمبراطور كاوسيان يراقب من مقرهِ في كوتشا Koutchaكل من بلاد التبت وتركستان وإيران والهند فتحكم في التجارة وممراتها.[2]

وبسبب ذلك يتعد التواجد الإسلامي طيلة النصف الأول من القرن الثامن في ما وراء النهر أن يكون سِوَى مرابطة لرّدِ الهجمات التركية على "البلاد المتحضرة"، ولم يقم ولاة خرسان المسؤولون على ما وراء النهر بإنفاذ جيوش للغزو داخل مناطق الإستبس ولم يتوغلوا ليصلوا إلى مقر الخاقان الأتراك الواقعة بالقرب من نهر تشو Tcheou .[3]

1- Grousset.Réne: L'empire des steppes, P.167.

2- Chavannes.E: «Documents sur les T'ou-Kieu», in ***T.P***, P.292; Yulle.H: op.cit, T1, P.63.

3- Barthold.w: op.cit, P.31.

وعند قيام الثورة العباسية التي أطاحت بالأمويين، وقف أهالي منطقة بلاد فارس وما وراء النهر ومن ضمنهم أتراك وأهالي فرغانة إلى جانب العباسيين، سواء الذين أسلم منهم ومن لم يُسلِمُوا، حيث سارعوا بأعداد كبيرة لنصرة أبي مسلم الخرساني خصم عدُّوهم نصر بن سيَّار عامل بني أمية.[1] وفرض العباسيون سيطرتهم على مدن ما وراء ؛ كش وسمرقند وبخارى وغيرها وغنم أبو مسلم وأمر جيشه القائد أبو داود خالد بن إبراهيم غنائم كثيرة "من الأواني الصينية المنقوشة المذهبة التي لم يُرى مثلها ومن السروج الصينية ومتاع الصين كلهُ من الديباج".[2]

وصادف هذا التغيير في الأوضاع السياسية للخلافة الإسلامية، حادثة تاريخية غيرت موازيين القوى في إقليم ما وراء النهر، ففي الوقت الذي كانت الصين تشهد تفوقها وهيمنتها على شرق المنطقة وممراتها التجارية، جاءت حادثة مقتل تودون ملك طاشقند ببلاد الشاش لتُعِيد رسم خارطة المنطقة من جديد وتُحَدِّد مصيرها.

فقد كان ملك طاشقند من أتباع الصين وقدم لها الولاء مرات عديدة في السنوات "743 م،747 م، 748 م" كما كان من أكثر الشخصيات إحترامًا في البلاط الصيني لحسن سيرتهِ وولاءهِ، لكن حدث في عام 750 م أن اتهمهُ المفتش العام نائب الإمبراطور –المسؤول على الحاميات الصينية كاوسيان تشي Kao sien tche –بإهمال مهامهِ كحارس على الحدود، وبالرغم من تقديم تودون طاشقند لاعتذاراتهِ، إلاّ أن المفتش العام، قام بشنّ حملة قتل فيها الحاكم التركي ونهب خزينتهُ، فكان لهذا العمل العسكري التعسفي والذي حركتهُ أطماع وجشع

---

[1]- Cahun Léon: op.cit, P.146.

[2]- أبو جعفر بن جرير الطبري: تاريخ الأمم والملوك، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان، 1411هـ-1991م، مج4، ص.369.

" كاو–سيان تشي " أن دفع ابن التودون المقتول الى الاستنجاد بقبائل الكارلوك المقيمة حينها على نهري طاربا غاتاي Tarbagataï والأورونغو L'ouroungou، ومن الحدود الشرقية لبحيرة باخاش Lac de Balkhach إلى ضفاف نهر إرتيش L'Irtych، كما طلب المساعدة من قادة سمرقند في بلاد الصغد.[1]

وكان القائد زياد بن صالح هو الأمير الذي كَلَّفهُ أبو مسلم الحرساني بإدارة شؤون ما وراء النهر عام 134هـ/751م، واجتمع تحت قيادته جيش الصغد وخوارزم وأرسل إلى أبو مسلم الخرساني يطلب منهُ المدد لمواجهة الجيش الصيني، فأرسل إليه جند خرسان في شوال في نفس السنة.، كما دعمهُ جيش طخارستان بقيادة خالد بن إبراهيم وبلغ تعداد جيش زياد أكثر من عشرة آلاف، فسار بهم حتى بلغ نهر الشاس (سيحون– أموداريا) فقطعهُ، وإلتقى الجيش الصيني في مواجهة الجيش العباسي وحليفهُ الجيش التركي الكارلوكي في مدينة "أطلخ" Atlakh [2]– المعروفة اليوم بأوليا–أطا "Aoulié–ata" القريبة من نهر طلاس في جمهورية كزخستان _ اصطدم الطرفان، في جويلية 751 م، وبعد قتال مستميت في معركة قال الذهبي أنها استغرقت يومًا كاملاً، بينما ذكرت المصادر الصينية أنها دامت خمسة أيام من القتال، انهزم الجيش الصيني ووقعوا بين قتيل أو أسير، وذكر الذهبي أنهُ تم القضاء حينها على خمسين ألف جندي صيني، بينما وقع منهم عشرون ألف في الأسر بينما ذكرت المصادر الصينية أنها خسرت ثلاثين ألف جندي[3] .

---

[1]- Grousset.R: L'empire, P.171; Roux Jean Paul: Histoire de turcs, PP.128, 129.

[2]- شمس الدين أبي عبد الله محمد بن أحمد الذهبي : تاريخ الإسلام ووفايات المشاهير والإعلام، تحقيق بشار عواد معروف، دار الغرب الإسلامي، بيروت 2003، مج.3، ص.595-596.

[3]– الذهبي: المصدر السابق، مج.3، ص.595؛ Grousset.R: L'empire des steppes, P.171, Roux Jean Paul: Histoire des turcs, P.129.

إثر هذهِ الهزيمة النكراء، فَرَّ القائد "كاو سيان تشي" وحيدًا تقريبًا، من جراء الكارثة التي لحقت بجيشهِ، حيث فقد في معركة واحدة مجهود أربع سنوات من العمل العسكري على الأرض، وزالت تمامًا سيطرت الصين عن آسيا الوسطى، ووقع آلاف من الجنود الصينيين في الأسر، واقتيدوا إلى سمرقند مشيًا على الأقدام، في حين تعتبر "أطلاخ" هي أقصى نقطة في جغرافية آسيا الوسطى تصلها جيوش الفاتحين العباسيين حينها، وأصبحت تمثل الحد الفاصل بين مناطق النفوذ الإسلامي والتُركي.(1)

وهكذا تسبب نائب الإمبراطور لدى أسرة تانغ، في جرِّ الصين إلى مواجهة عسكرية أفقدتها مستعمراتها في القسم الشرقي من آسيا الوسطى، أي تركستان، فكانت معركة طراز (أطلخ= طلاس) هي من حدَّدَت مصير المنطقة إلى الأبد، فبدلاً من أن تكون صينية كما دلّت على ذلك كل المعطيات التّاريخية انفتحت على الإسلام وأصبحت جزءًا من دارهِ، وأُزِيحَ التواجد الصيني من ممرات جبال تيان شان والبامير جنوبًا ومعابر دزونغارى شمالاً، وقرب انتصار طلاس بين المسلمين والعنصر التركي الذي بدأ ينفتح على الإسلام فاعتنقت قبائل منهم الدين الإسلامي، أما قبائل الكارلوك التركية فاكتفوا بخلافة قبيلة التورغش في زعامة الأتراك الغربيين وورثوا كل مملكتهم بحدودها ابتداء من نهر الإيلي L'Ili إلى جنوب بحيرة البلخاش، وإلى الشمال من إسيق–كولIssiq–Koul، كما ورثوا لقب حاكم هؤلاء وهو اليابغو Yabgou أي نائب الملك، حتى لا يزاحموا الأيغور في منغوليا (التركستان الشرقي) في لقب الملك قاغان Kaghan.(2)

1- Boulnois.Luce: La Route de la soie, Dieux guerriers et Marchands, PP.228-229; Grousset.R: Histoire de l'Asie, T_2, P.244.

2- Barthold.W: op.cit, P.61; Grousset.R: L'empire, P.171, Boulnois: La Route…, P.288.

كما كان من أهم ما أسفرت عنهُ معركة أطلخ، وقوع أعداد من الأسرى الصينيين في حيازة العباسيين، وكان من جملتهم خبراء في صناعات نادرة حينها، منها ما كان حكرًا على الصينيين دون غيرهم من كل شعوب العالم حينها، مثل صناعة الكاغد، حيث أنشِئَ في سمرقند أول مصانع الكاغد، فكانت ثورة ثقافية حقيقية وأصبح يُصدَر منها إلى الأفاق.

كما كان من بين الأسرى حرفيون متخصصون في حياكة أنواع دقيقة من الحرير، وصناع الذهب، وقد نُقِلَ هؤلاء إلى بغداد عام 145هـ/ 762 م التي أنشأت حديثا، وهذا حسب أحد الصينيين الأسرى دو-هوان Du-Hua'n الذي كان من جملة الأسرى الذين نقلوا إلى الكوفة ولكنهُ تمكن من العودة إلى موطنهِ أين أَلَّف مذكراتهِ التي سجل فيها بأن مجموعة من الفنانين والحرفيين الصينيين الأسرى نقلوا إلى المسلمين في الكوفة معارفهم في حياكة الحرير الشفاف الدقيق، وتقنيات في صناعة الذهب والفضة وفن الرسم بالألوان، وذكر حتى أسماء هؤلاء الحرفيين ومدنهم الأصلية.(1)

والحاصل أن معركة أطلخ /طرَّاز، هي المحَّك الذي تعرفت فيه الصين على قدرات المقاتلين المسلمين، حتى أنها استعانت بهم حين هدَّدَها الخطانيون المغول والتبتون هيمنة الصين في الشمال والشمال الغربي، فلم يتردد الإمبراطور الصيني سو تسونغ Sou-tsong من الاستعانة بالعنصر العربي كمرتزقة في الجيش الإمبراطوري لمواجهة خصومهِ، وقد أحضر هؤلاء الجنود المصحف (القرآن الكريم) معهم إلى قانصو Kansou، ولا يزال قبر

1- Boulnois.Luce: La Route …, P.290.

أحد الجنود البغداديين الذين قتلوا في جبهة القتال عام140هـ/ 757م، في مدينة قانصو مزارًا مقدسًا لدى المسلمينهناك إلى يومنا هذا.(1)

خلاصة الفصل الاول:

إن المنطقة التي تعرف حاليا لدى الجغرافيين المعاصرين بآسيا الوسطى "Asie central"بحدودها الواسعة،ابتداء من سواحل بحر قزوين الشرقيَّة ومصب أموداريا غربًا، إلى حدود جبال ألتايAltaï جنوب منغوليا، إلى حدود جبال تيان شان مع الصين شرقًا وجبال الهندكوش وأفغانستان جنوبًا، هي ماعرف تاريخياً بتركستان الكبرى وماوراء النهر.

و تتوزع أراضيها حاليا بين قسمين ؛ الأول تركستان الغربي أو الروسي الذي تحرَّرَ من الاتحادالسوفياتي سابقا- وهو منظم على هيئة خمس جمهوريات مستقلة، لم يُراعى في تقسيمها الواقع البشري أو اللغوي وهي؛ جمهورية تركمنستانTurkmanistan، أوزبكستانOuzbekistan، كيرغيزستان Kirghizistan، كازاخستانkazakhistan، طاجيكستان Tajikstan. أما القسم الثاني فهو تركستان الشرقي ، تقع أغلب أراضيه تحت هيمنة الصين ويعرف بـ " الصين كيانغ Xinjiang=sin-kiang " أي الحدود الجديدة، ومن المهم أن نشير الى أن الأهالي الأتراك الشرقيين "**هُوَيْ هُوَيْ-Hoey-Hoey**"، لا يعترفون بالتسمية الصينية" **الصين كيانغ** "، وإنما يستخدمون عبارة "موجولمان يورتي"«Mouçoulman Yourti» أي أرض المسلمين، أو مُوجولْمَان خالِكْMouçoulman Khalk وتعني حيث يقطن المسلمون، كما يدعون أنفسهم بالموجولمان تيلي «Mouçoulmân Tili»الذين يتحدثون بلغة الإسلام، كما ويضم الاقليم

---

[1]- Roux Jean Paul: L'Islam en Asie, Payot, Paris 1958, P.35.

من ناحية الشمال الجزء الجنوبي لمنغولياMongolie extérieure، ومن ناحية الجنوب إقليم التبت.

و هي تقريبا ذاتها المنطقة، التي كانت محط اهتمام الجغرافيين والمؤرخين المسلمين، بوصفها منطقة الثغور الشرقية لدار الإسلام وفيها مراكز التجارة الحيوية. فأطلقوا عليها تسميات ذات دلالات مختلفة منها ما هو جغرافي أو عرقي أو اقتصادي أو ذو دلالة تاريخية.

وعرفت غالبًا بـ"**إقليم أو بلاد ما وراء النهر**"، بلخ والمعروف قديمًا لدى الإغريق بالأُكسوسL'Oxus،كما عرف في المصادر الإسلامية ببلاد هَيْطَل أو الهياطلة، وإقليم تركستان وبلدان التجارة .

وبالنظر لأهميتها الاستراتيجيةوالاقتصادية، كانت أراضيها مسرحا لنزاع القوى المحلية كالممالك التركية، والإمبراطوريات المجاورة (الصين من جهة والفرس من جهة أخرى) منذ بداية العصر الوسيط، حول من يُهَيْمِن على مسالكها التجارية.

طيلة القرن الأول الهجري /7م، رسَّخَت الفتوحات الاسلامية الوجود الإسلامي، فيما وراء النهر، بالتدرج وعبر مراحل زمنية معينة، ساهمت فيه عناصر هامة، كان أبرزها سياسة قائد بني أمية الفاتح " قتيبة بن مسلم الباهلي" في المنطقة، ثم انتصار المسلمين في معركة طراز134هـ/ 751م، حيث انفتحت على إثرها كل أبواب تركستان الشرقية وجنوب منغوليا، أمام نشاط التجار والدُعاة المسلمين.

الفصل الثاني

النشاط التجاري في آسيا الوسطى في عصر السيادة الإسلامية من الفتح الاسلامي الى عشية الغزو المُغولي

أولاً – التجارة والتاجر في الثقافة الاسلامية.

1 – التجارة في ما وراء النهر في العهد الأموي.

2 – التجارة في ما وراء النهر في العهد العباسي .

ثانياً – طريق الحرير؛ التسمية والأبعاد:

1- المسالك التجارية في آسيا الوسطى.

2- صعوبات وآليات المسالك التجارية.

3- دور الخانات في النّشاط التجاري.

ثالثاً- الوسطاء التجاريون:

1- الوسيط التجاريالصغدي soghdak.

2- الوسيط التجاري الفارسيSartaktay.

3- الوسيط التجاري التركي Ortaq .

4-الوساطة التجارية لليهود الرّذهانية Radhanites.

رابعاً- آسيا الوسطى:الاهميةالإقتصادية والتجارية

خامساً- أشهر البضائع المتداولة في اسياالوسطى.

1- تجارة الحرير.
2- تجارة الكاغد.
3- تجارة الشاي.
4- تجارة الخيل.
5- المعادن الثمينة.
6- تجارة الرّقيق.
7-خشب الصندل
8-الكافور
9-العاج
10-القطن
11- جوز الطيب

بعد استقرار الأوضاع الإقليم التجاري التركستاني، وأصبح جزءا من أراضي الخلافة الإسلامية، هل بقي محتفظا بنفس الأهمية الاقتصادية كمحور طريق الحرير التجاري ؟ وهل حافظ التاجر على نفس المكانة التي كان يتمتع بها قبل هذا العهد؟ وما الذي أضافته الثقافة الإسلامية للتجار الأهالي الذين اعتنقوا الإسلام من فرس وترك وصغد وصينيين وغيرهم؟

أولا – التجارة والتاجر في المجتمع المسلم:

حضيت التجارة في المجتمع العربي ذو الأغلبية البدوية قبل الإسلام بمكانة مرموقة فكانت هي مهنة العرب بالحيرة كما تردد تجار البحرين على الهند، وحافظت منذ القديم موانئ عدن في اليمن على نشاطها المتصل بتجارة المحيط الهندي، وعلى مكانتها التجارية.

وفي عصر الفتوحات الإسلامية،تشكلت القوة العسكرية العربية تحت زعامة قادة القُرشيين من مكة الذين، كانوا أنفسهم تجار وحراس على أكبر القوافل التجارية المترددة على اليمين في الجنوب والشام في الشمال فيما عُرِفَ برحلتي الشتاء والصيف .[1]

وفي العهد الإسلامي تبوأ التاجر والتجارة مكانة مرموقة في أدبيات المؤلفين المسلمين، فكتب أشهرهم يُشيد بمميزاتها ومنافعها ويحث على احترافها لتحسين مستوى العيش، فأورد الجاحظ، وصايا نافعة لسائر التجار،منها كيفية معرفة المغشوش في أشهر أجناس السلع، والتحذير من التعامل مع السماسِرة، والتحقق من أحاديث بعض التجار، وأشار في الكتاب الذي خصصهُ لذلك؛ أن خير "التجارة ما أربحك" وأنهُ إذا لم يوفق المرء

1– Maurice Lombard: L'Islam dans sa première grandeur (VIII- XIème siècle), Flammarion, Paris, 1971, p.15.

فيها فليبحث عن حرفةٍ أخرى كما يقول العجم: "إن لم تربحوا في التجارة فاعتزلوا عنها إلى غيرها وإذا لم يرزق أحدكم بأرض فليستبدل بها"[1]

وضع أبو المنصور الثعالبي التجارة في مصاف الحكم فوصفها بالإمارة ونصح بالإقبال عليها إذ قال: ***التجارة إمارة والأسواق موائد الله في أرضهِ فمن أتاها أصاب منها، شاركوا الذي أقبلت عليه دنياه فإنه أجلب للرزق***"[2] .

ولم يَتوقف المؤلفون المسلمون عند هذا الحدِّ، فمنهم من أمثال أبي الفضل الدمشقي، من تعرض في حديثه عن التجارة ومحاسنها، وإلى ما يجب أن يتصف به التاجر المسلم من حيث الهيئة الحسنة والأخلاق الحميدة، ويمكن القول أنها كانت السِّر وراء نجاح التاجر المسلم في التأثير على من حولِهمن المجتمعات الأجنبية في أثناء احتكاكهِ بها، وهو ما ساعد على انتشار الإسلام في الأصقاع البعيدة بآسيا، حيث لم تصل الجيوش الفاتحة. فالتجارة –حسب الدمشقي– تتميز عن جميع الحرف والمعايش بأنها أفضلها وأسعدها لما توفرهُ من سعة في العيش إلاّ أن من صِفات التاجر المسلم التحلي بِنُبْل الأخلاق وأن يكون ذو مروءة فيُراعي محاسن الأخلاق وجميل العادات ويكون بينهم محمود الخصال والشمائل صادقًا، متواضعًا حتى وإن كان في ملكهِ ألوف كثيرة فيلبس البسيط منها ولا يضرهُ إن كان غير جيد ولكن مع ذلك يحرص على حسن

---

[1]– الجاحظ(أبو عثمان عمر بن بحر البصري): كتاب التبصر بالتجارة في وصف ما يستظرف في البلدان من الأمتعة الرفيعة، والأعلاق النفيسة، تعليق وتصحيح: حسن حسني عبد الوهاب، الطبعة الرحمانية، مصر 354هـ–1935 م، ص.9–10.

[2]– أبو المنصور عبدالملك النيسابوري، الثعالبي (ت 429هـ): التمثيل والمحاضرة، تحقيق د.قصي الحسين، ص.91.

مظهرِهِ و"صقل ثوبه وعمامتهِ وجمال دابته وتنظيف عدتها، وسرجها، ولجامها، وغُلامهِ".[1]

1 _ التجارة في العهد الأموي:

منذ عهد النبوة القرن الأول الهجري/ السابع الميلادي، ورقعة دار الإسلام تتسع لتبلغ حدود جبال الألب والمحيط الأطلسي غربًا، إلى حدود نهر السند المجاور للممالك الهندية وبلاد ما وراء النهر المتاخم لبلاد الترك، والإمبراطورية الصينية في الشرق، وكونت الدولة الأموية بفضل فتوحاتها الواسعة كيانًا إقتصاديًا شمل في جوهرِهِ الرقعة الهلنستية القديمة، والقسم الجنوبي من مستعمرات الإمبراطورية الرومانية ومنذ أن وصلت الجيوش الإسلامية إلى نهر أموداريا، دخلت في حيازتها أكبر الحواضر التجارية لما وراء النهر، التي كانت تعرف ببلدان التجارة، لما احتوتهُ من سلع وبضائع سيما تلك القادمة من الصين شرقًا أو الهند جنوبًا، فتجار في بلاد الصغد وفي مقدمتهم بيكند مدينة التجار وبخارى وسمرقند[2]، واصلوا ممارسة نشاطهم التجاري بالرغم من عمليات الفتوح العسكرية، ففي رواية للطبري ضمن أحداث عام 104 هـ /723م،في عهد اليزيد بن الملك، قام القائد الخَرْشِي بتأديب أهْل مدينة خجندة السُغدية، حينما قتلوا مئة وخمسين أسيرًا مسلمًا كان تحت أيديهم –وفي رواية أربعونمسلمًا– وبعد أن تحقق القائد من صِّحَة

1– أبو الفضل جعفر بن علي الدمشقي (5– 6هـ): الإشارة إلى محاسن التجارة ومعرفة جيد الأغراض ورديئها وغشوش المُدلسين فيها، تحقيق: البضرى الشوربجي، مكتبة الكليات الأزهرية القاهرة 1977، ص.69.

2– إبن خرداذبة: المصدر السابق، ص.ص.25–179.

الخير قام بقتل دهَّاقِيّ[1] خجندة، وعزل التجار وبَلغ عددهم في هذهِ البلدة وحدها أربعمائة تاجر وكانوا قد قَدِمُوا قريبًا من الصين وكان معهم أموالاً عظيمة، ورفض التجار قتال المسلمين، وبعد نهاية المواجهة "إصطفى أموالهم وذراريهم وأخذ منهُ ما أعْجَبَهُ"، وأبقى عليهم، وسمح لهم بمواصلة نشاطهم التجاري [2].

ويُستشَّف من هذهِ الرِّوَايةِ أن أغلب سكان المدن الكبرى لما وراء النهر، كانوا يمارسون التجارة فمثَّلوا قوة اقتصادية، لم يغفل عن مدى أهميتها حكام خرسان، فآثروا الإبقاء عليهم بالنظر إلى فعاليتهم التجارية، في حين لم يتسامحوا مع دهاقين النبلاء الذين كانوا يعتبرون مواليهم ونوابهم في إدارة الأقاليم.

كان واضحًا منذ البداية، تقدير الحكام المسلمين للأهمية الإقتصادية لما وراء النهر، وحرصهم على المحافظة على سلامة نشاطها التجاري، لاسِيمَا وأنها عُرِفَت بباب التجارة ومقصد التجار والسلع الصينية وفي مقدمتها بضاعة الحرير الأغلى ثمنًا، حيث كان تعقد بهِ أكبر الإتفاقيات حتى الحربية منها، ففي هذا السِّياق ذكر الطبري أن أحد ملوك الترك ويُدعى "كورصول" إستأجر خمسة عشر ألف رجل لقتال المسلمين ومَنْعِ نصر بن السيَّار وجيشهِ من عبور نهر الشاس – سيرداريا– وقد كان كل جندي يتقاضى شهريًا شقة حرير مقابل خدمتهِ وبلغ ثمن الشقة حينها خمسة وعشرين درهم .[3]

---

[1]– مفردها دِّهْقانُ بالكسر والضم: القويُّ على التصرف مع حِدَّة، وزعيم فَلاَّحي العجم، ورئيس الإقليم لفظ أعجمي مُعَّرَبْ، والإسم الدَهْقَنَة وهي البهاء. يراجع: الفيروز آبادي مجد الدين محمد بن يعقوب (ت 817 هـ):مادة: الدَّهْقَان في القاموس المحيط، تحقيق: محمد نعيم العرقسوسي، ط.2، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1993 م، ص. 1546.

[2]– الطبري: تاريخ الأمم والملوك، مج4، ص.102.

[3]– الطبري: المصدر السابق، مج4، ص.200.

وأشار بارثولد أنهُ بمجرد توطيد الإسلام سيطرتهُ على كل آسيا الوسطى، بدأ المسلمون في ممارسة التجارة مستخدمين الطرق التجارية المعروفة، وهذا ما تفيد بهِ المصادر الصينية فابتداء من الثاني الهجري /الثامن الميلادي، قطعت قوافل المسلمين التجارية المناطق الممتدة من بلاد الكرلوك إلى غاية المجرى العلوي لنهر إينسي L'Iénisséi، مُتوجهين إلى بلاد الأتراك الكرغيز، كما سجلت الحوليات الصينية أنه منذ عام 924 م بدأ التجار المسلمون يظهرون في منغوليا.(1)

2 ـ التجارة في ما وراء النهر في العهد العباسي:

يرى أشهر المستشرقين الغربيين أنه لم تحصل الإنطلاقة الحقيقية للتجارة البَرِّية والبحرية منها إلاّ مع قيام الدولة العباسية وإنتقال مركز الإمبراطورية إلى الجزيرة العراقية في بغداد، التي كونت حلقة وصل بين تجارة الشرق ودمشق غربًا نحو الموانئ الشامية من جهة وإتصالها أي بغداد–بميناء الأُبُلَة البصري الذي يربطها عن طريق الخليج الفارسي بسواحل مدن المحيط الهندي وصولاً إلى الصين في أقصى الشرق.(2)

وشكلت منطقة آسيا الوسطى الخلفية للحضارة والاقتصاد في العهد العباسي وساهمت طرقها المتشابكة، والمتقاطعة في توسيع نطاقها الإقتصادي عامة، والتجاري خاصة. وكانت

1– Barthold.w: Histoire des Turcs d'Asie centrale, adaptation française françois, M. Donskid, Librairie D'amerique et D'orient, Paris 1945, P.35-36.

2– أندري ميكال: جغرافية دار الإسلام البشرية حتى منتصف القرن الحادي عشر، تر: إبراهيم خوري منشورات وزارة الثقافة والإرشاد القومي، دمشق، 1983، ج1، القسم الثاني، ص.146، Lombard Maurice : L'Islam...., P.42,43

مدنها الكثيرة الواقعة في الواحات[1]، والتي اشتهرت بقنوات الرَّي فيها مأهولة بفئة التجار الأكثر ثراء حينها، وذوي شبكة واسعة من العلاقات، يتحدثون كلهم بلغة التجارة، وهي اللغة الصغدية وازداد نشاطاهم بتحفيز الإدارة العباسية لهم، فاستقرت المراكز التجارية في بلخ ومرو وبخارى وسمرقند وكشغرد، وكان هناك تبادل للسلع والأفكار والتقنيات بشكل كثيف، فكانت المنطقة أشبه بجزيرة صغيرة تتعرض لمختلف التيارات الهوائية على تنوعها[2] فما وراء النهر ملتقى الطرق بين الصين شرقًا، والهند جنوبًا وترتبط بها الطُرق المُؤَدِية إلى الغرب.

فطيلة القرن الثاني الهجري/ الثامن الميلادي حرص المسلمون على تحصين المنطقة المتمدنة – كما وصفها بارثولد – وحمايتها من أخطار الغزوات التركية المجاورة للصفة الشرقية لنهر سيرداريا (سيحون) وزرفشان، فأنشأوا بالقرب من هذهِ الأنهار وعلى طول امتدادها أسوارًا دفاعية وخنادق، لحماية السكان ونشاطاتهم الإقتصادية، والجدير بالذكر أن المنشآت التحصينية المذكورة، لم تكن جديدة في هذهِ المنطقة الحيوية، وإنما كل من سيطر عليها منذ القرن الرابع قبل الميلاد انتهج هذا النهج في تحصينها وحماية واحات مَرْو من نهب غزواة البدو.[3]

ويُزَّوِدُنا الجغرافيون والرحَالة المسلمون في القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي، وفي مقدمتهم الاصطخري بصورة عن ثروات ما وراء النهر ومقوماتها الإقتصادية وشكل المستوى المعيشي لأهلها، فبحسبهم يغلب عليهم الثراء وسعة العيش، وذلك لخصب أراضيهم وكثرة

1– ذكر ابن حوقل أن المعتصم سأل عمن يمكن حشدهُ من خرسان وما وراء النهر، فكتب إليه نوح بن أسد بن سامان أن بخرسان وما وراء النهر ثلاثمائة ألف قرية إذا خرج منها فارس وراجل لم يبين على أهلهم فقدهم، يراجع ابن حوقل: المصدر السابق، ص.387.

2– Lombard.M : op.cit, P.59.

3– Barthold.w : op.cit, P.32.

حرفهم وتجارتهم، فجعل أثريائهم سبل نفقاتهم في عمارة الرباطات والحصون، فهي الثغور الشرقية لبلاد الإسلام وقد يفوق عددها عشرة آلاف رباط تؤمن المسافر فيها، ويجد بها طعامهُ وعلف دابته، كما تنتشر فيها سبل الماء الجمد من عيون سقاية مبنية، وجباب منصوبة، تساهم في تيسييرْ حركة المسافرين[1]، فالمنطقة مهيئة للنشاط التجاري.

أما ابن حوقل النصيبي الرحالة التاجر الذي اتخذ من التجارة وسيلة لفهم خصائص الأقاليم، وطبائع الشعوب، يُعدد ثرواتها، ويقول أنه غلب على ما وراء النهر، كثرة المدن والقرى التي تشقها قنوات السقي مع وجود مراعي واسعة ومزارع، وفيها من إنتاجهم للدواب ما فيه كفايتهم مع كثرة ارتباط حياتهم بها، كالبغال ولديهم من الجمال أجودها، والإبل، والحمير، والأغنام، وما يفضل يصدرونهُ للأتراك الكارْلوك، كما كانوا يتاجرون بما يفضل لديهم من صناعة الملبوسات الصوفية أو القِّز (الحرير)، كما تزخر ما وراء النهر بمعادن الحديد، وما يفضل عن حاجاتهم يتاجرون بهِ، إلى جانب وفرة معادن الذهب، والزيبق الذي لا يُضاهى في كثرتهِ.[2]وتعتبر أنواع الأوبار وفراء سناجب والثعالب من أهم السلع المصدِّرة من وراء النهر فضلاً عن مادة الزعفران.[3]

عرفت تجارة ما وراء النهر في العهد الساماني حركة ونشاطا كبيرين، فلم يعد اهتمامهم يصُبُ على ترميم الأسوار والسَّهَر على تقويتها؛ وإنما شرعوا في توسيع حملاتهم العسكرية في سهوب التركية، الكُرْلُكِية والغُزية وفي بعض الأحيان كانت هذهِ الغزوات

---

[1]– الإصطخري: المصدر السابق، في ج إ، مج.34، ص.290.

[2]–إبن حوقل: المصدر السابق، ج إ، مج 25، ص.464.

[3]– الإصطخري: المصدر السابق، في ج إ، مج 34، ص.288.

تؤدي إلى فتح عدد من المدن، ففي عام280هـ/ 893 م فتحت نهائيا مدينة طراز "أوليا أطا" حاليا الواقعة بالقرب من نهر طلاس، ولكن هذا لم يتعدَّ المدن المجاورة القريبة.[1]

وفي ذات الوقت سعى آل سامان، إلى تشجيع التجار المسلمين بتوسيع آفاق التجارة الإسلامية، في القرى التركية السَّهبية الواقعة ضمن نطاق سلطة الممالك التركية المجاورة للمسلمين، فتكونت بذلك مستوطنات تجارية إسلامية، ففي هذا السياق نجد ما نقلهُ لنا الرحالة ابن حوقل شاهدًا على ذلك حيث سَجَّل أنه على طول نهر الشاش (طشقند)، الذي هو حد بلاد الإسلام مع الترك، يستقر المسلمون في مدن كثيرة في أراضي الأتراك الغزية، غربا حيث المجرى السُفلي للنهر بالقرب من بحيرة خوارزم (الآرال)، وأشهر مُدنِهَا "القرية الحديثة" ويبدو أنها أنشأت في زمن الهدنة ، وهي قريبة من "جند" ومن مكان إقامة ملك الغُّزية، ويخضع المسلم فيهالسلطته[2]، ويرى بارثولد أن بفضل نشاط هؤلاء التجار المهاجرين انتشر الإسلام في هذهِ المنطقة وسُهوب منغوليا.[3]

وكان الاستقرار السياسي واستتاب الأمن في العهد الساماني 203 ـ 395م/ 819 ـ1005م كفيلا برواج التجارة، وانتشارها واتساع أفقها، خاصة وأنهم سيطروا على مناطق التخوم المطلة على الأقوام الهندية والتركية،فضمن التجار الأجانب ربحًا هادئًا، أضف إلى ذلك المصاهرة التي حدثت بين السامانيين، وملوك الصين زمن الأمير نصر بن أحمد أدت

1– Barthold .w : op.cit, P.48.

2– ابن حوقل: المصدر السابق، ج إ، ج25، ص.419.

3– Barthold.w : op.cit, P.48.

إلى تحسين العلاقات السياسية وبالتالي إلى تأكيد الصلات التجارية بين الطرفين ففتح أمام التجار العرب والمسلمن الطريق إلى الصين.[1]

ثانيا – طريق الحرير؛ التسمية والأبعاد:

يعتبر القرن الثاني قبل الميلاد؛ الفترة التي تأسستْ فيها قوتان دوليتان،هما إمبراطورية أسرة هان التي وحدت الصين، والإمبراطورية الرومانية في أوروبا والتي شرعت في التوسع على حساب كل الممالك والدول المحيطة بها، وسجل هذا القرن افتتاح طريق الحرير التجاري على إثر الرحلة الإستكشافية،الرَّسمية التي قام بها رئيس حرس أبواب القصر الإمبراطوري وهو تشانغ كيانTcheng K'ien، بأمر من الإمبراطور الصيني وو–تي Wou-Ti (140– 87 ق.م)، إلى بلاد آسيا الوسطى فاكتشف حينها،أهميتها الإقتصادية والإستراتيجية بالنسبة للصين وبالنظر إلى ترويج البضائع الصينية وأولها الحرير، فضلاً عن ثرواتها الحيوانية، وفي مقدمتها الخيول، وكذا ثرواتها الغذائية والصناعية، كل هذا جعل من تشانغ كيان يحرص على تشجيع الإمبراطور على ربط العلاقات والانفتاح على آسيا الوسطى، ففتح ما عرف إصطلاحًا بطريق الحرير[2].

أصبح واضحًا الروَّاج الواسع الذي لاقتهُ عبارة "طريق الحرير" التي أطلقها الجغرافي الألماني **فون ريختهوفنVon Richthofen** في نهاية القرن التاسع عشر الميلادي، للدلالة على نشاط التجاري لمدن وواحات آسيا الوسطى،، حتى أنها أصبحت تستخدم بشكل كبير في كل الدراسات التاريخية والإقتصادية. فطبعت نشاط المنطقة ظاهريا بحصرية تجارة

---

[1]– قحطان عبد الستار الحذيفي: "دراسات في التنظيمات الإقتصادية لخرسان في القرن الرابع للهجرة، التجارة"، في **مجلة الخليج العربي**، المجلد العشرون، العدد 4، 1988، ص.ص. 49–50.

[2]– Pernot François : Les routes de la soie, P.33.

"الحرير" دون غيرِهِ، فهذهِ التسمية فرضت منظورًا ضَيِّقًا للتجارة في آسيا الوسطى وحصرها في الحرير، حيث يتبادر لأذهان المتلقي أنه لا يوجد بين الصين والدول والشعوب غربًا سوى مبادلات "الحرير" وكأنهُ "نهر طويل من الحرير" يجري من الشرق مُتجها نحو الغرب دون إنقطاع، ليُلبيَ حاجيات الغرب المولع بهذهِ البضاعة الفريدة الرفيهة. بينما الواقع التاريخي مختلف تمامًا، فهو أكثر تعقيدًا ومخالفًا في نواحي كثيرةٍ لهذهِ التسمية.[1]

ففي الواقع لا يوجد طريق حرير واحد، وإنما هي شبكة من الطرق، ومن جهة أخرى ليس "الحرير" مع أهميته التجارية- إلاّ نوع واحد من جملة أنواع البضائع التي رافقت الحرير في باقي رحلتهُ إلى الغرب مرورًا بالمدن التجارية لهذه الشبكة الواسعة من الأسواق، وهي بضائع لا تقل عنها أهمية ورفاهية كالذهب والفضة وغيرها.[2]

فضلاً على ذلك، فإن المتصفح للنصوص الصينية القديمة، يكتشف ألاَّ أثر يشير فيها لمصطلح "طريق الحرير" وأكثر من ذلك يجد في مخطوطات مدينة دان هوانغ Dunhuang وطورفان Turfan زخما كبيرا من المعلومات الخام والحقائق حول الحياة اليومية ونشاط هذهِ المدن التجارية. [3]

1–قحطان عبد الستار الحذيفي: "دراسات في التنظيمات الإقتصادية لخرسان في القرن الرابع للهجرة، التجارة"، في **مجلة الخليج العربي**، المجلد العشرون، العدد 4، 1988. P.107 ,

2– Pernot.F : op.cit., P.44.

3– Tombert Eric: Textiles… P.107.

1- المسالك التجارية في آسيا الوسطى:

كان القسم الشرقي من آسيا الوسطى والمعروف أيضا تركستان الشرقي هو المنفذ للتجارة مع الصين منذ عهد أسرة هان الصينية الأولىHan Antérieurs(206 ق.م-8 م)، لاسيما في عهد الإمبراطور "ووتي WUDI" (187-141 ق.م).[1]فعندما أرادت الصين التوسع غربًا وأطلقت أول كتيبة استكشافية -كما مرّ بنا- نحو فرغانة أنشأت مكتب بريد في توانغ هوانغ Dun Huang/ دان هوانغ Tuan-Houang ثم عملت على فرض سيطرتها على عصابات منطقة لوب نور، وجعلتهم أتباعًا لها، وذلك لتحقيق سير جيوشها وتأمين قوافلها التجارية في آسيا الوسطى.

فبعد اتخاذ كل هذه التدابير انطلقت الحملة نحو البلاد الغربية، والملاحظ أن الطريق الذي سلكته هذهِ الكتيبة، أصبح منذ ذلك الحين جزء من الطريق الرسمي الرابط بين الصين وآسيا الوسطى، فقد مَرَّت عبر شا-تشيوcha-tcheou، ثم لوب نور Lob- Nor ، ومنهُ نحو كورلا Kourla شمالاً واتبعت طريق مدينة كوتشاKoutcha، ثم أقصوAksou، فإلى كشغرKashgar، ولتضاعف الصين من تأمين مسلكها في هذه المناطق، أنشأت حينها محطة عسكرية تدعى لونغ تاي Loung-t'ai بين مدينتي كورلا وكوتشا[2]

1- Will.Pière-Etienne : Han Antérieurs 206 av.J-08 J.C Han Posterieurs 25-220 apr. JC, in ***D.C.CH***, Encyclopacdia universalis, Albin Michel- Paris, 1998, P.330-331.

2- Fernoud Gerard: Le turkestan chinois et ses habitants, mission scientifique dans la haute Asie, Ernest Leroux, Paris, 1898, P.204أنظر الملحق رقم.2 و4.

تناول عبد الحي الضحاك الكرديزي(ت 443هـ/1051م .) الحديث عن الطريقين الأساسين المؤديين إلى خمدان (شنغان) عاصمة الصين، فالطريق الأول عبر كاشغرد شمال حوض التاريم، والآخر وهو الأكثر سلوكا هو الجنوبي عبر ممر طورفانTorfan، نحو العاصمة خمدان الصينية، عبورًا بمدينة قارة خوجة في أراضي الطوغز أوغوز نحو مدينة قومول/ كاميلKomoul ، ومنها عبور الطريق الصحراوي إلى سور الصين والمرور منهُ للتوجهُ إلى خمدان العاصمة وتستغرق الرحلة مسيرةِ شهر من الزمن وتتواجد على الطريق رباطات ومنازل للإستراحة بالنسبة للقوافل.[1]

والملاحظ أن الطرق التي وصفها الكرديزي، هي نفسها المسالك التجارية المعروفة الممتدة من عاصمة الصين عابرة بوابات السور العظيم للصين ثم تقطع القوافل صحراء قوبي Gobi القاحلة ثم لان شو Lan-chou إلى دان هوانغ وهناك تتفرع إلى فرعين حول حوض التاريم؛ الطريق الأول الشمالي يسلك طورفان داريا حيث الكثبان الرملية المعروفة بالتنين الأبيض، للصحراء المالحة والتي هي جزء من بحيرة لوب نور، وهذا هو أخطر وأصعب المسالك التجارية في آسيا الوسطى، حتى أن أدِلاَّء القوافل سواء من ضغد أو بلخيين يُفضِّلُون تفادي المرور بمحاذات الصحراء والقيام بدورة كبيرة حولهُ للوصول إلى طورفان ثم عبر شيو تزو Ch'iu-Tzü في قانصو، ثم من كشغرد إلى فرغانة ومنها إلى سمرقند فخرسان نحو أنطاكية على ساحل البحر المتوسط.

---

[1]– أبي سعيد عبد الحي بن الضحاك بن محمود الكرديزي: زين الأخبار، تر:عفاف السيد زيدان المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة،2006، ص.ص. 384، 385؛ Yulle.H: op.cit., T1, PP.140-141

أما الطريق الثاني الجنوبي[1] فمن "دان هوانغ"، يعبر خوتان، وباركند إلى مدينة بلخ عاصمة إقليم باكتريا Bactria، ومنها نحو أنطاكية وحلب عبر أراضي فارس.[2]

ويمكن القول عامة أن الطرق التجارية الرابطة بين آسيا الوسطى، والصين شرقًا،والهند جنوبًا، بقيت معالمها الكبرى هي نفسها منذ افتتاحها في القرن الثاني قبل الميلاد إلى يومنا هذا؛ ويمكن تَتَبّع ملامحها، الواضحة، فمن مدينة شنغان العاصمة إلى مدينة لانزهو Lanzhou الواقعة على النهر الأصفر Houang-ho، والمحاطة بالجبال من كل النواحي؛ ينحرف الطريق نحو الشمال الغربي، ليسلك الحواشي الجنوبية للصحراء الرملية الحصوية قوبيGobi، ثم يَمُّر بالمدن التالية وُو–وَي أي مدينة الفضة، ومنها إلى المدخل الشرقي لممر قانصو Gansu؛ فبعد قطع مئة كيلومتر تصل القافلة إلى المركز التجاري جيا–يوغوان Jya-yuguan ، ويقع في أقصى جزء من سور الصين العظيم الذي إنْتُهِيَ من بناءِ في عهد أسرة مينج Dynastie des Ming (1368–1644م)، ثم تصل إلى دان هوانغDun-huang ، وهذهالمدينة هي آخر الواحات الشرقية في الصحراء القاتلة المعروفة ب" تكلا مكان Takla makan"، وأصل التسمية أيغورية تركية ومعناها المكان الذي لا

---

[1]–وقد نقلت إحدى الدراسات المتخصصة،عن السجلات الصينية تفصيلاً للمحطات على الطريق التجاري وأعطت حسابات دقيقة حول المسافة بين العاصمة شنغان وباقي المدن؛ فمن العاصمة إلى ليو–لان القريبة من لوب نور هناك 6.100 لي–اللي «Li» وحدة قياس المسافة صينية، 1 لي= 450 متر– ومنها إلاى قُورلا Kourla وهي يولي الحالية Yuli مسافة تقدر بـ 6.750 لي، ثم إلى بوغور Bougour مسافة 7.130 لي، ومنها إلى كوتشا مسافة 7.480 لي، ثم إلى أقصو Aksou مسافة 8.150 لي، ومنها إلى كشغرد، وللوصول إلى خوتان كان الطريق الجنوبي الذي ينفصل عن الطريق الول في مدينة ليولانLeou–lan ، ليصل إلى تشرتشن التي تبعد عن العاصمة بـ 6.820 لي ومنها إلى قنق Kenk إلى قيريا Kéria 9.280 لتصل القافلة إلى خوتان بعد قطع مسافة 9670 لي . Grenard Fernaud: op.cit., PP.204,205,206.

[2]– Mukhamedjanov.A.R: «Economy and social system in central Asia in the kushan age», in colloque **History of civilizations of central Asia**, Unesco Publishing, Vol.2, P.278-279.

رجعة منهُ، وهي صحراء تَتَمدّد منذ قرون لتبتلع مدن بأكملها، وتعتبر دان هوانغ مفتاح ممر قانصو من الناحية الغربية وإحدى جواهر طريق الحرير.[1]

وعند وصول القافلة إلى دان هوانغ تختار بين ثلاث مسالك كبرى حول حوض التاريم Tarim، وصحراء تكلا ماكان، أولها؛ الطريق الجنوبي القديم، المتجه نحو الغرب المار بمحذات السفوح الشمالية لجبال كون.لونKun lun، راسمة الحدود مع التبت لتصل إلى قمم الجبال الشاهقة في كراكورامKara koram، والطبيعة الخلابة لأعالي وديان باكستان لتصل إلى الهند في الجنوب، تُواصل نحو أفغانستان وجزء من آسيا الوسطى لتصل إلى موانئ سواحل البحر المتوسط وغيرها ثاني هذهِ المسالك إنطلاقًا من دان هوانغ هو الطريق الأوسط المار في ممرات سفوح جبال تيان شان، لتصل إلى مدينة كشغرد ومنها تسلك الطريق الجنوبي لقطع جبال البامير. ثالث هذهِ المسالك هو الطريق الشمالي المار عبر السفوح الشمالية لتيان شان، ثم يمُر عبر وادي الإيلي L’Ili، نحو طشقند Tachkent، ثم سمرقند وبخارى ليصل إلى أصطراخان Astrakhan، وتجدر الإشارة أن موقع المدينة في العصور الوسطى ليس هو نفسهُ موقعها الآن، حيث كانت تقع على الضفة اليسرى لنهر الفولقا Volga، شمال المدينة الحديثة، ومن ثمَّ إلى سواحل البحر الأسود، وبين هذه المسالك الثلاثة الأساسية هناك؛ طرق مُعترضة منها ما يقطع الصحاري أو الجبال.[2]

---

[1] – Pernot: op.cit., P.58.

[2] – Heyd : op.cit., P.226; Pernot: op.cit., T2, P.59.

أما عن الفترة الزمنية التي تستغرقها الرحلة، فهي من الناحية النظرية تستغرق بين ثمانية أشهر إلى عام كامل وذلك بحساب مدة الرحلة كاملة من شنغان إلى سواحل البحر الأسود شمالاً.[1]

2 – صعوبات وآليات المسالك التجارية؛

أهم ما تتصف به المسالك التجارية في آسيا الوسطى، أنها ليست ثابتة وواضحة المعالم، حيث تتعرض للطمس بعد تساقط الأمطار الأولى والثلوج؛ لذلك كان على أدِلاَّء القوافل إعادة فتح المسالك من عام إلى آخر، هذا إلى جانب انهيار بعض الطرق بفعل سيول الأمطار، ولذا يتعين دائما البحث عن ملامحها المطموسة، وكلها عراقيل تقف في وجهِ تَنقُّل القوافل، تسببها طبيعة الجبال والرمال والوديان. وتزداد صعوبة هذه المسالك حين تتساقط الثلوج ويغطيها الجليد فتصبح عملية إجتيازها خطيرة ومميتة، وأما الصحراء فإن المرور عبر أصغرها مساحة تعد مغامرة غير مضمونة النتائج، فكانت الصعوبات الطبيعية التي تهدد القوافل أكبر تحدًّ لأصحابها.[2]

كما لم تكن المسالك التجارية في آسيا الوسطى تخلوا من أخطار قطاع الطرق، وهجمات العصابات التي تسعى، إلى الربح السريع ومن أجل الدفاع عن أنفسهم كان التجار والمسافرون يتسلحون بشكل جيد؛ ولذات السبب لم يغفل القائمون على القوافل التجارية على تجهيزها بما يُؤمِّنها قبل ارتيادها المسالك التجارية، كما أنهم حدَّدُوا للقوافل مقدار المسافة

1– Pernot: op.cit., P.50.

2– Pernot.F: op.cit., P.49; Heyd: op.cit, T1, P.37.

المسموح لها بإجتيازها،ثم تتوقف في محطة مُعينة، أين يَتِمُ تبادل السلع والبضائع بين المتفاوضين التجار عند كل واحة أو خان أو مدينة، فلم يكن يُسمح للقافلة التجارية أن تجتاز المسافة كاملة ودفعة واحدة.[1] و كان يعمل على مراعاة، تعب ومشقة السفر بالنسبة للدواب من جهة حيث يتم استبدالها بأخرى، ومن جهة تساهم المحطات في أمن التجار وبضائعهم وأموالهم حيث يتم تصريف أغلبها في الخانات والأسواق أو استبدالها بسلع أخرى.[2]وفي إطار تأمين القوافل؛ كان التجار يحرصون على السفر في جماعات، حتى يتفادوا هجمات العصابات وقطاع الطرق.[3]

فكانت القوافل التجارية تضم جماعات كثيرة من التجار، فالقافلة الواحدة بين مئة إلى خمسمئة شخص، كما تكونت من أعداد من الحيوانات الناقلة والعربات خُصصت لقطع مراحِل مُعينة من الطريق، فمن جملة الدّوَاب نجد الخيول، البغال، العجول،والثور التبتي، والجمال . فما كان لهذا الطريق التجاري أن تكون لهُ الأهمية التي عرفها لو لم يقم بدو آسيا الوسطى بترويض جِمال إقليم بلخ ذات السنامين، والجمال العربية ذات السنام الواحد وهذهِ الحيوانات هي بحق سفن الصحراء، حيث تتحمل المناخ الجاف القاسي فتمضي عليها أيام عديدة دون ماء أو غذاء، وهي محملة ببضائع أكبر وزنا من الخيول نفسها، يقطعون مسافة خمسين كيلومتر في اليوم الواحد، في حين أن صاحب الجمال يمشي إلى جانب دوابه.[4]

1– Pernot.F: op.cit., P.50.

2– إبن بطوطة: المصدر السابق، ج.إ، مج. 176، ص.401.

3– Pernot.F: op.cit., P.53.

4– Pernot.F: op.cit., P.55.

وقد اختُصَّ كل قسم من أقسام المسالك البرية بنوع من أنواع الدواب ووسائل النقل المخصصة لها، وذلك حسب طبيعتها ووعورة مسالكها، فقد خُصِّصَ للقسم الشرقي من الطريق الجِمال ذات الشعر الطويل التي تتحمل درجات الحرارة المنخفضة، وتقطع المسافة من صحراء تكلا ماكان إلى جبال البامبير وتحمل بضائع وزنها مئة وخمسين كيلغرام.

أما الجمال العربية والبغال فقد خُصِّصَت للقسم الغربي من المسالك التجارية، بينما استخدم الخيل لاجتياز كل أقسام الطريق، ولم تكن تستغل الدواب في النقل فحسب، وإنما إستُخْدِمت جلود الجمال والعجل التبِّتي في صناعة أظرفة تُلف فيها حُزم الحرير وتربط بحبال مصنوعة من جلدهِ أيضا.[1]

ويعتبر ثور التبت" الياك «le yack» "هو أحسن من يقطع مرتفعات البامبير التي تعرف بـ "سقف العالم" Toit du monde لعلوها الكبير، فهذا النوع من الثيران عرف بقوته وصبره؛ ويتحمل بفضل رئتيه وقلبهِ المرتفعات العالية، ودرجة الحرارة المنخفضة فيها، كما أنهُ يحمل ما يقدر وزنهُ بـ مئة وثلاثين كلغرام، وفي نفس الوقت يَدُر الحليب وهذا ما تحتاجهُ القافلة ومسافريها في رحلتهم.[2]

ويتبين لنا وعورة المسالك البرية في آسيا ومشقتها، في مقدار المسافة المقطوعة واستغراقها في الزمن، وارتباطها بوسيلة النقل المستخدمة، فالمسافريقطع مشيًا على الأقدام مسافة أربعين إلى خمسة وأربعين كيلومتر خلال عشر ساعات، هذا في حالةالظروف المناخية العادية وجغرافية ملائمة، والمعدل المتوسط لسي قافلة بدوابها؛ الجمال أو البغال

[1] – Pernot.F: op.cit., P.55

[2] – Pernot.F: op.cit., P.63.

خمسة وعشرون إلى ثلاثين كيلومتر؛ أما باستخدام الخيل فتُقطع مسافة ثلاثين إلى خمسين كم في اليوم الواحد. هذا بينما تقطع السفينة في البحر مسافة 170 إلى 250 كم في مدة 24 ساعة وذلك حسب قوة وإتجاه الريح[1].وفي كل الأحوال؛ كانت المسالك البرّية الرابطة بين أراضي الخلافة الإسلامية والصين تعرف استقرارًا، كبيرًا فلم تكن هناك عراقيل من أي نوع، حول تنقل القوافل التجارية بين المحطات، ولكن الصعوبات التي كان يواجهها التاجر هي مشقة الطريق ومتاعبه ومخاطر المرور عبر صحراء "غوبي" و"تكلاماكان".[2]

3- دور الخانات في النّشاط التجاري:

تعود جذور الخان التّجاري إلى البدايات الأولى لتنظيم المسالك العامة للمسافرين والتّجار في العالم القديم، وتعتبر منشآت بلاد فارس وآسيا الوسطى منأحكم التّنظيمات وأرقاها، حيث كانت تعمل بانتظام لتسهيل مهام موظّفي البريد، ولكنّها كانت تحت إدارة الدّولة [3]، حيث سلكت البضائع التّجارية ما عُرِف بالطّرق الملكية منذ عهد ثمّ السّاسانيين من بعدهم، وكانت محطّات البريد الرّابطة بين مراحل الطّريق هي نقاط استراحة الموظّفين الإداريين للبريد فحسب، ولم يكُن يُعار إليها اهتمام كبير من الجانب المعماري فلا تعدو أن

---

[1]- Pernot.F: op.cit., P.53.

[2]- Heyd.W: op.cit., T_1, P.37.

[3]- البَريدُ: فرسخان، وقيل: ما بين كلّ منزلين بريد. والبَريدُ: الرّسل على دوابِّ البريد، والجمعُ: بُرُدْ، وبَرَدَ أرسلهُ. وفي الحديث أنّهُ، صلى الله عليه وسلم، قال: "إذا أبردتم إليَّ بريدًا فاجعلوهُ حسن الوجه حسن الاسم، البَرِيد الرّسول وإبْرادُهُ إرسالهُ منها قول العرب "الحُمّى بَريدُ الموت"، وسكَكُ البريد: كلّ سكّه منها إثني عشر ميلا، وفي حيث لا تُقَصَّرُ الصّلاة في أقل من أربعة بُرُد، وهي ستة عشرة فرسخًا، والفرسخ ثلاثة أميال، والميل أربعة آلاف ذراع، والسّفر الذي يجوز فيه القصر أربعة بُرُدْ وهي ثمانية وأربعون ميلاً. يراجع: ابن منظور: المصدر السابق، مادة "برد"، ج. 3، ص.ص. 85- 86؛ عبد الصالح محمد علي: "البريد في العصور الوسطى الإسلامية"، في **مجلة جامعة الأنبار للعلوم الإسلامية**، المجلد 4، عدد 15، نيسان 2013م.

تكون مباني لِمحطّات متواضعة أُنشِئت من تراب مُصلب ومكتنز وطين، لم يبق لها أثر مع مرور الوقت. ونظرًا لحيوية هذه المحطّات العبورية دخلت الإمبراطوريات في صراع مع الممالك المحلية من أجل السّيطرة عليها مثلما حدث للسّاسانيين في سيطرتهم على آسيا الوسطى، والإمبراطورية الصّينية والقبائل التّركية والمُغولية، حيث مرّ بنا كيف ألحقت الصّين بالقوة أكبر المحطات التّجارية في آسيا الوسطى[1].

ولم تعرف الخانات ازدهارًا وتطوّرًا معماريًّا ووظيفيًّا إلاّ في العهد الإسلامي، وقد كان يُعرف أغلبها في البداية بـ "چام" Jam أو "جام" «Djam» وهي تسمية فارسية كانت تطلق على البريد السّريع، وعرفت بها خانات كثيرة وأعطى السّلاجقة الأتراك اهتمامًا خاصًّا بالخانات منذ أن استقرّوا بخيمهم بالقرب من بخارى 375هـ/ 985م وشرعوا في تكوين دولتهم، فاعتنوا بإصلاح المسالك وعمارة الخانات وفرض الاستقرار الدّاخلي لتسهيل المبادلات التّجارية في كلّ آسيا[2].

فلمّا كانت المسافات التي تقطعها القوافل طويلة وشاقّة بمبيت ومأوى المسافرين على طول مسالك البريد؛ كان الخان محطّة لاستراحة المسافرين، ومستودع أو مخزن لإيداع السّلع والبضائع وغيرها، كما يعتبر في ذات الوقت مُنْشَأَة معمارية فُنْدُقيّة، فالخان «KHAN» في المشرق، أو قارُوان ساراي «Kāruān Sarāy»[3] مُنشأة معمارية ذات مهام اقتصادية

1– Siroux M.: Caravansérails D'IRAN et petits construction Routières, Mémoires Publies, Par l'Institut Français d'Archéologie Orientale Du Caire, 1949, P. 3.

2– Siroux M.: op. cit., P. 6.

3– الخان KHAN/ قارُوان– ساراي Kāruān Sarāy، وهي ما اشتهرت عند العرب بكارافانسّاريCaravansary، كلمة أصلها فارسي مركّبة من لفظين؛ قَارُوَان ومعناه الجيش أو مجموع من الناس، وسَرَايْ Saray معناها المنزل فهي مكان إيواء الجيش أو منزل القافلة ببضائعها وممتلكات مسافريها، كما يعرف المنزل. سراي Saray بالخان، فهي المباني التي تُستخدم لمبيت المسافرين وقد أُنشِئت خصّيصا عندما ظهرت الحاجة لإيواء الحجاج والمسافرين والتّجار وموظفي البريد وخدمتهم

واجتماعية متعدّدة، ارتبطت بالتّنظيمات الخاصة بالمسالك التّجارية في المشرق، لكنّ الخان حظِي بعناية كبيرةٍ في العهد الإسلامي، وأصبحت وظائفه وشكلُهُ المعماري المتميّز، والوظيفي من أهمّ علامات الحضارة الإسلامية من النّواحي الفنّية والاقتصادية. عُرِفَ "الخان" عند المسلمين مشرقًا ومغربًا تحت مسمّيات كثيرة فهو "دار التّجار" و"تِيم" والفندق، وهذه مُسمّيات تختلف من إقليم إلى آخر[1].

كما عُرِف بالرّباط والمنزل، وكانت الخانات منتشرة بكثرة في ما وراء النّهر، بوصفها النّطاق الحيوي لتجارة الشّرق، وحظيت هذه الأربطة وعمارتها بالعناية الكبيرة من طرف أهالي ما وراء النّهر، مثلما اهتموا واعتنوا بتهيئة الطّرق الرّابطة بينها، فكانوا يخصّصون نفقاتهم لتُنْفَقَ عليها، وقد ساهم هذا في ازدهارها، ووفرتها فذكر ياقوت الحموي أنّ عددها زاد فيما وراء النّهر وحدها "على عشرة آلاف رباط" قد يفضل منها عند الحاجة إليها، وتقوم كلّها على خدمة القوافل التّجارية، والمسافرين يوفّرون لهم "عَلَف دوابّهم وطعام أنفسهم إلى أن يرحلوا"[2].

وكانت الحاجة إلى تأمين راحة المسافر وحمايته من قطّاع الطّرق واللّصوص هي الهدف الذي من أجلِه أُنشِئت الخانات، لاسيما في المناطق التي شكّل فيها البدو وسكان الجبال تهديدًا كبيرًا على أمن التّجار وأموالهم، فأصبح عنصرًا لا يمكن الاستغناء عنه في

وحمايتهم من قطّاع الطّرق، وقد تعدّدت أسماؤها في العصر الإسلامي، فعرفت بالرّباط وتعني المنزل المحصن على الطّريق البرّي التّجاري، ثمّ اشتهرت باسم "كرفان ساراي الشاه عباس" التي بناها الشّاه عباس 996هـ- 1038هـ/ 1588- 1629م، وقد أطلقت هذه التّسمية على كلّ الخانات التي أُنشئت بعد القرن العاشر الهجري. للمزيد يراجع: MAXIME SIROUX: «CARAVAN SARAY», in **E.IR**. London 1990, vol. 9, P.P. 798-802.

[1]- المقدسي: أحسن التّقاسيم في معرفة الأقاليم، ج.إ.، مج. 36، ص. 31؛ الثعالبي: لطائف، ص. 126.

[2]- ياقوت الحموي: المصدر السابق، ج.إ.، ج. 1، مج.، ص. 46.

التّجارة على المسالك البرِّية والبحرية أيضاً، وحاجة ضرورية في المناطق التي يَشُحُّ فيها الماء وموارد التَّزويد بالمُؤَن والغذاء بالنّسبة للقوافل. ويبدو أنّه كان في البداية عبارة عن أرض مُسوّرة تحيط بعين ماء والذي تطوّر مع الوقت لِيُصبحَ مُنشأة معمارية اجتماعية واقتصادية الوظيفة.

كان عدد الخانات كبيرا في المشرق، فالخانات كانت علامات منصوبة على طول المسالك التّجارية تخُطُّ الطريق للقوافل وتربط غرب آسيا وأواسطها بالمناطق التي سمّها موريس لومبارد بـ" **إقليم البرازخ «Région des Isthmes»** " أو إقليم الممرّات التّجارية في آسيا الوسطى[1].

كما تنوّعت الخانات بحسب مواقعها؛ فمنها ما كان يقع على الطّرق ومفارقها أو على مجاري الأنهار ومراكز الحدود ومنها ما احتل مداخل المدن، بالقرب من أسوارها، وداخله أيّام السلم، أو في قلب الأسواق وجوار الحمام أو المسجد، وخلال القرن الخامس والسادس الهجريين/ الحادي عشر والثاني عشر الميلادي، كانت المخازن الكبرى تسمّى بـ "الدّار" ويضاف إليها صنف البضاعة المتخصّصة به فيقال: دار الوكالة للتّجارة، ودار القزّ،ودار القطن ودارالخيل، ثمّ لاحقًا عُمِّمَتْ تسمية الخان[2].

وتقدر المسافة بين خان وآخر بنحو، مسيرة يوم واحد – حوالي ثلاثين كيلومترا– وتتواجد في المناطق السّهلية أو في الجبل، ويتحكّم في كثرة أو قلّة عددها، درجة رفاه وازدهار المناطق. ولم يكن الخان مأوى للتّجار فحسب وإنّما محطّة يمُرُّ بها الحجّاج

1– Lombard Maurice: L'Islam dans sa premiére grandeur,8-11siécle, Flammarion, 2édition,2014, P.57.

2– عبد الكريم غالب: موسوعة العمارة الإسلامية، بيروت، 1408– 1988، ط.1، ص. 156.

والمسافرون عامة، فكانت مركزاً للتبادل الفكري والتّأثير الثّقافي للأفراد القادمين من مختلف آفاق العالم حينها، وقدعَرَفَ الخان ازدهارًا ورخاءً كبيرًا ابتداءً من القرن الأول الهجري/ السابع الميلادي إلى القرن الثامن الهجري لاسيما في فارس والشام ثمّ في آسيا الوسطى. وللخان في المشرق وآسيا مجموعة من المواصفات التي يجب أن تتوفّر فيه، حيث يشترط أن يوفّر أمن المسافرين ودواءهم، مع توفير أماكن خاصّة لتخزين بضائع القوافل حسب مُدّة مكوث القافلة في الخان[1].

يبدو شكل الخان من الخارج، مبنى مربّع الزوايا ذا طابقين في أغلب الأحيان كما انه يحتوي على مرافق هامّة؛ فإلى جانب غُرَف لإقامة المسافرين، كان هناك مصلى وحمام، ومحلات خاصة لراحة الدّواب، وحضائر مسقوفة خصّصت للخيل، والحمير مرابط فردية للبغال والجمال ذوي السنام (العربي) أو ذوي السنامين حسب المناطق، ويراعى في إيواء هذه الحيوانات طبع كلّ نوع منها، ذلك أنّ الخيول لا تتحمّل روائح الجمال، وكذا البغال لا تتقبّل مُساكنتها مع الحمير[2].

جُهِّزت الخانات بمرافق، وخدمات أخرى كلوازم إصلاح المركّبات ومُعدّات للعناية بالدّواب ورعايتها وبيطري للنّظر في سلامتها، هذا إلى جانب مرافق للمسافرين أساسية كالحمام والمصلى والمطعم. والملاحظ أنّ خانات السّهول كانت أوسع من خانات الجبال، وإجمالا كان للخان في العهد الإسلامي تصميمان، إمّا فارسي بقاعات متطاولة موازية للصّحن المركزي وإمّا طراز البحر القديم وهو بأربعة أضلاع وصحن مركزي تحيط به

1- Elisséeff Nikita : op. cit. P. 1034.

2- بروشاني إيريج وآخرون: البازار السوق في التراث الإسلامي، مركز الحضارة لتنمية الفكر الاسلامي، بيروت، 2012، ص42؛ Elisséeff Nikita : op. cit., P. 1034.

الأروقة، ومع هذين الشّكلين العامَّين تميّزت الخانات السّلجوقية خاصة في بلاد فارس، وما وراء النّهر والأناضول والشام[1].

ثالثا: الوسطاء التجاريين في آسيا الوسطى :

1- التجار الصُّغد: Les Soghdak

كان العنصر الصُّغْدي[2] من بين أقدم العناصر البشرية، المكونة لمجتمع ما وراء النهر، والأكثر نشاطًا، في أسواقها الداخلية والخارجية، وذلك بالرغم من وجود مُنافسة قوية

[1]- غالب عبد الرحيم: المرجع السابق، ص. ص. 152- 153.

[2]- ينسبون إلى أرض الصغد التي كانت في الأصل تشمل أحواض نهري زرَفشان Zérafchan وكاشكاداريا Kashka Darya وتحديدًا تعني سمرقند وكل الأراضي المحيطة بها، ولكن في بعض الفترات التاريخية كانت تتسع نطاقها إلى حيث انتشر إستخدام اللغة الصُّغْدِية، ففي القرن الثامن إتسعت أراضي الصغد لتشمل في الشمال الشرقي أُشروسنة، الشاش، والشمال الغربي سِمرِشيSemirechye، وردت تسمية الصغد في أقدم الكتب الدينية الفارسية وهي الأفستا Avesta الزرادشتية، واعتبروا بذلك أقدم من سكن هذه المنطقة وينتمون إلى الفرع الإيراني للشعوب الآرية،الناطقين باللهجة الإيرانية المتصلة باللغة الفارسية الكلاسيكية، مستخدين شكل وحروف اللغة الآرامية، وأصبحت اللغة الصغدية هي اللغة العالمية لآسيا الوسطى ودعمت بذلك دور "الناشر" الذي أتقنهُ الصُغديون على كل الأصعدة فتركوا إرثا كبيرًا، حيث تَمَّ إكتشاف في كل من "كوتشو Qotcho" القريبة من طورخان، وفي دان هوانغDunhuang، عددًا كبيرًا من المخطوطات باللغة الصُّغدية، هذا إلى جانب أن الحروف الآرمية استخدمت كأساس لإخراج الحروف الجديدة أو أبجدية كتابة الأيغورية ثم المُغُولية فيما بعد.[2]استوطنوا منطقة الوديان الخصبة لنهر زِرَفشان- أوزبكستان وطاجكستان حاليًا- المعروف لدى الجغرافيون المسلمون منذ القرن الرابع الهجري بنهر الصُغد، وبالرغم من أنهم المنشئين لأكبر حواضر آسيا الوسطى، سمرقند وبخارى، بقى الصغد مجهولون بالنسبة لجمهور واسع من الناس وعرفوا في الفارسية القديمة بالسويداSuyda، كما عُرِفُوا في الأكادية القديمة ب سو.غو.دا Su.gu.da، وعند الإغريق صغديانة Sughdianéوعُرفُوا لدى الصينيين خانغ- كيو Khang-Kiu وكانوا ناطقين باللغة الإيرانية واعتبروا الأكثر تمدنا من بين كل من سكنوا آسيا الوسطى، ولم تنقطع الإشارة إليهم في المصادر القديمة والوسيطة، طيلة خمسة عشرة قرن المذكورة لدورهم الثقافي في نشر المعتقدات، والإقتصادي في تنشيط التجارة للمزيد يراجع: Mochiri. I. Iskender : History of civilization of central Asia, the crossroads of civilisations : A.D. 250 To 750. Vol III, UNESCO Publishing, 1996, P.238; De Rialle.G: mémoire, P.31. Boulnoi luce : op.cit., P.259.

مع جيرانهم من خوارزميين وبلخيين "باكتريان"«The Bactrians» ، لاسيما وأنهم كانت تربطهم صلات تجارية قوية مع الصين وذلك منذ القرن الثاني للميلادي إلى حدود القرن الثامن، فكانوا أساسًا للتبادل التجاري معها، وكانوا المتعهد التجاري لهم في منطقة الاستبس وآسيا الوسطى والمسؤولين بامتياز على كل المبادلات التجارية.[1]

الشعب الصُغدي أو كما يعرفون بإيرانيون ما وراء النهر.[2]استوطنوا منطقة الوديان الخصبة لنهر زِرَفشان- أوزبكستان وطاجكستان حاليًا- المعروف لدى الجغرافيون المسلمون منذ القرن الرابع الهجري بنهر الصُغد، وبالرغم من أنهم المنشئين لأكبر حواضر آسيا الوسطى، سمرقند وبخارى، بقى الصغد مجهولون بالنسبة لجمهور واسع من الناس.[3]

كان للعنصر الصغدي منذ القديم احتكاك بثقافات خارجية صقلت شخصيتهُ وساعدتهُ على التمدن وتكوين ثقافتهُ الخاصة، فنظرًا لسيطرة الفرس على ما وراء النهر منذ عهد داريوس الأكبر (521-485 ق.م)، انتشرت في المنطقة الثقافة الفارسية الكلاسيكية، والجدير بالإشارة إليه إلى أن كلا من العنصر الفارسي القادم من بلاد فارس، وأهالي ما وراء النهر ينتمون إلى نفس السلالة الإيرانية- الآرية أو ما اصطلح عليه العنصر الأبيض «white race» والناطقين بنفس اللغة، وبالتالي فإن الغزو الفارسي لم يُحدث تغييرًا سواء على

1- De la vaissière Etienne : Histoire Des Marchands soghdiens, collège de France, Insitut des hautes études chinoises, Paris, 2002, PP. 07-09.

2- Boulnoi luce : op.cit., P.259.

3- Mc Covern William Montgomery : The early empires of central Asia , a study of scythians and the huns and the part they played in world history, the university of north Carolina Press, 1939. P.60.

مستوى التركيبة البشرية أو اللغوية لسكان المنطقة، كما كانت الديانة الزرادشتية «The Zoroastrianisme» هي السائدة.[1]

ثم كان لغزوات الاسكندر المقدوني 330 ق.م أثرها بوصول الثقافة اليونانية للمنطقة، خاصة بمصاهرته لهم، والحاق إقليم باكتريانا "بلخ" وبلاد الصغد من خلفها بالإمبراطورية المقدونية[2]، وفي منتصف القرن السادس الميلادي شهد أهل الصغد، وآسيا الوسطى أحداثا، غيرت من تركيبتها السكانية وأضافت إليها عنصرًا بشريًا جديدًا، فبعد قيام مملكة الأتراك– توكيو «Tou Kiue» – عام 552 م على حساب قوة "جوان– جوان"، استعان الملك الفارسي خسروا أنو شروان، بالأمير التركي " إستامي" المعروف في المصادر الصينية بـ"شي تي مي She-tie-mi"، للقضاء على خصومهِ الهياطلة الذين كانوا يقطنون بلاد الصغد وجنوبها، وتمكن الأمير من القضاء على قوتهم عام 567 م، وألحق كل ممتلكاتهم بالأتراك، فأصبحت بذلك بلاد الصغد وكل آسيا الوسطى إلى حدّ نهر أوكسوس oxus (أموداريا)، ضمن الإمبراطورية التركية، وشُرِعَ في تتريك المنطقة وعرفت منذ ذلك الوقت بتركستان، وفي هذهِ المرحلة تَبوَّأ التجار الصُغْد مكانة مرموقة فكان لهم دورٌ كبير في إنهاء التحالف بين الأتراك والساسانيين الفرس، وذلك بسبب مصالحهم التجارية فقد كان لهم في عهد الهياطلة دور الوسيط في تجارة الحديد،وأرادو في عهد أسيادهم الجدد الأتراك أن يذهبوا بتجارتهم إلى الداخل الفارسي وعندما لم تنجح مساعيهم ورفض الساسانيون ذلك، ذهب الصغديون في سفارة إلى بيزنطا –بموافقة الأتراك– وطلبوا من الإمبراطور جستنيان الثاني Justin II الموافقة, على أن يكونوا هم المتعهد الوحيد لبيزنطا فيما تحتاجهُ من تجارة الحرير، متجاوزين

---

[1]– Mc Corven Montgomery: op.cit, P.64.

[2]– Mc Corven Montgomery: op.cit, P.66.

بذلك الدور الفارسي، وهو ما أدى إلى دخول بيزنطا وفارس في حرب طويلة أنهكت الإمبراطوريتين فيما بين 571–590 م.[1]

وبقي أهالي بلاد الصُغد وفرغانة وخوازم محافظين على اللغة الفارسية، طوال العهد العربي الإسلامي؛ العهد الساماني ثم السلجوقي وعهد الأمراء الخوارزميين، وحين جاء الغزو المغولي، وبفترة زمنية قصيرة أصبحت اللغة التركية هي الطاغية على آسيا الوسطى.[2]

وكثيرًا ما كان يُطلق على الصُغد تسمية "تجار الحرير" لسيطرتهم على الطريق التجاري لهذهِ البضاعة الثمينة، إلاّ أن إقتصادهم أُنْشِئ في الأساس على الزراعة وطرق الرَّي الإصطناعية للأراضي الفلاحية، وإلى غاية القرن السادس الميلادي، بقيت التجارة المحلية الصغدية بعملتها ذات صبغة بدائية أو ما يعرف بمرحلة التقليد البربري Barbarian imitation، حيث تضرب على العملة رسمة السَّهم؛ وبزوال هذا النقش على العملة الصغدية عرفت بلاد الصغد نقلة وبداية لمرحلة جديدة من تطور المعاملات التجارية محليا ومع صلاتها النقدية الخارجية.[3]

وكانت نتيجة تطور المُبادلات التجارية وحركيتها أن أنشأ الصُغد إلى جانب الحواضر الكبرى بخارى وسمرقند، مدن تجارية جديدة نَشِطة ففي القرن الخامس الميلادي أنشأت بانجيكند Penjikent، ومدينة بايكند Paikent التي كانت عاصمة الساسانين في ما

1– Henry yule : Cathay..., T1, P.59.

2– Arminius Vambery: History of Bokhara, from the earliest Period Down to the Present, Henry s. King and Co. London, 1873, P.xxxv.

3– Iskender- Mochiri : History of civilisations of central Asia, Vol III, P.238.

وراء النهر، وأصبحت تعرف "بمدينة التجار" الحرة من القرن السابع إلى الثامن الميلادي.[1] وبقيت هذه الشهرة تلازمها إلى القرن التاسع الميلادي الثالث الهجري، حيث أوردها الجغرافيون المسلمون الأوائلرفي نصوصهم، وكانت تابعة لمدينة بخارى.[2]

وحسب نصوص الرّحالة والمؤرخ الصيني ما توان لين Ma-touan-lin التي ترجع إلى القرن 13 م، فإن الصينيون عرفوا بلاد الصغد وتعاملوا مع تُجَّارها، من عهد أسرة هان La dynastie des Han، حتى انه وصف مناخها بالمناخ اللطيف والأرض جدُّ خصبة، وحسب ماتوان فإن العلاقات بين الإمبراطورية الصينية وأمراء بلاد الصغد كانت وثيقة حيث أن ملوك الصغد كانوا يدفعون الضرائب لأباطرة الصين، ووصف حاكمهم خاقان الترك بأنهُ كان شخصًا يتميز بالغرور فلم يكن بادئ الأمر يقبل بإرسال أحد أبناءِ الأمراء إلى البلاط الصيني لخدمة الإمبراطور، كما كان يفعل باقي الملوك الإقطاع التابعين للصين، إلاَّ في مراحل لاحقة وذلك بسبب المصالح التجارية التي كانت لمملكتهِ في الصين، وهو ما درج عليه أمراء أشروسنة وفرغانة وآخرون.[3]

ففي الفترات التي كانت تشهد الإمبراطورية الصينية فيها قوتها وفرضت سيطرتها على كل من آسيا الوسطى كانت خانات الترك أتباعًا لها، فإلى جانب دفعهم الضرائب والتقرب بالهدايا الثمينة وفي مقدمتها الخيول، عملوا على إرسال أشجع أبناءهم وأكثرهم فروسية إلى خدمة الإمبراطورية الصيني حسب نظام الأمراء الإقطاعيين.

1– Iskender Mochiri : op.cit., Vol III, P.241.

2– ابن خرداذبة: المصدر السابق، في ج إ، مج 39، ص.25.

3– Abel-Rémusat. M : Nouveaux Mélanges Asiatiques ou Recueil de morceaux de critique et de mémoires, T1, librairie orientale de Don Dey- Dupré, Paris, 1829, P.225-226-236.

واصل الرحالة الصيني وصف المجتمع الصغدي من الناحية الجسدية فهم ذوي عيون غائرة وأنف ؟ وذوي لحية كثيفة ، وبارعون في التفاوض التجاري، ويقصدهم التجار من كل مكان لشراء الخيول.[1]

فالصغد تجار حُذَّاق ضلعوا في التجارة، ويشير"ما توان" في كتابهتاريخ "برابرة الغرب" لتمرسهم فيها، حيث يقومون بتدريس أبناءهم الكتب منذ سن الخامسة، وعندما يكبرون يُرسلونهم لممارسة التجارة، وتعلمها، وكيف يحققون أرباحًا كبيرة فيها، وهذا ما يجعلهم يتقنون وينجحون في كل الحِرَفْ.[2] أما عن الجانب الاقتصادي اعتبر "ماتوان" أن بلاد الصغد من أقوى الممالك في المنطقة لما تحتويه من مقومات، فاعتدال مناخها يُلائِم زراعة كل أنواع الحبوب، ويهتم الصغديين كثيرًا بالحدائق وزراعة أنواع رائعة من الزهور، كما يزرعون الأشجار ومختلف أنواع الخضر. وأهم ما ينتجونهُ ويهتمون به تربية الخيل، والجمال والبغال، الثيران ذات الحدية، الذهب وملح النوشادر، الرقيق، السجاد، وأقمشة الصوف المطرزة والخمر والعنب.[3]

وفي نصوص "ماتوان" إشارة إلى حرص الصُّغْد على طلب وُدِّ الصين حيث أرسلوا إلى بلاد أسرة تانغ الصينية عام 627 م سفارة واعتبرتها الصين ضرائب على الرغم مما حملته من هدايا، وسفارة أخرى عام 631 م حملت هدايا ثمينة من أسود وحيوانات أخرى، ودُرَّاق (خوخ) مصنوع من الذهب وآخر من فضة. فكان ملوك بلاد الصغد يتقربون إلى الصين بأثمن ما تنتجهُ بلادهم للحفاظ على صلتهم التجارية وحتى تصل قوافلهم إلى أسوار

1- Abel-Rémusat : Nouveaux mélange, T1, P.228.

2- Abel-Rémusat : op.cit., T1, P.229.

3- Ibid.

الصين حيث المبادلات التجارية المربحة.وكان تجار مدينة بخارى هم أيضا يَسعون إلى الحفاظ على صلاتهم ونشاطهم مع الصين وتأمينه وكانوا يُهدُون من سلالات الخيولأجودها، وأندر ما تجود بهِ بلادهم، وهو ما حملتهُ سفارات عام 649-627 م.[1]

وتشير المصادر الصينية إلى شجاعة وقوة فرسان بلاد الصغد ووقوفهم على أمن بلدانهم وسلامة قوافلهم، فهم أناس متميزون. خاصة أهل سمرقند، إلى جانب مهارتهم الكبيرة في الفنون والحرف، يتنفسون الحيوية والشجاعة، ويتمتعون بأخلاق عالية وانضباط، فهم نموذجًا يحتذى بهِ، ويواجهون الموت بفرح كبير وفي المعارك لا أحد يمكنهُ الصمود أمامهم، ويحمل مقاتليهم الأكثر جسارة لقب تشي-كيTche-Kieï وتعني المُحارب.[2]

وفي هذا الصدد تجدر الإشارة إلى أن الصفات المذكورة، التي شدت انتباه المؤرخين الرحالة الصينيين،هي نفسها التي أثارت الرحالة المسلمين، وسجلوها من نبل أخلاقهم، وكرم ضيافتهم، ومحبة في الغرب وكذا تفضلهم في البأس والجرأة، والإقدام وحسن طاعة عظمائهم.[3]

ويمكن التمييز بين مرحلتين من النشاط التجاري، في تاريخ التجار الصُّغد؛ الأولى كانت في الفترة القديمة حيث أنشأوا لأنفسهم، شبكة تجارية واسعة ممتدة بين مراكزهم المنتشرة ما بين نهري أموداريا والسيرداريا من جهة وبين أسواق الحواضر الصينية شرقًا والهندية جنوبًا، أما المرحلة الثانية، فتبدأ مع مجيئ الإسلام في حدود القرن الثامن الميلادي، وتعريب المنطقة ودخولها تحت تأثير الحضارة الإسلامية وزوال الثقافة الصُغدية تحديدًا، ولكن هذا لا

1- Abel-Rémusat : op.cit., T1, PP.230, 231-232.

2- Abel-Rémusat : op.cit., T1, P.231; Gérard de Réalle: op.cit., P.42.

3- ياقوت الحموي: المصدر السابق، ص.47، إبن بطوطة: المصدر السابق، ج.إ، مج. 177، ص.52.

يعني زوال العنصر الصُغدي، وإنما فَقَدَ بعض عناصر ثقافتهِ ليظهر تحت مُسمى جديد وهو النشاط التجاري والحضاري السَّاماني في القرن الرابع الهجري/العاشر الميلادي.(1)

عندما أصبح الإسلام هو ديانة أغلب الشعب الصُغدِي، أصبح نشاطهُ التجاري والاستيطاني في المنطقة، ذا صبغة إسلامية فساهموا في انتشار الاسلام، فأنشأوا ثلاث مدن إستيطانية جديدة على المجرى السفلي لنهر سيرداريا وهي؛ جُند Djend، خوفارا khouvara، يني كند YengÏkent أي "القرية الحديثة" كما عرفت في المصادر العربية، وديْه نوDih-nö، وحسب الجغرافيين المسلمين فأن هذهِ المدن كان يقطنها مسلمون، خاضعون لسلطة الحكام الترك الغُزْ Ghuz غير المسلمين، وهذا يعني أن هذهِ المستوطنات أنشأت بموافقة هؤلاء الحكام، واشترك في الإقامة بها أتراك محليون، مع المهاجرين من صغد وايرانيين، من إقليم ما وراء النهر وكانوا يمارسون فيها نشاطًا تجاريًا واسعًا، رابطين المراكز التجارية والأسواق بعضها ببعض إبتداء من الشمال وصولاً إلى نهر الإرتيش L'Irtych حيث ينشط التجار الترك الكيماك في نطاق واسع.(2)

لم يكن العنصر الصُغدي ضليعًا في التجارة والمبادلات التجارية فحسب ؛ وإنما كان متمرسا في مجالات حضارية ثقافية كثيرة، فأرض الصغد بلاد تعددت فيها معتقدات، فهي في الأساس كانت على الديانة المزودية (الزراداشتية)، كبلاد الفرس التي طالما كانت مُرْزبَانها وتابعتها. فبكونهم تجارُ مُتَنقلين بين المراكز والحواضر التجارية، وقعوا تحت تأثير برجال الدين الكهنة البوذيين والدعاة الأوائل لها، القادمين من حدود الهندية خلال القرن الثاني والثالث الميلادي، ثم بعدها بثلاثة قرون ساهموا بنشر الديانات الجديدة القادمة من

---

1 – De la vaissière,E : op.cit., P.11.

2 – Barthold.w : op.cit., P.49.

الغرب كالمانوية le Manishéisme ، والمسيحية النسطورية le Christianisme Nestorien، فانتشرت بين بعض القبائل التركية وفي الصين .ومع وصول الإسلام للأهالي الصغد وتبنيهم إياه ساهموا في نشرهِ فكانوا في القرن العاشر الميلادي ، الدعاة إليه في ذلك من خلال نشاطهم التجاري في السهوب الشمالية لنهر السيرداريا، حيث كانوا الحاضنة الأولى للأتراك القراخانيينles Qarakhanides في أول إسلامهم.[1]

وكثيرًا ما كانت تشير المصادر الصينية والعربية الإسلامية إلى ما كان يقدِّسُهُ الصُّغد قبل الإسلام حيث كانوا يعبدون النار في إشارة إلى الديانة الزرادشتية ولهم فيها طقوس وشعائر، ويحترمون في نفس الوقت البوذية لكنهم لا يؤمنون بها وليس فيها معابد كثيرة لبودا مثلما هي معابد النار[2] حتى أن الرَّحالة الكوري البوذي هاي كوHye-ch'o فيرحلة حجه القرن الثامن الميلادي، في وصفهِ لبلاد الصغد أشار إلى إنتشار الديانات الأجنبية بها،حين مَرَّ بها وبأكبر مدنها ؛ بخارى وكيشKishوكابودانةKaputana وسمرقند وغيرها، خاصة تلك القادمة من الغرب ويقصد بها الإسلام والديانات المذكورة في حين لم يكن للبوذية إنتشارًا كبيرًا، حيث يُوجد في سمرقند دير ومعبد بوذي واحد فقط.[3]

أما في المجال الفني والثقافي فكان للصغد نصيب كبير من تذوق الموسيقى وآلاتها، ومعازفهاوقد أشار "ما–توان" إلى وجود الآلات الموسيقية بكثرة في الأسواق الصغدية كالطبول

1– De la vaissière.E : op.cit., P.8-9, Boulnois.L : op.cit, P.256.

2– De Rialle.G : op.cit., P.49, Abel Rémusat: op.cit., P.228.

3– the Hye Ch'o Diary : mémoir of Piligrimage to the five régions of India, translate by : yang, Han-Sung, Jan, Yün-Hua, Published by Asian Humanities press, California, 1984, P.54.

الصغيرة، آلة القيثار، وعود ذو الأوتار الخمسة، وأنواع كثيرة من النَّاي التي كانت تستخدم في مناسبات مختلفة سواء في الأفراح أو في الجنائز.[1]

والحاصل أن العنصر الصُّغدي كان ذا دور محوري في ما وراء النهر سواء قبل الإسلام أو بعدهُ فحافظ على نشاطهُ التجاري وتأثيره الثقافي وأعطى أهمية كبيرة للتمدن والتعليم، متفوقًا في المفاوضات والصلات التجارية ويبدو أن تأثير الحضارة الفارسية بقي ملازما لهُ حتى في العهد الإسلامي حينما أحياها من جديد مُمَثلاً في شخص الحكام السَمَانيين. وكان القرن السادس الميلادي هو العهد الصغدي في أزهى عصورهِ حيث ازدهرت لديهم حضارة تركت آثار وشهادات فنية عالية، ومن جهة أخرى شعبا اختص بالتجارة، ورَحَّالة جاب الآفاق فتبوؤا أكثر من غيرهم من شعوب المنطقة دور القائم على نقل وربط الصلات الثقافية والوسيط في مجال البضائع والتقنيات والمعتقدات الدينية عبر القارة الآسياوية. وذلك على الرغم من أنهُ لم يكن مستقلاً وتحت التبعية للهياطلة ثم الأتراك، إلاّ أنهم حافظوا على دورهم هذا سواء داخل بلاد الصغد نفسها أو على طول طريق الواحات التجاري حيث أنشأوا فيها مراكز لمستعمرات تجارية متصلة إلى غاية الصين.[2]

2 – الوسيط التجاري الفارسي –سارطاقطاي– Sartaqtay

اعتمادًا على نصوص الرحالة والمؤرخ الصيني ماتوان لين Ma-touan-lin التي نشرها المستشرق الفرنسي أبيل راموزا Abel Ramusat فإن العلاقات بين الفرس والصينيين إنما تعود إلى عهد أسرة "وي" Weï في نهاية القرن الرابع الميلادي، وقد عُرِفَ

1– the Hye Ch'o Diary : mémoir of Piligrimage to the five regions,P.54,55

2– Boulnois.Luce : La Route de la soie, P.256.

الفرس في الكتابات الصينية تحت مُسمى "بو-سي"Po-SSE، وحسب ماسجَّلته، تمتد أراضيهم إبتداءًا من الضفة اليُسرى لنهر بلخ ويجاورهم من الناحية الغربية والشمالية بلاد فو-لين Fu-lin(البيزنطيون).[1]

وذكر هنري يول أن أول إشارة لوصول سفارة فارسية إلى الصين تعود إلى منتصف القرن الخامس حيْث وصلت الأولى عام 461 م، ثم أُتْبِعَت بثانية عام 466 م، وكانت في عهد أسرة "وَيْ"la dinastie des Weï.[2]كما يشير ماتوان في كتابهِ، أن العلاقات مع بلاد فارس كانت جيدة، لاسيما في خلال السنوات 518-519،حيث جاءت سفارة من بلاد فارس، محملة "بضريبة معتبرة" من بضائع فارسية ثمينة، وكان مع السفراء رسالة إلى إمبراطور الصين جاء فيها أن ***"إن ملك الفرس الذي أزهرت في عهدهِ الأُخُوَّة مع الصين وهو على بعد مسافات طويلة يهدى بكل إحترام تحياتهُ إلى الإمبراطوري الصيني "ابن السماء" حاكم الإمبراطورية الكبرى، والذي ولد في السماء ليسود إلى الأبد في بلاد الهان***" وقد استُحسِنَت كثيرًا هذهِ الرسالة ومنذ ذلك العهد بدأت السفارات الفارسية تتردد على بلاد الصين.[3]

وفي شأن تلك الرسالة نَوَّهَ المؤرخ "هنري يول"، إلى أن القارئ للرسالة يلمس تدخل كُتَّاب الحوليات الصينية في اختيار ألفاظ تبالغ في اجلال الحاكم الصيني، وبالمقابل تُقلِّل من شأن الملك الفارسي وهو ما يدعوا إلى الشَّك في مدى مطابقتها للنص الأصلي.[4]

-[1]Abel Remusat: op.cit., P.248.

[2]- Yule.H: op.cit., Vol1, P.95.

[3]- Abel Remusat: op.cit., PP.251-252.

[4]- Yule. H ; Op.cit,T.1, P.95.

والحاصل أن هذه السفارات كانت البداية الفعلية للنشاط التجاري بين الفرس والصين حيث فُتحت قنوات التواصل التجاري بين الطرفين، ودُعَمت العلاقات بسفارات أُخرى أشار إليها ماتوان، منها سفارة 616 م–617 مفي عهد أسرة "سوي" la Dynastee de Souï وعند وصول أسرة تانغ Tang لحكم الصين أرسل الساسانيون الفرس سفارة عام 638 م ومعهم هدايًا وهو ما اعتبرهُ ماتوان "جزية"، كان من ضمنها "ثعبان حيٌ لها شكل جرذ وذو لون أَخضر جميل، يبلغ طولها من ثمانية إلى تسع بوصات"[1] وأصبح النشاط التجاري للفرس مُتاحًا على طول الحاميات الصينية من حدود توان هوانغTouanhouang، كوتشا Koutcha إلى كشغرد Kashgar، وصولاً إلى بلخ Balkh.

وغدا العنصر الفارسي المستفيد الأكبر وبلا منازع من تجارة الحرير والبضائع الصينية، فكان لهُ دور الوكيل التجاري بين الصين وروم بيزنطا، وعمل على ألاَّ يزاحمهُ أحد في هذا الشأن، حتى وإن كان حليفًا أساسيًا لهُ فقد مرّ بنا كيف رفض الملك الساساني خُسرو أنو شروانKhosroès Anoshirvan، التنازل على هذه المكانة لصالح الأتراك الذين أسسوا إمبراطوريتهم في آسيا الوسطى منتصف القرن السادس الميلادي، وأرادوا مشاركة الفرس إحتكارهم تجارة الحرير الصينية، مثلما سبق وأن شاركوهم في ممتلكات الهياطلة بعد إزاحتهم عن جزء كبير من آسيا الوسطى ولتحقيق هذا الغرض أرسل خان الترك الغربيين، تاجرين صغديين؛ مانياخ Maniakh وأنان خاست Anan Khast إلى إمبراطور بيزنطا جوستيان الثاني Justinien بعد عام 565 م – وهما محملين بطرود من الحرير لإقناع الإمبراطور بعرضهم في التحالف الإقتصادي والسياسي الذي ستدفع ثمنهُ فارس، غير أن جستنيان لم

---

[1] Abel Remusat: op.cit., P.252.–

يكن بوسعهِ فتح جبهة حربية مع الساسانيين سيما وأن مَعاركهُ الحربية الكبرى في إيطاليا وآسيا أنهكت دولتهُ، فضاعت جهود الأتراك في تحقيق طموحهم الاقتصادي.[1]

وبقى الفرس المُهيمنين الأوائل على الأسواق والنشاط التجاري، حتى أنهم كانوا يعرفون لدى شعوب المنطقة وأولهم الأتراك بـ السارتاقطاي، وقد اشتقوا القسم الأول من التسمية سارت Sart من المُغولية ومعناها التاجر مع إضافة صيغة النسبة العرقية "طاي Tay" ليُصبح معنى التسمية؛ الشعب مُمتهن حرفة التجارة فكانت هذهِ هي شهرة العنصر الفارسي بين الأتراك والمُغول وغيرهم في إقليم تركستان.[2]

وذاع صيتهم في امتهان التجارة، حتى بين شعوب الشرق الأقصى الآسيوي، فورد في أقدم نصوص الرحلات الصينية،للحجاج البوذيين، ماسجله هيوانغ- تسونغ Hiouan-thsang في مذكرات رحلته،والتي استغرقت من 629-645 م، إلى البلاد الغربية وأولها الهند، إلى بلاد فارس ومهارة أهلها، ومقومات إقتصادهم فهم يمتازون بثراء كبير، وذلك لتمرسهم مهن عديدة، وريادتهملشتى الحرف، كصناعة الأقمشة الصوفية والحرير المخرم والمُشَّبَك بخيوط الفضة، والذهب وأقمشة رفيعة من الصوف وحرفة السجاد، وصناعة البِلَّور الصخري cristal de Roch، ومجموعة من المصنوعات النادرة فبلادهم تنتج الذهب والفضة، ولهم من الخيل والجمال الكثير، ومن أحسن السلالات، وهم من أحسن المُرَّوجِين

---

1 – Grousset.R : Histoire de l’Asie, l’orient …., T1, P.99 ; Roux J.P: Histoire des turcs, P.82 ; yule.H : op.cit, T1, P.59.

2 – Barthold.w : op.cit, P.101.

لسلعهم وعملتهم من الفضة، ومن الشواهد الفريدة التي لاقت إعجاب الرحّالة الصّيني لدى الفرس، هو استخدامهم الأهالي لقنوات خاصة للمياه لري مزارعهم.(1)

وفي القرن الثاني الهجري/الثامن الميلادي سجَّل الرَّحالة الحاج البوذي القادم من كوريا "هاي كو" Hye-ch'o مُشيرًا إلى خبرة التجار الفرس ـ المسلمين حينها ـ في هذا الميدان، فوصفهم بالتجار الحُذَّاق والمَهَرة، فهم مسافرون على الدوام ويركبون البحار الغربية منها والشرقية، فيصلون إلى السواحل الشرقية لإفريقيا، كما يبحرون إلى جنوب الهند وجزر جنوب شرق آسيا، فيجلبون البضائع الثمينة من جزيرة سيلان (سيريلانكا) والذهب من أرخبيل الملايو (ماليزيا)، كما تصل سفنهم إلى الصين وميناءها التجاري الكبير "كانتون لإبتياع أنواع من الحرير وغيرهِ؛ الحرير الشفاف Silk gauze، والحرير المندوف wadding Silk= la ouate، وسلع أخرى مشابهة، أما بلادهم فتنتج القطن بكثرة ويعبدون السماء "الله"، وليست لهم دراية بالبوذية"(2)

ولم يفت الجغرافين والمسلمين الأوائل الإشارة إلى هذا الدور المحوري الذي كان يقوم به الفرس الإراتيون كوسيط تجاري هام في المنطقة، فَخَصَّ ابن خرداذبة الحديث عنهم وسمَّاهم تمييزًا لهم عن باقي التجار، بالخراسانيين، وهم يجوبون بلاد المشرق بالسلع والبضائع مهيمنين على التجارة البرّية والبحرية أيضا، وأنهم اتخذوا من الأنهار في آسيا الوسطى وسيلة لنَقل بضائعهم حتى يسهل عليهم إيصالها إلى المدن الواقعة على ضفافها

1- Hioun- Thsang : mémoires de Hioung-Thsang, voyage d'un Pélérin Boudhiste, traduit en français. M, stanislas Julien, imprimerie Impérial. MDCCC LVIII, T2, P.179.

2- the Heye ch'o Diary : memoir of the Pilgtimage to five régions to India, Asia humanities press, California, 1984, P.53.

وحتى الدّاخلية القريبة منها، فارتادوا نهر جيحون وفروعهِ ونهر الشاس سيرداريا، كما ذكر هذا جغرافيون آخرون.[1]

كما وصف ابن خرداذبة كيفية تتم عملية تبادل السلع بين الخرسانيين وأتراك شقنان عند معبر شكينة على نهر جيحون (أموداريا) بالقرب من مدينة ختلان، وما يعترض هؤلاء التجار من صعوبات ومخاطر الطريق ووعورة المسالك.[2]

ومثلما نشط هؤلاء التجار داخل آسيا الوسطى (ما وراء النهر)، فقد نشطوا أيضا في المناطق الواقعة شرق نهر الشاش سيرداريا وشمالهِ حيث توجد حدود الأراضي التركية الخرلخية والغُزِّية فكان لهم نشاط في المدن الإسلامية، وغيرها إبتداء من خجندة إلى فاراب مستخدمين نهر الشاش لنقل بضائعهم إلى القرية الحديثة الواقعة على النهر، وذلك في زمن الهدنة والسلم، وذكر ابن حوقل أنها كانت هي مقر إقامة ملك الغُز في فصل الشتاء، وتقع بالقرب من مدينة جُند وفيها يُقيم مسلمون ومنهم الخرسانيون وصغديون تحت سلطان الغزية، فكان هذا هو أحد سُبل احتكاك المسلمين بالأتراك والتأثير فيهم فساعد على إنتشار الإسلام بينهم في حدود القرن الرابع الهجري/العاشر الميلادي. وكان التجار الخرسانيون ينتظرون حلول موسم ذَوَبَان الثلوج حتى ينقلوا بضائعهم بيُسر عبر الأنهار، حيث يقوى جريانها وتساعدهم على الوصول إلى المدن التجارية للأقاليم بيُسْر كبير، كما هو نهر الشاش حيث كانوا يقصدون مدينة أخشيكت قصبة فرغانة وكانت من أكثر المدن إحتواء للأسواق.[3]

---

[1]– ابن خرداذبة: المصدر السابق، ج.إ، مج، ص.178؛ ابن حوقل: المصدر السابق، ص.419، المقدسي: المصدر السابق، 322.

[2]– ابن خرداذبة: المصدر السابق، ج.إ، مج، ص.178–179.

[3]– ابن حوقل: المصدر السابق، ج.إ، مج، ص.419–420.

وذهب التجار الخرسانيون الفرس أبعد من أراضي الخاقانات الترك في عرض بضائعهم وابتياع أخرى، حيث وصلوا شمالاً إلى أراضي القبائل المغولية، وتتجلى أهمية نشاطهم التجاري هناك في تراث المغُول الأدبي حول أعمال السارطاقطاي «SartaqTay»، الإنجازات العظيمة التي قام بها أحد المهندسين الفرس حين إقامتهِ في بلاد المغُول، حيث استُعين به لإنشاء السدود المحكمة على الأنهار الرئيسية الكبرى والبحيرات، وهو ما يدل على أن المغول أخذوا عن المسلمين الفرس أساليب وطرق الرّي التي كانوا بارعين في تحديثها، وتجدر الإشارة إلى أن العنصر المغُولي كان ينظر دائمًا إلى الفرس الإيرانيين بصفتهم عناصر ذات حضارة، ورقي وتمدن، لاسيما إذا علمنا أن اللغة الأكثر انتشارًا، وتمدنا بين شعوب وممالك آسيا الوسطى قبل انتشار اللغة التركية، كانت هي الفارسية حتى أن اللغة التي كان استخدمها الكارلوك الأتراك هي الفارسية لا التركية.[1]

وفي هذا السياق يرى المستشرق بارثولد أنهُ بالرغم من شُحِّ المعلومات حول كيفية انتشار الإسلام في إقليم منغوليا، إلاّ أنهُ يمكن القول إعتمادًا على ما تقدم أنهُ بفضل السارتاقطاي– التجار المسلمون الفرس– حدث الإنتشار الواسع للإسلام بين المغول خاصة إذا قارنَّاها بنشاط التجار المسيحيين الذين لم يؤثرُوا في الأهالي قدر ما أثر التجار المسلمون الفرس حيث ساهموا في رفع المستوى الثقافي للمغول.[2]

ومما أضافهُ وابتكرهُ الفرس المسلمون في مجال التعامل التجاري، استحداثهم لما عُرِفَ باللغة الفارسية "التشيك" وهو صكٌ أو إيصال تم تداولهُ حسب ابن مسكرية مؤرخ القرن الخامس الهجري/الحادي عشر الميلادي، فذكر بارثولد أن "الشيك" انتشر انتشارًا واسعًا في

[1]– Barthold.w : op.cit., P.102.

[2]– Barthold.w : op.cit., P.101.

التعاملات التجارية بين المسلمين، فبفضل هذا التدبير استفاد التاجر من وثيقة مالية،مُعَدَّة من طرفجهات مختصة مُكَلفة، تسمح للتاجر بسحب مبالغ من المال في مدينة من المدن التي تقع تحت سلطة نفس الدولة. في أثناء سفرهِ ورحلتهِ التجارية وذلك بعد أن يكون قد أودع أموالاً عند هذه الوكالات المتخصصة، وهذا ما يوفر الأمان وييسِّر المُعاملات التجارية للتاجر، وذكر ابن مسكرية –حسب بارثولد– أن هذه الوكالات المالية كانت تسهل على التجار السحب بالشيكات، بينما يجد لديهم موظفوا الدولة عراقيل كبيرة.[1]

3 ـ الوسيط التجاري التركي الأورطاق L’Ortaq

تعتبر منطقة آسيا الوسطى مهد العنصر الآري les Aryas، وشاهدًا على أعمالهِ وإنجازاتهِ وهذا ما كشفت عنه التنقيبات الأثرية – لكن في ذات الوقت كانت هذهِ المنطقة مسرحًا للصراع الدائم بين عنصريين بشريين وهما؛ العنصر الآريممثلين في الفرس والعنصر الأورالو ألتاييك L’ouralo- Altaïque، والذي كان يَتقدم بصفة تدريجية وعلى مراحل نحو المراكز الحضارية الآسيوية، فأقامت هناك القبائل البدوية سواء من قدماء المُغول أو قدماء الأتراك في آسيا الوسطى وانتشرت خيم العشائر البدوية les Hordes nomades.[2]

فكما مَرَّ بنا، كان عام 552 م هو تاريخ بداية سيطرت الأتراك البدو على آسيا الوسطى، حيث تُوّج بومين Bumin أو كما عرف في المصادر الصينية ، تومين Tumin– كأول خاقان تركي،من القبائل الغزية على القسم الشرقي من آسيا الوسطى، ودُعِيَ بـ إيل خان Il Khan، وعلى هذا النحو أسس لأول إمبراطورية تركية، على حساب مملكة جوان جوان

---

[1] – Barthold.w : op.cit., P.102.

[2] – Girard de Rial: Mémoire sur l’Asie central. P.07.

Jouan Jouan –أسلاف المُغول –وما انفكّتهذهِ الإمبراطورية منذ قيامها، أن تَربط صلاتها مع الإمبراطوريات المجاورة كالفرس والصين وبيزنطا، وفي عام 553 م، خلفهُ ابنهُ موقان خاقان Mou Kan Khan، وكان شجاعًا مقدامًا سيطر على كل المنطقة الممتدة من المحيط شرقًا، إلى بحر قزوين غربا، ومن حدود الصين، والتبت جنوبًا، إلى بحيرة بايكال Baïkal شمالاً.[1]

واكتملت سيطرت الترك على كل آسيا الوسطى في ما بين 563–569 م، بفضل الأمير إستاميIstami شقيق موقان خاقان، حيث أزاح الهياطلة –الهون البيض– مِمَّا تبقى من إقليم آسيا الوسطى الغربي، فدخلت مناطق بلاد خوارزم شمالاً إلى بلاد الصغد،و فرغانة كلها تحت هيمنتهِ وأصبح الأتراك المُتحكِم، في المسالك التجارية نحو الصين[2]، ودخلوا بذلك في دائرة التنافس التجاري مع زعماء التبادل التجاري في المنطقة، وهم الفرس الساسانيون والصغد، وفي سبيل احتكار الوساطة التجارية مع الصين من جهة، وبيزنطا من جهة أخرى، عقدت الإمبراطورية التركية الغزية أول معاهدة تحالف دفاعي مع بيزنطا في عهد الإمبراطور جيستنيان.[3]

والحاصل أن الأتراك فضلوا خسارة الفرس الساسانيين حليفهم الأول ضدّ ممالك آسيا الوسطى جوان جوان Jouan Jouan والهياطلة Les Hephtalites، على أن يخسروا طموحهم إلى الشراكة التجارية مع الروم البيزنطيين، وما يعود عليهم هذا الدور من الأرباح اقتصاديًا.

1– Klaproth.J: Tableaux Historiquesde l'Asie, Recherche Historiques et Erhnographiques sur cette Partie du monde, Librairie de Panthieu.Paris.M.DCCCXXVI, P.115.

2– Yule Henry: op.cit, T1, P.59.

3– Klaproth.J: op.cit, P.116.

فأصبح العنصر التركي إحدى أهم عناصر معادلة للنشاط التجاري في آسيا الوسطى ومن أهم الناشطين في هذا المجال حتى أن هذا الإقليم أصبح يعرف بتركستان.

وبعد الفتح الإسلامي لآسيا الوسطى تركستان- دخل في نطاق الخلافة الإسلامية القسم الشرقي لآسيا الوسطى أي تركستان الغربي، بما فيه من ممالك تركية، فعمل وُلاَّة خُرَسَان منذ بدايات الفتح على إبقاءهم في مناصبهم، ومن أمثلة ذلك ما حدث في بخارى حيث أبقى قتيبة بن مسلم على الأمير التركي "طغشادة" على حكم مدينة بخارى.[1]

أما عن الشعوب التركية المتاخمة لأراضي الخلافة، فقد انفردت المصادر الإسلامية من جغرافيا ورحالة باحتواءها على معارف حصرية حولها، وحول تسمية قبائلها المتعددة ومواقعها. لاسِيمَا تلك الواقعة بالقرب من نهر الإرتيش وذلك لإهتمام المسلمين بكل ما يتعلق بالطرق التجارية المؤدية إلى الصين إلاّ أنها في مواضع كثيرة تكون غير واضحة بما يكفي، ويمكن مَرَّدُ ذلك إلى شساعة نطاق نشاطهم التجاري.[2]

وتشير مُدَونات الجغرافيين المسلمين إلى أسماء القبائل التركية المجاورة لأراضي الخلافة الإسلامية ونمط عيشها ودورُها التجاري فهي "أمة عظيمة وكثيرة القبائل والأفخاذِ فمنهم ساكنوا البراري ومنهم ساكنوا القرى والصحاري أصحاب الخيام اللُّبَّد المُضلعة التي تعرف لديهم بالخركهات «Khargāh» الخيم المصنوعة من شعر الدواب، وأكبرهم التغزغو وهم الطُوغوز أوغوز ToghuzOghuz ومنهم أُيغُر أي الإيغورÜyghur والخرخير أي

---

[1]- النرشخي: المصدر السابق، ص.24.

[2]- Barthold.W : op.cit, P.35-36.

الكرغيزKirghiz والخَرْلُخية أي الأتراك الكَارلوك، والكيماك، والخزر، والقتاي أي الخِطايKhitaï، وغيرها من القبائل التركية.[1]

وذكر المسعودي أن القبائل التركية كانت المسؤولة،على خِفَارات المسالك التجارية والمسؤولة على أمن القوافل التجارية.[2]

وتعتبر القبائل الغُزِّية التركية من أكثر القبائل ممارسة للتجارة، فأكثرهم تجار ينشطون في صحراء كراكورَمْ، في حدود قزوين ولديهم من السلع أجودها يُقدرونها هم أنفسهم[3]، ومنهم من ينشط على طول الطريق الشرقي، في جبال تيان شان وصحراء غوبي، وهم الأتراك الأيغور الذين ينتمون إلى القبائل الغُزية، ولهم أهمية كبيرةِ ووزنًا، فهم المجاورون لبلاد الصين ويتحكمون في الوساطة التجارية. كما تعتبر قبائل الكارلوك التركية المتحكم في المسالك الشمالية الشرقية الممتدة عبر أراضيهم كما يلي شرق نهر سيحون القريبة من إقليم الشاش.[4]

ونشط التجار الأتراك في مدن خوارزم وأسواقها التي يتردد عليها تجار الروس والروم البيزنطيين كمدينة الجرجانية أو أورجنج التي كانت تعجُ بالتجار الأجانب والمسلمين.[5]

---

[1]– شرف الزمان طاهر المروزي: فصول حول الصين والترك والهند، ج.إ، إصدار فؤاد سزكين، منشورات جامعة فرانكفورت، 1993، مج.125، ص.17؛ اليعقوبي: المصدر السابق، ج.إ، مج 40، ص.295.

[2]– المسعودي أبو الحسن علي بن الحسين: مروج الذهب، ج1، ص.122.

[3]– The Anonymous: op.cit, I.G, Vol.101, P.100.

[4]– Heyd.W : op.cit, T1, P.37.

[5]– ابن بطوطة: المصدر السابق، ج.إ، مج. 177، ص.3.

ونظرًا لتمرس الأتراك في الميدان التجاري وترحالهم نحو الشرق، أثروا كثيرًا في شعوب المنطقة وفي مقدمتهم المغول، حيث إنتشر بين هؤلاء كلمة أورطاق Ortaq التركية والتي تعني الشريك، للدلالة على جَماعة التجار الأتراك. فالملاحظ أنهُ بالرغم من تأخر العنصر التركي في دخول المنافسة في المجال التجاري في آسيا الوسطى مقارنة بالعنصر الصغدي والفارسي،إلاّ أنه تبوأ مكانة هامة في النشاط التجاري وساهم في تنظيم شكل المُبادلات التجارية بإستحداث ما عُرِف بـ "رابطة التجار".[1]

ومثل ما كان الأتراك البدو الشرقيين القاطنين بمحاذات ما وراء النهر – من كيماك وكارلوك وأيغور وغُز ساكني السهول المطلة على حدود الصين وهضبة التبت– ينظرون إلى البلاد المُتمدنة، وسعوا للأخذ منها، كان أهالي في ما وراء النهر يتطلعون إلى مناطق البداوة على أنها المورد الطبيعي للمادة الخام والثروة الحيوانية، فيُقايضُونالدواب من إبل وخيل وأغنام التي تُربى في أطراف السهوب من قبل الأتراك الأوغوز والكارلوك، بالإضافة إلى الجلود ومنتجات الألبان بالمنتجات الزراعية والمصنعة لحواضر ما وراء النهر. فكانت الحدود المواجهة لسهوب الأتراك مليئة بالرباطات، التي لم تكن مجرد مواقع دفاعية ضدَّ هجمات البدو الرحل؛ بل كانت أيضا نقاط إنطلاق لغزوات إلى داخل السهوب لجلب الرقيق في فترات الحرب، ومبادلته في فترات السلم، لا سيما في العهد الساماني[2].

---

[1] – Barthold.w : op.cit, P.102.

[2] – قحطان عبد الستار الحديثي: "دراسات في التنظيمات الإقتصادية لخرسان في القرن الرابع للهجرة؛ ثالثًا التجارة"، في: الخليج العربي، مجلد 20، العدد.4، 1988، ص.53، 54.

فكان يجلب الرقيق من الممالك التركية المحيطة بما وراء النهر، فيغطوا بهم حاجاتهم للرقيق وما يفضل عن كفايتهم ينقل إلى الآفاق، وهو أحسن أنواع الرقيق في المشرق كلِّه.[1] ونتيجة للإحتكاك التجاري الكبير بين الأتراك والسمانيين، استطاع هؤلاء من رفع المستوى الحضاري للأتراك الشرقيين، وتمكنوا من جذبهم إلى الإسلام فانتشر بين الكتاي (الخِطاي)، والكرغير الأيغور والكارلوك والغُز انتشارًا كبيرًا وسُمُّوا بالتركمانية بعد أن أسلموا، و"صار بينهم وبين من لم يُسلم منابذة ثم كثر المسلمون منهم وحسن إسلامهم وغالبوا الكفرة وطردهم".[2]

ولقد سَجَّل الجغرافيون المسلمون منهم والأجانب، الكثير من الملاحظات حول وُعُورة الطرق التجارية سواء من حيث طبيعة الممرات الجبلية الصعبة، أو من حيث خطر العصابات التي كانت تتربص في بعض المواقع بالقوافل التجارية وبالمسافرين فيه. ففي القرن الثاني الهجري/ الثامن للميلاد، كتب الرحالة البوذي القادم من مملكة السيلا «Silla» الواقعة في شبه الجزيرة الكورية ملاحظاته، حول مشاق الطريق البري الجنوبي لآسيا الوسطى الرابط بينها وبين الهند والصين، وهو الذي يمر عبر جبال البولور شمال قشمير والبامييرPamir، وذكر أنهُ مسلك خطير، وصعب لوجود بعض العصابات وقطاع الطرق يمتهنون سلب القوافل ونهبها، ويعيشون على ذلك، فشكلوا رعبًا حقيقيًا بالنسبة للقوافل والمسافرين.[3]

1– ياقوت: المصدر السابق، ص.46.

2– المَرْوَزي: فصول حول الصين والترك، ج.إ، مج.125، ص.ص.17–23.

3– the Hye cho Diary: op.cit, P.49.

ومن الشواهد أيضا ما كتبهُ الجغرافي ومسؤول البريد لدى العباسيين في القرن الثالث هجري/ التاسع الميلادي ابن خرداذبة أثناء حديثهِ عن نشاط الحركة التجارية في مدينة خطلان (ختلان)، أعالي نهر أموداريا، وحيث معْبر "شكنان"، فمن هذا الباب كانت القوافل تمر عبر جبال البامير في أثناء توجهها إلى الصين، وكان القائمون على خفارتها – حراستها– الأتراك الشكنان حيث يأمنون سير وعبور القوافل التجارية، التي يستوجب عليها المرور عبر ممرات ضيقة بين الجبال لا تتسع إلاّ لمرور رجل واحد، ولشِدَّة خطورتها يكاد الشخص إنْ زلت قَدَمُهُ أن يَهْوِي إلى الأسفل فيهلك، من أجل ذلك يَدفَع التجار بِسَخاءٍ للحمَّالين، الذين تعودوا عبور هذا الجبل الضيق المسلك، أما التُجار فيوافوهم عبر النهر وكلٌّ معهُ ثلث بضاعتهِ، ويرافقهم "خَفير" أي حراس المسلك، وعند وصولهم يستلم التجار ما تقلهُ الحمالون من بضائعهم وأمتعتهم، ويعبرون بها على ظهور الجمال إما نحو الصين شرقًا أو جنوبًا نحو الهند.[1]

---

[1]– ابن خرداذبة: المصدر السابق، ج.إ، مج.39، ص.179.

وفي نفس سياق الحديث عن مشاق الطريق البَرِّي يخبرنا المسعودي في القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي عن مخاطر تجارة "النوشادر"[1] ومخاطرها، فالمنطقة التي يُستخرج منها تقع على الجبال التي تُفضي إلى الصين- أي جبال تيان شان- هناك قسم منهُ شديد الوُعورة حيث تمر القافلة بين تلك الممرات الجبلية التي يبلغ طولها خمسون ميلاً، ولا تكمن الصعوبة في ضيق الطريق عبر الجبال فحسب، وإنما يضاف إليها طبيعة البضاعة المنقولة، والمتمثلة في "النُوشَادِرْ" فهو مادة شَديدة الحرارة، لا تقوى الدواب على حملِهِ لشدة حَرِّهْ، فلا يمكنها تحملهُ، من أجل ذلك كانوا يعمدونُ إلى تدابير خاصة، منها أن ينقل في فصل بارد حيث تنخفض درجة حرارة الطبيعة، كما يدفع التجار أجورًا مُغرية وعالية لمن ينقلها، فَتُحْمَل البضاعة على الأكتاف وعبر ممرات ضيقة حتى ينتهي إلى رأس الوادي، وهناك حيث الغابات والمستنقعات المائية يطرح الحمالون أنفسهم في الماء ليطفِئوا حَرَّ النوشادر.[2]

1- هو ملح النَشَّادِرْ، ورد في اللغة السنسكريتية الهندية نَاڤَاسَادَارا Navasadara، وفي الصينية نَاوْ-شا Nao-Sha، أما عن أصل التسمية فغير واضح، وعلى الأغلب أن هذا المصطلح فارسي وهو أنوش- أَدَار Anósh-adar أي النار الخالدة، أي التي لا تفنى، وتعود أقدم إشارة إلى ملح النشادر في تقارير السفراء الصينيين في القرنيْن السادس والسابع الميلادي، وتتعلق بالجبل الملتهب المعروف بـ"بي-شان Pe-schan" وهو في الأعالي الشمالية لجبال تيان شان، جنوب مدينة كولجاKuldja، وأما الجبل الملتهب الآخر فيقع في هو-تشو Ho-tscheou عند السفوح الوسطى لجبال تيان شان غير بعيد عن مدينة طورفانTurfan، كما يجلب من جبل أورمغي Ürümgi وهي أراضي بركانية تنفث الكبريت، إلى جانب جبل بيشام Pescham الذي يرمي على الدوام دخان وألسنة لهب وفي ناحية من هذا الجبل كل الصخور تحترق وتذوب ثم تجمد، ويتم جمع النشادر من هناك لاستخدامهِ في ميدان الصيدلة، ولكن لا يتم الحصول على الصخور إلاَّ في الشتاء عند تبرد الأرضية وهو ما وصفهُ المسعودي، يراجع: Ruska.J: «AL-Nüshādir», in **E.I**, Leiden, E.J.Brill 1995, T.8, P.150.

2- المسعودي: المصدر السابق، مج1، ص.ص. 121-122.

4- الوساطة التجارية لليهود الرذّانية/ الرَّذْهانِيّةRadahanites :

نتج عن الشّتات الذي عرفه اليهود في تاريخهم – الأوّل كان في عهد الملك نبوخذ نصر، والثاني بعد تدمير الهيكل بيت المقدس – تبعثرهم في كلّ أنحاء العالم القديم، ورافقهإنشاءهم لسلسلة من المستوطنات اليهودية استقرّت على طول شبكة المسالك التّجارية الكبرى، وهي ذاتها خطوط التهويد، وكان مبدأ هذه المسالك ذات الصّيغة الدّينية، والتّجارية الكبرى من بلاد الرّافدين، وأرمينية، وبلاد القوقاز، وقزوين، فبلاد الخزر جنوب نهر الفولقا والسّهوب " البونتو–قزوينية" (Ponto-Caspiennes) الممتدة من ، شمال البحر الأسود الى شمال قزوين، إلى جانب بلاد إيران، وخرسان، وخوارزم وآسيا الوسطى، وفي الخليج الفارسي وعلى سواحل المالابار بالهند(1).

وقد كان انتشارهم عبر ثلاث معابر أساسية ، فالمعبر الأول عن طريق بلاد الشام، ومصر استوطنوا شمال، و جنوب الجزيرة العربية ، ومنها إلى السودان و إثيوبيا، أما المعبر الثاني، فيقع نحو الشمال في واحات الأقصر و مصر نحو أقصى بلاد المغرب، وأطراف الصحراء الكبرى، و ثالث هذه المعابر التجارية الخاصة باليهود الرذهانية كان منطلقه من عاصمة البيزنطيين " القسطنطينية" حيث كان يتم تجمع التجار من كل القوميات، ويقطعون آسيا الصغرى، حتى يصلون إلى مدن سواحل طرابزون المطلة على البحر الأسود، وفيها يستقلون السفن التجارية باتجاه شبه جزيرة القرم ، و جنوب روسيا . وهناك يتّصلون بالخط اليهودي القزويني من أقاربهم مجموعة التجار اليهود الخزر،

1- LOMBARD M.: op.cit., P. 223.

حيث مملكة الخزر[1] ومن خلال المدن السّاحلية الإيطالية والإسبانية القديمة توغّل التّجار اليهود في الغرب الأوروبي، فمن المعروف أنّ ملوك الخَزَرْ نجحوا في القرن الرابع الهجري /العاشر الميلادي، في إنشاء دولة مستقرّة ذات إثنيات وديانات مختلفة، مشجّعة كلّ من اليهود، والمسلمين،والنصارى، على الاستقرار فيها وممارسة ثقافاتهم الدّينية ونشاطهم التّجاري بكلّ حرّية وأمان، حتى أنّه كان لكلّ طائفة قاضٍ ترجع إليه في منازعاتها[2] وادي "**لْوَارْ**" La Loire، الرونla Rhône ، ساون la Saône، الراينRhins، وفي كلّ هذا المجال الواسع أسّسوا لهم مستوطنات بوكالات تجارية نشيطة، وكان على رأس كلّ مستوطنة عميد الطّائفة يحمل لقب "**راس جالوتها**" Resh Galutha/ أو شيخ المشتتين L'exilarque.[3]

فسمحت المواضيع التّجارية التي اكتسبها اليهود قبل الفتوحات الإسلامية، بأن يستفيدوا من المجال الإسلامي الفسيح، فاتّخذ يهود المشرق مكانة هامّة في العهد العبّاسي حتّى أنّهم كانوا يقيمون في الكَرَخْ أحد شوراع مدينة بغداد، وكان شيخ الطّائفة من كبار

1- الخَزَرْ KHAZAR، تسميةلقبيلة بدوية ذات أصول أورالو ألطائيةقطنت جنوب الاستبس الرّوسي، حيث ازدهرت مع بداية العصر الإسلامي، وكانت قد استقرّت القبائل الخزرية المتّحدة خلال القرن السادس الميلادي بعد سلسلة من الهجرات للبدو الرُّحل من شرق وآسيا،ومع انهيار دولة الهون، في 454م انسحب عناصر من بقايا أتباع خيمة أتيلا Attilas Hord إلى سهوب البونتيك PONTIC Steppe، وفي عام 463م انضمّ إليهم قبائل من أيغور Oyghur السّهوب السّيرية الغربية وانضمّ إليهم قبائل السّابير Sabir الذين أجبروا على الهجرة تحت ضغط قبائل الآفار The Avar (جوان جوان) ووصلواإلى شمال السهول القوقازية ومناطق الڤولڤا بداية القرن السادس الميلادي، وتشير المصادر الأرمينية، الى ان قبائل ذات أصول أورالو ألطائية، وبرزوا في الصّراع الفارسي- البيزنطي كحلفاء البيزنطيين في الثّلث الأوّل من القرن7الميلادي، وذلك بحكم أنّهم أتباع الأتراك الغربيين ولكن بضعف هؤلاء وخضوعهم للصّين عام 695م، ظهرت دولتين في سهوب أوراسيا؛ خاقانات الخزر KHAZAR Kaghanate ودولة اتّحاد القبائل ذو الأغلبية أيغورية "بلغار-أونوغور- Bulghar-Onoghur، ومع حلول عام 641-642م عرفت توغل الجيوش الإسلامية ووصلت باب الأبواب في دربند، وتعرّضت العاصمة الخزرية بالانجار Bala,jar لهجمات المسلمين منذ 22هـ/ 642م. للمزيد يراجع: QADRI S.M.: "KHAZAR" in ***E.W.M***., vol. 2, P. 718, 719.

2- Heyd: op.cit., T. 1, P. 47.

3- Lombard. M.: op.cit., P. 224.

الشّخصيات في بلاط الخليفة. فكانوا يبيعون ويشترون كلّ المنتجات الرّائجة والمربحة من مختلف أنواع الأقمشة الحريرية والقطنية والبروكار البيزنطي المطلوب في الأندلس، ويتاجرون في الحبوب والسّكر، حيث كانت مزارع قصب الكبرى، في خوزستان (بالأهواز) تحقّق تحويلات مالية إلى بغداد بواسطة صكّ وتلزم ضمان ضرائب الإقليم، إلى جانب تجارة التّوابل، والعقاقير المتعلّقة بالطّب العربي- اليهودي[1]، وتجارة الذّهب والمصوغات، وتجارة الرّقيق من تخوم العالم الإسلامي، باختصار كلّ ما هو ثمين القيمة وبعيد المصدر. حيث كان قسم كبير من المبادلات التّجارية في أيدي البيوتات اليهودية، دون تخصّص في بضاعة دون أخرى[2].

و كان من أهم شواهد انفتاح النّشاط التّجاري، في أراضي الخلافة الإسلامية أمام التّجار ووكلائهم من كلّ أنحاء العالم، نشاط التّجار اليهود اللاتين الذين عُرفُوا بالراذّانية[3]، القادمين من بلاد الفِرنجة (فرنسا)، فلقد أخبرنا ابن خرداذبة أنّ هؤلاء التجار كانوا يتقنون لغات عديدة وهي العربية،والفارسية، والرّومية (اليونانية)، والإفرنجية، والأندلسية والصقلية، كما كان مجال نشاطهم واسعًا، فهم يتنقّلون بين الشّرق والغرب، عبر المسالك البرّية

1- Lombard. M.: op.cit., P. 226.

2- DE Gruyter: The origine of Ashkenazi Jewry, the Contreversy unraveled walter de Grruy, Germany, 2011, P. 30.

3- الرَذّانية أو الرَّدْهانية RADANITES/ RADHANITESالتجار اليهود الذين احتكروا التّجارة مع أوروبا من القرن 6 إلى القرن 10 الميلادي، وكان منطلقهم من نهر الرّون RHÔNE شرق فرنسا، ويرجع أنّهم ينسبون إليه، وهو تفسير أقرب إلى الواقع من حيث أصل التّسمية، ويدعم موريس لومبارد هذا الاتّجاه كما تدعمه وثائق الجنيزة الخاصة بالتجار اليهود في مصر وتؤكّده مؤلّفات أخرى لعرب وفرس وكتب التاريخ اليهودي واللاتيني. وكان منطلقهم= =جنوب فرنسا من نهر الرون ومدينة ليون متّخذين الأندلس طريقهم نحو شمال إفريقيا حيث يستقلّون الجمال من طنجة نحو القاهرة ثمّ بغداد ومنها يتصلون بطريق الحديد، أو يتّجهون نحو القسطنطينية عبر اوروبا الشّرقية ومنها إلى بلاد الخزر نحو أسواق آسيا الوسطى. للمزيد يراجع: "RADANITES", in Encyclopedia of the world trade, from Ancient time to the Present, Sharp Réference, California, 2005, Vol. 3, P. 763.

والبحرية، فيجلبون من الغرب الخدم والجواري، والغلمان والدّيباج وأنواع الفراء إلى جانب السّيوف، وأنهم كانوا يقطعون البحر المتوسّط إلى مصر، وهناك في مدينة"الفَارَامَا"، يحملون بَضائعهم على ظهر بحر القلزم (الأحمر)، ويتوقّفون في جدّه ومنها يمضون إلى السّند والهند والصّين، ويحملون من الصّين المسك والعود والكافور وغيرها من البضائع، ومنهم من يختار قطع الطّريق البرّي عن طريق أنطاكية ثمّ ينحدرون جنوبا إلى الجابية بسهول فلسطين، وبعدها يركبون الفرات إلى بغداد،ومنها يركبون الدّجلة ليصلوا إلى ميناء الأُبُلّة جنوب البصرة، ومنها إلى عُمان، والسّند، ثمّ الهند،ثمآسيا الوسطى، فيصلون الصّين عن طريق البحر[1].

فمن خلال وصف ابن خرداذبة يبدو أنّ النّشاط التّجاري للتّجار الرّذانية كان ضمن مجال واسع، فكانوا يتقلبون بين مصر، والشّام، والعراق، وحواضر آسيا الوسطى، والصّين فضلاً عن السّواحل الهندية وكانت سلعتهم الأساسية السّيوف والرّقيق إلى جانب سلع أخرى ثمينة وفارِهَة. وممّاأضافه ابن الفقيه الهمذاني أنّ هؤلاء التّجار اليهود القادمين من بلاد الفرنجة كانوا ذوي شُهرة وعُرفوا بـ "تجّار البحر" والرَّهْدانية، وكانوا من ضمن تجّار العالم الوافدين على مدينة الّريْ "مدينة التُّجار" وملتقى السّلع والبضائع وكانوا يصلون إليها عن طريق بلاد الخزر مرورًا بأرمينية وأذربيجان، فلم يكن مجالهم في الحركة محدود، فهم يجولون العالم مَشرِقًا، ومغرِبًا ومن أهمّ ما يحملونهُ من بضائع الشّرق، المسك والعود وكلّ السّلع الصّينية النّفيسة والحرير الفاخر[2].

ويعتبر ما أوردهُ ابن خرداذبة القرن الثالث الهجري، ثمّ ابن الفقيه الرابع الهجري، من معلومات حول التّجار اليهود اللاّتين، من جملة أهمّ ما كتَبَتْهُ المصادر التّاريخية عن هذه

---

[1]– ابن خرذابة: المصدر السابق، ج. إ، مج.، ص. 153.

[2]– ابن الفقيه أبي بكر أحمد بن محمد الهمذاني: مختصر كتاب البلدان، ج.إ.، مج. 38، ص. 270.

الطّائفة، التي احتكرت – تقريبا– عملية المبادلات التّجارية، بين أوروبا الغربية والشّرق الأقصى، خاصة وأنّ التّجارة كانت المصدر المعيشي الأوّل ليهود أوروبا والعالم في الفترة ما بين القرن السّادس إلى العاشر الميلادي، كان النّشاط التجاري في غرب أوروبا في أيدي التّجار السّوريين واليهود، فلم يكن تتعلم شعوب المنطقة حينها كيفية المشاركة فيها، وإنّما جاء إحياء وانتشار النّشاط التجاري بينهم ابتداءً من سنة 1000م، مع يقظة الحياة الاقتصادية التي تزامنت مع نموّ المدن، وتمركز الوجود اليهودي في أوروبا الغربية في المدن التّجارية الكبرى، وكان التّجار السوريون ينافسونهم في ذلك، وينشطون معا جنبًا إلى جنب، في مدن ناربون NARBONNE، أَرْلARLES واختصّوا بتجارة التّوابل في المدن البروفانسية ببلاد الغال والوسطى، وفي مقدّمة هذه المدن مارسيليا فقد سجّلت الجمارك المارسيلية أموالاً كثيرة كان اليهود المقيمين بمدن الإقليم الجنوبي يدفعونها للخزينة المالية في المدينة، حتى أنّهم دفعوا لأبرشية مدينة مالوسين Malaucène ما قدِّرَ بكميات من الفلفل الأسود وأخرى من الزّنجبيل، وشمع العسل لبناء مدرسة عبرية وتخصيص مقبرة لليهود، كما نشّطوا المبادلات في المدن الإيطالية التي كانت السّباقة للنّشاط التّجاري أوّلها أمالفى Amalfi، وجنوة، ونبولي Naple و باليرمو Palermo[1].

وحسب المؤرخ "هايد"ذكرت المصادر اللاتينية، أنّ التجار اليهود الفرنسيين كانوا مختصّين في تجارة الرّقيق، و كانوا يجلبونهم من أسواق فلسطين، هذا إلى جانب أنّ كثرة أعداد الأطبّاء اليهود الذين كانوا يدرسون الطّب باللّغة العربية،كانوا يجوبون العالم حينها،

---

[1]– Dayclive: A Historyof commerce, Lorv Gman Green and CO, New york, 1914, P. 84; Depping G. B.: Histoire du commerce entre le levant et l'Europe, Depuis les croisades Jusqu'a la fondation des colonies d'Amérique, imprimerie Royale, Paris, MDCCXVX, T.1, P.P. 289-290; Heyd: op.cit., T.1, P. 125.

لأن مهنتهم تستوجِبُ عليهم استخدام الأدوية المُعَالِجة المشرقية، والتي لا يمكن الحصول عليها إلاّ عن طريق تجارة أعشاب وعقاقير مشرقية ، وأطوال رحلاتهم كانت "البحرية". ويرى هايد أنّ ما سجّله ابن خرداذبة عن هؤلاء التّجار يبقى هو الأكثر أهمية ودقّة عن نشاط الرَّذانية، خاصة وأنّه كان المسؤول الأوّل، والكلّي على إدارة البريد في العهد العباسي، فاتّسمت معلوماتهُ بالدّقة، والدّراية الكاملة بحكم وظيفته .ففي الوقت الذي تعاني فيه المصادر الأوروبية بشُحّ كبير من حيث المعلومات، حول نشاط التّجار اللاّتين اليهود خارج أوروبا،والذي قد يقودنا إلى نفي نشاطهم في المشرق؛ تأتي نصوص ابن خرداذبة لتفيدنا أنّ التجار اليهود الرَّذانية وصلوا إلى أبعد نقطة ممكنة وهي الشّرق الأقصى[1].

ولكن مع نهاية القرن الرّابع الهجري/ العاشر الميلادي، لم يعد هناك ذكر لنشاط التّجار الرَذّانية في أسواق العالم، حيث اختفوا من السّاحة، ويمكن تفسير سبب خسارتهم لمكانتهم كوسيط تجاري بين أوروبا والمشرق، إلى بروز دور تجار المدن الإيطالية وفي مقدّمتهم في هذه الفترة المبكرة، تجّار مدينة باري Bari، والبندقية Venise، لاسيما في ثلاثينات القرن العاشر الميلادي[2].

---

1 – Heyd : op.cit., T.1, P. 127.

2 – De Gruyter : The Origine of Ashkenazi, P. 30.

رابعا . آسيا الوسطى:الأهميةالاقتصادية والتجارية:

لم تكن ما وراء النهر " تركستان الكبرى" حلقة وصل تجاري ما بين الصين والهند وباقي العالم فحسب، وإنما شكلت ثروتها الحيوانية والزراعية والبشرية دعامتها لتأخذ مكانها في النشاط التجاري على طريق الحرير ولتكون "متجر" حقيقي أو بندر(ميناء) للتجارة في العصر القديم والوسيط، فيرجع الثراء الاقتصادي للإقليم سواء الغربي منهُ والشرقي حينها، لخصوبته بكونهِ كان أقل جفافًا وبهِ أقنية خاصة للري مرتبطة بأنهارها الكثيرة، ساعدته على التمتع بنظام سقاية ممتازة، وبالتالي وفرت خصوبة للأراضي، وساهمت الكثافة السكانية العالية العاملة في الزراعة والحِرَف، في أن يضاهي الصين في فترات زمنية، بالسيطرة على العوائد التجارية للمنطقة.[1]

فتركستان الشرقي وهي التي سَمَّاها الرومان بالسيراند «Sérinde» أي الأرض التي تتوسط بين الهند والصين وحدها كانت ذات ثراء اقتصادي كبير، فكانت واحات خوتان أي هيتيان Hitian حاليا، وكشغر –كاشي Kashi حاليا، مشهورة بمراعيها وبأقمشتها الحريرية ومقالع اليَشَمْ_ وهو حجر كريم يشبهُ الزبرجد_ أما في منتصف الطريق بين خوتان وكشغرد، توجد مدينة ياركند الخصبة ذات الحدائق والغابات الملتفة والمزارع الخضراء ذات قنوات الرّي الممتدة خارج أسوارها، وفي الناحية الشمالية تقع بالقرب من يولدوز Youldouz المدينتين التوأمتين كوتشا Koutcha وهي كوشKuche حاليًا، وقره شهر Karachahr (وهي يانكيYanki حاليا، واللاتي كانتا أكثر خصوبة وازدهارًا وتمدنا.[2]

1– Grousset.R: Histoire de l’Asie, P.185.

2– Grousset.R: Histoire de l’Asie, P.185; Pirazzoli-tserstevers.M: «Soie» in ***dcc***, P.661.

فنظرًا لاعتمادها نظاما متقدماً،= في الرّي وبناء السدود؛ازدهرت زراعتها وتنوعت منتجاتها من حُبُوب وفواكه، سيما وأن المنطقة لم تكن تعرف كثيرًا زحف الصَحراء، كما هو الحال اليوم فأغلب ما سجلهُ الجغرافيون، والرحالة سواء المسلمين منهم وغيرهم، يشير إلى الخِصْب الزراعي والإزدهار الإقتصادي للمنطقة. وأن بها ثروة حيوانية متنوعة من الدَوّاب كالجمال، والغنم والخيل، والبغال، والعجل، وزراعة القطن، والحبوب في بلاد الصغدية كبخارى،وسمرقند وكيش، وأجود أنواع القمح في فزغانة، وبها من الحرف والصناعات الكثيرة والمتنوعة كالثياب القطنية، والمصنوعة من الوبر والصوف.[1]

حتى أن صاحب كتاب "لطائف المعارف"، ذهب إلى القول أن ما وراء النهر "**توازي بلاد الهند في الخيرات**" فمن الحيوانات تستغل جلودها وأوبارها كالفنك والثعالب الحمر والسود والأرانب البيض، والسناجب، وفرو القاقم، والسمُّور، وبها من الخيل، والبغال، والأغنام والجمال والسمك المُمَلح، وبها سناجب الكرغيز وسمُّور البلغار وثعالب الخزر وفنك كشغر، وقاقم الطغُوُز أغوز، فضلاً عن احتوائها على المعادن النفيسة، وملح النشادر، ويُصنع فيها القِسِّي الفاخر (السيوف)، ويجلب إلى ما وراء النهر من الممالك المجاور لها الرقيق ويزيد عن حاجتها فيرسل إلى الآفاق، كما يصلها المسلك التبتي الفاخر.[2]

---

[1] – الإصطخري: المصدر السابق، ج.إ، مج، 24، ص.ص.287، القزويني: آثار البلاد، ج.إ، مج.198، ص.374، the Hye ch'o Diary: op.cit, P.49; Edouard chavannes les Pays «d'occiddent d'après le Heou-Han-Chou», in ***T.P***, série2, Vol8, Brill leiden.1907, P.157.

[2] – الثعالبي: لطائف المعارف، ص.ص. 129، 130، 131.

خامسا : أشهر البضائع المُتَداولة في أسواق ما وراء النهر:

إلى جانب ما كانت تُوفرهُ ما وراء النهر من بضائع للتجار القادمين من الغرب، كانت البضائع الصينية هي المبتغى الأساسي والأول للقوافل التجارية، خاصة وأن الإمبراطورية البيزنطية والخلافة الإسلامية قد اعتادت على رفاهية وتميز الصناعات الصينية. حتى أن العرب –حسب الثعالبي– كانت تُسَمي كل طرفة من المصنوعات وأحسنها، من أواني وما أشبهها سواء كانت صينية أو لم تكن، بأنها ""صينية"، وقد بقى هذا الاسم إلى الآن ملازما لهذهِ الصواني المعروفة بهِ، ويقصد بها أواني الخزف الصيني، و"أهل الصين قديمًا وحديثا مُختصون بالصناعة اليدوية وحذقون في عمل "الطُّرف والمِلَحْ" أي دِّقَة مصنوعاتها مع انفرادهم بها كصناعة الحرير وأنواع من صناعة الخزف.

ويرى الصينيون أنهم أمهر الناس في الصنائع، وأحذقهم وباقي الأجناس يعتبرون عُمْيٌ في هذا المجال، إلاّ أهل بابل فإنهم "عور" ذلك لأنهم بارعون في نحت التماثيل ومبدعون في مجال النقوش والتصوير "حتى أن مُصوِّرهم، وهو يصور الإنسان لا يغادر شيئا إلاّ الروح" أي من شدة محاكاتهِ للحقيقة. كمَا بَرع الصينيون في صناعة الغضائر (الأواني المصنوعة من الخزف الرفيع) الشفافة التي يُطبخ فيها، فيكون الواحد منها قِدرًا مرة ومِقْلَى مرة أخرى وقصعة أخرى وأحسنها المشمشية اللون الرقيقة والشديدة الصفاء، ذات الطنين العالي حين يُدق عليها، ثم يأتي الزَّبَدي اللون على نفس الوصف "ولهم" الفرْنَدْ الفائق والحرير المدفون" أي الذي يخفي فيه الصور ويقال لهُ الكيمخار، كما يصنعون المماطر (المضلات) المشمعة التي لا تبللها الأمطار الكثيرة[1] ولهم أحسن أنواع الفرو من السناجب الفارمية وهو من أنفس

[1]–الثعالبي: لطائف المعارف،ص..183.

الأوبار في الأسواق وهي مطلوبة كثيرا، كما يجلب من بلادهم اللبود (الشعر) الممتازة، إلى جانب المِدَادْ والسروج.[1]

وتشير في هذا المحل إلى ما رواه المسعودي عن مَهَارة أهل الصين في الصناعة والحرف، وعن العامل الأساسي المُحرك لها، ألا وهو رعاية الحاكم الصيني بنفسهِ بالمتنافسين الصينيين من المهرة والحرفيين، وتشجيعهم على إخراج أفضل ما لديهم من الابتكارات ووضعها تحت مراقبة الخبراء والعارفين بها قبل إجازتها وترويجها. فهم كما قال المسعودي "أحذق[2] خلق الله كفًا بنقش وصنعة وكل عمل لا يتقدمهم فيه أحد من سائر الأمم"، ويقوم الحرفي منهم بعرض صناعتهِ على باب الملك وبتصريح منهُ، قرابة العام، فإن لم يُخرج أحدًا فيها عيبًا، أجازَ صانعهُ وأدخلهُ في جملة صُنَّاعِهِ، ومثال على ذلك ما حدث للحرفي صاحب الثوب الحريري الذي رسم عليه صورة سُنبلة سقط عليها عُصفور، فبقي الثوب مُدة معروضًا للناس، فجاء رجل أحدب وانتقد العمل وأخرج ما بهِ من عيب، وأثبت أن العصفور رُسم فوق السنبلة وهي قائمة لا ميل فيها وفي هذا خطأ كبير فالأصل أن تميل السنبلة تحت وقع وزن العصفور عليها، فاستبعد عمل الحرفي ولم يُجازى عنهُ، فكان الغرض من هذا هو دفع المبدعين، والصناع والحرفيين إلى شدة الاحتراز والحذر وإعمال الفكر فيما يصنعهُ كل واحد منهم.[3]ومهما يكن من أمر تبقى حرفة القزازة (الحرير) والخزف، من صميم تخصص المنتجات الصينية وأهم المروجين لها.

---

[1]- الجاحظ: التبصر، ص.26.

[2]- من الحِذْقُ والحِذَاقَةُ، المَهَارَة في كل عمل، وحذق الغلام القرآن مهر فيه، والحُذَاقِيُّ فصيح اللسان البيِّن اللهجة. إبن منظور: لسان العرب، مج.10، ص.ص.40، 41.

[3]- المسعودي: مروج الذهب ومعادن الجوهر، المكتبة العصرية، صيدا بيروت، ط1، 2005/1425، ج.1، ص.114.

1- تجارة الحرير:

ارتبطت عملية افتتاح الطريق التجاري، وتجارة الحرير بين الصين والعالم أو الانفتاح الصيني على الغرب، بأسرة هان الحاكمة (206 ق.م-220 م)، فهناك دراسات تعتبر القرن الثالث قبل الميلاد، هو تاريخ ترويج الحرير خارج الصين، وهناك من يجعل من تاريخ 125-120 ق.م، هي فترة تصدير الحرير خارج الصين حيث تم الكشف عن أقمشة حريرية تعود إلى هذا العهد في كوريا، ومنغوليا، وتركستان الشرقي، حين كانت تسيطر الصين على دان هوانغ والحاميات الأربعة.[1]

فانتشار الحرير خارج الصين، كان من الأهداف المُهمة التي من أجلِها كُلِّفَ حارس القصر الإمبراطوري تشانغ كيان Tchang Kian-كما مرَّ بنا- بحملة على آسيا الوسطى في عهد الإمبراطور وو.تي « Wou.ti» 140-87 ق.م، فقبائل البدو "الهيونغ نو" لم تكن تَتَرَدَّد في اقتحام سور الصين العظيم، ومهاجمة قوافل الحرير التجارية، والخروج بغنائم ثمينة من الحرير، فكان قرار الحاكم "وو.تي" القاضي بتوسيع نطاق السيطرة خارج أسوار الدولة، وتمديد نطاق حدودها الدفاعية لغرضين هامين؛ أولهما حماية نشاط القوافل التجارية شمال الصين، والثاني تطوير الطرق التجارية في ما وراء الصين، وضمان أمنِها وتحرُكِهَا. ويبدو أن الإمبراطورية الصينية منذ ذلك العهد، اعتبرت الحرير المحور الحيوي لاقتصادها، فسعت إلى تزويد حُرَاس القوافل بخيولٍ سهول فرغانة بآسيا الوسطى لتأمينها ، فاقتنت على إثرها، خيلاً من فرغانة ومن جنوب بحيرة البلخاشBalkhach، وهي التي تميزت ببنيتها القوية

1- Pernot. F : les routes de la soie, P. 33; Pirazzoli T'sertevens Michele: «soie» dans Encyclopaedia universalis, Dictionnaire de la civilisation chinoise, Albin Michel, Paris, 1998, P.660.

وقدرتها على حمل المحارب بسلاحهِ، وعِدَّتِه مع سرعتها، لمواجهة هجمات قبائل " الهيونغ نو" الأشداء، فكان الهدف هو تأمين تجارة الحرير بدعم القوافل بهذهِ القُوَّة الدفاعية، وأعطتها تسميتها الخاصة وهي "الخُيول السَّمَاوِية الشهيرة " «les chevaux célestes» . [1]

تعود حرفة "القِّزَازَة" La Sériciculture[2] إلى أكثر من ألف عام قبل الإمبراطور "وو.تي"، فترجع أوَّل إشارة إلى الحرير عام 3870 قبل الميلاد، حين أرسل أحد ملوك الهند أفرشه حريرية كهدية لملك الفرس، لكن يبقى الجدل قائمًا حول البداية الفعلية للنشاط التجاريعلى هذا الطريق ولترويج الحرير فيها، وأغلب المؤشرات تؤكد إلى أن تسويقهُ خارج الصين يرجع إلى القرن الثاني والأول قبل الميلاد، فقد أُشِير إلى تواجده في حدود القرن

---

[1] – Trombert.E : Textiles et tissus…, P.112 ; Pernot François: op.cit, P.33.

[2] – أصلها من القِّز أي دودة الحرير والقِّزَازَة هي إنتاج الحرير الخام بتربية دودة القِّز بومبيكس موري– «Bombyx-mori» ويعود أصلها إلى الأتاليم الشمالية الصينية، وكان الصينيون هم أوَّل من نَسَجَ الحرير من صُلْجِهَاles Cacons، وأوَّل من أَنْتَجَ أقمشة من الحرير تزدان برسومات تزيينية، وانفردت الصين لقرون طويلة سرِّ إستخلاص الحرير من تربية القِّز حيث يحصلون على خيط حرير طويل ومتصل بتقنية خاصة تجعلهم يوقفون نمو دودة الفراشة قبل الفقس –أي قتلها– شرط عدم إتلاف الصُّلْجَة التي هي موضع الحرير، كما يحضى غذاء دودة الشرنقة بعناية خاصة ودائمة حيث يُقدَّم إليها نوع خاص من الغذاء وتستبعد أنواع أخرى، كل هذا يجعل هذه الصناعَة تتطلب عددًا كبيرًا من العاملين لإنتاجهِ وتسويقهِ، فكان لهُ إنعكاس على أسعارهِ المرتفعة التي تعكس قيمتهُ الحقيقية، الإقتصادية والجمالية، سواء في المناطق المنتجة لهُ أو خارجها. ثم توسعت مراكز إنتاج الحرير في الصين من الشمال نحو وسط الصين ومركزها ثم نحو الجنوب وفي بداية الألفية الميلادية أصبحت مدينة شاندونغ Shandong هي المركز الأكثر إزدهارًا على مستوى إنتاج الحرير وتَصْنيعهُ، وفي عهد أسرة صونغ Dynastie des song (960–1279 م) إنظم إلى الأقاليم الشمالية وسيشوان «sichuan» المنتجة لأجود أنواع الحرير، الأقاليم الوسطى والجنوبية، التي تعتبر اليوم المنتج الأول للحرير في الصين، بينما اختصت الأقاليم الشمالية شاندونغ وهينان Henan في صناعة Le Tussor. وكما استُخدم الحرير في الصين كلباس بذخ وآداة للترف، استخرجت منهُ أيضا حبالاً أُدخلت في صناعة السِّهام وفي كل ما يُربط، واستخدمت حشوة الحرير«La bourre de soie»، في تبطين الملابس والثياب الشتوية، ومنذ القرن 7 الميلادي إعتُمِدَ عليها كدعامة في النَّسْخ والرَّسم وكتابة القوانين الرسمية في الصين. يُراجع: PIRAZZOLI (Michele T'serstevens): «soie» in**, D.C.C,**Encyclpaedia universalis, Albin Michel, Paris, 19998, P.661.

الأول قبل الميلاد في أسواق صور، وصيدا في بلاد الشام، وهو ما يدل على تفعيل الطريق التجاري حينها.[1]

وفي كل الأحوال كان للسيطرة العسكرية للصين، على ممرات جبال تيان شان والمدن الكبرى للأقاليم الغربية –آسيا الوسطى– حسب التسمية الصينية هي الدَّعامة التي استندت إليها لفتح الطريق التجاري لبضائعها ويأتي الحرير في مُقدمتها، وكان إقليم تركستان الشرقي "سيراند" وحواضرهِ الرئيسية الرَّابطة بين المسالك – انطلاقا من العاصمة الصينية شنغان نحو الغرب بمثابة مَراكز تخزين للأقمشة التي توردها الخزينة العمومية وهذا كما تُبَيِّنُهُ مخطوطات مدينة طورفان.[2]

ودأبت الصين على تصدير الحرير نحو الغرب لكنها عملت في نفس الوقت على حفظ أسرار صناعتهِ فكانت حكرًا على الحرفيين والفنيين الصينيين، غير أن هذا الوضع لم يستمر طويلاً، حيث تسربت أسرار هذهِ الصناعة، إلى الغرب بالتدريج وعبر مراحل من الزمن، وكان حظ آسيا الوسطى أن تكون الرائدة ثم الهند فإلى بلاد فارس في القرون الأولى الميلادية.[3]

وقد ارتبطت أول بداية لانتشار الحرير خارج الأراضي الصينية، وفي آسيا الوسطى برواية من تاريخ أسرة هان، فرغبة الصين في توطيد علاقتها بالقبائل التركية البدوية، سعتلمصاهرة قبيلة "ووسون" Wusun التركية، القاطنة في مراعي جنوب بحيرة بالقاشBalkach، فانتقلت عام 105 ق.م الأميرة الصينية كزيجون Xijun للعيش في تلك

[1] Pernot.F: op.cit, PP.23, 34. –

[2] TROMBERT.E: op.cit, P.111. –

[3] PIRAZZOLI.M.T: op.cit, P.661.–

البادية، وأحضرت معها كماً كبيراً من الحرير بأنواع مختلفة، وكان ملك "ووسون" قد قدَّم لها ألف من الخيل كهدية قبل الزواج، ويبدو أن الأميرة الصينية وجدت صعوبة في التأقلم مع الحياة القاسية للبدو،التي قوامها الخيم المصنُوعة من اللُّبد التي تعتبر لدى الصينيين صناعة بربرية خالصة، فكل ما يُصنع من أصل حيواني من جلد، فرو، شعر حيوانات فهو بدائي بالنسبة إليهم، ومن أجل التخفيف على الأميرة أمر الإمبراطور بأن يُرْسَل إليها كل عام ستائر وأقمشة من نوع البروكار، والأقمشة المطرَّزة.[1]

ويبدو من خلال الروايات الصينية، أن الأميرات الصينيات كان لهم دورٌ كبير في تاريخ الحرير والأقمشة بصفة عامة، حيث ذكر أحد الرُّهبان البوذيين عن كيفية دخول صناعة الحرير إلى آسيا الوسطى وبالضبط إلى خوتان،بأنه تمَّ عن طريق المصاهرة، حيث زُوِّجت أميرة صينية بملك خوتان، فقدمت وهي تُخْفي في تسريحة شعرها، البعض من بذور شجر التوت وبيض دودة القِّز، وقامت بتعليم أهالي خوتان كيفية زراعة شجر التوت، والعناية بدود القِّز وصناعة الحرير، وبهذِهِ الحيلة أُدْخلت القِّزَازة إلى آسيا الوسطى. وتكاد تكون هذِهِ الرواية ضرب من ضروب الأسطورة خاصة وأنها غير مدعمة بتاريخ معين، لولا العثور على لوحة مرسومة على خشب تصور هذه القصة،وتعود إلى القرن السادس الميلادي، غير أن المؤكد أن دخول صناعة الحرير في خوتان ترجع إلى ما قبل هَذا التاريخ.[2]

ولم يكن الحرير مجرد سلعة غالية وحصرية بالصين، وذات رفاهية ورواج فحسب، وإنما كان واحدًا من أدوات التعاملات التجارية الثلاث؛ فكانت فُضْلة الحرير، وكيل الحبُوب، وسبائك البرونز، هي أسس البيع والشراء في الصين، وتميَّزَ الحرير باعتمادِهِ في التبادل

---

[1] - TROMBERT.E: op.cit, P.113.

[2] - TROMBERT.E: op.cit, P.113.

خارج الصين، واعتادت التقاليد الصينية أن تقوم كل أسرة حاكمة فور اعتلاءها العرش بسِّنِ قوانين لتثبيت أوزان ومقاييس –أبعاد– قِطَعْ قماش الحرير وهو ما قامت به أسرة تانغ. فكانت أبعاد "قُضْلة الحرير" قد حُدِّدَتْ بـ 40 قَدم طولاً، وقدم واحد وثماني بوصات عرضًا وهو ما يعادل 12 متر على 56 سم. ونظرًا لاستقرار قيمتها وخفة حَمْلِها كانت "قُضْلة الحرير" هي المفضلة في الأسواق بالنسبة للدفع والسّدَادْ، والعملة الأكثر تداولاً في الأسواق.[1]

وفي السياق تُشير مخطوطات دان هوانغ أن الخزينة العمومية الصينية كانت تُخصص من الحرير ما يُوَّجَهْ بأنواعهِ سواء الخام منهُ أو المنسوج وحشوة الحرير إلى الحاميات العسكرية كمخصصات لمقايضتهِ بالحبوب في آسيا الوسطى، وتغطية مصاريف الحامية، وعلى هذا النحو كان الحرير يخرج من نطاق توجيهْ الحكومة الصينية إلى التبادل الحُر.[2]

ونشطت المبادلات التجارية على المسلك التجاري الذي بلغ طولهُ 7000 كم، في القرن الأول الميلادي رابط بين الصين وواحات تركستان الشرقي ببلاد الصغد وبلخ وشمال الهند وفارس بالسواحل الشامية للبَحر الأبيض، ومَثَّل القرن الثاني للميلاد العصر الذهبي لتجارة الحرير، وكانت الصين تُصدر الحرير ولكن هذهِ الأسرار تُسَّرب إلى الهند وإيران بالتدريج في القرون الأولى الميلادية وَوَصلت إلى بيزنطا حوالي 550 م وكان الحرير البيزنطي مطلوبًا كثيرًا في الأسواق الأوروبية، غير أن بعضها كان ممنتوعًا من التصدير خارج بيزنطا.[3]

1– TROMBET.E: op.cit, P.108.

2– TROMBERT.E, op.cit, P.111.

3– Pernot.F: op.cit, P.34; TROMBET.E: op.cit, P.13-14, 25.

وفي الفترة ما بين القرن الأول هجري/ السابع الميلادي، إلى السابع الهجري/ الثالث عشر الميلادي، عرفت آسيا الوسطى سيطرة المسلمين عليها وعلى طرقها التجارية، حيث وصلوا إلى أموداريا عام 670 م، وفي عام 134هـ/751 م قضوا نهائيًا على الوجود العسكري الصيني فيها، وسيطروا على كشغرد وحوض التاريم.[1]

ولقد كانت هذهِ المعركة حاسمة من كل النواحي العسكرية والسياسية والاقتصادية، فهي لم تدخل آسيا الوسطى برمتها في حوزة الخلافة الإسلامية فحسب، وإنما كانت معبرًا لمرور حرفة القِّزازة إلى المسلمين، فمن بين آلاف الأسرى الصينيين، كان هنالك حرفيين مختصين في حياكة وصناعة الحرير، الذين تمَّ نقلهم إلى الكوفة في العراق وأقاموا هناك حتى نُقِلُوا إلى بغداد 762 م العاصمة الجديدة فور بناءها ولقد كان من بين هؤلاء "المهاجرين المُرْغَمِين" أسير عُرِفَ بـ "دان هوان" ترك نصوص رحلتهِ، ونشرت في إحدى الموسوعات الصينية، التي سُجِّلَت فيها أن الحرفيين والفنيين الصينيين نقلوا إلى العرب في الكوفة كيفية حياكة الحرير الدقيق إلى جانب فن الرَّسم.

ومع تراجع قوة أسرة تانغ وظهور أسرة صونغ في حدود القرن الحادي عشر إلى الثاني عشرالميلاديين، تراجع نوعًا ما انتاج الحرير خاصة وأن الصين كانت مقسمة بين ثلاث قِوى؛ الجنوب تحت حكم أسرة صونغ وفي الشِمال يوجد المانشو والناحية الغربية الشمالية كان تحت سلطة إمارات إسلامية.[2]

---

1 – BOULNOI.L: op.cit, P.289.

2 – PERNOT.E: op.cit, P.40.

فالحاصل أنه منذ تلك الفترة ،انتشر فن حياكة الحرير بكل تقنياتهِ في داخل أراضي الخلافة، وبمختلف مُسمَّياتها وأنواعها علمًا أن للعرب معرفة قديمة بسلعةِ الحرير وترويجها[1]وقد انتشرت معها تقنيات الصناعة وحِرَفِّيتها، وبالمقابل انخفض معدل الرحلات التجارية نحو الصين، إنخفاضًا ملحوظا ذلك أن أهم مُستوردات القوافل من الصين كان الحرير، التي أصبحت تُصَّنَعْ في شمال إيران وكانت مَرْو هي أول المدن المصنعة لهُ في المنطقة، وفي القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي، كانت مقصد التجار لشراء بيض دودة الحرير، ومنها انتشرت هذهِ الصناعة على طول الساحل الشمالي لإيران، في مدن طبرستان وعاصمتها آمُل وجُرجان وقد أشار الاصطخري وابن حوقل إلى أن هذهِ المناطق كانت مراكز لتجارة الحرير وقد حافظت على هذهِ المكانة إلى يومنا هذا، حسب هايد.[2]

وأهم ما يُسجل هو الانتقال التدريجي لثقافة الحرير من الشرق نحو الغرب، بينما احتكر المسلمون تقنيات الحياكة، لكن في الفترة التي تلت الغزو المُغولي للعالم الإسلامي، سَرَّبَتْ حرفة القِّزَازة، وامتدت إلى أوروبا وعلى وجه دقيق المدن الإيطالية، ودخلت في منافسة العالم الإسلامي في إنتاج الحرير، وفي القرن السابع الهجري/ الثالث عشر الميلادي، وأمام انفتاح الدولة المُغولية على الأوروبيين، تمكن الإطاليون المشتغلين بالحياكة من مدينة لوقا

---

[1]– أصل لفظ "حرير" غير معروف ويُعرف عند العرب أيضا بالإبْرِيسَمْ والقَّز Kāzz، أو الديباج والسُنْدُسْ وكان يطلق على نوع البروكار Brocard، والخَّزْ Khazz والمعنى الدقيق لهذهِ التسمية هو مزيج بين الحرير والقطن، وقُرن الحرير مرادفا للقَّز فاستخدمت هذهِ التسمية للدلالة العامة، كما تداولت مسميات لأنواع كثيرة كالكَمْغَ وهو المُشَجَر المعروف أيضا بالدمشقي Damask وقد وردت تسمية الحرير في القرآن الكريم في السور؛ 23، 33، 12، ويشار إلى أنهُ لباس أهل الجنة وقد صُنِّف الحرير بترتيبه بين الأنوبع الأربعة الأولى من السلع الأكثر أهمية وفخامة في التجارة العالمية في العصر الوسيط وبداية العصر الحديث، وكانت من أهم بضائع التي يُصدرها العالم الإسلامي حتى نهاية القرن التاسع عشر. يراجع: GARDSTEENS: «HARIR», *in* ***E.I*** leiden, Brill, 1986, PP.209-210.

[2]– Heyd.W: op.cit, T_1, P.37, Boulnoi.L: op.cit, P.309.

التوسكانية، أثناء تواجدهم في إيران، من الاطلاع على طريقة المُسلمين في الحياكة، فأخذوا عنهم طرق وتقنيات الحياكة إلى أوروبا، وفي القرن 9 الهجري/ الخامس عشر الميلادي وصل حرير البندقية إلى أسواق آسيا الوسطى والهند، وبذلك تراجعت واردات أوروبا من العالم الإسلامي، وحُصِرَتْ في أنواع خاصة وحصرية من الحرير فلم تعد المسألة لها علاقة بالسعر والكمّ وإنما بالكيْف والنوع، ومن جملة ملاحظاتهم التي تُبْرِزْ، إزدهار صناعة الحرير لدى أيطاليين وتراجعها في إيران هو ما سجلهُ الرحّالة الإيطاليين حول نوعية الحرير الفارسي ذو الوجه الأملس والكمخة، المُشَّجَر- بوصفهِ أقل جودة من تلك المُصَّنعة في البندقية، وبقيت عملية انتشار أسرار تقنيات المسلمين في هذهِ الحرفة بطيئة في الوصول إلى أوروبا للتكتم وقد اشتهرت مدن "يزذ وقاشان وأصفهان في فارس ودمشق وحلب في الشام.[1]

2- تجارة الكاغد:

كان لتجارة الكاغد أهمّية كبيرة في الأسواق الاسلامية حيث كان يُجلب أوّل الأمر حصريًّا من الصين، وكانت أسواق آسيا الوسطى هي المجال الحيوي للمبادلات التّجارية حتى جاءت معركة طراز وأخرجت صناعة الكاغد من الاحتكار الصيني، فمنذ بداية القرن الثاني الهجري/ منتصف الثامن الميلادي، بدأت معامل صناعة الكاغد تنشط في سمرقند أوّلا ثمّ انتشرت في مدن ما وراء النّهر وفارس، وهذا ما ترويه لنا الرّوايات الإسلامية، حيث أشار الثعالبي في كتابه "**لطائف المعارف**" أنّ من ضمن الأسرى الذين سباهم القائد زياد بن صالح صُنّاعُ للكاغد، فأنشئت معامل خاصّة في سمرقند لصناعة الكاغط، وتولى هؤلاء الحرفيين تعليم هذه الحرفة للمسلمين فكثرت الصّنعة، واستمرّوا عليها حتى أصبحت سمرقند أكبر

GARDSTEENS: op.cit, Vol$_4$, P.110. –[1]

أسواق الكاغد في العالم الإسلامي وأصبح يُنافسُ "القراطيس المصرية" –ورق البردي– والجلود التي اعتادوا الكتابة عليها، ***فالكواغيد أحسن وأنعم، وأرفق وأوفق***". وليس هذا فحسب بل أصبحت تُصدّرُ إلى الآفاق البعيدة[1] فغدتلما وراء النهر دور لصناعة أنواع الكاغد، الذي لا نظير له من حيث الجودة والوفرة [2].

فكان من أهمّ نتائج معركة طراز 134هبالنسبة للعالم الإسلامي، هو حيازته لتقنيّين صينيين مختصّين في صناعة الكاغد، الشيء الذي أحدَث ثورة ثقافية واسعة في بلاد الإسلام وخارجِه وغدت سمرقند تصدّرهُ إلى أوروبا المسيحية، فبالرّغم من أنّ اختراع الصّين للكاغد يعود إلى سبع أو ثمان قرون قبل معركة طلاس، إلاّ أنّه كان حكرًا على الصّينيين فحسب ولم يستخدموه في البداية لغرض الكتابة، وإنّما كان يُلفُّ به مجموعات قطع الأقمشة المصنوعة من الحرير أو القنب أو للّفِ حُزم الخيزران.[3]

واعتمادًا على المبادئ العامة لتقنيات الصّينيين من تبليل ثمّ تفتيت ثمّ تَلْزِين وفَرْضٍ وتجفيف قام أحد المختصين يدعى كيلون من ولاية سيشوان Sichuanوكان الناظر العام في القصر الإمبراطوري بإيضاح ورق يمكن استخدامه للكتابة، وعرضعام 105م تقنيتهُ على الإمبراطور هيدي Hediمن أسرة هان، وقد تكوّنت موادُّه الأولية من لحاء الشجر المسحوق – وكان شجر التوت مستعملا بكثرة – ومن القنّبْ وبقايا خِرَقْ أقمشة متنوعة، وحبال صيد قديمة.. باختصار كلّ البقايا التي يمكن الحصول عليها من حرف ذات صلة، فكان يتمّ لَصقُها عن طريق الجبس، النّشا ومادة هلامية، للحصول على زرقة ذات دقّة ورهافة، يمكن

[1]– الثعالبي: لطائف المعارف، ص. 126.

[2]– ابن حوقل: صورة الأرض، ص. 385.

[3]- Boulnois. L : op. cit., P.290 .

الكتابة عليها بالحبر وبالفرشاة بسهولة، وقد كانوا من قبل يكتبون بها على الحرير والبامبو. وكانت قد انتشرت في كوريا والهند وإقليم الهند الصّينية قبل أن تنتشر صناعة الكاغد في العالم الإسلامي[1].

ثمّ انتشرت مصانع الكاغد في أراضي الخلافة العباسية وأنشأ جعفر البرمكي أوّل مصنع في بغداد بمساعدة حرفيين من سمرقند، عام 794– 795م، ثمّ أنشئت مصانع أخرى في الشّام ومصر وبلاد المغرب، وبالتدريج مع حلول القرن الرّابع الهجري/ العاشر الميلادي، كانت بداية دخول الكاغد لأوروبا المسيحية وكانت دمشق هي المُموِّل لها، حتى أنّه عُرف الكاغد بين اللاّتين ب" شارطا داماسينا CHARTA-DAMASCENA" وأصلها شَرْطُ[2] باللّغة العربية وتعني كلّ وثيقة مكتوبة على البردي أو عبره حول المعاملات من بيع أو شراء، ثمّ خصّص الكاغد بهذه التّسمية[3].

والملاحظ أنّهُ حتى مع وجود دور لصناعة الورق في دار الخلافة، إلاّ أنّ الطلب على الورق الصّيني بقي قائما، للحاجة المُلحّة لهُ أمام أوجُه استعمالاته الكثيرة من نسخ وتصدير للأماكن البعيدة حيث ذكر الجاحظ أنّ الكاغد الصّيني من أوّل الموادالمجلوبة من الصين إلى جانب المِداد الصيني والحرير واللّبُود وغيرها من البضائع التي أتقنها أهل الصّين[4].

1– Boulnois.L : op. cit., P.P. 290- 291.

2– الشَّرْطً: معروف، وهو إلزامً الشّيء والتزامهُ في البيع ونحوِهِ والجمع شروط، بالتّحريك: العلامة والجمع أشراط. ومنهُ سُمّيَ الشُّرَطُ لأنّهم جعلوا لأنفسهم علامة يعرفون بها، يراجع: ابن منظور: مادة "شرط"، لسان العرب، مج.7، ص.ص.، 329–333.

3– Boulnois.L : op.cit., P. 292.

4– الجاحظ: التّبصُّر، ص. 28.

4- تجارة الشّاي:

كان الشّاي من جملة البضائع المتداولة بالدّرجة الأولى داخل الصّين مثله مثل الحرير وغيرها من البضائع المحلية الصّنع والإنتاج. ثمّ انتشرت تجارتها خارجيا في مراحل لاحقة[1]، وتعود أقدم إشارة إلى الشّاي في المصادر غير الصينية، إلى المسلم سليمان التاجر، حيث أشار إلى أنّ لأهل الصّين مشروبًا خاصًّا بهم لم يُصادِفهُ في سار البلدان، وعليه إقبال كبير ويُعرف لديهم بـ "**السَّاخ**"(الشّاي)، ووصف نبتته بكونها أكثر أوراقا من نبات الرطبة وأطيب منها قليلا، وأنّ أهل الصين يشربونهُ عن طريق نقعه في الماء السّاخن المُغلى، وهي نبتة كثيرة المنافع – حسب سليمان التاجر- تفيد كدواء في حال التوعّك الصّحي، ونظرًا لكثرة رواج الشاي بين الصينيين فإنّ الإمبراطور هو من يحتكر بنفسه إنتاجهُ وتجارتَه، ويباع بأسعار مرتفعة في كلّ المدن، وهو ما يجعلهُ يُساهم في نصيب من مدخول الخزينة الصّينية، إلى جانب عوائد الملح، وعائدات الضّرائب المفروضة على الصّينيين والأجانب[2].

1- ترجع كتب تاريخ علم الطّب والأعشاب الصينية، استخدام الشاي في الصين إلى عهود قديمة وفي الغالب إلى الألفية الثالثة قبل الميلاد وتحديدًا إلى عهد الإمبراطور شينونغ SHENONG الأسطوري والذي اشتقّت التّسمية من اسمه، ولقد وردت تسمية الشاي على صيغ مختلفة منها، "تو- Tu"، "شي- She" "شوان- Chuan"، "جيا- Jia"، "مينغ- Ming"، وغيرها، وقد اعتني بها لفوائدها الصحية فهي تخفّف الأوجاع وتُقوّي العزيمة، وكان المشروب الأول لأقدم الفئات الدينية الصينية المعروفة بالطاوية TAOISTES واعتبرتهُ إكسير الحياة، كما كان يفضّلُه البوذيون في تأمّلاتهم وقد عملوا على ترويجه ثمّ انتشر في كامل جنوب الصّين وأصبح يعرف منذ ذلك الحين بـ "شا" «Cha» أو "سا" «Sa» ثمّ عرف رواجًا في القرن الثالث في كلّ بلاد الصين حيث أصبح مشروبهم المفضّل. للمزيد يراجع: _Juillard Ollivier : «Le Thé» **D.C.C,**Encyclpaedia universalis., Albin Michel, Paris, 1998, P.P. 711-712.

2- سليمان التاجر: المصدر السابق، ص. 41.

والملاحظ أنّ الرّحالة والجغرافيين المسلمين اهتمّوا بوصف نوعية الطّعام والشّراب والملبس للمجتمعات التي يمرُّون بها، لما تعكسهُ من مستوى الحياة الاجتماعية والثّقافية، واقتصاد الدّول، ويبدو أنّ الارتباط القويّ للصينيين بالشّاي كمشرب منشّط وصِحِّي هو ما شدّ اهتمام سليمان التّاجر وأراد بحسّه التجاري التّرويج لهذه السّلعة الفريدة من نوعها بين المسلمين، ونوَّهَ المستشرق جان سوفاجيه بأسبقية المسلمين إلى الإشارة للشاي من الناحية التاريخية مقارنة مع باقي المصادر، كما أشار إلى أنّ ما أوردهُ سليمان التّاجر من معلومات حول احتكار الإمبراطور الصّيني لتجارة الشّاي يتّفق تماما مع المعطيات التاريخية، ذلك انّ الحكومة الصّينية شرعت منذ عام167هـ/783م في إخضاع تجارة الشاي للضّرائب، وفي عام 215هـ/830م أنشأت مفوضية خاصّة لاحتكار الشاي، فأصبح الشاي مصدراً هامّاً لموارد الخزينة، وفي هذه المرحلة عملت على تنشيط ترويجه نحو الخارج[1].

بالمقابل يسجّل إغفال الرّحالة الأوروبيين في فترات لاحقة وفي مقدّمتهم ماركوبولو والإرساليين المسيحيين، الإشارة إلى هذا التّفصيل الدّقيق الملازم للتّقاليد الصّينية خاصة والآسيوية عامة، فلم يصل الشاي إلى أوروبا إلاّ في حدود القرن الثامن عشر ميلادي[2].

وفي هذا المقام يمكن القول أنّ اهتمامالرّحالة والتّجار الأوروبيين – الذين سوف نتناول نصوصهم في الفصل الثالث من الدراسة– إنصبّ بالدّرجة الأولى على المواد التي تعوَّد عليها المجتمع الأوروبي البرجوازي حينها، لاسيما الإيطالي، من بضائع رفيهة كالحرير بأنواعه، والتوابل والمسك والعطور والأحجار الكريمة والذّهب والأعشاب الطّبية وغيرها من المواد، لاسيما وأنّ المجتمعات الأوروبية بم يَكُن لها ثقافة المشروبات النّباتية العطرية

1- Sauvaget Jean: Relation de la Chine et de l’Inde., P.60.

2- Heyd w.: op. cit, T. 2, P.P. 252-253.

المنشّطة والصّحية سواء كان شاياً أو قهوة، هذا على عكس المجتمعات العربية التي عرفت مشروب القهوة منذ القدم، فكان من الطّبيعي أن يَلفِتَ الشّايُ انتباه الرّحّالة العربي.

5- تجارة الخيل:

تعتبر الخيول من أهمّ بضائع ما وراء النّهر وأغلاها، لما تكتسيه من أهمّية في التّنقل والحروب منذ العصر القديم، فهي مطلوبة في فترات السّلم كما هو الحال في فترات الحرب، واشتهرت خيول إقليم ما وراء النّهر بقوّتها البدنية وقدرتها على قطع المسافات الطّويلة مع سرعتها في ساحات المعارك والغارات.

وقد ذاع صيتها وكان أجودها هي تلك التي تتربّى في أعالي جبال البامير وإقليم الخُتلان – بلاد الخُتل– مثلما أشار إليه الجغرافيون المسلمون – فهي أجود أنواع الجياد، كما كان يجلب من فرغانة وسهولها الواسعة حيث اختصّ أهلها بتربية الخيل، وبأعداد كبيرة، وهي أحد أهمّ عناصر القوة التي تمتّع بها أهالي آسيا الوسطى الأتراك، فهي كما وصفها صاحب كتاب حدود العالم ثروتهم الحقيقية[1]، ولهم باع طويل في التّعامل مع الخيل حيث يعتبر محور نشاطهم الأول هو الفروسية رَكض الخيل وتسنُّم الجبال كما يعتبر محور صنعتهم الأولى – حسب القزويني– كان الصَّيْدُ والحرب والطّعن مجالهم الأوّل[2]، كما اشتهرت الخيول الطُغارية في أسواق ما وراء النّهر وكثر عليها الطّلب، حتى أنّ كبار التّجار كانوا يطلبون من وكلائهم المنتشرين في الأسواق أن يشتروا منها، كما حدث مع أحد التّجار

---

[1]- ابن خرداذبة: المصدر السابق، ج.إ.، مج. 39، ص. 180؛ The Anonymou : op.cit., (IG), vol 101, P.P. 100, 119؛ الدمشقي: نخبة الدَّهر، ص. 262- 263.

[2]- القزويني: آثار البلاد، ج. إ.، مج. 198، ص.ص. 345، 346.

المعروف بطاهر بن عبد الله حينما أرسل برسالة موقّعة منه إلى وكلائه يشد{د عليهم باتّباع البَراذين الطغارية دون الرّجوع إليه ومشاورتهِ[1].

واعتمد الأمراء والخانات الأتراك في آسيا الوسطى على تجارة الخيول، في تعاملهم مع الممالك والإمبراطوريات المجاورة لاسيما الإمبراطورية الصينية التي كانت تعتبر أهمّ أسْواقهم وكانوا بالنّسبة لها المُموِّل الأساسي، منذ عهد أسرة هان، واشتهرت بالخيول السماوية «Chevaux célestes» والتي كانت تروّضها قبائل الوسون «Wusun» التّركية في المراعي جنوب بحيرة بالخاش «Balkhash» وكانت المفضّلة لدى الصّينيين خاصة إذا عَلِمْنَا أنّ خيولهم كانت قصيرة وغير قادرة على خوض الحروب، عكس خيل تركستان ذو البنية القوية والحجم الكبير وتميّزه بالسّرعة، وفي هذا السّياق سجَّلَ المؤرّخ الصيني ماتوان لين Ma-touan-lin في القرن الثالث عشر الميلادي، أنّ فرغانة كانت من ضمن الممالك في آسيا الوسطى التي اشتهرت بتربية الخيول، وترويضها في مراعيها الواسعة، وكانت تجلب الخيول النّادرة من الجبال المحيطة بها، وقد إطّلع الصّينيون على ذلك منذ عهد أسرة هان (126ق.م)، وسَعوا منذ ذلك الحين إلى اقتنائها لا سيما تلك التي عُرِفت بالخيول السماوية، فبعد ان أَخْبَرَ تشانغ كيان الإمبراطور "ووتي" بأمر هذه الخيول الأصيلة، أرسلهُ الإمبراطور مباشرة ومعه أموالاً وجوادًا مصنوعا من الذهب لغرض اقتنائها. لكن نظرًا لامتناع ملك فرغانة من بيع خيوله، دخل الطّرفان في مواجهة عسكرية كانت نتيجتها أن انهزمت فرغانة، وأُلزِمت بدفع أعداد من الخيل كضريبة سنوية للصين، هذا سوى ما استولى ليه القائد الصيني

---

[1]– الثعالبي: لطائف، ص. 126.

من عشرات من الخيل الفرغاني الأصيل وأعداد أخرى من الخيول الأقل جودة من الأولى، ودامت حملة تشانغ كيان العسكرية في فرغانة مدّة أربعة أعوام[1].

وتجدر الإشارة أنّ أسرة تانغ الصينية لم تتمكن من إحْكام سيطرتها على كلّ أراضي الصّين الشّاسعة، والتّغلّب على الأمراء الإقطاعيين الصّينيين، إلاّ بامتلاكها الخيل التركستاني وتدْريب الأتراك للصّينيين وتلقينهم فنون الفروسية[2].

فكان الخيل بالنسبة للصين في عهد "تانغ" ضرورة عسكرية واستراتيجية، وعملت طيلة فترة حكمها على اقتناءه، فأنزلت الحكومة المركزية الصّينية في القرن التاسع الميلادي، كميات كبيرة من الحرير إلى السوق، وقامت بمقايضتها مع تجار الخيول الأتراك وكان الأيغور في مقدّمتهم[3]، وسجّلت المصادر الصّينية عام 726 أنّ خاقان التّرك كان يرسل سنويًّا الجزية إلى الإمبراطور ومعها هدايا يأتي الخيل في مقدّمتها إلى جانب الفهود والسّجاد[4].

وأشار الرَّحالة الكوري "هاي-كو" إلى تخصُّص فرغانة في تربية الخيول وتصديرها هذا إلى جانب ناحية باميان Bāmiyân- حسب وصفه- التي تمتلك خيولاً أصيلة وقوية وكثيرة وهو ما يجعل من جيشها أقوى الجيوش بكثرة فرسانها وشدّتهم[5].

1- ABEL REMUSAT M.: Nouveaux mélanges Asiatiques, Ou Recueil de Moroceaux critique et de mémoiresn SCHUBART et HEIDELOFF, Paris, 1829, T. 1, PP. 200 - 202.

2- TROMBERT E.: Textiles , P. 112.

3- Ibid.

4- ABEL REMUSAT: op. cit., P. 232.

5- The Hye CH’O DIARY: op.cit., PP. 51- 52, 54.

ونظرا للأهمية الحيوية التي يمثّلها الخيل بالنّسبة للصّين، فإنّها لم تتردّد في السّعي لتأمين حاجتها لهُ، إمّا بفرض سيطرتها على مراعي تركستان بالقوّة والحملات العسكرية تارة أو بالتّودّد والمصاهرة تارة أخرى. حتى أنّها تعمد إلى مصاهرة الأمراء الأتراك مثلما حدث عام 105ق.م حين تزوّجت إحدى الأميرات الصينيات كزيجون XIJUN من ملك الوسون الذي قدّم ألف من الخيل كهدية للعروس[1].

كما كانت المملكة الأيغورية من التغزغز مختصة في تربية الخيل، والمتاجرة به، فحسب رواية ياقوت الحموي كان ملكها يلقّب بملك السّباع والخيل[2]، لامتلاكه لأكبر أعداد الخيول في كلّ آسيا الوسطى – وكانت مملكته المتوسّطة بين الصّين وخرسان– المُصدِّر الأول لجيرانها وللأجانب[3].

والملاحظ أنّ حدود هذه المملكة التي تنطبق حاليا مع تركستان الشرقية الواقعة تحت الهيمنة الصينية– لا تزال تحوي في بعض نواحيها على مراعي خاصة بتربية الخيل، بالرّغم

---

[1]– Tombert. E.: op.cit., P. 112.

[2]– يشير ياقوت في هذا الموضوع إلى مملكة الأيغور التي اعتادت المصادر الإسلامية الإشارة لطغوز أغوز، وكانوا قد مكثوا في موطنهم بأورخون ORKHON موطن قبائل الأغوز Oghuz جميعا، ولكنّهم أُبْعِدُوا من هناك على يد قبائل الكرغير التركية فتفرّقوا في آسيا الوسطى وجماعة منهم استقرّت في قانصو Kan su حيث أسّسوا لهم مملكة أخرى في شرق جبال تيان شان عام 860م، واستطاعت الحفاظ على استقلالهاحتى عام 1020م، وخلال عام 860م أسّست قبائل من اليغور مملكة ثانية في شرق جبال تيان شان حافظت على استقلالها إلى غاية الغزو المغُرلي. وقد عُرفت بالقراخطاي Kara-khatay التي تقاسمت حكم آسيا الوسطة مع أبناء عمومتهم السلاجقة الأتراك من القرن الخامس هجري/ 11م إلى القرن السابع هجري/ 13م، وبَرَزت إمبراطور يتهم في القرن الرابع الهجري/ 10م، عندما ظهر زعيمهم إلك خان ILEK-KHAN وأسّس عاصمة حول مدينة كشغر لإمبراطورتيه، وقام خليفته قاره بوغرا خان Kara Borgha Khan أو بوغرا الأسود، باعتناق الإسلام هو وعدد كبير من أفراد قبيلته الذين كانوا على المسيحية أو البوذية، ثمّ أخذ بشنّ الغارات على الأمراء السامانيين حتى القضاء على دولتهم عام 1004–1005م، للمزيد راجع: Anonymouse: Hudud el Âlam «IG», 101, PP. 264-265; Vambéry: Histoire de BOUKHARA, T. 1, P. 89, 90, 93; Gerard De Rialle : mémoire, PP. 59-61؛ الكرديزي: زين الأخبار، ص. 382.

[3]– ياقوت الحموي: المصدر السابق، ج.1، مج.، ص.ص. 47– 48.

من موجة الجفاف والتّصحّر الذي تشهدُهُ أغلب مناطق تركستان الشّرقي، ويمكن القول أنّ قسمها الجنوبي حيث الواحات، هي الأكثر تضرّراً من التّصحر، وبالتالي عرفت تراجعًا في تربية الخيل وأصبح الخيل المتميّز نادرًا فيها ويباع بأسعار مرتفعة، بينما المراعي الحقيقية أصبحت تتمركز في الشّمال حيث المراعي الجبلية الممتدّة على طول الأنهار الدّاخلية، كجبال الدُّولان Les Doulân التي تحيط بنواحي مارالباشي Maralbâchi، وعموما المراعي التابعة لروسيا حاليا أكثر خصوبة وثراءً من تلك الجنوبية الخاضعة للصين من جملة إقليم تركستان الشّرقية – فالأتراك الكرغير في جبال الآلاي L'Âlay،وتيان شان هم من اختصّ بتربية وترويج الجياد لأهل السّهول وبأسعار معتبرة، وعلى هذا النّحو فإنّ المراعي الجبالية، بحيازتها المياه وخصوبتها أصبحت المجال الأمثل لتربية المواشي والخيل خاصة والمُ الأوّل له[1].

6- تجارة المعادن الثّمينة:

إن أشهر المعادن التي تنقل من إقليم آسيا الوسطى،هي الذّهب والفضة وملح أمونياك (النّشادر)، والسلفات فيستخرج من أعالي جبال البتم وهي أعالي جبال زرفشان، ويستخرج الذّهب والفضة من وَخَان Wakhanأعالي أموداريا (جيحون)، كما كانت تستخرج الفضة في وادي باندجخير Bandjkhir– بانجشيرBandjkhir حاليا– ولا تزال الفضة تستخرج منها إلى يومنا هذا[2].

1– Grenard : Turkistan, PP. 175 -176.

2– Kouznetsov Pierre : Lute de civilisation, P. 33

وذكر ابن حوقل أنّ أجود أنواع "النوشادر" ملح الأمونياك هو ذلك الذي يجلب من بلاد ما وراء النّهر وتكاد تكون هي الوحيدة المنتجة له في بلاد الإسلام، بعد جزيرة صقلية، ولكن يبق ذلك الذي يتواجد في ما وراء النهر أكثر قوّة وفعالية من نشادر صقلية[1].

كما تنشط تجارة الحديد حيث عرفت أسواق ما وراء النّهر برواج الحديد فيها، فهم يستخرجونه ويستخدمونه في مختلف صناعاتهم وأشهرها صناعة السّيوف ويروّجونه خارجًا.

ويعتبر الذّهب من أهمّ المعادن التي ما انفكّ الجغرافيون والرّحالة يُشيرون إلى وفرته في ما وراء النّهر، فكانت تستغل المناجم ومقالع الحجارة الغنيّة بالذّهب خاصة في فرغانة حيث كان يتواجد الذّهب والفضة والزّئبق والنحاس والفحم، كما كانت هناك مناجم لاستخراج الملح Sel gemmeغير بعيد عن صمغار Samgarولا تزال جبالها تنتجه إلى يومنا هذا[2].

وكما تواجدت معادن ثمينة في مواضع أخرى، فقد ذكر ابن خرداذبة أنّ بأعالي نهر جيحون والمعروف بـ "باخشو" «Bakhschou- Oxux» يخرج أهالي المنطقة لجمع الذّهب في شطّ نهر باخشو وبمدُون مُسُوكَ[3] شعر المعز، ويستوثق الرّجل منهم نفسهُ بالأوتاد حتى لا يأخذه تيار النّهر القوي ويأخذ ما استطاع ممّا يعلقُ من رمل وذهب وعوالق من شاطئ النّهر ثمّ يأخذونهُ ويبسطونهُ على وجهِ الأرض تحت الشّمس حتى تجفّ ثمّ ينفض ويغربل ويأخذون منه الذّهب، ويُعرفُ في أسواق بلخ بأنّهُ أجود الذّهب وأصفاه[4].

1- الاصطخري: المصدر السابق، ص. 385.

2- الاصطخري: المصدر السابق، ص. 385؛ Kouznetsov. Pierre : op.cit., P. 33.

3- مُفردها المَسْكُ بالفتح وسكون السين، الجلد وخَصَّ بعضُهم جلد السَّخْلَة، قال ثمّ كَثُرَ حتى صار كل جلد مَسْكًا والجمع مُسْكٌ ومُسُوك، للمزيد راجع: ابن منظور: لسان العرب، مج. 10، ص. 486.

4- ابن خرداذبة: المصدر السابق، ص. 179.

كما كانت جبال البُتَّم الواقعة في أعالي نهر زرفشان مناطق استخرج منها المعادن والفضة والسُلْفَات وملح النّشادر، وفي واد بانجير Pandjchirكانت تستخرج الفضة ولا تزال إلى يومنا هذا[1].

ومن أهمّ ما أشار إليه المسعودي في القرن الرّابع الهجري كيفية استخراج ملح النّشادر وأشهر المواقع في ما وراء النهر التي يتوفّر فيها بكثرة هي تركستان الشّرقية، كما مرّ بنا – أشار إلى أنّ أكثر المواقع المنتجة لهُ هي "جبال النوشادر" المحاذية للصّين وتحديدًا هي جبال تيان شان، والملاحظ أنّه نظرا لطبيعة ملح الأمونياك الحارَّة، فإنّ عملية نقلهِ تكون دائمًا في فصل الشتاء حيث تنخفض درجة الحرارة فيسهل حملهُ لاستحالة القيام بذلك في فصل غيره، فهو كما قال المسعودي: "***لأنّ النوشادر يلتهب نارًا في الصّيف فلا يسلك ذلك الوادي راع ولا مجيب، فإذا كان الشّتاء كثُرت الثّلوج والأنداء وقع في ذلك الموضع (الوادي) فأطفأ حرَّ النوشادر ولهيبَهُ***"، حتى التّجار الصينيين كانوا يقصدون هذه الجبال لجلب النوشادر منها، نظراً لوعورة المسالك البرّية عامة وهذا المسلك خاصة فإنّه لم يكن المسلك المفضّل لدى كلّ التّجار، إلاّ من اختار ذلك كأولئك المتّجهين إلى شمال الصين أو أولئك الذين كانوا يقصدونها خصّيصًا لنقل النّشادر إلى الأسواق المجاورة[2].

7- **<u>تجارة الرّقيق:</u>**

كان الرّقيق من بين أهمّ البضائع المطلوبة والمعروضة في أسواق العالم في العصر الوسيط وكان يجلب من أقاصي الأرض، وكان أغلبها يجلب من شرق آسيا، وشكّل أساس التّجارة المشرقية والتي كانت تمثّل إحدى أهمّ فروع التّجارة في العصر الوسيط، ويمكن القول

1- Kouznetsov. P.: op.cit. P. 33.

2- المسعودي: المصدر السابق، ج.1، ص.ص. 121- 122.

أنّ تجارة الرّقيق هي التّجارة التي اشترك في تنشيط مبادلاتها كلّ الأطراف حيث ينقل من أطراف أوروبا إلى أسواق مصر كما ينقل من أطراف آسيا وإفريقيا[1].

وتشير كتب الجغرافيين المسلمين وموظفي الدواوين العباسية أنّ أكبر عدد من الرّقيق كان يصل إلى أسواق بغداد والشام من مناطق التخوم مع الممالك التركية وشرق وشمال بحر قزوين من ذلك ما سجّلهُ الاصطخري وياقوت بأنّ خير الرّقيق بالمشرق كلّه هو الذي يقع في منطقة ما وراء النّهر ويجلب إليها من "التراك المحيطة بهم" – ويُقصدُ الكُرْلكية Karlukوالغرية– ويفضل عن حاجتهم فينقل إلى الآفاق و"أفرههم وأحسن ما يحيط بالمشرق وأكثرُهُ ثمناً"[2].كما كان هناك خط آخر وهي نواحي بحر قزوين الشّمالية والغربية حيث يجلب منها الجواري والمماليك التي تباع في أسواق خوارزم[3].

وكان بسمرقند عاصمة بلاد الصغد أكبر أسواق الرّقيق بأسعار رخيصة يجلب إلى أسواقها من كلّ النّواحي ويعرض هناك، فكان أحد أهمّ البضائع المعروفة بها أسواق المدينة فضلاً عن تجارة الخيل[4]. فكانت مناطق الاستقرار والمدن الحضرية لما وراء النّهر كسمرقند وبخاري وخوارزم وبيكند، وفرغانة، والشّاس كلّها تتطلع إلى سهوب أوراسيا، حيث البادية باعتبارها المورد الأول للمادة الخام والثروة الحيوانية والرّقيق خاصة، الذي كان سلعتها الرّئيسية، فكان الخراسانيون يشنون غارات داخل السّهوب لتمويل الأسواق بهم[5]. فهذه

1– Day .C : A History of commerce, P. 79

2– Day .C : op.cit , P. 79

3– الاصطخري: المصدر السابق، ص. 385 ؛ ياقوت الحموي، المصدر السابق، ص. 46.

4– الدمشقي: نخبة الدَّهر، ص. 264.

5– المقدسي: أحسن التقاسيم، ص. 248، 249.

الأقاليم كانت هي منافذ ما وراء النّهر للاتّصال بالأتراك الكيماك والكارلوك وبلادالتغزغز (الأيغوز) الساكنين تركستان الشرقي [1].

وفي مناطق السّهوب الشّمالية الغربية، كان الخزر يتعاملون بتجارة الرّقيق ونشطوا بها، فكانت أسواق عاصمتهم "أنيل" تُصدِّرُ الرّقيق عبر القوقاز، ونحو خوارزم ممّا أدّى إلى ازدهار القوى المسيطرة على ما وراء النّهر وخوارزم من جرّاء التجارة، فخوارزم لوحدها كان لها أسواق في عاصمتيها الأولى "كاث" الواقعة شرق نهر جيحون أموداريا، ونشط فيه التّجار الغُّزية وبضائعهم ومن ضمنها الرّقيق، كما نشطوا في عاصمتها الثانية، الواقعة على الضفّة الغربية لنهر جيحون، والتي تعرف بالجُرجانية، وكان يصلها الرّقيق من بلاد الخزر، والصّقالبة الرّوس[2].

فكانت الحدود المواجهة لسهوب الأتراك مليئة بالرّباطات، ولم تكن هذه الرّباطات مجرّد مواقع دفاعية ضدّ هجمات البدو الرحّل، بل كانت نقاط انطلاق الغزوات إلى داخل السّهوب، فجلب أعدادا كبيرة من رقيق حدود "أسبيجاب"، ولقد وصلت تجارة الرّقيق ذروة التنظيم في العهد الساماني، الذين كانوا يسيطرون عليها، وتفرض ضريبة على عبور جيحون تتراوح بين

---

[1]– ابن خرداذبة: المصدر السابق، ص.ص. 27، 28، 29؛ قدامة: المصدر السابق، ص. 207، 208؛ ابن الفقيه: المصدر السابق، ص. 327؛ المروزي: المصدر السابق، ص. 125.

[2]– تعتبر تجارة الرقيق مع القبائل الغُزية حتى العهد الساماني، هي مصدر ثراء الخوارزميين دون إغفال تربيتهم للمواشي وإتجارهم بها، فهم كما أشار ابن حوقل لم يكن لهم ثروة من "معدن كالذهب ولا الفضة ولا شيء من جواهر الأرض" وأكثر الرقيق المتاجر به في خوارزم، رقيق الصقالبة والخزر وما ولاها من رقيق الأتراك" والأوبار من الفنك والسمور والثعالب وغيرها؛ ابن حوقل: المصدر السابق، ص. 395، 398؛ The Anonymous : Hudud Al Âlam, P. 121؛ الحديث يقحطان عبد الستار: "دراسات في التنظيمات"، الخليج العربي، مج. 20، العدد 4، 1988، ص. 34.

70 إلى 100 درهم عن كلّ واحد من الرّقيق الأتراك فضلا عن فرضهم رخصى دخول لكلّ واحد من الغلمان غير أراضيها[1]

8- خشب الصندل:

يستخلص من شجر الصندل[2]، وهو خشب عطري من أهم ما يجلب من الهند والجدير بالإشارة إليه أن ابن خرداذبة أورد التسمية العلمية الدقيقة لهذه المادة وهي الصندلان "Santalum"، يستخدم خشب الصندل عند أهل الهند في الجنائز حيث يهيئ به الميت قبل حرقه في النار وذرّ رماده في الرِّيح وهي من المشاهد التي وصفها سليمان التاجر –بداية القرن الثالث هجري– ونقلها المسعودي مطلع القرن الرابع هجري، فكان هذا الخشب من أهم المواد وأشهرها المستخدمة في تجهيز الميت وتعطير المكان بحرق الأخشاب العطرية[3].

[1]– الحديثي قحطان عبد الستار: المرجع السابق، ص. 45.

[2]– الصندل: Sandalwood. Santalum؛ جنس نباتات مُعمرة بَرِّيَة، وزراعية صناعية، من فصيلة الصندليات، أنواعه ثمانية مهدها الشرق الأقصى جميعها، أشجار ذات أوراق معنقة متقابلة أزهارها عنقودية التجميع، بذورها سود، تزرع لأخشابها الصفراء اللون، الفاخرة الصنف، أخشابها ناعمة الرقعة، شديدة الصلابة، عطرية العرف لا تقربها حشرة ولا يفسدها الزمن، أ أنواعها الصندل الأبيض (White Sandalwood) أخشابه صناعية فاخرة غزيرة بالمادة العطرية شائع استعمالها لتعطير الجو كعود البخور، وطبيًا، والصندل المرجاني (CoralpeaTree, RedSandalwood) ، و تستعمل في صناعة السبحات، أخشابها مرجانية اللون صناعية، جذورها طبية مقيئة، يصل علو أشجارها إلى 12 متر. للمزيد أنظر: إدوارد غالب: الموسوعة في العلوم الطبيعية، المطبعة الكاثوليكية، بيروت 1966، المجلد الثاني، ص.73.

[3]– أبو عبد الله ابن خرداذبة: كتاب المسالك والممالك، ج.إ.، مج. 39، ص.70؛ سليمان التاجر وأبو زيد الحسن السيراني: أخبار رحلات العرب والفرس إلى الهند والصين؛ سلسلة التواريخ. الكتاب الثاني نشره: م. رينو، ضمن الجغرافيا الإسلامية، مج. 164، إصدار: فؤاد سزكين، جامعة فرانكفورت، 1994، ص.138،50؛ أبو الحسن المسعودي: مروج الذهب ومعادن الجوهر، طبعة باربيه دي مينار وباقيه دي كورتاي، تحقيق وتصحيح. شارل بيلا، ج1، منشورات الجامعة للبنانية، بيروت 1965، ص.93.

عُرِف خشب الصندل بأنواعه المختلفة في العصور الوسطى، وكان يستخدم بشكل واسع في كل بلاد المشرق، فكان سعرهُ مرتفعا خاصة نوع الصندل Citrin المطلوب بكثرة لعطره القوي فبالنسبة للعالم الإسلامي كان خشب الصندل من جملة البضائع الهامة والمطلوبة منذ بدايات النشاط التجاري مع بلاد الهند والصين، لاسيما في العهد الذهبي لموانئ سيزف المطلة على الخليج الفارسي والأبلة جنوب البصرة، وميناء كله Kalah في شبه جزيرة المالاوي. ولم تكن أوروبا تستورد منه إلا القليل بينما نجد الصندل الأبيض موجود وبكثرة على قوائم مستورداتها بالرغم من ضعف مادتهِ العطرية.وتأخرت معرفة أوروبا بهذه المادة العطرية الآسيوية إلى أن اكتشفوا فيما بعد في شبه الجزيرة المالوية وتعممت معرفتهم بهذه المنطقة وتبين أن جزيرة تيمور L'ile de Timour تحتوي على أكبر قدر من هذه الأشجار الثمينة[1].

وكانت جزيرة تيمور تغطي كل ما يحتاجه سكان سومطرة، وجاوة، وملاقا، من خشب الصندل لوفرة هذه الأشجار بها، هذا مع تواجده في شبه الجزيرة الهندية، والهند الصينية، كما ينتشر شجرهُ بمحاذاة ساحل المالابار الهندي ويعتبر من أحسن وأفخر أنواع خشب الصندل[2].

كما كان استخدام خشب الصندل العطري واسعًا، سواء في العالم الإسلامي أو في أوروبا التي كانت تستوردهُ بكميات معتبر مقارنة مع باقي أنواع الصندل العطري ويشار إليه غالبًا كخشب مُلَوِّن، أو بالأحرى كملون غذائي وغيره[3].

---

[1]- Heyd. w: opcit, T_2, p.585-586.

[2]- Heyd. w: opcit, T_2, P.586.

[3]- Ibid.

أشار التاجر الرّحالة البندقي نيقولو دي كونتي Nicolo de Conté" 1439/1414 م إلى أن هناك مدينتين ساحليتين تصدر منها خشب الصندل الأحمر وهما أودشريا Odeschiria وصندرغيريا Sanderghiria، وهي موانئ لم تعد موجودة، ويصعب تحديدها على وجه الدقة، إلّا أنهُ اعتمادًا على ترتيب مسار رحلة دي كونتي، والمحطات التي مرّ بها يمكن القول أنها تقع إلى الجنوب من مدينة قاليقوت Calicut حاليًا على ساحل المالابار[(1)].

وأضاف التاجر"دي كونتي" أن الصندل الأبيض كان متوفر وبكثرة في منطقة بانكوفيا Pancovia، وهي تعرف حاليا بمنطقة بيغوPégou، المطلة على خليج البنغال شرقًا، وكان مطلوبًا كثيرًا في أوروبا[(2)].

9- الكافور:

منذ أن احتك التجار المسلمون، بمدن الهند وموانى جزر جنوب شرق آسيا، وبلاد الصين، تعرفوا على الطريق الذي يسلكهُ الكافور[3]، نحو الغرب حيث كان ميناء"كَلَه"Kalah في ماليزيا، ثم كوُلَم Koulam وسفالة سُفَارَة (Soufara)، الواقعة على الساحل الغربي للهند، وسيراف على الخليج الفارسي إلى عدن باليمن، ومنها إلى موانئ البحر الأحمر، هي أهم

1- De Conti Nicolo: Le voyage aux Indes, Traduction: Diane Ménard, éditionchandeigne-librairiePortugaise, Paris, 2004, pp.93,147.

2- De Conti Nicolo: op.cit, p.101.

3 - كافُور: comphor Tree. Common camphor of china، شجرة عطرية كبيرة القَّد، ذات رائحة من القرفيات وفصيلة الغاريات، موطنها الأصلي حيث تنبت طواعيا يمتد من جزيرة فرموزًا، وخليج طونكان إلى جزر جاوة،ويتراوح علو ساقها مابين 20 إلى 50 متر، قطر جذعها يتراوح من متر إلى مترين، يستخرج من أخشابها، بعد قطعها وتفصيلها وتقطيرها بالماء نحو 3% من الكافور الحر. للمزيد أنظر: إدوار غالب، المرجع السابق، م2، ص.344.

المحطات التي تعبرها هذه البضاعة الثمينة، لتصل إلى سواحل الشام، ومصر ومنها إلى أوروبا وغيرها.

فوصفها الجغرافيون والرحالة المسلمون، بأنها شجرة عظيمة ضخمة، من عظمتها أنها تُظِلُ "مائة إنسان وأكثر وأقل ببلاد الزابج" (جاوة). يستخرج منها الكافور على طريقتين، إما يستخلص على شكل سائل، بأن يحدَث شق على جذع الشجرة ليسيل الكافور الخام، أو أن يؤخذ جامدًا من قلب الشجرة، وفي ذلك أورد ابن خرداذبة وصفًا دقيقا لعملية استخلاص مادة الكافور من أشجارها، حيث سجل ما يلي: "يثقب أعلى الشجرة فيسيل منها من ماء الكافور،ويؤخذ منه عدة جرار، ثم ينقل أسفل من ذلك، وسط الشجرة فينساب منها قطع الكافور، وهو صمغ ذلك الشجر غير أنهُ داخله، ثم تَبْطُل تلك الشجرة فتجف" [1].

واعتمادًا على سليمان التاجر فإن أجود أنواع الكافور، كان يُجْلَب من جزيرة الرامني، في بحر هركند –خليج البنغال– ويعرف حينها بكافور فَنْصور، وينقلونه إلى بلدانهم إما على هيئته الخام هذه، وإما أن يُنقى ويُصفى[2].

ومع تنوع المناطق التي جلب منها الكافور، توفر لدى الأطباء المسلمين والمختصين فيهم بعلوم الطبيعة أنواع متعددة للكافور سمحت لهم بدراستها وتصنيفها إما حسب البلد الذي نشأت فيه أو حسب ألوانها أو وفقاً لتصنيفات أخرى.

كما تعتبر هذه المادة من أهم المواد التي يجهز بها الموتى في الصين، وهو ما نقله لنا سليمان التاجر أن ملوك الصين بعد أن يُوضع الجير على جثثهم حتى تمتص الرطوبة منها،

---

[1]- ابن خرداذبة: المصدر السابق، في ج.إ، مج.39، ص.65.

[2]– سليمان التاجر، سلسلة التواريخ، في ج.إ، مج.164، ص.8.

يدهنون بالعود والصَبِر (عود النَّد)، كما كان التجار المسلمون هم من ينقل هذه البضاعة إلى الصين حيث يوجد لها رواجًا كبيرًا وكان ملك الصين يشتريها منهم بأغلى ثمن ويعجَّل به ويصل خمسين فكوجًا، والفكوج ألف فلس (قطعة نحاسية)، بينما يبيعونهُ بنصف هذا الثمن للتجار في الأسواق الصينية[1].ففي الصين لم يُحول الذهب أو الفضة إلى عملة نقدية، فكان الذهب يحول إلى سبائك صغيرة، والفضة إلى عواميد بمقدار أوقيات معدودة، وكانت كل معاملات البيع والشراء يتم عن طريق العملة الورقية الصينية[(2)].

فمادة الكافور كانت تستخلص من أشجار انتشرت بصفة خاصة حسب ما أوردتهُ كتب الجغرافيين والرحالة المسلمين في مملكة جاوة حينها، وبقيت هذه السلعة من أهم ما يجلب منها ففي بداية القرن الخامس عشر حدد التاجر نيكولو دي كونتي الموقع بدقة حين ذكر أن الكافور متوفر وبكثرة في جزيرة تابروبانTaprobane أي سومطرة[(3)]. كما ذكر في موضع آخر أن بلاد السيامباCiampaأو شامباChampa وهي المملكة السيام من القرن الثالث إلى السابع عشر الميلادي التي شملت جنوب بلاد الأنام Sud Annam، وشمال إقليم الكوشنشينCochinchine – كانت غنية بمادة الكافور ومن أهم مصدريها[(4)].

---

[1]- سليمان التاجر: المصدر السابق، ج إ، مج. 164، ص.37.

[2]– Sauvaget Jean: Relations de la Chine et de l'Inde Rédigé en 851, Texte Traduit et commenté, Les belles lettres, Paris, 1948, p.278.

[3]– De Conti Nicolo: op.cit, p.95.

[4]– Heyd .W :Op.cit,T2, pp.103, 149.

10- تجارة القطن:

إن أجود أنواع القطن المتداول لدى التجار في العصور الوسطى هو القطن الهندي، وذكر ماركو بولو، أن القطن الذي تنتجه ضواحي مدينة كمباي يصدر إلى دول متعددة. وكانت مواني الواقعة على خليج البنغال عند دلتا نهر الغانج، أهم مواقع تصدير لأحسن أنواع القطن إلى الخارج، سواء نحو عدن باليمن أو مكة، أو نحو هرمز، وصُدِّر على هيئة قطن خام أو على شكل خيوط قطنية مُصنعة، وكان قسم منهُ يُصدر إلى الغرب نحو مناطق بآسيا أو نحو أوروبا، الملاحظ أن قوائم التجار الإيطاليين لا تحدد مَصدر القطن بدقة، ذلك لأن السلع لم تكن تنسب إلى المصدر الذي جُلبت منه وإنما للأسواق التي سُحبت منها[1].

فلم يكن يشار إلى القطن إن كان الفارسي أو العراقي سواء الذي تنتجهُ ضفاف الدجلة أو الفرات في حين كان القطن الذي تنتجه آسيا الصغرى، في مدينتي بورصة Bourse ودفيسd'Ephèse، يُميز وتسجل تسميتهُ في سجلان البضائع الإيطالية المستوردة من الشرق. وكانت التسمية الأوروبية القديمة المتداولة للقطن هي بومباكيومBambacium ولكن ابتداء من القرن الثالث عشر بدأتتدخل تسمية كوتونومCottonumذات الأصول العربية "قطن" في سجلات التجار الإيطاليين وغيرهم[2].

1- Heyd. W: op.cit, T_2, p.613.

2- Heyd.W :Op.cit, T_2,p.614.

11- العاج:

كانت السواحل الشرقية لإفريقيا والهند هي الصدر الأكبر للعاج، وانتشرت أسواقه في عدن والإسكندرية وسيراف وغيرها هي مناطق العبور الكبرى لهذه البضاعة المطلوبة، وذكرهُ الجغرافيين المسلمين ضمن أهم السلع المتداولة في هذه الأسواق[1].

وتشير الدراسات أن العاج الإفريقي كان الأكثر تواجدًا في الأسواق، وأن حتى الهند كانت تستورد من الحبشة العاج لاستهلاكها المحلي، ذلك أن إنتاجها المحلي لم يكن يغطي حاجياتها، ومع وفرة العاج الإفريقي مقارنة بالهندي، تمتع الأول بالجودة العالية، ذلك لأن أنياب الفيل الإفريقي العاجية أطول وأثقل من الفيل الهندي وللأنثى مهارات تساوي فيها الذكر، هذا إلى جانب قساوة البيئة التي تعيش فيها الفيلة الافريقية تجعلها أكثر شراسة وصعبة للصيد، بينما الفيلة الهندية تتميز بمكانة خاصة،لدى المجتمع الهندي تجعلها فهي مقدسة لديهم لا يتعرض أحد لصيدها، وإنما تترك حتى يموت ثم من ثمة من يستفاد من عاجها. هذا ما يجعل إنتاج الهند من العاج محدودًا أمام حاجياتها الكثيرة، ويدفعها إلى جلبه من إفريقيا، كما كانت الصين من المستهلكين الكبار للعاج وكانت بلاد الحبشة والساحل الإفريقي هي المصدر الأكبر للعاج بالنسبة إليهم، وأشار الرحالة ماركو بولو إلى الكميات الهائلة من العاج التي كانت تصل إلى الصين من أكبر أسواق العاج حينها، كمدغشقر وزنجبار وميناء "زايلة" الواقعة قبالة عدن[2].

---

[1] - الاصطخري: المصدر السابق، ص.74، المسعودي: المصدر السابق، ج3، ص.6، الإدريسي،، نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، ج1، ص.51.

[2] - Heyd.w: op.cit, T_2, p.629-630.

12- جوزة الطيب/ "الجوزبو":

تعود تجارة جوزة الطيب إلى العصر القديم، حيث كانت من السلع المستقدمة من الهند، والمستخدمة حتى في المجال الصيدلاني والطبي لدى اليونانيين.أما عند المسلمين فقد كانت تعرف لديهم ب "الجوزبو" وتعد من أشهر السلع المجلوبة من بلاد الهند منذ عهد قديم قبل الإسلام، وتذكر كتب الرحلات والجغرافيين المسلمين عمومًا أن مناطق انتاج جوزة الطيب إنما هي بلاد الهند عامة والبلاد المُطلة على بحر "كندرج" (خليج البنغال) وبحر الصنف أي مدن الساحلية لبحر سيام بينما لم ترد لديهم أي معلومة دقيقة حول طبيعة الشجر المنتج لهذه الثمار العطرية واعتبرها ابن بطوطة من شجر Geroflier، ومع نهاية القرن الثالث عشر، وبوصول التجار الأوروبيين إلى بلاد الشرق الأقصى، كان التابل الثمين جوز الطيب من ضمن قائمة التوابل التي صنعت ثراء سكان جزيرة جاوة[1].

والجدير بالذكر أن مصطلح "جاوة الكبرى" لا يقصد به الجزيرة المعروفة بهِ حاليًا وإنما هو اسم للمملكة الهندية المترامية على كل شبه جزيرة جنوب شرق آسيا وهي كانت تشمل سومطرة والجزر الأندونسية وشبه الجزيرة المالوية، فعلى الأغلب تعود عدم دقة الرحالة في ذكرهم لتسمية الجزر لاعتبارها جزء من مملكة جاوة الكبرى المعروفة لدى الجغرافيين المسلمين بمملكة "الزابج" الهندية.أما من جهة معارف الأوروبيين فإن الخريطة الشهيرة الكتلانية catalane La carteتشير إلى جزيرة سومطرة بتسمية جاوة وبها إشارة إلى "جوز الطيب" "noumoscada" كأحد البضائع المجلوبة من هناك[2].

1- Heyd.w: op.cit, T2, p.644-645. :

2- Heyd.w: op.cit, T_2, p.645

في النصف الثاني من القرن الخامس عشر ذكر الرحالة نيكولو كونتي " Nicolo Conti" من بين كل الأرخبيلات الكبرى لجزر جنوب شرق آسيا سواء جزر جاوة الصغرى ويقصد بها جزيرة جاوة الحالية، أو جاوة الكبرى ويقصد بها جزيرة بورنيو "Bornéo"أو جزيرة سومطرة[1]، كانت جزيرة صانداي Sandai هي الموطن الأصلي لانتاججوزة الطيب، وقد وصل إليها بعد أن أبحر مدة خمسة عشر يومًا، من جزيرة بورنيو حين اتجه نحو الشرق[2].

وتبقى المعلومات المقدمة من قبل الجغرافيين والرحالة سواء المسلمين منهم أو الأوروبيين المتأخرين مع نهاية القرن الخامس عشر، غير دقيقة حول الموطن الأصلي لجوزة الطيب، إلا أن أشهر الدراسات الأوروبية المتقدمة المقصورة بهذه السلعة، تقول أن موطنها الأصلي ممتد عبر الجزر الأندونيسية الشرقية، من جزر باندا les iles Bandaإلى جزر الأمبوانLes Amboïnes، وجزيرة المولوكLes Moluques، شرق جزيرة بورنيو[3].

1- De ContiNicolo.: op.cit, p.101.

2- p.102.. op.cit:De ContiNicolo

3- Heyd. w: op.cit, T_2, p.645. (أنظر الملحق رقم :7)

خلاصة الفصل الثاني:

منذ أن وصلت الجيوش الإسلامية إلى نهر أموداريا، دخلت في حيازتها أكبر الحواضر التجارية في ما وراء النهر، التي كانت تعرف ببلدان التجارة لما احتوتهُ من سلع وبضائع سيما تلك القادمة من الصين شرقًا أو الهند جنوبًا، فتجار في بلاد الصغد وفي مقدمتهم تجار "بيكند" مدينة التجار و"بخارى" و" سمرقند"، واصلوا ممارسة نشاطهم التجاري بالرغم من عمليات الفتوح العسكرية

وأشار بارثولد أنهُ بمجرد توطيد الإسلام سيطرتهُ على كل آسيا الوسطى، بدأ المسلمون في ممارسة التجارة مستخدمين الطرق التجارية المعروفة، وهذا ما تفيد بهِ المصادر الصينية فابتداء من القرن الثامن الميلادي قطعت قوافل المسلمين التجارية المناطق الممتدة من بلاد الكرلوك إلى غاية المجرى العلوي لنهر إينيسي L'Iénisséi، مُتوجهين إلى بلاد الأتراك الكرغيز، وسجلت الحوليات الصينية أنه منذ عام 924 م، بدأ التجار المسلمون يظهرون في منغوليا.

بينما يرى الدَّارسون أنه لم تحصل الانطلاقة الحقيقية للتجارة البَرِّية، والبحرية الآسيوية فيالعصر الوسيط، إلاّ مع قيام الدولة العباسية، وانتقال مركز الإمبراطورية إلى الجزيرة العراقية في بغداد، التي كونت حلقة وصل بين تجارة الشرق، من دمشق غربًا نحو الموانئ الشامية من جهة، واتصالها _أي بغداد_بميناء الأُبُلَة البصري الذي يربطها عن طريق الخليج الفارسي بسواحل مدن المحيط الهندي، وصولاً إلى الصين في أقصى الشرق.

وشكلت منطقة آسيا الوسطى الخلفية للحضارة والاقتصاد، في العهد العباسي وساهم موقعها، وطرقها المتشابكة والمتقاطعة، في توسيع نطاقها الاقتصادي عامة والتجاري خاصة. وكانت مدنها الكثيرة الواقعة في الواحات،الشهيرة بقنوات الرَّي فيها مأهولة بفئة التجار الأكثر ثراء حينها، وذوي شبكة واسعة من العلاقات، يتحدثون كلهم بلغة التجارة وهي اللغة الصُغدية وازداد نشاطاهم بتحفيز الإدارة العباسية لهم، فاستقرت الخانات كمراكز تجارية حيوية، في بلخ ومرو وبخارى وسمرقند وكشغر وطاشقند،كان هناك تبادل للسلع والأفكار والتقنيات بشكل كثيف، فكانت المنطقة أشبه بجزيرة صغيرة، تتعرض لمختلف التيارات الهوائية على تنوعها.ويمكن القول عامة أن الطرق التجارية، الرابطة بين آسيا الوسطى والصين شرقًا والهند جنوبًا، بقيت محافظة على مسالكها الكبرى منذ افتتاحها في القرن الثاني قبل الميلاد إلى يومنا هذا،إلا أنها لم تكندائما ثابتة وواضحة المعالم، حيث تتعرض للطمس بعد تساقط الأمطار الأولى والثلوج، لذلك كان على أدلاَّء القوافل التجارية، إعادة فتح المسالك من عام إلى آخر.

لم تكن تخلوا المسالك التجارية، من أخطار قطاع الطرق ومن أجل الدفاع عن أنفسهم كان التجار والمسافرون يتسلحون بشكل جيد، فلم يغفل أهل الخفارة، والقائمين على القوافل التجارية على تجهيزها بما يُؤمِنها قبل ارتيادها المسالك التجارية.

وقد نشطت عناصر محلية في التجارة على طريق الحرير، سواء كتجار مسافرين، أو المشتغلين في خفارة القوافل والمعابر التجارية المعروفة، وكان أعرقهم ؛ التجار الإيرانيين الصُّغْد **Les Soghdak**، **و**التجار الفرس **سارطاقطاي Sartaktay**، والتجار الأتراك، المعروفون بـ**الأورطاق L'Ortaq**.، هذا الى جانبـمن أهم شواهد انفتاح النّشاط التّجاري في

الأراضي الإسلامية ، وبلاد الشرق الأقصى أمام التّجار ووكلائهم، من كلّ أنحاء العالم، نشاط الوسطاء التّجار اليهود **الرذَّانية/ الرَّدْهانِيّةRadahanites**' القادمين من بلاد الفِرنجة (فرنسا) الذين كانوا يتقنون لغات عديدة، وهي العربية، والفارسية، والرّومية (اليونانية) والإفرنجية،والأندلسية،والصقلية.

ولكن نظرا لما شهدته آسيا الوسطى من نزاعات القوى السياسية المنقسمة للدول المستقلة في الشرق الإسلامي، تعرض النشاط التجاري لبعض الانقطاعات، جعل التجار يسلكون الطريق البحري، إلى ان جاء الغزو المُغولي فعرف النشاط التجاري منحى آخر جديد، فماهي انعكاسات الوجود المغولي على النشاط التجاري في المنطقة، وماهي أهم سيماته ؟

الفصل الثالث

النشاط التجاري في آسيا الوسطى في العهد المغولي

(7-9هـ/13-15م)

أولا- التّجارة والمجتمع المغولي:

1- موقع التّجارة في سياسة جنكيزخان.

2- حادثة التجار أُترار (715هـ/1218م) والغزو المغولي لما وراء النّهر.

ثانياً - التنظيم المغولي لآليات السّفر والقوافل التّجارية.

ثالثاً- المسالك التّجارية المفتوحة في العهد المغولي .

رابعاً- نظام العملة المُغولية وأسلوب التّبادل التّجاري .

1- المبادلات التجارية مع آسيا العليا (سيبيريا)

2- تجارة الأحجار الكريمة في آسيا الوسطى

خامساً- الإرساليات المسيحية اللاّتينية في الشرق في القرن 13م

1- الإرساليات الكاثوليكية بين التّحالف الاستراتيجي والأطماع الاقتصادية

2- خط سير الرُّهبان والتُّجار اللاّتين في آسيا القرن 13-14م

سادساً- نماذج السفارات اللاتينية لدى المغول.

1- سفارة الرّاهب جان دي بلان كاربان Jean de Plan Carpin1246- 1247م

2- سفارة وليم دير وبروك Guilliaume De Rebrouck 1252_1254م.

3- سفارة الرّاهب جون أوف منتكورفينو Jean of Montécorvino1305 م.

سابعاً- نشاط التّجار الإيطاليين في آسيا الوسطى القرن السابع والثامن هـ/ 13- 14:

1- التّاجر ماركوبولو Marco-Polo 1274- 1295 م.

2- التاجر بِغولوتي فرانسيس بالدوتشي Francis Balducci DE PIGOLOTTI

ثامناً- التجارة في آسيا الوسطى القرن التاسع الهجري /15.

أولاً- التّجارة والمجتمع المغولي:

لطالما ارتبط بدو المناطق الاستبسية الشّمالية الشّرقية في آسيا الوسطى، بالبضائع التي كانت تصل إليهم من العالم المُتَمدن، عبر حواضر القسم الغربي في نفس المنطقة كسمرقند، وبخارى وفرغانة وبلخ، وكان المُغُول[1] من ضمن هذه القبائل البدوية، فكانوا يبادلون التجار القادمين إليهم بضائعهم من دواب، ومصنوعات من اللُبَّد-شعر الدواب- ومن ثياب أو مفروشات وغيرها، من الأقمشة القطنية، والحريرية،والمنسوجة بخيوط مذهبة أو فضية. وكان التّجار المسلمين يتردّدون على الخيم البدوية المُغولية، وذلك منذ القرن الثاني هجري/ الثامن ميلاديوتحديدًا بعد معركة طراز الحاسمة.

فتجدر الإشارة إلى الدّور الكبير، الذي قام بهالتّجار المسلمون في رفعهم للمستوى الثّقافي والحضاري، بين أهالي إقليم منغوليا، وهذا بالرّغم من شُحّ المعلومات حول انتشار الإسلام في المنطقة، إلا أن تأثيرهم كان أعمق من تأثير الإرساليات المسيحية، فقد احتكّ المُغُول منذ وقت مبكّر بالتجار "السرتقطاي" أي "الفرس المسلمون"، وتعاملوا معهم فتأثّروا بهم، وكانوا بالنّسبة إليهم أمة التُّجار الأكثر تحضّرا في المنطقة،فهم اللّذين نقلوا إليهم التّمدن، ويشير تراثهم الأدبي إلى أحد أشهر شخصياتهم التاريخية، وهو التّاجر الذي كان ذو علم في فن السّقاية وانشاء قنوات الرّي، وبناء السّدود، وكان من أهم إنجازاته، بناؤه سدودا هامّة على

---

[1]- حول أصل التسمية المُغُول ذكر أبو الغازي بهادورخان في كتابه، أنّها صيغة مُغُولية مُحرَّفَة وأصلها مُونْغ- أول، وهي تنقسم إلى قسمين؛ الأول مُونغ ومعناه الحزين، والثاني "أَوَلْ"، وتعني "الصادق، فـ "مُونْغ أوْل" هي الحزين الصادق في لغتهم. يراجع: Bèhâdour KhanAboul-Gahzi: Histoire desMogols et de Tatars, traduits par: Le Baron Des maisons, Frankfurt University 1998, in I.G., Vol. 226, P.12.

الأنهار والبحيرات، كما حفر قنوات اصطناعية متشعّبة عن الأنهار للسّقي الاصطناعي، فكان لها أهمّية حيوية كبيرة لدى المغول وحتى في عهد جنكيز خان[1] حافظ السرطقطاي على مكانتهم خاصّة لدى المُغُول.

وكان التّجار المسلمون قبل غيرهم أوّل المُتعاونين، والمتعاملين مع خان المغول، والأكثر المستفدين من النّظام التّجاري الجديد الذي أرسى دعائمه وأسسه بنفسهِ[2].

[1]- جنكيز خان فاتح مغولي ومنشئ الإمبراطورية المُغولية ولد عام 1155م/ (549-550هـ)أوقيل 1162معلى الضّفة اليمنى لنهر أونون Onon، في إقليم دولون بولدق، توفي عام 624هـ/(1227م)،، وكان اسمه تيموجين ويقال أنّه أخذه من أمير تغلب عليه أبوه ياسوكان بهادر في الوقت الذي وُلِدَ فنه جنكيزخان، قاد جيشا فتح به شمال غرب الصّين بقضائه على مملكة تونغوت Tangut 1205، ثمّ اكتسح عام 1215م، مدنهم حتى النّهر الأصفر واحتلّ عاصمتهم شانغ- تو Chung-Tu أي بكين Pekin، وفي 1219 تحوّلت جيوشهُ نحو غرب آسيا واحتلّ كلّ المناطق الممتدّة بين بولور Bolor إلى بحر قزوين وجنوباً حتى نهر الهندوس، وفي البداية كان يحمل لقب "سوتو بودغو Soutou Bodgo" وتعني ابن السماء، وبعد أن وحّد كلّ منغوليا قلّده أوّل مجلس الكوريلتاي Kouriltaï لقب جنكيزخان Tchingghiz-Khan أي السيّد الصّلب الراسخ المطلق التصرّف، وكان بالفعل صاحب الحكم الرّاسخ، حيث سنَّ ما عرف بقانون أياسا Yassak وهي لوائح وقوانين، كما سنّ قانون ثاني "الطُورا" Le Toura، وهي كيفية تنفيذ ألياسا، وحول قانون "ألياسا" ذكر الجويني، أنّ المغول لم تكن لهم لغة فأمر علماء الأيغور الأتراك بكتابة هذا الدستور، وقوانينه بلغتهم وخطّهم وأن يعلمُوه أبناء المغول وأن تحفظ هذه الأحكام في طوامير، وسمي "كتاب ألياسا الأكبر" وحفظ في "خزانة أبناء الملوك". واختار جنكيز خان أن تكون مدينة قارة كورام مركزًا لملكه سعيا منه لإحياء إمبراطورية "الهيونغ نو" باتّخاذ عاصمتها القديمة، عام 1206 وقُلِّد منها بلقبه ذو السلطة المطلقة جنكيزخان، يراجع:الجويني: تاريخ جيهانكشاي، ج.1، ص. 65؛بارثولد ف.: مادة "**جنكيزخان**"ضمن "**دائرة المعارف الإسلامية**"، تر: أحمد الشنيناوي، إبراهيم زكي خورشيد، مجلد 7، دون مكان طبع، 1933، ص.ص. 126-140 Bretschneider :op.citP. 26 ؛Yule H.: Cathay, T1, PP. 150-151; Cahun: Introduction, P. 244 ؛Yule .H: op.cit., T.1, P. 148 ؛T.1,

[2]- Barthold W.: op.cit., PP. 101, 124.

1- موقع التّجارة في سياسة جنكيزخان:

أولى جنكيزخان اهتمامًا خاصًّا بأحوال التّجارة والمسالك التجارية منذ بدايات سيطرته على كلّ القبائل في منغوليا، فكان من ضمن المواد التي سنّها في قانون "ألياسا الأكبر" مادّة توجب تعيين على رأس كلّ الطّرق الرئيسية والفرعية جماعة من الفرسان، مهمّتهم المحافظة على أمن وسلامة الطّريق وعرفوا بـ "القراقجيان" ومعناها المستحفظين، وحمّلهم مسؤولية أمن القوافل التّجارية والمسافرين لاسيما القادمين منهم من الجهة الغربية ومن كلّ النواحي، حتى يصلوا إليهم سالمين(1).

ونستشفّ من اهتمام جنكيزخان بالرّفع من مكانة التّجار وتسهيل نشاطهم، أنهّ كان مُدركًا تمامًا لدورهم الاقتصادي، ومدى إسهامهم في تمدين المجتمع المغولي البدوي، وفي هذا السّياق يمكن الأخذ برأي ابن العبري الذي رأى أنّ الذي دفع المغول إلى محاربة الأمم المتمدّنة المجاورة لهم هو حاجتهم كبدوٍ للتحضّر، فكانوا شغوفين بكلّ ما يمثّل المدينة والتمدّن، سواء لدى أباطرة بلاد الخِطا (شمال الصين) أو حكام خوارزم المسلمين، ومن ضمن احتياجاتهم – حسب ابن العبري- استحضارهم لألبسة وفُرش من سائر المدن، فكتب جنكيزخان إلى التجار يؤمّنهم، ويشجّعهم للحضور إلى بلاده، وأمر حرّاس الطّرق "القرقوشيين –القاراقجيان" بأن لا يتعرّض إليهم أحد.(2)

1- علاء الدّين عطا الله الملك, الجويني: تاريخ جيهانكشاي – تاريخ فتح العالم- تحقيق: محمد عبد الوهاب القزويني، تر: الساعي محمد السباعي، المركز القومي للتّرجمة، القاهرة، ط.1، 2008، ج.1، ص.107؛ أبي الفرج جمال الدين ابن العبري: تاريخ الزمان، ترجمة الأب اسحق أرملة، دار المشرق، بيروت 1991، ص. 238.

2- أبي الفرج جمال الدّين ,ابن العبري: تاريخ الزمان، تر: اسحق أرملة، دار المشرق، بيروت 1991م، ص. 239.

فكان نتيجة لهذا الانفتاح المغولي على بضائع الغرب، وتذليل كلّ العقبات أمام التّجار خاصّة الأمنية منها، أن تسارع التجار المسلمون إلى التّنقل نحو أراضي الخان شرقًا، سعيًا وراء الرِّبح. كانت منغوليا الجنوبية ومنشوريا وشمال الصّين قد خرجت لتوّها من الحرب "وخيّم السّكون والأمان" على دولة جنكيزخان، وظهرت أهمّية البلاد الغربية، "وارتفعت أسعار المفروشات فيما بين المغول وظهرت قيمة التّعامل مع التّجار المسلمين في البيع والشّراء"[1].

في هذا المحلّ تذكر المصادر أنّ أوّل من وصل إلى مُخيّم الخان، هم تُجّار من بخارى وهم: "أحمد جندي وابن الأمير حسين وأحمد بالخ"، مُحمّلين بثياب وأقمشة نفيسة ممتازة، من ثياب مذهّبة وكرباس – ثياب قطنية- ولقد أُعجب المغول بما أحضرهُ التّجار المسلمون، لكن يبدو أنّ أحدهم ضاعف أثمانًا بضاعته اضعاف كثيرة. وهو ما أثار غضب جنكيزخان واعتبرهُ استغلالاً لهُ، فأمر باعتقاله وحجز كلّ بضائعه، ولم يفك أسره الا لعد ان وجد ما يرضيه من التّاجرين الآخرين الذين أخبراه أنّهما أحضرا هذه الثّياب كهدية للخان، ويبدو أنّ الخان سُرَّ بجوابهما "فأمر بإعطائهما بالشاً ذهبيًّا مقابل كلّ ثوب ذهبي وبالشاً فضّيا مقابل كلّ ثوبين من القطن والزنديجي البخاري، وأطلق سراح رفيقهم التاجر أحمد.[2]

وذكر الجويني أنّ المغول في هذه الفترة، أي قبل عدائهم للسّلطان الخوارزمي- كانوا ينظرون إلى المسلمين نظرة اعتزاز واحترام، فعاملوا التّجار معاملة طيّبة، وأكرمهم تيمُّنًا بهم فأعطوهم خيمًا جديدة مصنوعة من اللّبادْ الأبيض الثّمينة لإقامتهم بينهم[3]

1- الجويني عطا ملك: المصدر السابق، ج.1، ص. 107.

2- الجويني: المصدر السابق، ج.1، ص.ص. 107. 108؛ ابن العبري: المصدر السابق، ص. 204.

3- الجويني: المصدر السابق، ج.1، ص. 108.

وبشكل عام نجح جنكيزخان فاستقطاب هذه الفئة الحيوية إلى مملكته فقصدوا عاصمتها قره قورام **Karakoram**– عاصمة الأتراك القديمة– ويُنوّه الجويني في هذا المقام أنّ الفضل في هذا يعود إلى أنّ الخان لم يكن يتقلّد دينًا بعينه فكان بعيدًا التّعصّب وعن تفضيل أمّة عن أمّة وترجيح طائفة على أخرى "فكما نظر إلى المسلمين نظرة توقير وتقدير أعزّ النّصارى والبوذيين"[1].

ويبدو أنّ شغف جنكيزخان للتّعرّف والاطّلاع على ثقافات الحضارات المجاورة كان كبيرا، حتى أنّه كان يعمد إلى استقدام علماء وحكماء من كلّ الطّوائف والأديان، ويسألهم عن ما يشغلهُ، فمن أمثلة ذلك، ما سجّلهُ الحكيم "الطاوي" الصيني شانغ شون كيو **Chang-Ch'un-Kiu** (1184– 1227م) في مذكّرات رحلاته نحو الغرب **Travels to the west of K'iu Chang Ch'un**، وحظي هذا الحكيم بمكانة مرموقة لدى أسرة كين وأسرة سونغ واستدعاه جنكيزخان إليه وهناك ناظره ومن شدّة إعجاب جنكيزخان بفكر "كيو" أعطاه لقب "الخالد" – شان سيان **Shen-Sien**"، وكان الخان على وشك الشّروع في تعلم مبادئ الفكر الطّاوي «**Doctrine of the Tao**» عام 1222م، حينما وصلته أخبار عن تمرّد التّبتيين فتحرّك لقمعهم[2].

والحاصل أنّ توافد التّجار من كلّ مكان على أسواق المغول المفتوحة كان كبيرًا، وكان جنكيزخان ينتقي بنفسه البضائع، ويدفع ثمنها أكثر ممّا يطلب أصحابها، وشاع هذا

---

[1]– الجويني : المصدر السابق، ص. 66.

[2]– نشر عالم الصينيات بريتشنايدر **Bretschneider** في كتابه مجموعة من المصادر الصينية ومن ضمنها مذكرات الرّاهب "شانغ شون كيو" وفيها دوّن تفاصيل رحلته عبر آسيا الوسطى وأراضي فارس وحدود الهند وقد دامت ثلاث سنوات (1221– 1224م)، للمزيد يراجع: ومابعدها-Bretschneider: Op.cit., T. 1, P. 35.

بين التّجار، وذلك بالرّغم من اعتراض بعض مستشاري الخان، حيث كانوا يرون أنّ قيمة الأموال المدفوعة تفوق بكثير الثّمن الحقيقي للبضائع[1]، لكن هدف جنكيزخان كان واضحًا، حيث كانت التّجارة هي وسيلته لفكّ العزلة عن المُغول البدو وتنشيط التّفاعل الحضاري لهذه الشّعوب مع الأمم المتحضّرة لتأسيس إمبراطورية قويّة على غرار إمبراطورية "الهيونغ نو" التركية.

2-حادثة تجار أوترار (715هـ/1218م) والغزو المغولي لما وراء النّهر:

كان طموح جنكيزخان لا حدود لهُ، فبعد أن مدَّ سيطرته من حدود كوريا وشمال الصّين إلى حدود تركستان، ومن أقصى الأقاليم الشّمالية الخالية من السّكان إلى النّهر الأصفر وحدود الهضاب الصّحراوية التّبتية، خليت السّاحة من منافسيه، ولم يبق أمامه سوى ابتلاع آسيا الوسطى، وبلاد فارس ليسيطر على قلب طريق الحرير التجاري الذي تُفضي مسالكُهُ الكبرى نحو العراق وبلاد الرّوم البيزنطيين.

وهو المشروع الذي سعى إليه خاقان الترك، وأتباعهُ من التجار الصُّغد في القرن السّادس الميلادي – كما مرّ بنا- ورفضه الملوك السّاسانيون، خشية من تحالف تركي بيزنطي ضدّ الفرس، وحفاظا على مصالحهم الاقتصادية كوسيط تجاري أساسي بين الشّرق الأقصى والغرب[2].

فشرع جنكيزخان في التمهيد لمشروعه في الانتشار نحو الغرب بأن أرسل إلى السلطان محمد شاه خوارزم، سفارة ذات صبغة تجارية 1118م، وكان للتّجار المغول صفة

1- الجويني: المصدر السابق، ج.1، ص. 224.

2- Cahun. L: op.cit. P. 273.

سفراء، وكان يتقدمهم محمود الخوارزمي. وقد عُرف بمحمود يالاواتش Mahmud Yalavatch وتعني السفير محمود[1] وعلي خواجة البخارى، ويوسف كنكا الأوتراري،ويبدو من أسمائهم أنّهم من أصول غير مغولية. وينسبون كما هو ظاهر إلى مدن ما وراء النّهر، خوارزم وبخارى وأوترار. وحُمّلت قوافلهم بسلع من بلاد الترك الشرقيين من قطع النُّقُر (قطع الذّهب والفضة المضروبة) ونوافج المسْك، والأحجار الكريمة من اليشب والثياب المعروفة بـ "طرقوا" وهي تصنع من صوف الجمل الأبيض، وهي غالية الثّمن يباع الثّوب منها بخمسين دينارا أو أكثر حسب النّسوي[2].

حمل التّجار معهم رسالة إلى محمد خوارزم شاه، تتضمّن تقدير من خاقان المغول بمكانة وقوّة الدّولة الخوارزمية، وحرصهُ على إقامة علاقات سلمية، لكنّه في نفس الوقت لمّحَ إلى أنّ السلطان محمد الخوارزمي في منزلة الابن بالنّسبة لجنكيزخان، مشيراً إلى إنتصاراته العسكرية في الصين وبلاد الأيغور "الأتراك الشّرقيين"، وفي هذا إشارة إلى ضرورة قبول حاكم الخوارزم التبعية لجنكيزخان، كما طلب منه فتح سُبُل النشاط التجاري للمغول غربًا[3].

ولم يكن ليخفى على سلطان خوارزم ما تحملُه هذه الرّسالة من لهجة تهديد، خاصة أمام استعراض الخان لقوّته العسكرية، ووصفه بالابن وهذا يعني التّبعية، فقد تعوّد أمراء

1- تذكر المراحل الصينية أنّ محمود التّاجر كان من مدينة أورجنج Urgendj الخوارزمية ويعرف لديهم ب يالاواشي Ya-La-wa-ch'i وهو من أصول تركية، كان المسؤول على إدارة أموال الضرائب في الأراضي العربية، وعُيّن حاكما على مدينة خان باليق (بكين)، كما عُيّن ابنه مسعود بك **Mesoud. Beg** حاكما على أقاليم آسيا الوسطى والشرقية، للمزيد يراجع: Bretschneider: op.cit., T.1, PP. 11, 12 ; Barthold: op.cit. PP. 112-113.

2- محمد بن أحمد, النّسوي: سيرة السلطان جلال الدين المنكبرُتي، نشر وتحقيق: حافظ أحمد حمدي، دار الفكر العربي، القاهرة، 1953، ص. 83.

3- النسوي: المصدر السابق، ص.ص. 83-84.

وملوك آسيا منذ عهد قديم على هذه الصيغة في التعامل بين القوى الحاكمة في المنطقة[1]. فكانت هذه الرّسالة كفيلة بأن دفعت محمد شاه الخوارزم إلى أن يستفسر عن القوّة العسكرية لجنكيزخان من التاجر محمود الخوارزمي، مذكّرا، أنّهُ خوارزمي الأصل ولابدّ من أن يصدقه القول، لكن يبدو أنّ التّاجر لمّا رأى من غرور محمد خوارزم شاه، خشي مصارحتهُ بالحقيقة فأخبرهُ بأنّ جيوش جنكيزخان لا تضاهي جيوش خوارزم في كثرة العدد، "فهي كالدّخان في جنح اللّيل لا أثر لها" [2].

وكانت نتيجة هذه السفارة أن ضُلّل سلطان خوارزم عن القوّة الفعلية للمغول، وعن الأطماع الحقيقية لجنكيزخان في التّوسع، وكان أن وافق السلطان على عقد تحالف دفاعي وهجومي مع المغول، فضلا عن فتح الطّريق أمام القوافل التجارية القادمة من الصين بكلّ حرّية والمرور عبر تركستان، وهذا يعني أنّهُ سلّم لهُ طريق الحرير التّجاري، ولقد وصف المؤرّخ كاهون هذا التّصرّف أنّه غير مسؤول من سلطان خوارزم الذي لم يُدرك خطورة ما فعلَهُ وهو ابن أكبر المحاربين وسلّمهُ إلى جنكيزخان الرّهيب وكأنّها شيء تافه، بينما كان همُّهُ الوحيد هو المسارعة للقيام بحملة حمقاء ضدّ الخليفة العباسي[3].

1- في سياق علاقة التابع والمتبوع وعلاقة الابن الأصغر بالوالد، ذكر السّفير وو- كو- سون Wu-Ku-Sun في مذكّراته الموسومة "ملاحظات حول سفارة نحو الشمال" «Notes on ambassy to the north»الذي كان قد أرسل سفيرًا من إمبراطور بلاد الكين (الخطا) شمال الصين وهو أتوبو U-tu-buإلى الخان المغولي جنكيزخان في جانفي عام 1220، كلّفَهُ الإمبراطور بتبليغ رسالة إلى خاقان المغول فحواها أنّه يقبل أن تكون لهُ صفة الأخ الصغير لهُ شرط أن يحتفظ بلقب الإمبراطور وهو ما رفضهُ جنكيزخان، وأمرهُ بإلحاق بعض المدن الواقعة جنوب النّهر الأصفرر، وحينها فقط يمنحه لقد "وانغ" Wang وتعني الملك. للمزيد يراجع؛ Bretschneider: op.cit., T.1 ,P.33-34.

2- النسوي: المصدر السابق، ص. 85.

3- Cahun. L.: op.cit, P. 273.

أتبع جنكيزخان سفارة محمود يالاواتش عام 1118م، بسفارة تجاريّة أخرى. حيث أمر بتجهيز قافلة من التجار المغول وأمر بأن تزوّد بالذّهب والفضة، فاجتمع حسب الجويني أربعمائة وخمسون تاجرا مُسلمًا، بينما ذكر ابن العبري أنّ عدد التّجار كان أربعمائة، بينما ذكر يه- لو- شو- تساي وزير جنكيزخان ورافقهُ في أثناء غزوهِ لآسيا الوسطى 1219-1224، أنّ عدد التّجار الذين قتلوا في مدينة أوترار كان بضع مئات تاجر. واتّجهت القافلة إلى مدينة أُترار Otrar[1] الواقعة على المجرى السّفلي لنهر سيحون، شمال خوجند، وكانت تحت إدارة إينال جوق أحد أقارب والدة السلطان الخوارزمي الذي قام بتسهيل مهمّة جنكيزخان، وإعطائه الذّريعة لاكتساح المنطقة، وذلك حينما قام بقتل التجار بحجّة أنّهم جواسيس مغول جاؤوا في زيّ تجار، وصادر أموالهم [2].

فكان لحادثة مقتل تجار أُوترار عام 1118م نتائج خطيرة على مصير الدّولة الخوارزمية والخلافة العباسية لاحقًا، ولخّص "النّسوي" الوضع حيث قال: "يا لها من قَتْلَةٍ هدرت دماء الإسلام، وأجرت بكلّ نقطة سيلاً من الدَّم الحرام"[3].

فصاحب الغزو المغولي تدميرًا وقمعًا فكان له آثار مُروّعة على الحواضر الحيوية لما وراء النّهر وخرسان حيث دُمّرت بلخ ومرو بالكامل ومسحت باميان وغُيّر اسمها وأصبحت تعرف بـ ماو باليق Mao-Balik أي المدينة الملعونة، فكانت بشاعة التّخريب والتّدمير تكرّس لدى العامة فكرة أنّ جنكيز "قوّة السماء" كما يدلّ عليه لقبه ، والحاصل أنّ بعد سيطرته

1- وهي " أُطرار" لدى الجغرافيين المسلمين، وحسب أبو الفدا تعرف أيضا بـ "فَارَابْ"، تقع في بلاد الترك، أنظر: أبو الفدا: تقويم البلدان، ج. 1، مج. 13، ص. 492.

2- الجويني: المصدر السابق، ج. 1، ص.ص. 109-110؛ ابن العبري: المصدر السابق، ص. 240.

3- Bretschneider: op.cit., T.1, P. 20.

على غرب آسيا الوسطى، عمل على تهدئة الأوضاع وتنظيم أمور دولته، فأقام مدة في جبال كوهستان جنوب سمرقند لتنظيم امور المنطقة، برفقة أعضاء حكومته ومستشاريه من كلّ المِلَلْ، من وثنيين ومسيحيين ومسلمين، والملاحظ أنّهُ لم يُسِيءْ معاملة العلماء المسلمين، وهذا ما أعطى دولة المغول صفة التسامح والانفتاح على الآخر فلم تنزلق في أتون حرب دينية.[1]

ثانياً- التنظيم المغولي لآليات السّفر والقوافل التّجارية:

من المؤكّد أنّ الغزو المُغولي الرّهيب خلّفَ آثارًا تدميرية هائلة في حواضر العالم الآسيوي لاسيما في ما وراء النّهر وخرسان وفارس، في عهد جنكيزخان ثمّ خليفته أوغُداي (1230- 1243م) فتوسع نطاق السّيطرة المغولية إلى حدود الدّولة البيزنطية، ووضع تحت تصرّف أهالي المنطقة والأجانب، أوسع نظام للمواصلات وأكثرها كمالاً، وإتقانًا في مجال البريد حين استحدثوا محطّات بريد جديدة قريبة من حيث المسافة، فاختزل الكثير من الوقت فقطعت مسافات طويلة في سرعة أكبر[2].

تبعًا لغزوات جنكيزخان وحروبه الجارفة مشرقًا ومغربًا، اتّسعت رقعة دولة المغول الممتد من حدود كوريا والصين حاليا إلى أراضي خرسان فارس، وأوروبا الشرقية، وحيثما استقرّوا أخذوا يتحوّلون إلى متمدّنين، وتماشوا مع حضارة المناطق المُستولى عليها، ونهجوا نهج أهلها فأخذوا عنها تنظيماتها ودواوينها.

1- النسوي: المصدر السابق، ص. 88؛ Cahun.L.: op.cit., P. 312.

2- Siroux Maxsim : op.cit., P.5

فالثّابت أنّ المُغُول حذوا حذو المسلمين، والصينيين في الاعتناء بالطّرق، وتحسين أحوالها والعناية بآليات وشروط السّفر، فأنشأوا محطّات جديدة من خانات للقوافل التجارية وأخرى للبريد، واهتموا بالعمران فأنشأوا الجسور والقصور الإمبراطورية كالمدينة المحرّمة في خان باليق Khan-Balik – بكين – فبرّغم من كونهم كانوا أقلية إلاّ أنّهم سيطروا على كلّ أجهزة الدّول سواء في الصّين او في ما وراء النّهر وخرسان [1].

ففتح خان المغول طرق التّجارة القديمة التي أنشأها الأباطرة الصينيون ابتداء من أسرة هان إلى أسرة تانغ، وأطلق القوانين المذكورة التي فتحت أسواق آسيا أمام تجار العالم من كلّ الآفاق، فمن جملة ما أشار إليه الجويني حول السّبل التي اتّخذها جنكيزخان لتنظيم وتيسير التّجارة، هو إقامته لمراكز للبريد كثيرة عرفت بـ "يَامَها" موزّعة في طول البلاد وعرضها، لتيسير الاتّصال بين المدن والقرى والتّحكّم في إدارتها ومراقبة سير حركة القوافل عبرها. الى جانب إقامة "نُزُل" جديدة للمسافرين، وقد تمّ تزويدها بما يلزمها من العاملين فيها للإشراف عليها وخدمة المسافرين والاعتناء بدوابهم، إلى جانب توفير المأكولات والمشروبات وسائر ما يحتاجهُ الخان من أدوات لخدمة القوافل. وتمَّ مراعاة مسافات معيّنة، في إنشاء وتوزيع مباني الخانات عبر الطّرق التّجارية في شرق آسيا ووسطها[2].

فكان للنّظم الإدارية المغولية المذكورة دورًا أساسيًا في إحكام قبضة المغول على المناطق المفتوحة والسيطرة على ثرواتها ورصد تحرّكات أفرادها. ففرض الموظّفون الإداريون الجدد أنفسهم بثلاث لوائح، "اليَاسَاق" «Yassak» وهو القانون، و"يا- من" «Ya.men» وهو المكتب الإداري و"يَامْ" «Yam» وهو مركز البريد، حيث يتمّ مراقبة وثائق السّفر،

1- Pernot.F : op.cit., P. 5

2- الجويني: المصدر السابق، ج.1، ص. 72.

ويمكن القول على الرّغم ممّا تتّصف به النّظم الإدارية الرّقابية المغولية من إفراط ومبالغة إلاّ أنّ الجانب الايجابي كان كبيرا[1].

ومن التّدابير التي سنَّها جنكيزخان لتيسير سُبُل السّفر وتذليلاً لمشاقه، ما أورده المؤرّخ الجويني، من إنشائه لمراكز خاصة لخيل للإيجار، عرفت "بمرابط الجياد" وعادة ما يحتاجها المسافرون، فيستأجرونها لنقل البضائع، وتغيير العربات وأَمَرَ أن تُجعل هذه المرابط بالقرب من مسالك القوافل حتى يسهُلَ استخدامها، كما سُنّت قوانين صارمة للمحافظة والعناية بها فخصّص جهاز تفتيش يقوم سنويًّا بمعاينتها ومعاينة الخانات ومرافقها مع إنشاء دور جديدة للبريد، وفي حالة وجود خلل ما، تقوم الرّعية بدفع قيمة التّلف الحاصل[2].

ولقد لفت انتباه أوّل السّفراء اللاّتين من قبل البابوية لدى المغول، وهو الفرنسسكاني جان دي بلان كاربان دقة تنظم النّظام البريدي، ونجاحه في تيسير المواصلات، والتّواصل في أراضي الإمبراطورية الشّاسعة تلك، حيث أشار إلى أنّه وضعت تحت تصرّف مَنْدُوبي البريد ورّسل خدمة البريد السّريع، في كل المحطات، بخيل سريعة ومدرّبة لهذا الشّأن مزودين بما يحتاجونه من مؤونة لمواصلة السّفر.ووضع تحت تصرّف موظّفي الضرائب، والسفراء خيلاً وعربات نقل[3].

1- Cahun .L.: op.cit., P. 297.

2- الجويني عطا الملك: جيهانكشاي، ج. 1، ص. 73.

3- Carpin Jean de Plan: Histoire des Mongols, traduit et annoté par Dom Jean Becquet, Louis Hambis, Librairie d’Amerique et d’orient, Paris 1965, P. 65.

كما عُهِدت مهمّة تزويد سفراء الخان المغولي بما يحتاجونه من خيل البريد، والمؤونة فضلاً وبمن يخدمهم بصفة شخصية ومن يعتني بخيولهم، وتوفير كلّ مايلزم[1].

اعتنى المُغول بطرق المواصلات واهتمّوا بتجديدها، كما حافظوا على البريد السّريع المعروف بـ "إيامب" «Iamb» فأصبحت ما وراء النّهر ضِمْن نظام صارم للفاتحين الجدد، الذين قضوا على النّزعات القبلية، فتوقّفت الحروب التي كانت تُغْلِق الطّرق، وتُعيق حركة النّشاط التّجاري، وفتحت أراضي آسيا كلّها للمرور الآمن للمسافرين، والتّجار خاصة، وحتى بعد حدوث انقسام في الإمبراطورية المغولية إلى عدّة أقسام عام 1255م، لم تتوقّف حركة التّجارة العالمية في أسواق آسيا، ولم تتوقّف معها حركة الحرفيين حيث كانوا ينقلون حرفهم بين المدن الكبرى بكلّ يُسر وينشرونها حيثما حَلُّو وهو ما نشّط التّجارة أيضًا[2].

عكس السّفراء اللاّتين في تقاريرهم، أهمّية هذا النّظام البريدي المُغُولي وفعاليته في تسهيل السّفر، من ذلك ما ذكرهُ وليم دي روبروك Guillaume de Rebourck، مبعوث ملك فرنسا لويس التاسع، عام 1252– 1253م، إلى إمبراطور المُغُول مانغوخان 1251- 1259م.

فذكر روبروك أنّ موظّفين اليام "إيامب" مسؤولون أيضا على استقبال السّفراء، ويتواجدون عند كلّ مرحلة من مراحل الطّريق، وهناك يقدمون لهم خدمات منها، وجبات الطعام لهم ؛ الأولى تكون في الصّباح وهي إمّا مشروب أو ذرة بيضاء، والثانية في المساء وهي عبارة عن وجبة لحم، كتف مع أضلع خروف ومقدار مُعيّن من الحساء، وحسب روبروك، هذا أحسن ما يمكن تقديمهُ للمسافرين على الطّريق الشّاق، "فهي وجبة مغذّية

1- Carpin Jean de Plan: Histoire des Mongols, P. 66.

2- Siroux.M: op.cit., P. 6.

يستعيد بها الجسد قوّتهُ التي أنهكتها مسالك السّفر"[1]، ومن جملة ما يقدّم موظّفوا البريد للمسافرين على الطّريق حليب الماعز المختثر الحامض والمعروف بـ "عَيْرا" «Aïra».[2]

ومن جملة التنظيمات المُغُوليةما أشار إليه المبعوث البابوي "كاربان" إنشاء محطّات خاصة على رأس كلّ مرحلة من مراحل السّفر، لتغيير الخيول بصفة يومية بخيل أخرى أكثر استعدادًا وتأهّبا جسديّا، إلاّ أنّها تَقِلُّ عند عبور صحراء تكلامكان أو قوبي لذلك يحرص المسافرون عند هذه المرحلة على اختيار أحسن الخيول وأقدرها على قطع الصّحراء.[3]

كما نوّه "روبروك" بفعالية هذه المحطّات الخاصة بالدّواب، فهي تُتيح للقوافل تغيير دوابهم المنهكة، واستبدالها بأخرى، وغالبا ما يُصادف المسافر أكثر من مركز على الطّريق، فيغيّر خيله مرّتين أو ثلاثة في اليوم، وتحتوي المحطّة ما بين عشرين إلى ثلاثين خيلا، مما يساعد على قطع المسافة في وقت يسير، بينما هناك بعض المراحل التي تقلّ فيها هذه المنشآت فلا تُصادف القافلة واحدة منها طيلة يومين أو ثلاثة، وهذا يرهق الدّواب ويثقل حركتها فتطول مدّة السّفر[4].

1- De Rebrouck Guillaume: Voyage dans l'empire Mongol, traduction et commentaire Claude et Reni Kappler, Payot, Paris, 1980, P. 137, 153.

2- Rebrouck G.: Op.cit., P. 107.

3- Carpin de Plan Jean: Histoire des Mongols, PP. 112-113

4- Rebrouck. G.: op.cit., P. 136.

ثالثا- المسالك التّجارية المفتوحة في العهد المغولي ق. 13:

منذ النّصف الأوّل من القرن الثالث عشر اختلفت أوضاع النّشاط التّجاري في البرّ الأسيوي اختلافا كبيرًا عمّا كانت عليه قبل الغزو المغولي، فإلى جانب الطّرق المعروفة، فتحت أخرى جديدة لتصل شرق آسيا بغربها ونحو أوروبا تحديدًا، ونظّمت حركة منتظمة للقوافل التّجارية، ووصلت بذلك منتجات الصين والهند إلى أبعد نقطة في الغرب الأوروبي.

فبعد أن كان التّجار الأوروبيون اللاّتين لا يتجاوز نشاطهم التجاري مجال جيرانهم المجاورين لهم مثل بلاد المغرب ومصر وسوريا وقبرص، فتح لهم المُغُول آفاق آسيا والصين تحديدًا وامتدّ ذلك حتى القرن الرّابع عشر الميلادي[1].

فانطلق التّجار الأوروبيون وعلى رأسهم الجنوية، والبنادقة في ارتياد طرق التّجارة نحو الصّين، واختاروا المرور عبر الطّريق الشّمالي ليتجنّبوا الأراضي الإسلامية، وشجّعهم في ذلك السّلم المغولي Paix Mongol، وانفتاحهم على الغرب منذ عهد جنكيزخان، فخرج الكثير من التجار الإيطاليين الذين أسّسوا لهم مباسط للسلع في القرم Crimée، وهي آخر المحطّات التّجارية على طريق الحرير، وأسّسوا لهم مستوطنات ومكاتب تجارية في تركستان والهند والصين، فَوُصِلَت بذلك أوروبا بالشّرق الأقصى[2].

1- Bouvat.Lucien: L'empire Mongol (2em phase), Edition de Boccard, Paris, 1927, P. 74.

2- Pernot. F: op.cit., P. 44.

لاسيما بعد أن فقد التّجار اللاّتين أغلب موانئ بلاد الشّام – محطات تجارة الشّرق نحو أوروبا- فتحوّلت أنظارهم إلى إمبراطورية المغول الممتدّة الأطراف، باحثين عن ما يعوّضون به الخسارة التي لحقتهم بسبب فقدانهم بلاد الشّام[1].

وكان ثمّة مسلكين كبيرين يربطان الغرب الأوروبي بالشّرق، ويقطعان آسيا من جهة إلى أخرى؛ الأوّل كان شمال البحر الأسود حيث مباسط سِلَع التجار الجنوية، والبنادقة في موانئ القرم، والمسلك الثاني يمرّ عبر السّهول الإيرانية، ومبدأ هذا الأخير كان عبر خطّين: أحدهما ينطلق من طرابزون **Trébizonde**الواقعة على السّاحل الجنوبي الشّرقي للبحر الأسود، وكان حكامها يعتبرون أنفسهم أتباعًا للمغول، فالإمبراطورية المغولية كانت تمتدّ على قسم من الأراضي الأوروبية جعل من قاصديها الغربيين ينفذون إليها بيُسر عبر البحر الأسود وبحر أزوف **La mer d'Azov**، أما المسلك الآخر مبدأُه من مدينة لاجّازو **Lajazzo**-ميناء اسكندرونة على ساحل قليقية- المرتبط بمدينة تبريز **Taurinum=Tabriz** إحدى أهمّ المراكز التّجارية في قزوين، حيث يتمّ إنزال السّلع من السّفن في لاجازو وتنقل إلى تبريز، ومنها نحو الرّى ثمّ مرو وسمرقند وطاشقند (الشّاس) شمالاً أو من مرو عبر بلخ جنوبًا نحو باذخشان إلى لوب نور وصولاً إلى الصّين[2].

1- Heyd .w.: Histoire du commerce de levant au moyen age, Leipzig, Paris, 1886, T.2, P. 72.

2- Siroux.M : op.cit., P. 7; Heyd.w.: op.cit., T. 1, P. 73.

هذا الى جانب الطّريق القديم العابر لإيران، ومن خلاله كانت ترتفع بضائع الهند والصّين من توابل هندية ومواد قطنية وأقمشة حريرية والخزف الصّيني، ومُنطلق هذا الطّريق من سواحل قزوين شمالاً نحو أصفهان ثمّ يزد ثمّ يعبر مقاطعة كيرمان وصولاً إلى هرمز[1].

فغدت مدن السّواحل الشّمالية، والجنوبية للبحر الأسود وميناء لاجّازو **Lajazzo (اسكندرونة)**، هما منفذ التّجار اللاّتين نحو قزوين وآسيا الوسطى، وغدت مبدأ ومنتهى الطّريق التّجاري العالمي "للحرير" بالنّسبة للغرب، فأُنشِئت مباسط التّجارة ومكاتب الوكالات التّجارية للتّجار الجنويين والبنادقة، ونشطت مملكة طرابزون، وأصبحت من أهمّ مباسط السلع عبر كلّ الفترات التاريخية، واستفادت إمارة أرمينية الصّغرى من مرور الطّريق التّجاري عبر أراضيها نحو الغرب، وأمام تخلّف بغداد بعد تخريبها، برزت مدينة تبريز وحلّت محلّها في الدّور التّجاري والاقتصادي، فأصبحت ملتقى السّلع القادمة من آسيا الوسطى، والشّرق الأقصى، وتلك المجلوبة من الخليج الفارسي، وبرز العنصر المنشّط لهذه الحركة التّجارية اللاّتينية، ما عُرف اصطلاحاً بالأمم المُتاجِرَة «***Les nations commerçante***»، وكان في مقدّمتهم تجار جنوة، ثمّ نافسهم البنادقة، وأنشأوا فيها أكثر المُستوطنات التّجارية نشاطًا وثراءً[2].

لم تتأثّر كثيرًا الحركة التّجارية في المسالك القارية في آسيا بالنّسبة لكلّ التّجار ومن جملتهم اللاّتين، حتى بعد انقسام إمبراطورية جنكيزخان بين أحفاده، وتوسّع الوجود المغولي نحو الغرب بعد عام 1255 ليشمل أراضي فارس وقزوين إلى بغداد عاصمة الخلافة الإسلامية إثر الحملة التي قادها "هولاكو" .

1- Siroux.M: op.cit., P. 07.

2- Bouvat. L: L’empire.., P. 75.

فلقد كان مانغو خان **Mango Khan** هو آخر الأباطرة المغول، الذين مارسوا سلطة العالمية ولو بصفة قليلة، فبعد وفاته انقسمت إدارة شؤون الإمبراطورية، خاصة وأنّ قَبْلاَيْ خان **Kublaï Khan** خليفتُه واصل مَدّ سيطرة المغول إلى عمق الصّين وكلّ أطرافها الجنوبية والشّرقية واستقرّ بها، فانقسمت إمبراطورية جنكيزخان إلى أربعة أقسام:

(1) إمبراطورية الخان الأعظم، عاصمتها في خان باليق **Khan Baliq** (بكين)، وتشمل الصّين، كوريا، منغوليا، ومنشوريا، التُبتْ، ثمّ ألحقت تونغ كينغ وبلاد من حدود أڤا «**Ava**».

(2) خانية جَغطاي أو الإمبراطورية التّاتارية الوسطى وعاصمتها أَلْماليك **Almaliq**وشملت إقليم دوزنغاي، قسم التركستان الصيني، تركستان الغربي (ما وراء النّهر)، وأفغانستان.

(3) إمبراطورية المغول القبجاق – أو التّتار الشّماليون– أُنشئت نتيجة لغزوات باتوخان **BatouKhan** واتّخذ من مدينة ساراي **Sarai**الواقعة على نهر الفولڤا **Volga**عاصمة له، وشملت خانيتهُ مساحة كبيرة من روسيا ومناطق شمال القوقاز، وخوارزم وجزء من سبيريا

(4) خانية فارس وعاصمتها تبريز شملت جورجيا، آرمينيا، أذربيجان وقسم من آسيا الصّغرى وكلّ فارس وخرسان.[1]

والحاصل أنّ كلّ من شبه جزيرة القرم وطرابزون وبلاد القوقاز وإمارة أرمينية الصّغربوجنوب روسيا كانت منافذ تجار اوروبا نحو بلاد فارس الى الشّرق الأقصى.[2].

1- Yule. H.: op cit., T. 1, PP. 153-154.

2- Heyd W.: op .cit., T. 2, P. 73.

وفي العقود الثّلاثة الأولى للقرن الرّابع عشر، كانت المسالك التّجارية الآسيوية بالنّسبة للتّجار والسّفراء اللاّتين آمنة ومستقرة، ابتداءً من المدينة التّجارية تانة Tana في البحر الأسود إلى غاية خان باليق عاصمة الأسرة المُغُولية الحاكمة للصّين واستثنى التّاجر بيغولوتي القسم الذي يعاني من بعض حالات عدم الاستقرار، وهو الطّريق الرّابط بين مدينة " تانة" على البحر الأسود ومدينة سراي على نهر الفولڤا المعرضة لهجوم لقطاع الطّرق، وتحسُّبًا لأيّ ظرف نصح بيغولوتي أن لا يقِّل عدد أفراد القافلة الواحدة عن الستين رجلاً [(1)].

لكن في سبعينيات القرن الثالث عشر إنعكس صراع أحفاد جنكيزخان على المدن في تركستان الشّرقية والغربية وبالتّالي على النّشاط التّجاري، فباعتبار وقوع آسيا الوسطى ضمن خانية جغطاي **Djaghataï**مرَّمت بفترة عصيبة (1270-1273م)، حيث تعرّضت أكبر مُدُنِها للحرب الأهلية التي كانت بين أبناء جغطاي **Djaghataï** وجوتشي **Djotchi**وهولاكو **Hulagü**، فاكتسحت خوارزم وبخارى وسمرقند، حينها تأثّر النّشاط التّجاري في المنطقة، وبعد مغادرة الغزاة لها، شرَع مسعود بن محمود يالاواتش **Mas'oûd Yalawâtch**بإعادة بناء المُدن المُدمّرة وأعاد إحياءها، وواصل عملهُ هذا حتّى وفاته في أكتوبر – نوفمبر 1289م، حينئذٍ أكمل مُهمّتهُ أبناؤهُ الثلاث الذين أداروا شؤون ما وراء النّهر من بخارى وسمرقند بالتّتالي، ابنُهُ أبوبكر يالاوتش حتى ماي 1298، ساتلميش باي**Satilmich-Beg**إلى عام 1302– 1303م، ثمّ كُلِّفَ بإدارتها ابتداءً من 1303م، شقيقُهُم سويونيتش **Souyoûnitch**[(2)].

---

[1]– Yule H.: op .cit., T. 3, P. 154.

[2]– Grousset R.: L'empire des Steppes, PP. 406-407.

رابعاً- نظام العملة المُغولية وأسلوب التّبادل التّجاري:

عرفت أقسام الإمبراطورية المُغُولية، تفاوتا من حيث استخدامها للعملة المعدنية، وذلك حسب قربها أو بعدها عن مراكز التمدّن في آسيا.

في كلّ الدّول التي أنشأها المُغول في آسيا - ماعدا الصّين- أقيم نظام عملة فضيّة بشكل تدريجي، وهو نظام قام على أساس معيار من الفضّة، حيث تعرف القطع النّقدية الكبيرة منه بالدّينار والقطع النّقدية الصّغيرة الحجم بالدّرهم، والدّينار الواحد يساوي ستّة دراهم.

والملاحظ أنّ خلفاء جوتشي خان **Djoutchi Khan**، قاموا بتحديد وزن الدّرهم بأن ضبطوه بثلث المثقال[1]، وقد تمّ تعميم هذا الوزن واستُخدمَ في آسيا الوسطى وبلاد فارس، وهو ما يدلّ على الأهمية التي كان يتبوّؤها أبناء جوتشي، في تسيير شؤون الإمبراطورية المغولية لاسيما وأنّ إقليم خوارزم ذو النّشاط التّجاري الحيوي العالمي حينها، كان ضمن نطاق إدارتهم المباشرة، وهذا ما وحّد من قيمة العملة، فأصبحت هي نفسها في كلّ مكان تقريبا، فكان حاصل ذلك أن اعتُبِرَ العهد المُغولي، أحسن الفترات الزّمنية التي شهدت تماثلاً في العملة أكثر من أيّ فترة زمنية سابقة أو لاحقة[2].

وعرفت العملة النقدية المغولية المتداولة في آسيا، منذ عهد جنكيزخان، بـ " **الباليش**" **Balisch**" ويذكر أنها كانت من ذهب وفضة، وكان التجار الفرس المسلمين، يبادلون سترة

[1]- المثقال: أحد الأوزان ويساوي 24 قيراطا وقدر ب72حبة شعير، ويساوي درهم وثلاثة أرباع الدّرهم، 4.49غرام، والمثقال لمم يتغيّر في الجاهلية والإسلام؛ القلقشندي أبي العباس أحمد : صبح الأعشى في صناعة الإنشا، دار الكتب المصرية،القاهرة 1922،1340، ج. 3، ص. 440.

[2]- Barthold W.: op.cit., P. 134.

من الحرير المشجر الذهبي Brocart d'oré، مقابل باليش ذهبي واحد، ويبادلون قطعتين من القماش الكتان، مقابل باليش فضي واحد، ويذكر أن باليش الذهب يساوي قيمته 2000 دينار، وباليش الفضة يساوي 200 دينار[1] .

اما فيما يتعلّق بالشّكل الخارجي للعملة، لاسيما سمات حروفها والنّقوش التي عليها، وشكلها، أو الزّخارف التي تزدان بها وغيرها من التّفاصيل، فهي تختلف حسب المدينة التي ضُربَت فيها، فتعكس ميزاتها وتقاليدها الخاصة. ولهذا ظهرت في أوّل الأمر عملات مميّزة تعكس المستوى الثّقافي المتقدّم والمُميّز في خانية القبجاق الذّهبية، ولاسيما في عهد بركه خان **Berke Khan**1257– 1266م، ثمّ خلفائه حيث برزت النّزعة الاستقلالية لديهم، والملاحظ أنّهم كانوا يتحكّمون، في أهمّ المراكز التّجارية الواقعة بها وهي مدينة أُترار، ثمّ تأتي باقي المناطق ذات الحكم المغولي في فارس وتركستان ومنغوليا[2].

وفي سياق الحديث عن مدى ما تعكِسُهُ العُملات المُغولية المتداولة في آسيا الوسطى والغربية، من درجة التّأثير الّثقافي لجهة مُعيّنة للحكّام المغول، يرى بارثولد **Barthold**أنّهُ من شأن دراسة دقيقة ومعمّقةٍ للعملات المُغولية التي عثر عليها، أن تخرج للنّور حقيقة واحدة وهي أنّ الثّقافة والحضارة الأكثر هيمنة على الأقاليم الآسيوية الشّرقية في العهد المُغولي هي الثّقافة الإسلامية، وأنّ ثمّة سُبُل جعلت الإسلام واللّغة التّركية ينتصران في النّهاية في تحديد الهوية الحضارية لآسيا الوسطى والغربية في العهد المغولي[3].

1- De Perdenone Odoric : op. cit , note P. 310

2- Barthold W.: op.cit., P. 134.

3- Ibid.

أمّا عن شكل المبادلات التّجارية والبيع والشّراء في المراكز التّجارية في آسيا الوسطى، فقد كان التّجار القادمون من الغرب يحرصون على تصريف بضائعهم الثقيلة التي تُعيقُ سيرهم وتحويلها إلى أموال يخفّ حملها، عند مرورهم بالمراكز التّجارية لمدن تركستان الكبرى، نظرًا لطول مسافة الرّحلة نحو الشّرق، خاصة وأنّ عليهم قطع الصّحاري والسّهوب الآسيوية، وحتى أولئك التّجار الذين يجتازون الطّريق الجنوبي نحو بلاد الهند، كانوا يحرِصُون على صرف بضائعهم في مدن الموانئ التي يمرّون بها مقابل مبالغ مالية أو يقايضونها مقابل بضائع مطلوبة في الصّين[1].

ويبدو من نصوص التّجار اللاّتين وفي مقدّمتهم التاجر بيغولوتي أنّ ثمّة تدابير معيّنة كان التّجار يتّخذونها في أثناء قيامهم بمعاملاتهم التّجارية على طول الطّريق التّجاري الآسيوي، ففي إقليم آسيا الوسطى تتمّ المعاملات بشكل مختلف عمّا هو عليه الحال في بلاد خطاي شمال الصّين. فقد كان التّجار الإيطاليون من جنويين أو بنادقة أو غيرهم، يحملون معهم أنسجة كتّانية، وعند وصولهم إلى عاصمة خوارزم أورغنج يبيعونها هناك، ويشترون سبائك الفضّة، التي يباشرون بها كلّ معاملاتهم من بيع وشراء، وهنا يجب أن نُشير إلى أنّ التّجار لا يوسّعون من دائرة شرائهم واستثمارهم للأموال إلاّ في حدود ضيّقة ومعيّنة كشراء بعض "بالات" من الأقمشة الدقيقة الصّنع التي تكون بأحجام صغيرة وخفيفة الحمل.

حرص التّجار على اقتناء والمحافظة على الفضّة، ويحملونها معهم، لاسيما وأنّ وجهتهم الأساسية هي الصّين، فقد بات معروفًا لديهم أنّ كلّ معاملاتهم هناك تقوم على

[1]- Heyd.w : op.cit., T. 2, P. 249

أساس "الفضّة"، حيث يفرض القانون الصّيني على التّجار، استبدال الفضّة بقيمتها من الأوراق المالية الصّينية[1].

ولقد تناولت أولى المصادر اللاّتينية حول آسيا في القرن الثالث عشر وصفًا للعملة الورقية الصّينية من حيث شكلها ولونها وتفاصيلها الدّقيقة، من أمثال الرّاهب وليم دير وبورك والتّاجر البندقي ماركوبولو، ثمّ الفلورنسي بيغولوتي في النّصف الأول من القرن الرّابع عشر، ولكونها شيئا لم يألفهُ من قبل كان وليم دي روبروك أوّل من وصفها من المصادر اللاتتية، فهي عملة من "ورق بحجم كفّ اليد من حيث طولها وعرضها، وطبع عليها خطوط مثل تلك

---

[1]- يعود استخدام الصّين للعملة الورقية إلى العصر القديم، فأقدم أثر للعملة الصّينية تمّ العثور عليها ترجِعُ إلى عام 118 قبل الميلاد، حيث كان الصّينيون يتداولون عملة جلدية، "بي بي= P'iPi" صُنِعَت من جلد حيوان الأيل الأبيض، فكانت قطعة مربّعة الشّكل بحم القدم، ذات حواشي وأطراف مُلوّنة، وقيمة كلّ ورقة 40 ألف نقدًا. وفي عهد الإمبراطور هيان تسونغ Hien Tsungمن أسرة تانغ (806- 821م) أصبح النّحاس نادرًا فتمّ – فقامت الخزينة العامة الصّينية بإصدار أوراق مالية «notes Issue»،، ثمّ أعيد تجديدها في عهد أسرة صونغ عام (960م)، وبعدها بستين عامًا بلغت قيمتها الإسمية بـ 2,830.000 أوقيَّة من الفضّة، وأُتبِعت بإصدار العملة الورقية الحقيقية، وكانت إدارة الأعمال في الصّين حينها في يد ستة عشرة رؤساء الأسر الكبرى في الصّين، لكنّها أفلست، فكانت النّتيجة أن ألغى الإمبراطور العملات الخاصة، وأسّس بنك حكومي موحّد، أصدر عام 1032م عملة مُوحَّدة بلغت قيمتُها 1.256.340 أوقيَّة، وأنشئت بنوك مماثلة في مناطق مختلفة في أنحاء الإمبراطورية، وأصبح لكلّ إقليم أوراقُهُ النّقدية الخاصة، يُتداولُ بها دون غيرها، وفي عام 1160م، تمّ إصدار عملة ورقية جديدة بلغت قيمتها 43.600.000 أوقية، وبالنّظر إلى وجود العملات المحلّية المذكورة أغرقت الإمبراطورية بالعملة فهبطت قيمتها. وحين أمسكت أسرة "كين"(الذّهبية) زمام السلطة شمال الصّين، اتّخذوا أيضا عملة ورقية دون أن يشيروا فيها إلى اسمهم وتداولت مدّة سبعة أعوام، ثمّ أصدرت بعدها عملة بتخفيض بـ 15%، أمّا المغول فقد حَذَوا حذْوَ سابقيهم، فكان إصدار أوّل الأوراق النّقدية في الصّين عام 1263، وكانت عملات ورقية ثلاث مستويات، الأولى الورقة العشرات (10، 20، 30، 50) والأوراق المئوية (100، 200، 500)، والأوراق المالية الألفية (1000، 2000)، وحدّدت قيمة ورقتين ماليتين من نوع 1000 تساوي 1 أوقية من الفضّة الصافية أي ما يساوي 28.35غ من الفضّة، كما كانت هناك أوراق مالية مصنوعة من الحرير، قيمة الورقة الواحدة تساوي 10 أوقيات، للمزيد يراجع : Yule H.: op.cit., T. 3, PP. 149, 150, 151.

التي على ختم مانغوخان **Mongoukhan**، كتب عليها بمرقاش تشبهُ تلك التي يرسم بها الرّسّامون، وتجمع في رمز واحد حروف عديدة مكوّنة لكلمة واحدة"، وفي هذا الموضوع نوَّهَ العالم في الصّينيات الفرنسي" بيليو"، بروبروك وملاحظته الفريدة والدّقيقة، بالنّظر الى كونه أوروبي من العصور الوسطى، في إعطاء فكرة وافية عن طبيعة الكتابة الصّينية، فلم يكن بالإمكان العثور على توصيف أحسن من وصفِهِ لسيمات الرّمزية للكتابة الصّينية(1).

وهي أوراق صفراء اللّون – حسب وصف بيغولوتي– عليها ختم الملك وتعرف أيضا بـ باليشي **Balishi**، وبها يمكن شراء الحرير وغيره من البضائع الصينية الثّمينة المطلوبة، وذكر "يول" أنّ العُملة الصّينية منذ عهد قوبيلاي خان أول حكام يوان، عرفت أيضا بـ "**باليسي Balisci** " (2). بينماعرفت بين الصينيين بـ " تشاو" **Tchao** أي العملة الورقية، أو الباو تشاو **Pao Tchao**، أي العملة الورقية الثمينة 3.

وللعملة الورقية الصّينية ثلاث أنواع تختلف أهمّية كلّ ورقة نقدية، وفق القيمة التي حدّدَها الخان المغولي بنفسه، وكان التّاجر يشتري بسبيكة واحدة من الفضّة ثلاثة ونصف قطع من حرير الكمخة المعروف بالدَمَقْس «**Damasked Silk**»، كما يشتري بسبيكة واحدة من الفضّة من ثلاثة ونصف إلى خمس قطع من "الناكشيتي" «**Nacchetti**» وهو نوع من الأقمشة الفاخرة، الحرير المنسوج بالذّهب(4).

1- Rubrouck .G.: op.cit., P. 185; Polo Marco: op.cit., P. 137, 138.

2- Yule. H.: op.cit., T. 3, P. 149.

3- De Perdenone Odoric : op .cit , note ,P. 310

4- Yule. H.: op .cit., T. 3, P. 155.

داخل الصّين كانت عمليات البيع والشراء تتم عن طريق الأوراق النقدية الصينية فقط، حيث لا يسمح بغيرها، فكان التّجار الصّينيون أنفسهم، يحوّلون أموالهم إلى كُدَّس من قضبان الذّهب أو الفضّة، ولتسيير معاملاتهم اليومية يستخدمون العملة الورقية الصّينية، كما كان على التّجار الأجانب تحويل الذّهب أو الفضّة إلى هذه العملة.فكان التّعامل بالعملة الورقية الصّينية مفروضًا بالقوّة من قبل الحكومة الصّينية، التي تعاقب كلّ من يخالف التّعامل بها، وتعتبرهُ متمرّدًا، وتصل العقوبة إلى حدِّ الموت. فقد كانت تصنع في قصر الخان الأكبر، الذي يشرف بنفسه على صنعها وتوزيعها في كلّ البلاد، وصُنِّعَت العملة الورقية الصّينية من نوع من أنواع شجر التّوت **L'aubier**.

كان التّجار المسلمون على علم بهذا القانون الصّيني المنتهج في معاملات البيع والشّراء منذ عهود طويلة، بينما لم يتعرّف عليه التّجار الأوروبيون إلّا في منتصف القرن الثّالث عشر، وهو ما خيَّب أمالهم في جني ثروات أكبر في تجارتهم مع الشّرق الأقصى[1].

كما كان للمعاملات التّجارية في كامل أراضي الإمبراطورية المغولية – ولاسيما في القسم الصّيني منها– عائدات كبير وهامة دعّمت خزينة الإمبراطورية، كانت تسخّر هذه الأرباح إلى دعم وإنشاء الطّرق وقنوات مياه سهلة الاستخدام، هذا ما جعل سفن لا عدد لها، تغطي الأنهار والأقنية المائية الصّينية ومن خلالها تنتشر في كلّ الصّين بضائع محليّة وأخرى مستوردة من الخارج[2].

1– Heyd .W.: op.cit., P. 249.

2– Heyd .W.: op.cit., P. 245.

مع العلم أنّ أغلبيّة سكّان المدن الصّينية كانت تمارس التّجارة والصّناعة، ففي هذه الفترة كانت أراضي الإمبراطورية مفتوحة للتّجار الأجانب، وكان قوبيلاي خان متسامحًا معهم مشجّعًا لتواجدهم في بلاطهِ، وأسند إليهم وظائف سامية في البلاد، وينطبق هذا على التّجار المسلمين والمسيحيين أيضًا. وكان عددُ التّجار المسلمين الأكثر في الصّين مقارنة بغيرهم، وأغلبيّتهم كانوا ذوي أصول فارسيّة، غير أنّ نشاطهم التّجاري عرف بعض الانتكاس لفترة من الزّمن، فقد قام قوبيلاي خان، بدعوة التّجار المسلمين إلى بلاطه، ولأسباب دينية امتنع هؤلاء التّجار من الأكل من بعض ما قُدّم لهم على طاولة قوبيلاي، الأمر الذي أغضب الخان فاتّخذ منهم موقفًا سلبيا منذ ذلك الحين، وهو ما أثّر على نشاطهم التّجاري وحدَّ منهُ، لكن هذا أحدث اضطرابًا خطيرا في الموارد والمداخيل الجمركية للصّين، فلم يكن أمام قوبيلاي خان سوى التّراجع عن سياسة مضايقة التّجار المسلمين[1]. وهو ما يُبْرِزُ الحجم الكبير لمبادلاتهم التجارية وما تعود به على الخزينة الصّينية من أرباح.

ومهما يكن فإنّ هذا الحادث كان عارضًا واستثنائيًّا، حيث كان حضور التّجار المسلمين قويًّا في الصّين، منذ عهد أسرة تانغ، ضمن مستوطنات خاصة بهم في أكبر المدن الصّينية فضلاً عن نشاطهم وغير المقيّد في كلّ الاتّجاهات دون أدنى قلق[2].

1- Heyd W.: op.cit., P. 245

2- Ibid.

1- التّبادل التّجاري مع آسيا العليا (سيبيريا):

يتبيّن من النّصوص التّاريخية التي تعود إلى القرن الثّامن والتّاسع الهجري/ الرّابع عشر والخامس عشر الميلادي، أنّ القسم الشّمالي من آسيا الوسطى كان منفذًا للتّجار المهتمّين بتجارة فرو الحيوانات الشّمالية، لاسيما فرو الفقمة L'hérmine- هي الفاقم عند ابن بطوطة- إلى جانب فرو حيوان السمُّور، والسّنجاب وكلّها أغلى أنواع الفراء،و منها أيضا فرو الفقمة الأبيض الفقي- فقد أشار كلّ من الأسير الألماني شيتلبرغرJ.Schiltberger لدى المغول، والرحالة ابن بطوطة الطّنجي، اللّذان في شمال تركستان، إلى رواج هذه السلعة وتوافد التّجار على منطقة سيبيريا الباردة، التي عرفت في نصوص الأسير الألماني شتيلبرغر تحت تسمية إيبيسيبور Ibissibur[1]، بينماعرَّفها ابن بطوطة باسم "أرض الظّلمة" لِقِصَرِ عدد ساعات النّهار بها. واتّفق المصدران على أنّ التّجار يعتمدون في نقل بضائعهم، وأمتعتهم في هذه المنطقة الجليدية على عربات خاصّة، وهي زّلاجات تجُرُّها كلاب خبيرة بالمنطقة[2].

والملاحظ أنّ ابن بطوطة هو من زوَّدَنا بمعلومات دقيقة، وكثيرة حول الموضوع، حيث أشار إلى أنّه كان يعتزم الدّخول إليها من منطقة البلغار، غير أنّ السّفر إليها شاقٌّ حيث يستغرق أربعين يومًا في "صحاري من الجليد"، حسبَ وصفِهِ وهو ما دفعهُ إلى التّراجع عن

---

[1]- مشتقّة من التّسمية الرّوسية "سيبير" "Sibir" ويقصد بها إقليم سبيريا La sébïrie- تمتدُّ من جبال الأورال حتى المحيط الهندي شرقًا، ومن حدود كزخستان ومنغوليا والصّين حتى المحيط المتجمّد الشّمالي، ولقد أنشئت خلال القرن الخامس عشر خانية مغولية في السُّهوب المستندة إلى جبال الأورال وملتقى أنهار توبول وأوبو والإرتيش، في نواحي توبولوسك الرّوسية حاليًّا، ويعتبر الأسير الألماني هو أوّل مصدر لاتيني يشير إلى سبيريا؛ Schiltberger Johannes : Johannes schiltberger captive des tatars, traduit : Jacques Rollet,Anacharsis,Paris,2008 , P. 90.

[2]- ابن بطوطة: المصدر السابق، ج.إ.، مج. 176، ص. 399؛ Schiltberger J.: op.cit., P. 91.

ذلك، وذكر ابن بطوطة أنّ هذا النّوع من التّجارة لا يستطيع التّكفل به إلاّ الأثرياء (الأقوياء) من التّجار لأنّهُا تتطلّبُ أن يمتلك التّاجر الواحد قافلة لا تقِلُّ عن مئة عجلة –زلاّجة– صغيرة يجرُّها كلاب كبار، فالمنطقة جليدية لا يثبت فيها قدم الإنسان ولا حافر الدّواب، بينما كلاب هذه المناطق تثبتُ أقدامُها في الجليد بواسطة أظافرها، ويعتبر الكلب الذي يقود هذه القافلة هو أهمّ عُنصر فيها، ذلك لأنّه دليل القافلة في هذه الأرض، فهو الوحيد العارف بمسالكها، لذلك تصلُ قيمتُهُ إلى ألف دينار ونحوها، فتربط العربة إلى عُنُقِهِ ويقرن إليه ثلاثة من الكلاب ويكون هو المتقدم، ويُعامل معاملة خاصّة فلا يضرِبُهُ أحد ويُطْعم أوّلاً وإلاّ غضب وترك القافلة للتّيه والهلاك[1].

ونظرًا لطول مدّة الرّحلة يحملُ التّجار معهم مؤونة من الطّعام والشّراب والحطب، ما يكفيهم، فالمنطقة عبارة عن سهوب جليدية باردة "***لا حجر فيها ولا شجر ولا مدر***"، وبعد مسيرة أربعين يومًا، تصلُ القوافل التّجارية إلى موضع معروف، حيث تتمُّ عملية مقايضة البضائع المجلوبة مع بضائع أهالي السُّهوب السّيبيرية "أرض الظُّلمة".فكان التّجار يتركون كلّ بضائعهم، هناك، ثمّ يعودون من الغد لتفقّد متاعهم، فيجدون بإزائه كمّيات من فرو السُّمور والسّنجاب والفقم الأبيض، فإن رضي التُّجار بالسّلعة المقابلة لسلعتهم أخذوها وإن لم يرضُ تركوها، فإمّا أن يُزوّدَهم أهالي المنطقة بكمية أكثر، وإمّا أن يسحبوا بضاعتهم ويتركوا متاع التّجار الوافدين، وعلى هذا النّحو كانت تتمّ المبادلات بين التّجار المسلمين وغيرهم مع أهالي السّهوب السّيبيرية[2].

[1]- ابن بطوطة: المصدر السابق، ج.إ.، مج. 176، ص. 400.

[2]- ابن بطوطة: نفس المصدر، ص. 401.

تعتبر نصوص ابن بطوطة ثمّ الأسير الألماني شلتبرغَر، أقدم المصادر التي وصلتنا وأفادتنا بمعارف قيِّمة عن نشاط التّجار في المناطق الآسيوية البعيدة مثل سيبيريا.

2-تجارة الأحجار الكريمة في آسيا الوسطى:

طيلة عهد الحكم المُغولي لم تمثل المدن الكبرى لآسيا الوسطى معبرًا نحو الخيرات والسّلع الصّينية، ومراكز نشيطة على طريق الحرير التّجاري فحسب، وإنما سوقا كبيرة للأحجار الكريمة لاسيما وأنّ بها أكبر المناجم الجبلية في باذخشان والباميير وتيان شان وفي المجاري المائية لأنهارها، فكانت سوقا خاصا لتزويد تجّار القادمين من الصّين، ومن البلاد الغربية كالتّجار اللاّتين، وغيرهم بأندر وأغلى أنواع الحجارة.

وتوجد في نصوص التّجار المسلمين أو اللاّتين، إشارات كثيرة إلى وفرة الأحجار المطلوبة بكثرة في اوروبا والصّين، ويأتي في مقدّمتها اليشب Jaspe، وحجر يمان Calcédoineالذي يلقى إقبالاً كبيرًا من التّجار الصّينيين والأوروبيين، ويستخرج بكثرة من أكبر المقاطعات الشّرقية الشّمالية لتركستان الكبرى، وهي تشارشن Ciarcianوأهلها مسلمون يُتاجرُون في هذه الأحجار وفيما تنتجُهُ أراضيهم الزّراعية.هذا إلى جانب ما يُستخرج في مقاطعة باذخسان من نوع شهير من الياقوت المطلوب كثيرًا والمعروف بـ بالاسي Balasci، وهو أغلى أنواع الياقوت، يستخرج من مناجم في جبال شكنان Sighinaneشمال أفغنستان الحالية، وتتمّ مبادلتُهُ مع التُّجار في مقابل الذّهب أو الفضّة[1].

---

[1]- ابن بطوطة: المصدر السابق، ج. إ، مج. 177، ص. 59؛ Marco Polo: op.cit., P. 64.

وفي هذا السّياق نشر العالم برتشنايدر في مجلّدِهِ الأوّل الذي جمع فيه جملة من المصادر الصّينية، ومعارفهم عن البلاد الغربية، ومن جملتها إقليم تركستان، مقالاً عُثر عليه في السّجلات الرّسمية المُغولية التي تعود إلى القرن الرّابع عشر يحمل عنوان: "***الأحجار الكريمة عند مسلمي تركستان***" «Hui Hui shi T'ou» وهو مقال يعرضُ أنواع الأحجار الكريمة الثّمينة التي تستخرج من المنطقة المذكورة في قائمة طويلة مُصنّفةً إيّاها حسب النّوع والجودة، يأتي في مقدّمتها؛

"بي-جهْ- دا" «Be-dje-da»[1] وهو حجر ذو لون أحمر غامق.

حجر سي-لا-ني Si-la-ni حجر أحمر يميل إلى السّواد.

جو- مو- لان Gu-mu-lanوهو حجر يأتي على ألوان متعدّدة، كالأحمر الممزوج بالأسود، والأصفر.

الأحجار الخضراء اللّون المعروفة ب**الزُّمرُّد** وأدنى أنواعِه قيمة هو صه-بو-نى Sa-bu-ni، وذلك بسبب لونِهِ الباهت وذكر برتشنايدر أنّ أصل التّسمية فارسي ومعناه الصّابوني حجر ياهو Ya–Hu/ ياغو Ya–gü، هذه التّسمية الصّينية مشتقّة من الياقوت. [2].

وهناك ثلاث أنواع من الياقوت، الأزرق، أجودُهُ الأزرق الغامق، و"ني-لان Ni–Lan"، ذو اللّون الفاتح، وأدناه الأزرق ذو اللون المُوحل، وأجمل الياقوت في تركستان هو الأحمر

1- يعرف لدى المسلمين بالبيجادي وهو - كما أشار إليه الجاحظ- حجر كريم أحمر اللّون يشبهُ الياقوت وأجودُهُ الأحمر الشّديد الحمرة الملتهب لونُهُ التهاب النّيران، يراجع: الجاحظ: التبصر، ص. 16.

2- Brerschneider.E : op.cit., T. 1, P. 174.

-Ruby- يوجد على سطحه ماء أبيض. كما يوجد بها الياقوت الأصفر (Saphire) ويعرف أيضا بالتوباز المشرقي Oriental Topaz والياقوت الأبيض المعروف بالسفير الأبيض White Saphire.وبها حجر مطلوب في الصّين بكثرة وهو "ماوتسينغ" «Mao-tsing» أي حجر عين القط.

حجر تيان- تزي Tien-Tze، ويعرف بالفارسية "الفيروز"، ويبدو أنّ الصّينيين تداولوا التّسمية التركية «Turquoise » لهذا الحجر الثّمين.

حجر "ني- شي- بو- دي" Ni ché bu di ويُستخرجُ هذا الحجر من "خوجند" في تركستان، كما يستخرج من نيسابور وجبال شيباوك Shebavekفي إقليم كرمان ومن جبال أذربيجان[1].

وكان التّجار المسلمون خبراء في مجال الأحجار الكريمة من حيث أنواعها وأجودها وأردئها، ويُشير التّقرير المنشور أنّ الإمبراطور المغولي قوبيلاي خان، اقتنى في أواخر حكمه –نهاية القرن الثالث عشر- حجرًا كريمًا من أجود أنواع العقيق الأحمر «Balas Ruby»، دفع مبلغًا ماليًّا كبيرًا للحصول عليها، ابتاعهُ من أحد أغنياء التجار المسلمين، وقام قوبيلاي بتزيين تاجه الإمبراطوري بهذا الحجر الثّمين، ثمّ توارثهُ أبناؤهُ من بعدِهِ، وكانوا يحرصون على وضعِهِ في المناسبات الهامة، مثل احتفالات رأس السّنة وعيد ميلاد الإمبراطور[2].

1- Bretschneider.E : op.cit., T. 1, PP. 174- 175.

2- Bretschneider.E : op.cit., T. 1, P. 173.

فقد كانت تجارة هذا النّوع الخاص من السّلع الآسيوية، هو هدف كلّ التّجار، لاسيما الأغنياء منهم، فالأحجار الكريمة سلعة خفيفة في الحمل تتناسب مع طول السّفر ومشاقّه، وغالية الثّمن، حيث تعُود بالأرباح الكثيرة على التّجار.

خامساً- الإرساليات المسيحية اللاّتينية في آسيا في القرن 13م:

إنّ الذي دفع الكنيسة الرّومانية في بداية القرن الثالث عشر إلى انتهاج منحى جديد في توجيه نشاط إرسالياتها التّنصيريّة في الشّرق، هي جملة من الحوادث العالمية حينها، يأتي في مقدّمتها استرجاع المسلمين لبيت المقدس عام (583هـ/1187م)، حيث سجّلت هذه الأخيرة تحوّلاً في مصير الكيانات الصّليبية اللاّتينية التي أُقيمت في بلاد الشّام. أُتبِعَت بتداعيات انهيار تامّ لوجودها على السّاحل الآسيوي الشّامي.

كما كان لظهور قوّة الأرمن في قليقية دورُهُ في ذلك، حيث كانوا المستفيد الأكبر من انهيار السّلطة البيزنطية حين حاول بارون الجبل ***ليون الروبيني*** **Roupénien Léon** تذليل المصاعب المتعلّقة بالخلافات العَقْدية والشّعائريّة التي حالت دون اتّحاد الكنيستين اللاّتينية والأرمنية، وكان السّعي وراء تلك الوحدة هو أحدُ الأسبابِ الرّئيسية لنشاط الإرساليات المسيحية مُدّة قرنين من الزّمَن[1].

1- Richard Jean: La Papauté et les missions d'orient au Moyen-âge, (XIII^{e}-XV^{e} siècles), Ecole Française de Rome, Palais Farnèse, 1977, P. 19.

كما كان لسقوط القسطنطينية (1204م) في قبضة اللاّتين، دورُهُ في فتح آفاق جديدة أمام البابوية لتوحيد الكنيستين الشّرقية اليونانية والغربية، وفي نفس الوقت فُتِحت موانئ البحر الأسود أمام نشاط الملاحة اللاّتينية، فعادت عليها بفوائد تجارية واقتصادية عظيمة،وانفتحت

السّهُوب الآسيوية أمام نشاط الإرساليات المسيحية الكاثوليكية، شكَّل مجالاً حيويًّا غير مُتوَقّع بالنسبة لها. لاسيما وأنّ الكنيسة البولونية والألمانية وجارتهم السّويدية كانت قد بدأت تنشط حينها بين المجموعات البلطيقية Le Bloc Balte والفنوية Les Finnois، وعلى هذا النّحو اتّسع نشاط الإرساليات التّنصيرية الكاثوليكية بشكل ملحوظ(1).

وفي ظلّ هذه الظّروف السّياسية، ذات الانعكاسات الاقتصادية، نشأت التّنظيمات الاستجدائيّة الخيرية Les ordre Mendiantes، كما وُصِفُوا بمجتمع الإخوة المتجوّلين «La société des frères pérégrinants»، وهي تنظيمات وُجّهَت إلى التّنصير، ومَنَعتها مبادئها الأساسية من زهد ورهبنة، من إدارة إقطاعات وأراضي، وكانوا أحسن من يقوم بهذه المهمّة، بحكم هيأتهم المتواضعة، ومبدئهم الأساسي هو نشر المسيحية الكاثوليكية بين "**المجتمعات الكافرة**Infidèles،و"السارازانيين- Les Sarrasins"، وهي التّسمية التي أطلقها الأوروبيون اللاّتين على المسلمين، فكان أن ظهر تنظيمين دينيين لائكيين – خارج الهيكل الكنسي- قادا هذه المهمّة، بتشجيع من الكنيسة وهما:

1- Richard Jean: La Papauté…, P. 20.

تنظيم **الفرنسسكان**[1] الإخوة الصّغار Les frères Mineurs، اتّجهوا نحو تمسيح المسلمين أنفسهم، أما التنظيم الآخر فهو تنظيم الإخوة الوُعّاظ Les frères Précheurs **الدومنيكان**[2] الذين اتّجهوا نحو تمسيح البروس،ففي الوقت الذي خلف فيه أنوسنت الرّابع، غريغوري التّاسع على كُرسي البابوية الكاثوليكية، كان نشاط الإرساليات بين حدود روسيا الجنوبية وحواشي العالم المعروف حينها ن-شاطًا معتبرًا، ففي عام 1237 و1238م وصل نشاطها إلى أراضي القبجاق، وانتدب عدد من الكهّان لهذه المهمّة منذ عام 1244م(3).

---

[1] - الفرنسسكان Les Franciscainsأحد الأنظمة الرّهبانية المسيحية اللائكية Laïcs، أسّسها الرّاهب القديس فرانسوا داسيس Saint François d'Assise بداية القرن الثالث عشر الميلادي، ظهر في البدايةبمسمّى الإخوة الصّغار «Les frères mineurs» إمعانا في التذلّل والتواضُع، من أهمّ مبادئهم العيش بصورة تعكس الكتاب المقدّس الإنجيل، وأن تكون شبيهة بحياة المسيح والحواريين، بمعنى أن تؤسَّسْ على الفقر الحقيقي، ومساعدة الفقراء، والسّعي في العمل، يمنعوا على أنفسهم الملكية سواء كأفراد أو المشاركة في ملكيات. انطلقوا من إيطاليا ثمّ انتشروا في كلّ أوروبا وخاصة في فرنسا، وبكون النّظام لا يخضع لسلطة الأسقف، تلقى انتقادات الإكليروس، وعرفوا في إنجلترا تحت تسمية الإخوة الرّماديين Grey Fériars لارتدائهم ثياب رمادية وتمييزًا لهم عن الإخوة السّود Black Fériars. وابتداءً من 1230 لوحظ تحولفي النّظام الرّهباني بانضوائه تحت النّظام الإكليروسي، وابتعاده عن الزهد الذي أوصى به المُؤسِّس، حيث سُمِحَ لهم ولو بالحدّ الأدنى للملكية، للمزيد يراجع: Touati François Olivier: Vocabulaire historique de Moyen-âge, La boutique de l'Histoire, Paris, 1995, P. 90, 97; Willibrord-Christian Van Duk: Franciscains, in **Encyclopaedia universalis**, Vol.10, Paris, 2008P. 240-249

[2] - الدومنيكان Dominicain يُنسبون إلى القديس الراهب دومينيك وتنظيمِه، وهو من التنظيمات الخيرية المؤسّسة في مدينة تولوز الفرنسية عام 1215 ظهرت تحت مسمّى «Frères Prêcheurs»، للعمل ضدَّ L'Herésie Cathare، تبنّى هذا التّنظيم مبدأ القديس أوغسطين، الذي تبناه وأكّد عليه البابا هونوريوس الثّالث Honorius III في 22 ديسمبر 1216، ويُدير شؤون التّنظيم، راهب عاممنتخب، ويُعرفُ تنظيم الدّومينيكان في إنجلترا بـ بلاك فريارس Black Feriars، أي الإخوة السّود تمييزًا لهم عن التنظيم الفرنسسكاني في إنجلترا غراي فاردارس، يراجع: Touati François Olivier: op.cit, P. 66- 67.

[3] - Richard J : op .cit., P. 63.

ثمّ تواصلت هذه النّشاطات التّنصيرية الكاثوليكية، بدخول العنصر المُغولي إلى ساحة الأحداث، لاسيما وأنّ أخبار غزواتهم، وصلت إلى أسماع رجال الدّين المَجَرّيين حوالي 1236، حيث سجّل رئيس دير مجَري يُدعى فليب حدوث اكتساح، وغزو لقسم كبير من بلاد فارس وأرمينية على يد المغول، كما وصلت رسالة من جوليان المجري تتحدّث عن غزو لروسيا وجورجيا، فدقَّ بذلك ناقوس الخطر، ووصلت أصداؤهُ إلى البابوية، ثمّ جاءت الحملات العسكرية المغولية عام 1241 ضدّ المجر وبولونيا وبوهيميا، لتدفع أعدادًا كبيرة من اللاّجئين نحو الغرب، الفارين من ضربات المغول حاملين معهم قصص الرُّعب المغولي[1].

1-<u>الإرساليات الكاثوليكية بين التّحالف الاستراتيجي والأطماع الاقتصادية:</u>

شهد النّصف الثاني من القرن الثالث عشر الميلادي تحول الكراهية والعداء بين المغول والعالم المسيحي الغربي إلى انجذاب من الجانبين؛ حيث سعت البابوية إلى تحويل المُغول إلى المسيحية، والمغول كانوا يأملون إلى كسب المسيحيين اللاّتين لضرب المماليك المسلمين، وبغضّ النّظر عن نجاح أو فشل هذا التّقارب في تحقيق الأهداف السّياسية والدّينية، المرجُوّة منهُ، إلاّ أنّها سمحت بتردّد السّفراء وتبادل الرّسائل لسنوات عديدة خاصة من طرف الإرساليات المسيحية البابوية، التي فتحت بدورها الطّريق التّجاري الأسيوي الشّهير أمام التّجار اللاّتين. فقد قام سُفراء البابوية أو مبعوثو ملوك أوروبا، أمثال جان دي بلان كاربان ***Jean de Plan Carpin***، أندري دي لانجيمو ***André de Lonjumeau***، وليم دي وبروك ***Guillaume de Rebrouck*** وآخرين غيرهم برسم الطّريق ومسالك آسيا ووصفوها بدقّة، لا لإرشاد إخوانهم الرهبان مبعوثي البابوية والحكام اللاّتين فحسب وإنّما حتى العلمانيين

---

[1]- Richard J.: op.cit., P. 67.

منهم السّاعين المتلهّفين وراء جني الأرباح من ثروات الشّرق ،فلا تخلوا تقاريرهم من الإشارة إلى خيرات وثروات الشّرق الأقصى من حرير وذهب وفضّة وأحجار كريمة وغيرها. ففتحُوا فضاءً شاسعًا لا حدود لهُ، خاصة بتوغُّلهم ووصولهم إلى عاصمة الخان المغولي في قاره كورم **Karakorum**المدينة الواقعة جنوب بحيرة البايكال «**Baïkal**» في المنطقة المعروفة اليوم بقاره بالقاسون **Kara-Balgassoun** على المجرى العلوي لنهر أورخون **L'Orkhon**، فقبل هذا التّاريخ لم يَجرُءْ أحدٌ من التّجار اللاّتين – حتّى زمن الهيمنة الصّليبية على بلاد الشّام– التوغل في آسيا والابتعاد أكثر، فلم يسجّل وصولهم إلى بغداد، أو حتى مدينتي حلب أو دمشق التي تبعد يومين أو ثلاث عن البحر الأبيض المتوسّط[1].

وكانت البداية حين ظهر المغول لأوّل مرّة في القوقاز عام 1221، ثمّ ألحقوا بعدها بعامين هزيمة نكراء بالأمراء السّلاف على ضفاف نهر "كالكا" **Kalka**، وكان اكتساح قوّاتهم كالإعصار لمناطق القوقاز وبلاد القرم وجنوب روسيا، واتّصفت بكونها عابرة، ثمّ أعطت وفاة جنكيزخان 18 أوت 1227م شيئا من الرّاحة للعالم المسيحي، إلى أن قام باتوخان **Batou-Khan** عام 1241 بحملة وصلت فيها خرسانة إلى بوهيميا وسيليزي **Silésie**، والمجر وأسَّسَ لحكم مُغولي مستقر في جنوب روسيا، ومع وفاة الخان الأكبر أوغوداي «**Ogödai**»1229_1241م، التقطَ الغرب أنفاسهُ، وبدأَ يعملُ على سُبُل الحماية من هذا الخطر، وشرع في البحث عن ما هي المقومات التي تستند إليها هذه الأقوام البربرية المغمورة حينها والقادمة من السّهوب الآسيوية[2].

1- Heyd W.: op.cit., T. 2, PP. 70, 71.

2- Pelliot Paul: «Les Mongols et la Pauté, dans Revue de l'Orient Chrétien, troisième série, Tome 3 (Vol. 23), 1922-1923, Paris, P. 3.

في هذه الأثناء كانت أوروبا مرهقة من هزائم الحروب الصّليبية في بلاد الشام ومصر، وتعاني في نفس الوقت، من الصّدع الدّائم بين البابوية، والسّلطة المدنية في أوروبا وهي الإمبراطورية الرّومانية المقدّسة، ممثّلة حينها في الإمبراطور فريدريك الثاني، ومن جهة أخرى كانت صرخات الاستنجاد من إمبراطور القسطنطينية اللاّتيني بالدوين الثاني، وبطارقة القسطنطينية، وأنطاكية بالبابا في روما كلّها.فكانت نتيجة هذه الضّجة الكبيرة التي أحدثتها غزوات المغول من تدمير وتقتيل أن سارع البابا إنوسنت الرابع **Innocent IV**،الذي اعتلى الكرسي الرّسولي في 25 جوان 1243م في روما، إلى إرسال رهبان من أشهر الأديرة الخيرية المُستجدي إلى خان المغول قبل انعقاد مجمع ليون[1] عام 1245م[2].

---

[1]– سعى البابا إنوسنت الرابع قبل عقد مجمع ليون على حلّ الخلافات التي كانت بين البابوية والإمبراطور فريدريك الثاني، فبعد أن انتخب لاعتلاء الكرسي الرسولي في 25 جوان 1243م، دخل في تفاوض مع الإمبراطور فريدريك الثاني لإصلاح كلّ الخسائر التي سبّبتها حروب سلفه البابا غريغوري التاسع Grégorie IX، وذلك حتى يتفرّغ لأهدافه بحماية المسيحية والكنيسة، ودعا إلى حرب "الوثنيين الكفرة"، وجنّد الألمان لمحاربة المغول (التّتار)، في بادئ الأمر، وفي 3 جانفي 1245، استدعى البابا كلّ ملوك أوروبا وأمرائها ودعا الإمبراطور فردريك الثاني إلى الحضور شفهيًا أو إرسال نائب عنه إلى "ليون" Lyon وهذا لحماية وإنقاذ العالم الروماني المسيحي المهدّد من خطر المُغُول والمماليك وهي الأهداف الأكثر أهمّية بالنّسبة للبابا الجديد، وعقدت أوّل جلسة للمجمع الديني في 23 جوان 1245 في كاتدرائية القديس يوحنا Saint-Jean وكان من جملة من حضرها بدوين الإمبراطور اللاتيني في القسطنطينية، وبطارقة القسطنطينية وأنطاكية، وخرج المجمع بسبعة عشرة قرار احتوى القرار رقم "16" ضرورة تقوية الحصون المسيحية وأسوار المدن الواقعة تحت خطر الغزو وفي خط المواجهة "خاصة بعد تعرّض بولونيا وروسيا والمجر ومناطق أخرى مسيحية، للمذابح المغولية التي لم تفرّق بين طفل أو امرأة، فلقد آن الأوان لصدّ هجماتهم". للمزيد حول المجمع الديني بـ "ليون" Le Treiziem Synobe oecumenique،يراجع: HEFELE Karl-Joseph: Histoire des Conciles d'après les documents originaux, traduit par: Dom H., LecleRCQ, Tome V, deuxième partie, le Touzey et Ané, Paris, 1913, PP. 1612-1616, 1622, 1633-1653.

[2]– Heyd: op.cit., T. 2, P. 64; Yule H.: op.cit., T. 1, 154; Pelliot: op.cit., P. 3.

فاختار إنوسنت الرابع استخدام الرّهبانالفرنسيسكان والدومينكان في سبيل التّأثير على خانات المغول وتحويلهم إلى المسيحية، خاصة بعد الأخبار التي وصلت إليهم عن وصول المسيحية إلى بعض القبائل التركية، والمغولية على يد النساطرة المسيحيين الشّرقيين، وهو ما جعلها أكثر تسامحًا مع المسيحيين عامة، هذا إلى جانب وصول أخبار إلى العرب مفادها أنّ لدى خان المغول قابلية كبيرة للمسيحية، سيما وأنّه يُقرّب رجال الدّين المسيحيين من مجلسه

ويمنحهم معاشا وأعطيات، وتوجد أمام خيمته الكبيرة، كنيسة خاصةللنساطرة وهذا ما شجّع البابوية للسّعي وراء تمسيح الإمبراطور المغولي[1].

كما كان للتّنكيل والدّمار الذي لحق بالمسلمين والخلافة العباسية على يد المُغول، من أهمّ الأسباب التي حفّـزَت البابوية إلى السّعي في كسب الجانب المغولي إلى صفّها في الصّراع[2] معتبرتهم شركًا في العَدُو الواحد "الإسلام" الذي كان مُمثّلاً حينها في المماليك أسياد مصر والشّام، كما كان من الأهداف التي سعت إليها البابوية في اتّصالها بالمغول هو فتح الطريق أمام الأوروبيين للمحافظة على تجارة الشرق[3].

ففي ربيع عام 1243 أرسل الباب لأوّل مرّة سفارتين كاثوليكيتين إلى خان المغول وكان على رأس الأولى؛ الدومنيكاني أسلان اللومباردي **Ascelin de Lombardie**، وعلى رأس السّفارة الثّانية الرّاهب الفرنسسكاني الشّهير جان دي بلان كاربان**Jean de Plan Carpin** بصفة سفير غير اعتيادي من البابا، إلى خان المُغول، وكان الهدف هو تحويل الخان

1- Odric de Perdenon: Voyages en Asie, commenter par: Henri Cordier, Ernest Le Roux, Paris, MDCCCXCi, Introduction P.XIV; Karpin J.P.: op.cit., P. 127.

2- Yule H. : op.cit., T. 1, P. 156.

3- Pelliot P.: op.cit., P.2; Barthold W.: op.cit., P. 101.

المغولي إلى المسيحية، وعقد تحالف بين البابوية والمغول ضدّ المسلمين، إلى جانب العمل مع دوق موسكوفي الكبير لتوحيد الكنيستين اليونانية واللاّتينية[1].

ولقد كتب ريكولد أوف مونتكروس **Ricold of Montécroce** أحد الرّهبان اللاّتين في وصف أهمّية دور التّنظيمات الدّيرية المذكورة في تاريخ المسيحية لاسيما في هذه المرحلة، فسجّل مايلي: "إنّ الأمر الذي يستحقّ أن لا يَنساه المسيحيون كافة وأن يكونوا شاكرين عليه الرّب على الدّوام، هو إرسالُهُ خدمًا مؤمنين ومباركين في الغرب وهما الدّومنيكان والفرنسسكان، للتنوير والتّأديب وللتّعمير بالإيمان في نفس الوقت الذي أرسله فيه التّتار يقتّلون ويذبحون في المشرق".[2]

2-خط سير الرُّهبان والتُّجار اللاّتين في آسيا القرن 13-14م:

منذ القرن السّادس الهجري/ منتصف القرن الثالث عشر الميلادي، شرع الرُّهبان والتّجار اللاّتين في سلوك عدّة مسالك للوصول إلى الشّرق الأقصى وتحديدًا الصّين التي كانت بشكل خاص هي هدف رحلتهم، ويمكن القول أنّ السّفراء اللاّتين الأوائل الذين عبروا نحو آسيا، هم من فتح مسالك المنطقة ووضع مسارها بمحطّاتها تحت تصرّف من جاء من قبلهم، وأوّلهم الرّاهب جان د يبلان كاربان الفرنسكاني 1245م، وما أوردَهُ من معلومات عن وصف الطّريق والمحطّات التي مرَّ بها عبر شمال البحر الأسود نحو شمال قزوين حيث دخل أراضي المغول الشّماليين، ثمّ مرّ من ذات الطّريق الرّاهب أندري دي لونجيمو **André de Lon Jumeau** عام 1249م، مبعوث ملك فرنسا لويس التّاسع إلى المغول ثمّ أتبعهُ بإرسال

1- Cordier Henri : Introduction, PP. XIV

2- Heyd. W.: op.cit., T. 2, P. 73

الرَّاهب الفرنسسكاني ولي Henriم دي وبروك **Guilliaum de Rubrouck** الفلمنكي 1253-1255م، اللّذان مرّا تقريبا بنفس محطّات السّفر، ثمّ تتالت رحلات اللاّتين التّجار على دروب آسيا.

كان أمامهم مسلكين للوصول إلى خيرات الشّرق، أوّلُها كان باب آرمينيا الصّغرى التي تعتبر أهمّ المنافذ نحو آسيا الوسطى عبر القوقاز ومنطقة قزوين، وليس هذا فحسب، فملوكها كانوا أصدقاء المسيحيين الغربيين منذ الحروب الصّليبية من جهة وكانوا أتباع لخانات المغول وهذا ما جعلها أحسن المنافذ بالنّسبة إليهم، أمّا الطّريق الثاني فكان مملكة طرابزون وكان حكامها أتباعًا للمُغُول، فالإمبراطورية المغولية كانت تمتدّ على قسم من الأراضي الأوروبية جعل من قاصديها من النّاحية الغربية يتّخذون إليها بيسر عبر البحر سواء من سواحل البحر الأسود الشّمالية، أو من تانة «**Tana**»على بحر الآزوف **La mer d'Azov**، ووجهتهم بلاد فارس حيث كان فيها يتمّ تحديد معالم الرّحلة، فإمّا أن تكون رحلة برّية بالسّير بمحاذاة شمال قزوين ثمّ عبر مدن آسيا الوسطى نحو الصّين، وإمّا أن تكون الرّحلة بحرية بالانطلاق من أراضي فارس نحو مضيق هرمز على الخليج الفارسي، ومنها عبر السّواحل الهندية والمالاوية وصولاً إلى الصّين[1].

وكان ممّا دوّنهُ اللاّتين في وصف المسالك نحو الشّرق الأقصى وتفصيل محطّتها مع إبداء النّصح عن أحسنها وأنفعها سلوكًا، ما كتبهُ الرّاهب الفرنسسكاني جان أوف مونت كورفينو **Jean of Monte Corvino** في رسالته للبابا عام 1306م[2]، فميّز بين مسلكين أوّلها وهو الأقصر، حيث يسلك طريق البرّ انطلاقاً من بلاد القرم ثمّ عبور آسيا الوسطى وتتطلّب

1- Heyd. W.: op.cit., T. 2, P. 73.

2- Yule. H.: op .cit., T. 3, P.49.

من خمسة إلى ستة أشهر من الزّمن. أمّا ثانيها فيستغرقُ وقتًا أطول لا يقلّ عن عامين وخلالها يمضي المسافر أغلب وقته في البحر[1]، لكن تجدر الإشارة إلى أنّ الإرسالي جان خلال انتقاله من هرمز إلى الصّين قسّم رحلتهُ إلى مرحلتين لأنّه توقّف أثناءها وقضى وقتًا طويلًا في الهند، بينما تجد أنّ التُّجار لا يسلكون نفس المسلك حيث يتوقّفون في الموانئ الهندية لفترة أقصر يعقدون فيها عمليات البيع والشراء ويغتنمون الفرص لربح الوقت، هذا فضلا على أنّ عملية مناقلة الرّكاب والبضائع التي تتمّ في الموانئ وحدها تستغرق وقتا طويلًا. وبوصول المسافر إلى طرابزون شمالا أو ميناء لاجازو **L'adjazzo** على خليج إسكندرونة، يكون قد وضع قدمهُ في آسيا ثم يتّجه منها إلى مدينة طوريس **Tauris** (تبريز) على طريق القوافل[2]. ليقطع بلاد فارس ويصل إلى هرمز عن طريق يزد وهناك يركب سفينة تنقله بمحاذاة ساحل الكورومندل الذي يقطع منه يشكل خط مستقيم خليج البنغال باتجاه سومطرة ومنها نحو بحر الصّين شرقًا[3].

ويسلكُ طريق البري حسب نقطة الانطلاق التي اختارها التُّجار مدينة لاجازو / أياس= **Aias /Ladjazzo-** (لاياس **L'aïas**) عند ماركوبولو وهو الطّريق الأكثر سلوكا في زمنه، فالمعروف أنّ مدينة كانت منطلق ونهاية طريق الحرير بالنّسبة للقوافل القادمة عن طريق الحرير التّجاري وصولاً إلى سواحل المتوسّط، وتعتبر باب التّجار الأوروبيين لاسيما الجنوية نحو آسيا الوسطى والشّرق الأقصى، ولقد مرّ الرّحالة ماركوبولو بهذه المدينة وهي تتوسّط الطّريق بين أرمينية وبلاد فارس، وهي "بلاد التّجار والحرفيين"، فاشتهرت بصناعة

1- Yule. H.: op .cit., T. 3, . , P. 49-50

2- PoloMarco: La description du Monde, Louis Hambis, Librairie C. Klincksieck, Paris, 1955, P. 28.

3- Heyd .W. : op.cit., T. 2, P. 221.

أقمشة الجوخ المُذهّبة والحريرية الجميلة والثمينة، ونظرًا لموقعها المتميّز تصلها بضائع من بغداد والهند والموصل، وكان التّجار يقتنون سلع حرفيها، والأحجار الكريمة، ويستفيدون من حركة البيع والشّراء النّشيطة هناك، أما المحطّة الموالية فكانت طوريس/تبريز **Touris**ومنها إلى بخارى ثم سمرقند، ثمّ يسلك الطّريق الواقع جنوب جبال ثيان – وهو الطريق الذي سلكه ماركو بولو– عبر خوقند **Khokand** للوصول إلى كشغرد **Kachgar**عن طريق تيرك **Térek**[1] ثم يركند **Yarkand**، خوتان **Khotan**، ومنها نحو الشّمال الغربي إلى الجنوب الشرقي جنوب التّاريم **Tarim** ليصل إلى بحيرة لوب **Lop** حيث توجد مدينة تحمل نفس التّسمية، وقد وصف التّاجر ماركوبولو، رخاء هذه المدينة بفضل نشاط الحركة التّجارية فيها، حيث "تصلها كلّ التّوابل والأقمشة، القادمة من الفرات وبها القطن، وهي ملتقى التّجار البنادقة، والبيزيين والجنوبين، ولهم فيها مباسط للسّلع يحافظون عليها". وأهل مدينة "لوب" أكثرهم مسلمون، تأخذ القوافل فيها قسطًا من الرّاحة، ويُطلب منها أن تمكث هناك مُدَّةً زمنية لا تقلّ عن أسبوع، للتّأهّب للمرحلة القادمة من السّفر، وهي شاقّة على المسافرين ودوابّهم، فيتجهّزون بمؤونة تكفيهم، ودوابهم مدّة شهر، وهي الفترة التي تستحقّها القافلة لقطع الصّحراء، وبها يختارون دوابًا قويّة لحمل السّلع والمُؤن، وهي الجمال لأنّها قليلة الأكل، وتصبر على الحمولة الثّقيلة[2].

أمّا إذا انطلق التّجار من الشّمال سالكين أراضي الخانية المغولية للقبجاق – جنوب روسيا الحالية– فللوصول إلى إمبراطورية الخطاي، دروب كثيرة، لم يعرفها اللاتين، إلاّ بعد أن استقرّ تجّار المدن الإيطالية وأصبح لديهم موطأ قدم في موانئ ساحل البحر الأسود وبحر

[1] - Polo. Marco: La description, du monde .P. 20

[2] - Polo.M : op.cit., P. 65

أزوف **La mer d'Azov**، فمع مرور الوقت أسّس الإيطاليون في تانة **"Tana"**مستوطنات تجارية، يقوم فيها التّجار المتوجّهون إلى آسيا الوسطى، بالاستعداد والتحضير لهذه الرّحلة – كما هو الحال في صولدايا **Soldaïa**– حيث يكون تحت تصرّف التّجار في تانة، عربات ذات أربع عجلات مغطّاة بكساء من لُبَّاد او نسيج الكتان لحفظ السّلع، وتقرن بدواب تجرّها، إمّا ثيران أو جياد وذلك حسب أهمّية وكمّية البضائع المنقولة وطبيعة الأراضي المقطوعة[1].

بعد مدينة تانة تأتي مدينة أصطرخان، كمحطّة تجارية هامّة على طريق الحرير التّجاري وقد وردت بصيغ مختلفة لدى الرّحالة والتّجار اللاّتين، فكان التاجر بيغولوتي الفلورنسي **Francis Balducci Pe Golotti**13- 134 من الذين نشطوا في المنطقة وسافر عبر هذه المسالك فأخبرنا أنّه بعد الانطلاق من تانة تتوجّه القوافل التّجارية نحو مدينة جنطارخان **Gintarchan**(أصطرخان[2]**Astrakhan**) وهي من أكبر المدن التّجارية، وتقطع المسافة بين المدينتين في مدّة زمنية مختلفة وذلك حسب نوعية الدّواب المستخدمة فالثّيران تقطع المسافة في حدود خمسة وعشرين يومًا بينما تقطعها الخيول بعرباتها في مدّة عشرة إلى اثني عشر يومًا[3].

---

[1]- .Heyd. W.: op.cit., T. 2, P. 226

[2]- زار ابن بطوطة مدينة أصطرخان وسمّاها "حاج ترخان"، وذكر أنّ التّسمية باللّسان التركي "تَـرْخَانْ"، ومعناها الموضع المُعفى من المغارم أي الضّرائب، وهو ما يُبيّنُ حجم النّشاط التّجاري الكبير فيها، وذكر ابن بطوطة أنّها "تنسب إلى "حاج" من الرّجال الصّالحين أقام بأرضها، فوهبهُ سلطان البلاد إيّاه، فعرفت بذلك بحاجي طرخان، فصارت قرية ثمّ عظمت وتمدّنَت وهي من أحسن المدن، العظيمة الأسواق مبنية على ضفاف نهر "أتل" (الفولڤا **Volga**) من أكبر أنهار العالم"، للمزيد يراجع: ابن بطوطة: المصدر السابق، ضمن (ج. إ.)، ج. 176، ص.ص. 410-411.

[3]- .Yule. H.: op.cit., T. 3, P. 146

بعد مدينة أصطرخان يتّجه المسافرين والتّجار نحو مدينة سراي "**Saraï**" عاصمة خانات القبجاق الواقعة شمال نهر الفولقا، وبالتّحديد على أحد الرّوافد الثّانوية يمين نهر أقتوبة **L'Aktouba**، ويبدو أنّه كانت ثمّة مدينتين تعرفان بسراي[1] وهي المدينة التي زارها ابن بطوطة وأخبر أنها عاصمة خان المُغل القبجاق "السّلطان أوزبك" حيث نزل في ضيافته وأكرمه وذكر ابن بطوطة أنها تعرف ب"سراي بَركة". فهي من أحسن المدن وتعتبر من أهم المراكز التجارية على طريق آسيا الوسطى، واسعة كثيرة الأسواق وفيها ثلاثة عشرة مسجدًا ويعد المغول هم أهل البلاد ومنهم القبجق الأتراك، والروم والروس، وكل طائفة تسكن على حدة، وفي أسواقهم تجارًا من كل أطراف العالم من مصر والشام والعراق وغيرها يقيمون في محل خاص بهم، ومدينة سراي أحيطت بسور لحماية أموالهم. وكان فيها فقهاء المذاهب السّنية، ذكر ابن بطوطة الشّافعية والمالكية لحلّ النّزاعات بين المسلمين ومباشرة مصالحهم الشّرعية[2].

ويبدو أنّ "سراي" القديمة كانت الإقامة الشتوية أَسَسَّها باتوخان **Batu khan** **1227_1255م**، وشرع ببناءها وأكملها شقيقهُ بركه خان(ت 1266م) **Berke khan**[3].

بعد المرور بمدينة سراي، من أكبر المحطّات التّجارية على طريق الشّرق الأقصى، كان الجار يقصدون مدينة سراي جوق**Saraïtcuk**- سَرَاقنقُو و**Saraconco** حاليًا-، من المحطات التي مرّض بها ابن بطوطة حتى أنه أورد قسم من المعنى الحقيقي للتسمية التركية للمدينة فهي "سراجوق" وجوق بضم الميم المعقود واو وقاف، ومعنى جوق صغير

1- Heyd. W.: op.cit, T. 2, P. 227.

2- ابن بطوطة: المصدر السابق، مج. 176، ص. ص. 448- 449.

3- Heyd .W.: op.cit, T. 2, P. 227.

فكأنهم قالوا سرا الصغيرة وهي تقع على شاطئ نهر كبير يعرف بـ "أَلُوْ صو" بضم الهمزة واللام وواو مدّ وضم الصاد باللغة التركية ومعناها الماء الكبير. وقد استغرق سفره من سراي إلى سراي جوق مدّة عشرة أيّام.ويبدو أنّ في هذه المدينة تنتهي مهمة العربات المغلقة التي تجرها الدواب حيث ذكر ابن بطوطة أنه اضطر إلى بيع ما كان معه من الخيل بمبالغ زهيدة لا تتجاوز أربعة دنانير للفرس، ويتم استبدالها باستئجار الجمال لجر العربات لقطع المرحلة الموالية من السّفر [1].

يفضّل التّجار في تنقلهم بأمتعتهم بين مدينتي سراي **Saraï** نحو سراي جوق،الطّريق المائي اقتصادا في المصاريف وثمة مسلكين الأول ملاحته نهرية وذلك باستخدام الطريق النّهري فولغا وصولًا إلى مصبّه، والثّاني الملاحة البحرية باستخدام الساحل الشمالي لبحر قزوين. فضلًا على أهميتها التجارية كانت مدينة سراي جوق الواقعة بالقرب من مصب نهر الأورال- **Oural** مكان إقامة خان القبجاق أو القبيلة الذهبية من وقت لآخر، وهو ما يدل عليه تسميته التركية بالقصر الصّغير **Saraïtchik**. كما استخدم غالبًا للدلالة على مدافن الخوانين، وكان به ورشات خاصة بالعملة[2].

عند مغادرة القوافل التّجارية مدينة سراي جوق، يقطعون صحراء قاحلة تمتدّ حدودها بين بحر قزوين إلى بحر الأرال، تنعدم فيها أسباب الحياة من أكل أو شرب، فتزود الجمال بكل ما يلزمها لذلك[3] من أجل ذلك كانت القوافل تسرع في اجتيازها الصحراء، في مدة

[1]- ابن بطوطة: المصدر السابق، مج. 177، ص. 1.

[2]- Heyd W.: op.cit., T. 2, P. 229.

[3]- Heyd W.: op.cit., T. 2, P. 230.

ثلاثين يومًا لا تتوقف إلاّ مدة ساعتين "إحداهما عند الضحى، والأخرى عند المغرب، وذلك قدر ما يطبخون" ويتناولون وجباتهم، والجميع ينام أو يأكل في عربته في حال سيرها[1].

وعلى هذا النّحو تنطلق القوافل التّجارية من سراي جوق، القريبة من بحر قزوين باتّجاه الشرق، وهدفها إمّا أحد روافد الأموداريا، أو السيرى داريا فحين يسافر التّجار دون أمتعة يختارون إجتياز الخط المستقيم الطّويل، شمال بحر الأرال من سراي جوق إلى مدينة أُترار **Otrar**ويصلونها بعد خمسين يومًا، أما عندما يكون محملين بأمتعتهم وبضائعهم، يقصدون مدينة أورغنج "**Ourgendj**" وهي من أكبر أسواق إقليم خوارزم، وتقع على أحد الروافد الثانوية لنهر أموداريا، وفيها يصرف التجار بضائعهم محققين أرباحًا طائلة[2].

وتجدر الإشارة إلى أنّ أورغنج من المدن التي زارها ابن بطوطة فيما واء النّهر، ذكر أنّها أورجنج وتعرف أيضا بجورجانية وهي عاصمة خوازرم الأولى، وبُهر بها وبرخائها، ووصفها بأنها من أكبر مدن الترك، وأعظمها وأجملها "لها أسواق مليحة والشوارع الفسيحة والعمارة الكثيرة، وهي ترتج بسكانها لكثرتهم وتموج بهم موج البحر"[3]. وفي نفس السّياق ذكر أبو الفدا، أنّ قصبة إقليم خوارزم كانت تسمى بالخوارزمية، وهو إقليم يتوسط بين خرسان، وإقليم ماوراء النهر يقع على آخر نهر جيحون، وأن مدينته العظمى هي "كركنج" وتسمى بالعربية الجرجانية[4] وذكر ابن حوقل النّصبي أنّ الجرجَانية من أكبر مدن إقليم خوارزم وهي

---

1 – ابن بطوطة: المصدر السابق، مج. 177، ص. 2.

2– Yule H.: op.cit., T. 3, P. 147.

3– ابن بطوطة: المصدر السابق، مج. 177، ص. 3.

4– أبو الفدا الحموي: كتاب تقويم البلدان، تحقيق: ج. ت. رينو وماك كوكين دي سلان، ضمن: سلسلة الجغرافيا الإسلامية، مج.13، إصدار فؤاد سزكين، معهد تاريخ العلوم العربية والإسلامية، فرانكفورت، 1992، ص. 478.

متجر الأتراك الغزية ومنها تخرج القوافل إلى جرجان وبلاد الخزر، فالخوارزمية هي عاصمة خوارزم، إلّا أنها عرفت تسميات محلية أورغنج أو "كركنج" وعربية "جورجانية"[1].

وبعد أن يتصرّف التّجار في بضائعهم، يتجهون إلى مدينة "أُترار" والتي كانت تعرف في القديم بفاراب الواقعة شمال سيرداريا، وغالبًا ما تذكر مقرونة بالمدن المجاورة لها "إنغي" طَرَازْ (أوليا أطا) فكانت هذه المواقع مَحَطات أساسية للقوافل التجارية والمسافرين، والجدير بالإشارة إليه أنه نظرًا لأهميتها التجارية كانت من أكبر الأسباب التي أدت إلى نشوب الحرب بين جنكيز خان ومحمد سلطان خوارزم، وكانت نقطة بداية الفتوحات الغربية لجنكيزخان كما مرّ بنا[2] وأصبحت في العهد المغولي تقع على الحدود بين الخانية الذّهبية غربًا وخانية خغطاي شرقًا.

ثمّ تستأنف القوافل التّجارية طريقها من أترار إلى أماليغ **Almaligh**[3]. وهي مدينة تقع في منطقة حضريَة في حوض يصب فيه نهر الإيلي **L'Ili** تقطع المسافة بينهما في مدّة أربعة عشرة يومًا، و"ألماليغ" من أهمّ عواصم الإمبراطورية المغولية، حيث أصبحت عاصمة

1- أبي القاسم ابن حوقل، النصبي: كتاب صورة الأرض، تحقيق: ي. هـ. كرامس، الطّبعة الثانية، ضمن: الجغرافيا الإسلامية، إصدار: فؤاد سزكين، معهد تاريخ العلوم العربية والإسلامية، جامعة فرانكفورت، 1992، مج. 35، ص. ص. 477-478.

2- Heyd. W.: op.cit., T. 2, P. 234; Yule H.: op.cit., T. 3, P. 147.

3- هي ألماليك، ذكرتها المصادر الإسلامية وتعرف في الصينية بـ "أليمالي" Alimali، وفي المصادر اللاتينية أرماليك Armalec، وكانت هذه المدينة هي عاصمة أسرة جغطاي، وكانت قبل ذلك عاصمة لإمارة تركية، وحسب المصادر فإنّ أصل تسمية أَلْمالِيغ تركي وتعني "أحراش شجر التفاح"، للمزيد يراجع: Bretschneider: op.cit., T.2, P. 38; Yule H.: op.cit., T. 3, PP. 87-88.

حكم جغطاي **Djaghatai**ابن جنكيزخان من حيث الأهمية التّجارية تعتبر هذه المدينة حلقة وصل بين آسيا الغربية والشّرق الأقصى، وكانت ملتقى التّجار الأوروبيين في هذه الفترة(1).

عندما يغادر تجار مدينة ألماليغ يتّجهون نحو الشّمال متّبعين الطريق الواصل بين الصّين ومناطق غرب آسيا، يقطعونها جبال طالقي **Talki**أو بوروخورو **Borokhoro**، حيث باب الحديد **La porte de fer**وفي أعالي هذه السّلسلة الجبلية يمرّون ببحيرة الحليب **Soutkol**، ثمّ ينحرفون نحو الجنوب حيث مدينة بيش باليغ **Bichbaligh**وهي أورمتسي **Ouroumtsi**، وإذا كان التّجار يقصدون عاصمة المُغول الأولى قراقورم ومنها إلى الصّين فإنّهم يسلكون الطّريق الشّمالي، مارّين بقارة خوجة **Kara Khoja** وتعتبرها المصادر المشرقية – عند رشيد الدين والرّحالة الصيني سي يوكي **Si-Yu-Ki** (1221-1224م)، من أراضي الهوي هو **Hui-Ho** المسلمين الأيغور، وبها مزارع الكروم الواسعة، وتبعد عن مدينة باش باليغ **Besbaligh**مسافة 500 لي **(Li)** في ما وراء جبال تيان شان، وكانت تحت حكم الأسرة القاراخطانية حين استولى عليها جنكيزخان، وعرفت في عهد حكم المغولي تحت تسمية صينية هيو شو **Huo-Chou** أي "المدينة البعيدة"، وتعرف اليوم بقارة غودشا **Karagudsna**الواقعة أربعين فرسخًا جنوب طورفان **Turfan**(2)، ثمّ نواصل الطّريق عبر واحة كاميل **Camil** أوكامول **Kamul**عند ماركوبولو – وهي هامي **Hami**حاليا– ومنها يدخلون صحراء قوبي التي تعتبر حدودها الشّرقية بداية الأراضي الصّينية(3).

1- Heyd. W.: op.cit., T. 2, P. 235.

2- Bretschneider: op.cit., T. 1, P. 65; T. 2, P. 31.

3- Yule. H.: op.cit., T. 3, P. 148; Heyd. W.: op.cit., T. 2, P. 236 (أنظر الملحق رقم:4،2).

حسب ماركو بولو الذي مرّ بها الطرّيق الصّحراوي الصّعب سجّل أنّه أثناء قطع القوافل التّجارية لهذه المناطق الخطيرة، وحرصًا على أن تبقى القافلة مرتبطة، تُزوَّدُ الدّواب بأجراس تُعلّق في رقابها، سواء كانت من الخيل أو غيرها، فتصدر بذلك أصواتا تمنع المسافرين من النّوم والشّرود في الصّحراء، وبعد أن تقطعها تصل إلى غرب إقليم قانصو **Kansou** حيث تتواجد مدينة "ساسيو" «**Saciu**» وهي مدينة توان هوانغ **TouanHouang** الشّهيرة منذ القرن التاسع عشر للمخطوطات المكتشفة هناك، وهي أوّل محطّات التجارية بعد الخروج من صحراء قوبي **Gobi**.[1]

والحاصل أنّه منذ أن تأسّست الإمبراطورية المغولية بداية القرن الثالث عشر الميلادي، أصبحت هذه الطّريق – الشّمالية لألماليغ- مسلكًا لكلّ التّجار والمسافرين القاصدين للشّرق الأقصى، سواء التّجار المسلمين أو السّفراء، ولم يعلم بها الأوروبيون إلاّ بعد أن أصبح لهم مباسط في مدينة تانة **Tana**[2].

أمّا عن المدّة الزّمنية، التي تستغرقها الرّحلة عبر الطّريق التّجاري البرّي الأسيوي، فإنّ المسافة التي بين مدينة "تانة" في بلاد القرم، وبلاد الصين تقطع في مدّة خمس إلى ستة أشهر، وهذا حسب تقدير الرّاهب الفرنسسكاني جان دي مونتي كورفينو **Jean de Monte Corvino**الإرسالي البابوي، ويمكن أن تكون أكثر من ستّة أشهر، أمّا عن التّكلفة المادية للسّفر، فحسب معطيات التّاجر بيقولوتي الفلورنسي **Francis Balducci Pegolotti**، 1305

1- Marco Polo : op.cit., PP. 66-67 .

2- Heyd .W.: op.cit., T. 2, PP. 238, 424.

فإنّ العربة الواحدة تُكلّفُ التّاجر ما قيمتُهُ خمسة وعشرون قطعة ذهبية وهي تشمل مصاريف النّقل والأكل وأجرة الخدم وهو ما يعادل حسب هايد 3000 إلى 4800 فرنك فرنسي[1].

سادساً- نماذج عن السفارات اللاّتنية لدى المغول:

1-سفارة الرّاهب جان دي بلان كاربان Jean de Plan Carpin 1246-1247م:

والملاحظ أنّ التنظيم الكنسي الخيري الأكثر تأثيرًا ونشاطًا في شرق آسيا هو تنظيم الأخوية الفرنسسكانية، ويبدو ذلك واضحًا من خلال نصوص رحلاتهم الوصفية الخبرية عن المنطقة، وكانت تقاريرهم للبابوية حول ما شهدوه وعلموهُ عن البلاد الشّرقية وأهلها، أوّل ما وصل إلى الغرب اللاّتيني في هذا المجال، ويَندرِجُ ما دوّنَهُ الرّاهب "كاربان" في صدارة هذه التّقارير حيث نقل صورة حيّة عن أوضاع شرق آسيا في العهد المغولي. وعن شكل الحياة الاجتماعية والسّياسية فيها، ونقل إلى اللاّتين صورة عن دولة متحضّرة تعرف بخطايْ/كتاي**Kitai/ Cathay**[2]. والجدير بالإشارة إليه أنّ الرّاهب الإيطالي بلان كاربان

1- Yule H.: op.cit., T. 3, P. 49; Heyd W.: op.cit., T. 2, P. 243.

2- كِتايْ/ خِطا/ كي/ تان= Kitai/ Khitai/ K'I-Tan هي صيغ لمسمّى واحد، فقد ظهرت هذه التّسمية تحت صيغ وأشكال مختلفة في المصادر اللاّتينية؛ كَتاي، كِتايْ، وفي المصادر الإسلامية "خِطَا" **Cathay- Kathay**. ويبدو أنّ الصّيغة الصّحيحة هي **Kitai** الواردة في كلّ نصوص الرّحلات ولدى صنّاع الخرائط «**Les Cartographe**»، وتسمية كِتَايْ يقابلها في اللّغة التركية كويتاي **Qïtay** ومنها انتقلت الصّيغة إلى الإغريقية والرّوسية، وأصل هذه التّسمية هي مملكة أُنشئت في شمال الصّين على يد مجموعة من القبائل عُرِفَت بـ"خِطَا" القادمة من جنوب منشوريا، أشارت إليهم المصادر الصّينية منذ القرن الرّابع الميلادي، وهم نتيجة امتزاج العنصرين التونغوسي والمُغُولي، وَفي القرن العاشر الميلادي برز زعيم الخِطا المعروف باسم يي- لو أَبَاوكي **Ye-Lü-Apaoki** وفرضسيادته على جزء كبير من منغوليا، وفي عام 916م نفسهُ إمبراطورًا، واتّخذ لهُ لقب صيني وهو تاي تسو **T'ai-Tsu**، ثمّ خلفهُ ابنهُ "تاي تسونغ" **T'ai-Tsung**، 927-

كان تلميذا للقدّيس فرانسوا **Saint François** مؤسّس النّظام الفرنسسكاني الأخوي، ويُنسب إلى قرية في نواحي بيروجيا، وقد بدأ رحليتهُ كسفير للبابا برفقة الأخ البندكتي ستيفن البوهيمي الذي لم يكمل معهُ الرّحلة[1].

انطلق الرّاهب بلان كاربان من ليون **Lyon**في 16 أفريل 1245، وقطع أوروبا فعبر ألمانيا وبوهيميا، بولونيا ثمّ اتّجه نحو كييف **Kiev**مستغرقًا مدّة عشرة أشهر، ولم يترك مدينة كييف إلاّ في حدود 3 فبراير، وبعد المسير مدّة عشرين يومًا، التقى "كاربان" لأوّل مرّة بالمُغول، وأخبرهم شفويًا عن مُهمّته، ولخص لهم رسالة البابا[2]، وقاموا بمرافقته إلى نهر الڤولقا حيث كانت تحت سلطة باتوخان **Batu-Khan**أحد أحفاد جنكيزخان، وفي 6 أفريل كانت قد تمّت ترجمة رسائل البابوية لباتوخان إلى أربعة لغات، الرّوسية، العربية أو فارسية-

---

947، فتح قسم من شمال الصّين وأعطى لأميرته لقب "ليَاوْ" **Dynasty of Liao** أشارت إليهم المصادر الصّينية "تسي ليَاوْ" **Si Liao** = ليَاوْ الغربيين، وعرفوا في المصادر المغولية والتركية بـ قارة خطاي **Kara Khita** دام حكمهم نحو قرنين 916- 1125، وشمل شمال الصّين من بكين إلى الشانسي Chansi، وألحقوا بها منشوريا ومنغوليا، وفي بداية القرن الثاني عشر تمرّد عليهم أغودا **A-gu-da** زعيم قبيلة نوشي**Nü-chi** وحقّق انتصارات على حسابهم وفي عام 1115 أعلن نفسهُ إمبراطور، وعلى غرار التّقاليد الصّينية أعطى أسرتهُ الحاكمة لقب كين «**Kin**» (الذهب)، واصل خليفتهُ فتوحاتهِ على حساب القاراخطائيين بضمّه منشوريا ومنغوليا وشمال الصّين 1125م، وبقي مُلكهم قائمًا إلى أن جاء المغول وقضوا على سلطتهم عام 1234م، والمعروف أنّ الكين أو نوشي هم أسلاف "الماندشو"، للمزيد يراجع: Bretschneider.E : op.cit, T. 1, PP. 156, 208-210, 224.

1- Yule H.: op.cit., T. 1, P. 156

2- وحول فحوى مهمّته، ذكر جان دي بلان كاربان أنّهُ أخبر أوّل المغول الذين صادفهم وكانوا المسؤولين عن البريد، أنّ البابا قد أرسلهُ إلى خان المغول وإلى الشّعب المغولي برسالة مفادها إقامة علاقة سلم وصداقة بين المغول والمسيحيين، ويدعوهم فيها إلى المسيحية لأنّها خلاصهم الوحيد، وأنّ البابا متعجب من الدّمار والخسائر التي حلّت بالمسيحيين في هنغاريا وبولونيا بالرّغم من أنّهم لم يتعرّضوا لهم بالأذى وطلب منه تفسيرًا لذلك، كما طلب ردًّا على رسالته. للمزيد يراجع: Karpin Jean de Plan : op.cit., P. 106.

ومُغولية، وبعد أن عاين الرّسالة، قام بإرسال السّفير إلى بلاط الخان الأعظم منغوليا. وصل الرَّاهب كاربان في 22 جويلية 1246 إلى المخيّم الإمبراطوري في سيرا أوردو، الواقع مسافة مسيرة نصف يوم من العاصمة قاره قورام **Kara Korum**، ومكث هناك حتى 13 نوفمبر، وحضر خلالها مراسيم تتويج غويوك **Güyük**خانًا على المُغول في 21 أوت 1246[1].

وكان باتوخان قد أرسل إلى خان المغول الجديد ترجمة لرسالة البابا مع المعلومات الشّفوية التي صرَّحَ بها الرّاهب كاربا، وبعد مكوث هذا الأخير مدّة في منغوليا سُلّمَ رسالة كويوك خان ردًّا على رسالة البابا باللّغة المُغولية قام بترجمتها وزراءُه الثلاث كلمة كلمة، للرّاهب "كاربان" الذي أعاد كتابتها باللّغة اللاّتينية، وحسب روايته كتبت بلغة المسلمين، [2] وهو ما يعني أنّها كتبت إمّا باللّغة العربية أو فارسية بحروف عربية، ثمّ في 11 نوفمبر قام "كاربان" بترجمة الرّسالة إلى اللاّتينية[3].

والحاصل أنّ الرّاهب الفرنسسكاني "كاربان" عاد إلى أوروبا حيث وصل مدينة ليون الفرنسية في نوفمبر 1247م، حاملاً رسالة[4] الخان ڤويوك **Güyük**إلى البابا إنوسنت الرّابع،

1- Pelliot Paul: «Les Mongols et la Papauté», dans: **Revue de l'Orient Chrétien**, rédigé par: R. Graffin, 3em série, Tome 3, Vol. 23, 1922-1923, P. 9-10.

2- Karpin. J..P.: op.cit., PP. 125-126.

3- Pelliot. P.: op .cit., P. 11.

4- لم يُدرج كاربان رسالة الخان المغولي في نسختها اللاّتينية ضمن كتابه "تاريخ المغول" L'historia Mongolorum ولم تنشر النّسختين المكتوبتين باللّغتين اللاتينية والعربية إلى غاية عام 1838-1839م، وذلك عندما نشر أَڤِزاك «Avezac» نص الرّسالة التي كتبها بلان كاربان باللّغة اللاّتينية والتي وجدها في مجموعة مخطوطات كُولبَر «Colbert»، ثمّ تبيّن أنّ النّص المنشور لم يكن كاملاً، فاستأنف نشرهُ كاملا في 1913، بالاعتماد على النّسخة اللاتينية في فيينا Vienne، ولكن أحسن نسخة لاتينية للرّسالة نُشِر ڤولوبوڤِيڤش Golubovitch عام 1906 وهي التي ساعدت العالم بيليو Pelliot على فهم النّسخة المغولية باللّغة "العربية" – الرسالة بحروف عربية ولكنّها باللّغة الفارسية- وعليها

وبالرّغم من فشل الرّاهب كاربان في مهمّته وهو ما يدلّ عليه ردّ"ڤويوك خان" حيث رفض الدّخول في المسيحية والتّبعية للبابا، بل على العكس دعا كلّ المسيحيين إلى الدّخول في طاعته أو مواجهة المصير المعروف لدى كلّ من يخالف إرادة خان المغول، إلاّ أنّهُ فتحَ لأوّل مرّة الباب أمام السّفراء والتّجار اللاّتين من خلال تدوينه لوصف للمسالك والمحطّات الآسيوية، عبر روسيا الوسطى وَجنوب كييف وقزوين، واصفا خيرات الأقاليم، فهي ***"بلاد غنيّة جدًّا بإنتاجها للقمح، والذّهب والخمر وكلّ ما تحتاجه الطّبيعة البشرية"*** [1].

وأضاف أن فيها حرفيون مهرة في كافة المجالات وقد عمل المغول على نقل أمهر الحرفيين المسلمين إلى عواصم ملكهم وكُلِّفوا بإنجاز أعمال متنوّعة ومنشآت مختلفة، أمّا باقي الحرفيين الآخرين فكُلّفوا بدفع ضرائب للخان سنويّا تكون على شكل منجزات خاصة بهم[2].

و كان اندهاش "كاربان" كبير حين دخل الخيمة الإمبراطورية محلَّ الخان المغولي والتي تعرف عندهم بالخيمة الذّهبية **«La orda d'or»**، وأحسن في وصفِ الخيمة الكبيرة المصنوعة من اللبّاد الأبيض، المكدسة بهدايا المبعوثين وحكّام المناطق، من أقمشة حريرية متنوّعة، وملوّنة، أرجوانية، وأحزمة حريرية مطرّزة بخيوط ذهبية وفِراء كلّها رائعة المنظر تسرّ

الختم الإمبراطوري المغولي، الرسالة مؤرّخة بالتاريخ الهجري (آخر يوم من جمادى الثاني 644هـ الموافق لـ 3-11- نوفمبر 1246م، الموجودة في "أرشيفيو دي كاستيلو" Archivio de Castello التّابع لأرشيف الفاتيكان، وقد استعان بيليو Pelliot في ترجمتها بالأساتذة هوارت م. M.M.d. Huart، وميرْزا محمد Mirza Muhammad ونشرها في دورية "المشرق المسيحي"«Revue de L'Orient Chrétien»،في الصفحات 17-18، عام 1923. للمزيد يراجع Pelliot.P.: Les Mongoles et la Papauté, in:**R. O.CH**., Vol. 23, PP. 14, 15, 16:

1- Karpin J.P.: op.cit., P. 58.

2- Ibid, P. 89.

النّاظرين، حتى مظلّة الخان، رُصّعتْ بالأحجار الكريمة، وفي يوم تتويج الخان قدّم المهنّئون من حكام تابعين له وعمّال، عربات قد يصلُ عددها خمسمائة عربة محمّلة بالذّهب والفضّة وثياب من حرير، هذا إلى جانب قوافل تحمل بضائع ثمينة.

2-سفارة وليم دير ويروك *Guilliaume De Rebraouck*:

بعد أن وصل صيت المغول إلى أوروبا، وسيطروا على آسية لم يغفل ملك فرنسا لويس التّاسع عن أهمية ربط العلاقات مع المُغول، فأرسل سفارات إلى المُغول[1]، وكان الرّاهب وليم دير وبروك **Guilliaume De Rebraouck** (ولد حوالي 1215)، من قرية روبروك **Rebraouck** من قرى فلاندر **Flandres**الفرنسية القريبة من كاسيل **Cassel**على رأس إحدى سفاراته.انتمى وليم للتّنظيم الكنسي الفرنسسكاني وكان من الجيل الثاني ويعتبر من المتحمّسين لهُ، والفرنسسكان المثاليين، كما كان صديقًا مقرّبًا من الملك الفرنسي لويس التّاسع، ويُرجّحُ أن يكون قد شارك في حملة لويس الفاشلة على مصر عام 1248 وواجه نفس مصيره، فبلغ مَعَهُ عكا في 1250م. كُلِّفَ الرّاهب روبروك بصفة شخصية من الملك الفرنسي، فجاءت مُدونةُ سفرِهِ على شكل رسالة مطوّلة، احتلّت 169 صفحة، موجّهة إلى لويس التاسع، ويمكن وصف المهمة التي كُلّفَ بها بالخاصّة، فهي لا تُشبِهُ من سبقهُ من رجال الدّين من حيث أنّها ليست "دينية" بحتة كما هي الحال في سفارة بلان كاربان، وإنّما إلى جانب مهمّة المعاينة والمراقبة الدّقيقة للأحوال العسكرية والسّياسية، كُلِّفَ روبروك بإقامة اتّصالات

[1]- قبل أن يرسل الملك الفرنسي لويس التاسع وليم روبروك إلى المغول، أرسل راهبًا يعرف بأندر يدي لونجومال André de Lonjumel عام 1249م، وعاد من بلاد المغول مُحمّلاً برسالة إلى ملك فرنسا، نشرها المستشرق الفرنسي أبيل ريموزا، للمزيد يراجع: Abel Rémusat M.: Mémoires sur les relations politiques des PrincesChrétiens, et particulièrement des Rois de France avec les Empereurs Mongols, Imprimerie Royale, 1824, P. 166.

بالزّعماء المغول،بسارطاق خان **Sartaq Khan** زعيم المغول في روسيا الوسطى، ثمّ بباتوخان **Batou Khan**، ثمّ مانڤو الخان الأعظم **Mangu Khan** في قارا قورام.[1]

وأمام فشل مهمّة بلان كاربان في تمسيح الخان المغولي، لم تُصبحْ الحجّة الدّينية ناجحة وتضاعفت شكوك المغول حِيَال هؤلاء السّفراء القادمين من الغرب وطبيعة مهامهم، ومهما يكن من أمر فإنّ روبروك كان يتمتّع بذكاء الرّجل الديبلوماسي، وبقدر كبير من الحنكة السّياسية. وبعين فاحصة تصف كلّ ما تراهُ حولَها من شكل الحياة الاجتماعية لدى المغول وثقافتهم وجغرافية المنطقة واقتصادها فهو مؤرّخ وإثنوغرافي وجغرافي في ذات الوقت، حتى أنّه شُبّهَ بالمؤرّخ الإغريقي هيرودوت[2]، ويصف آسيا الوسطى والشّرقية وضفًا دقيقًا، مستغرقة رحلتهُ عامين من الزّمن، قطع فيها مسافة عشرة آلاف ميل إنجليزي، ما يساوي ستة عشرة ألف كيلومتر، واحتوت رحلته ما يهمّ جانب النّشاط التّجاري في آسيا الوسطى.

والحاصل أنّ وليم الروبروكي مَرَّ بمحطّة مدينة صُولدايا **Soldaia**– هي صوداق ببلاد القرم حاليا **Soudak**– في جوان 1253، وذكر أنّها هي باب "تركستان"، يقصد بها آسيا الوسطى، ومنطلق القوافل التجارية، حيث يلتقي فيها التّجار القادمون من الغرب نحو الشّرق، في مقدّمتهم التّجار الرُّوس وغيرهم من القادمين من البلاد الشّمالية، وهؤلاء يجلبون معهم – حسب روبروك– أنواعا كثيرة من فراء السّناجب، وأشهرها الفراء الغريسيوس **–Grisius–**

1- Rubrouck .G.: op.cit., PP. 21, 22

2- Rubrouck .G.: op.cit., PP. 24, 30

الرّمادي الصّغير الحجم، وأنواع أخرى نفيسة، أمّا عن التّجار القادمين من الشّرق فيجلِبونَ معهُم الأقمشة القطنية، والحريرية والتّوابل المتنوّعة[1].

فحسب روبروك انتعشت شبه جزيرة القرم «**Crime**»، ومدينتها صولدايا في العصر الوسيط، وأصبحت من أهمّ وأشهر المدن التّجارية نظرًا لموقعها الاستراتيجي المُطلّ وقربِها من الطّريق التّجاري الكبير في آسيا الوسطى، التي أصبحت تعدّ أكبر بوابة فهي مبسط تجاري، بأسواقها ومخازنها، وأصبحت القوافل التّجارية القاصدة للشّرق الأقصى تُجَهَّزُ من هناك، ففيها يشتري التّجار العربات لنقل بضائعهم وهي على نوعين؛ المغطّاة وغير المغطّاة، ويعتبر النّوع الأوّل هو الأكثر طلبًا من التّجار، ويُنصحُ به، وعادة ما يستقلّهُ التجار الرّوس، ونصح وليم روبروك بأن تُحمل الأمتعة فيها لأنّها حافظة لها أكثر، ولأنّ هذه العربات ذات الأحصنة – تعفي أصحابها من إنزال الأمتعة وشحنها كلّ يوم وعند كلّ مرحلة من مراحل السّفر[2].

فيتّضح من ملاحظات روبروك أنّ مهمّتهُ كانت ذات اهتمام اقتصادي وسياسي بالدّرجة الأولى وشكل صياغة معلوماتية إستخباراتية، ومن أمثلة ذلك، ما أشار به عند وصوله إلى المنطقة التي كانت ضمن هيمنة باتوخان، من مكانة المسلمين ودورهم في تنشيط التّجارة في شمال بلاد البلغار – مُدُن الفولڤا- **Volga**- فاستغرب كيف وصل المسلمون واستقرّوا في هذه البلاد البعيدة الشّمالية وأنّهم يعيشون جنبًا إلى جنب مع الرّوس ضمن ما سمّاه "ببلغاريا الكبرى"، ويطبّقون الشّريعة الإسلامية بينهم، ويتواجدون في المدن الواقعة شمال عاصمة باتوخان بولغار= بوليار- التي كانت تقع بالقرب من مدينة قازان **Kazan**الحالية- مسيرة

1- Rubrouck. G.: op.cit.,, P. 84

2- Rubrouck G.: op.cit., P. 87

خمسة أيّام، وتساءل متعجّبا: "**أتساءل من الشيطان الذي استطاع أن ينقل شريعة مُحمّد إلى هذه البلاد**"[1]، وفي استفهامه كما هو ملموس الكثير من السّخط والاستنكار لوصول وانتشار الإسلام في جنوب روسيا وفي المدن الواقعة على نهر الفولڤا، خاصّة وأنّهُ كان الصِّدام الصّليبي الإسلامي في بلاد الشّام لا يزال محتدمًا، وروبروك يمثّل تابعا أحد أشهر ملوك أوروبا الصّليبيين المشاركين في الحروب ضدّ المسلمين في بلاد الشّام.

وردًّا عن تساؤلات الرّاهب وليم الربوركي، فإنّ الدّارسين من أمثال كابلر روني وكلود **Claude et Réné Kappler** وهايد **Heyd**،يرجعون الفضلفي انتشار الإسلام في أعالي الفولڤا الى التّجار والحرفيين المسلمين الذين نشطوا بأعداد كبيرة في هذه المنطقة، وأغلبهم استقرّ هناك، وهُوَ ما تشير إليه العملات التي عثر عليها في روسيا في بلاد السّويد، فأكثر من ثُلُثَيْ $^{2}/_{3}$من العملات المُكتشفة هناك تعُود إلى عهد الدّولة السّامانية التي حكمت آسيا الوسطى في الرّبع الأخير من القرن التّاسع إلى نهاية القرن العاشر الميلادي، حيث يُشار فيها إلى أكبر مُدُن تركستان وهي بخارى وسمرقند والشاش (طاشقند)، وبلخ وحتى من نيسابور بفارس، وهذا دليل على اتساع النّشاط التّجاري للتّجار المسلمين، ودوره في انتشار الإسلام هناك[2].

وكانت صورة الوضع الاقتصادي، وما تتمتّع به آسيا الوسطى، والشّرقية من ثروات باطنية حاضرة في تقرير الرّاهب روبروك، فخلال إشارته إلى مصير جماعة من فرسان التيوتون **LesTeutons**الذين يبدو أنّهم وقعوا في أسر المغول، وأصبحوا عبيدا لهم، ذكر الرّاهب الفرنسسكاني أنّه تعذّر عليه لقاؤهم، ولكنّه استخبر وعلم أنّهم محجوزون في إحدى

1- Rubrouck G:, PP. 128-129 op.cit

2- Heyd W.: op.cit, T. 1, P. 59 ; Rebrouck G.: op.cit., P. 129.

مدن نهر طلاس **Talas** وتعرف بمدينة بولات **Bolat** وفيها يستخرج المغول الذّهب، كما تتواجد بها مصانع أسلحتهم، والملاحظ أنّ في المنطقة المذكورة تتواجد جنوب سيرام- نو **Sairam-nor** بحيرة يستخرج منها الذّهب[1].

وباعتبار أنّ الصّين كانت جزءًا من الإمبراطورية المغولية، وهدفًا للسّفارات اللاّتينية ثمّ التّجار اللاّتين لما تمثّلُهُ من قوّة اقتصادية ولثرائها القديم، تعرّض روبروك إلى ذكر مقوّماتها الاقتصادية المعروفة لدى الغرب اللاّتين منذ القديم، حسب روبروك، فهي كانت تعرف عندهم ببلاد السِيرْ **Pays des Sères** والآن هي كَتَايْ **Catay/ Cataia**، وهي البلد التي يجلب منها الحرير وينسب إليها «**La Soie**» وأهلها حرفيون ممتازون في كلّ المهن، وأطّباؤهم ذوو علم واسع في الأعشاب، ويقومون بأحسن وأنجح تشخيص للأمراض، عن طريق معاينة نبضات القلب، كما يوجد في مدينة قراقورام عاصمة المغول في آسيا الوسطى، أطبّاء كثيرون ولديهم تقليد لا يخرجون عنهُ هو توارُث مهنة الطّب، فينقلها الأب لكلّ أبنائه، وهو السّبب وراء دفعهم ضرائب عالية، وحسب روبروك فإنّهم يدفعون ألف وخمسمائة ياستوك **(Yastoq=Iastoc)** وهي عبارة عن سبيكة ذهبية من خموس بوصة، ويرى كابلير **Kappler**أنّ هذه القيمة مُبالغٌ فيها كثيرًا[2].

وحول كيفية التّبادل التّجاري في كتاي شمال الصين، ذكر روبروك أنّهم يتعاملون بعملة ورقية خاصة، بحجم كفّ اليد طولا وعرضًا، وقد طُبِعَ عليها ختم مانغوخان، و"يكتب عليها بمرقاش رموز تكون كلمة واحدة"[3]. تمكّن روبروك في هذه الفترة من إعطاء الوصف الدّقيق

1- Rebrouck G.: op.cit., P. 140.

2- Rubrouck G.: op.cit., PP. 150-151.

3- Rubrouck G.: op.cit., P. 185

لأسلوب وطبيعة حروف الكتابة الصّينية والتي وصفها المعاصرون بالأسلوب الرّمزي **Le style figuratif**، وعلى هذا النّحو لم تخلو إشارات روبورك الرّاهب الفرنسسكاني مبعوث الملك الفرنسي لويس التاسع من معلومات اقتصادية بحتة تشجّع كلّ التّجار اللاّتين لقطع دروب آسيا والوصول إلى أسواقها وخيراتها.

3-سفارة الرّاهب جون أف منتكورفينو Jean of Montécorvino 1305:

لم تنقطع الإرساليات الكاثوليكية التّنصيرية من التّوافد على آسيا الوسطى والشّرقية، على الرّغم من فشل الرّهبان في مهامهم السّاعية إلى تمسيح خانات المغول وكسبهم كحليف عسكري ضدّ المسلمين وهو ما تبرهن عليه ردود خانات المغول التي حملها كلّ من جان دي بلان كاربان عام 1247م، والجواب الذي حملهُ روبروك وليم الرّاهب الفلمنكي للملك لويس التاسع عام 1253م، وقبله أندري لوجيمو **André de Lonjumeau** 1249 مبعوث الملك نفسهُ.

وقف هؤلاء الرّهبان الفرنسسكان على حقيقةٍ طالما أحْبَطَتْهُمْ وهي أنّ المسيحية كانت قد عرفت طريقها إلى القبائل التّركية والمغولية وفي مقدّمتهم الكراييت **Keraites** المستقرّين في تركستان الشّرقية على الحدود مع الصّين، وذلك بفضل مجهودات المسيحيين النساطرة القادمين من الفرات وبلاد فارس، حيث ذكرت النّصوص السريانية المتعلّقة بانتشار المسيحية بين بعض القبائل التّركية، أنّ خان قبيلة الكراييت اعتنق المسيحية على يد التّجار النساطرة، وعاين كلّ من كاربان وروبروك، المكانة الهامة التي شغلها النّساطرة في البلاط المغولي وشغلوا وظائف لدى المغول وكانوا منهم المقربين والمستشارين.كما دعَّمت زوجات وأمّهات

المسيحيات، مكانة النّساطرة المسيحيين، حيث كان للخاتون والدة مانغوخان وقابولاي خان وهولاكوخان دورًا في دعمهم[1].

وفي مستهلّ القرن الرّابع عشر كان الرّاهب الفرنسسكاني **Jean of Montecorvino**من أكثر الرُّهبان حماسة إلى النّشاط التّنصيري ومنافسة المسيحيين النّساطرة في شرق آسيا، رسائله التي أرسلها إلى البابوية في روما، المؤرّخة بعام 1305م، والثانية 1306م، والتي نشرها "يول" **Yulle H.** في الجزء الثالث، أنّه شرع في النّشاط المسيحي في الهند والصين قبيل عام 1303م. وكان قد سلك طريق سابقيه الرّهبان عبر شرق أوروبا نحو شمال البحر الأسود– بلاد القرم– ثمّ اتّجه نحو مدينة تبريز، المعروفة حينها بطوريس بوابة اللاّتين الرّهبان والتّجار نحو آسيا الوسطى والشّرقية، وانطلق منها عام 1291م، حسب روايته المفصّلة، نحو الهند، وتجوّل في مُدُنِها وقام هناك بتمسيح مئات من الهنود فأنشِئت فيها كنيسة القديس توماس الرسول **St. Tomas the Postle** وهذا خلال مدّة ثلاثين شهرًا قضاها في الهند[2].

وكسابقيه من الرّهبان البابويين، أرشد جون أوف منتكورفينو إلى الطّرق المؤدّية إلى الشّرق الأقصى وأحوالها ونصح بأحسنها، فهما الطّريق البرّي حيث يستوجب المرور عبر تانة Tanaثمّ "أراضي التّتار الشّماليين"، ويقصد بها جنوب روسيا– ثمّ مدينة "سراي" **Saray**، وهي طريق قصيرة وآمنة، اعتاد الرُّهبان سلوكها، مارّين على مدن آسيا الوسطى نحو العاصمة المغولية في الصّين خان باليق، أمّا المسلك الثّاني فهو الطّريق البحري وهو طويل يستغرقُ قطعُهُ ذهابا وإيّابًا مدّة عامين من الزّمن، من أجل ذلك يختار أغلب المسافرين الطّريق الأول، ولكن في نفس الوقت هذا الطّريق قد يغلق في وجه سالكيه لمدّة ثلاثة عشر

---

[1]- Barthold W.: op.cit., P. 101; Heyd W.: op.cit., T. 2, P. 66.

[2]- Yule. H.: op.cit., T. 3, P. 46.

عام، قبل تواجد الرّاهب ثمّ أعيد تنشيطهُ[1]. ويبدو أنّها الحرب التي قامت بين أبناء الخان الأعظم بي كايدو خان **By Kaidu Khan**حول حكم تركستان.

والحاصل أنّ الرّاهب مونت كورفينو قام بمجهودات كبيرة حين وصل إلى الصّين وذلك حتى ينشر المسيحية على المذهب الكاثوليكي، لاسيما وأنّ النّساطرة كانت لهم مكانة لدى المُغول حكّام آسيا الوسطى والصّين، وكان حماسُهُ كبيرًا، في تصحيح العقيدة المسيحية المنتشرة هناك، فبدأ بأن عرض اعتناق المسيحية على الخان الأعظم في خان باليق **Le» «Grand Khan** تيمور بن قبولاي خان (1294– 1307م) ويبدو أنّهُ رفض، فحسب الرّاهب "كان الخان قد تعمّق في الوثنية وعبادة الأصنام ونشأ فيها، لذلك لم تكن لهُ قابلية للمسيحية، ولكنّهُ بالرّغم من ذلك يُحابي المسيحيين ويُرحّبُ بكلّ ما يأتي من اللاّتين، ويُخصّصُ للمسيحيين أعطيات ومنح خصّصها لهم"[2].

ولقد مثّل النّساطرة المسيحيون أحد أكبرِ العراقيل التي واجهها الرّاهب الفرنسسكاني في أثناء تواجُدِهِ في المنطقة، حيث مكَّنهم قربهم من الخان وبحكم مكانتهم من محاربته بزرع الشّك لدى الخان، واتّهامه بالاحتيال والكذب، وأنّهُ لم يكن رسولاً من قبل البابا، ذلك لأنّ النّساطرة المسيحيين "لا يسمحون لمسيحيين ذوي طقوس ومذاهب مختلفة من نشر أيّ عقيدة مخالفة لعقيدتهم"، وبالرّغم من هذه المضايقات تمكّن الرّاهب جون دي مونت كورفينو من نشر الكاثوليكية بإنشاء كنائس ومعابد للفرانسسكان وترك تجمّعات كاثوليكية في الصّين، وفي هذا الصّدَد، يتحدّثُ دي مونت كورفينو "عن نشاطه وأعماله في الصّين، أوّل ما أشار إليه هو أنّ الخان اعتبرهُ كممثّل رسمي لبابا روما، فكان لهُ مكان خاص في بلاط الخان، وهبهُ

1- Yule. H.: op.cit., T. 3, P. 49.

2- Yule .H.: op.cit., T. 3, P. 46 ,47

راتب دائم وأضاف "فوق كلّ هذا أكرمني وشرّفني من بين كلّ الأحبار والأساقفة، وكان يتوق إلى سماع الكثير من أخبار البابا في روما وعن دول العالم اللاّتيني، ويُرحّب بوصول وُفود من هناك". وقام الرّاهب بإنشاء كنيسة في بكين، استغرقت عملية إنشائها ستّة أعوام، وعَمَّرَ فيها بُرجًا زوّدهُ بثلاث نواقيس، وقام بتمسيح أكثر من ستة آلاف شخص، ومائة وخمسين طفلاً لآباء وثنيين، أعمارهم بين سبعة وإحدى عشرة عامًا.[1]

كانت الكنيسة التي أنشأها الرّاهب جان وأصبح مُطران على أُسقفيّتها، واحدة ضمن منشآت متعدّدة تمّ إعمارها على قطعة أرض مجاورة للقصر الإمبراطوري في بكين[2]، وكما وصفها الرّاهب، تقع في نفس الشّارع الذي يضمّ قصر الخان الكبير وعلى مرمى حجر منهُ، وبوابتُهُ قبل بوابة قصر الخان، ومن جملة هذه المنشآت منازل للرّهبان والخدم ولكلّ اللاّتين الوافدين على العاصمة خان باليق، ومكاتب وعلى الأرجح أن تكون للتّجار، كما تتواجد هناك أفنية واسعة وكنيسة قادرة على استيعاب مائتي شخص وأخرى كبيرة، وفي هذا الموضع أشار الرّاهب الفرنسسكاني إلى الدّور الكبير الذي قام به أحد التّجار الإيطاليين المعروف ببطرس لوكولونغو **Peter of Lucolongo** الذي كان أساس لبناء هذا "المُجمَّع الكاثوليكي" في بكين حين ساهم بشراء قطعة الأرض بنفسهِ ووهبها للرّاهب حبًّا خالصًا في الله" – فهو حسب دي مونتيكورفينو– "التاجر المسيحي الكبير القوي الإيمان، ولقد كان رفيق رحلتي منذ أن انطلقنا معًا من مدينة طوريس (تبريز)"[3].

1- Yule .H.: op.cit., T. 3, PP. 46, 47, 57.

2- Heyd W.: op.cit., T. 2, P. 243

3- Yule H.: op.cit., T. 3, P. 56

فالتّاجر بطرس أوف لوكولونغو، هو تاجر إيطالي لا تعرفُ مدينتهُ الأصلية على وجهِ التّحديد، زار الصّين ومكث بها عشرين سنة على أقلّ تقدير، غادر طوريس في 1921، وكان لهُ نشاط في بلاد فارس، إلاّ أنّ هدفَهُ كان الوصول إلى الصّين، فوصل إلى الهند عن طريق هرمز برفقة الرّاهب الفرنسسكاني ومكث فيها ثلاثة عشرة شهرًا، لينتقل منها إلى الصّين، ونشَّطَ منها تجارتهُ واشترى الأرض المجاورة للقصر الإمبراطوري، ووهبها للكنيسة، فأحيطت بسُور وتمَّ تعميرها ورشات وأديرة وفندق للوافدين التّجار اللاّتين ومخازن ومحلات.[1]

ولم تخلُ تقارير الرّاهب دي مونت كورفينو التي أرسلها إلى بابا روما من معلومات ذات صلة بالبضائع الآسيوية، لاسيما الهندية منها، فأورد معلومات وافية حول التّوابل الموجودة بكثرة، ومتنوّعة حسب نكهاتها المختلفة، وعلى أساسها تختلفُ أسعارها، فمنها الغالي ومنها ما دون ذلك، وذكر في هذا السّياق استخراج الهنود للسّكر من القصب، وهناك أشجار أخرى يستخرج منها شراب بذوق الخمر، ودلهم على بلاد انتاج الفلفل في ساحل "بلاد ملابار **Malabar**وأشجار الزنجبيل، وأورد وصفًا للأشجار وكيف يمكن إعادة زراعة الزنجبيل لأنّه عبارة عن عروق من سيقان كثيرة.

ومن جملة المنتجات الهندية أشار "الرّاهب دي مونتكورفينو" إلى شجر وثمار جوز الهند، فذكر أنّ ثمار جوز الهند بحجم حبّة الشّمام ولونها أخضر، أمّا عن شجرتها فجذعها وأغصانها شبيهة بشجر التّمر، ويقصد به النّخيل، كما أشار إلى المنطقة التي تُجلبُ منها القرفة السيلانية وهو ما يُعرفُ لدى الجغرافيين المسلمين بـ "دار صيني" فشجرُها **Cinnamon Tree**موجود بكثرة في جزيرة سيلان المقابلة للسّاحل الهندي الجنوبي المعروف

---

[1]- Heyd W.: op.cit., T. 2, P. 219

بالمعبر **Maebar**، وهي مركز التّموين الكبير للقرفة. وتدلّ هذه المعلومات والوصف الدّقيق على سعة إطّلاع الرّاهب واهتمامِه الكبير بالجانب الاقتصادي، خاصة المزروعات التي تعتبر من أهمّ السّلع التي يطلبها الغرب، فعكف على جمع المعلومات ذات الصّلة والتي تستقطب التّجار على وجه الخصوص.[1]

وفي مثل هذه المواقع تظهر بوضوح العلاقة الوطيدة بين الإرساليات المسيحية والتّجار اللّاتين وفي مقدّمتهم الإيطاليون منهم، حيث فتح الرّهبان طريق آسيا وأسواقها للتّجار الذين قدَّمُوا دعمهم المادّي الواضح في سبيل نجاح النّشاط التّنصيري في آسيا ودوامِهِ هناك.

ولم تنقطع سفارات الرّهبان من قبل البابوية على كلّ مناطق آسيا من دومنيكان وفرنسسكان، ومنهم باسكال أوف فكتوريا **Pascal of Victoria**الفرنسسكاني في بلاد المغول عام 1338، الذي انطلق من مدينة أفنيون **Avignon**الفرنسية نحو البندقية، وعبر بحر الأدرياتيكي ليتّجه نحو بحر مرمرة والقسطنطينية، ومنها شمالاً إلى مدينة "تانة" على سواحل بحر الآزوف، وتأخذ رحلتهُ نفس مسار سابقيه من الرّهبان السّاعين إلى نشر الكاثوليكية بين أوساط شعوب آسيا الوسطى والصّين المُغولية، فمرَّ بمدينة سراي عاصمة خانية القبجاق الذهبية، ثمّ وصل إقليم خوارزم، ثمّ المماليك، نحو الصّين[2].

وكان حماس الرّهبان، والتّجار دور في تطوّر الحركة التّنصيرية في آسيا الوسطى والصين، وتجلى بوضوح ارتباط نشاط الطرفين في المنشآت من كنائس وأديرة أرفقت بفنادق خاصة بالتجار اللاّتين الذين تطول مدّة إقامتهم فيها، ومكاتب للوكلاء التّجاريين، في بكين

---

[1]- Yule H.: op.cit., T. 3, PP. 61, 62

[2]- Yule H.: op.cit., T. 3, PP. 81, 89

وفي مدينة زيتون الصّينية التي أنشأ فيها الرّهبان الفرنسسكان كاتدرائية، وكان على رأسها جيرار دي بَرْ جرنيوس، والرّاهب أندريا، الذي أشار في إحدى رسائله عام 1326 إلى مدينة بيروز مسقط رأسه، أنّ الخان خصّص للقساوسة معاشًا وأنّ التّجار الجنويين أخبروهُ أنّ هذا المُرَتّب يساوي مائة ذهبة، والملاحظ أنّ أندريا كان قد أقام بالصّين مدّة ثماني سنوات في مدينة زيتون الصّينية[1].

ويرى هايد أنّ الإرساليات البابوية كانت مكثّفة في آسيا، وقام الرّهبان بمجهود جبَّار، جمعوا خلاله أعدادًا من المسيحيين الشّرقيين، وشيّدوا كنائس وأديرة، وأسقفيات، وأبرشيات (مطرانية)، لكن مع كلّ ذلك لم يتمكّنوا من منع أغلبية المغول من اعتناق الإسلام، كما لم يستطيعوا منع خانات المغول أنفسهم من الإسلام، كما هو الحال مع بركه خان في منتصف القرن السابع الهجري[2]، ثم تكودار أحمد خان 1282- 1284م.[3]

بانتقال الحكم في الصّين من أسرة يوان المغولية إلى أسرة مينغ الصّينية، تتغيّر وضعية الإرساليات المسيحية الكاثوليكية التّنصيرية، حيث واجهت تضييقا كبيرًا، من طرف الحكّام الجدد الذين وضعوا حدًّا لنشاطهم لمدّة زمنية تفوق قرنين من الزّمن، فدُمّرت مراكزهم في مدن "زيتون" Zaïtoun، وفوكيان Fou-Kien وتشي كيانغ Tche Kiang، ولم تسلم من التّدمير إلاّ

1- Heyd W.: op.cit., T. 2, P. 220

2- كان بركه أو بوركه خان زعيم القبيلة الذهبية 654_664ه / 1256- 1265م، أول الحكام المغول الذين اعتنقوا الاسلام، وحسب رواية أبو الغازي بهادور خان، فإن بركه إعتنق الإسلام بعد إعتلاءه عرش خانية القبجاق وكان ذلك حين إلتقى بتجار قادمين من بخارى، فانزوى بتاجرين منهم،وسألهم عن العقيدة الإسلامية،فشرحو له واقتنع فأسلم مخلص الإيمان، ثم أخبر شقيقه الأصغر توقاي تيمور بإسلامه،فحذى حذوه ثم إتبعته رعيته من المغول للمزيد يراجع Abul Ghazi Behadour : op.cit , in I.G, vol.226 , P.181

3- Heyd W.: op.cit., T. 2, P. 70

تلك التي بنيت في خان باليق Khanbalik،وإيلي باليق IliBâlik، حتى أنّه تمّ إعدام الأسقُف الخامس لمدينة الزيتون جاك الفلورنسي عام 1362م. ويتراجع نشاط الإرساليات الكاثوليكية في الصّين، ويتوقّف معها نشاط التّجار الأوروبيين، وهو ما يبيّنُ أنّ العلاقة بين الرّهبان البابويين والتّجار اللاّتين كانت علاقة تلازم وتكامل، حيث كان الرُّهبان المبادر والممهّد لنشاط التّجار اللاّتين في آسيا الوسطى والصّين[1]

سابعاً- نشاط التّجار الإيطاليين في آسيا الوسطى القرن الثامن الى التاسع هجري / 13- 14:

فشلت محاولات البابوية في تحقيق مساعيها من وراء إرسالياتها الدّينية المتمثّلة في تفعيل تحالفها مع خانات المُغُول لضرب المسلمين ووضعهم بين فكّي كمّاشة، وتأسيس مملكة مسيحية كاثوليكية في قلب آسيا الوسطى، وطالت فترة المفاوضات والحوارات بين الطّرفين، فكان أن أخذ التّجار الإيطاليون موقع المفاوض بدل رجال الدّين في التّحاور الديبلوماسي مع المُغول، وتحقيق منافع تجارية،فانطلقوا لارتياد الطّرق التّجارية نحو الصّين مرورا بآسيا الوسطى[2].

فلقد كان للشّرق الأقصى وسحره، أثر الكبير على أوروبا عامة والمدن الإيطالية بصفة خاصّة، وكان مبدأ طريقهم في موانئ البحر الأسود، ويقطع "التّركستان الرّوسي" جنوب روسيا، وصولاً إلى أورغنج في خوارزم، وهناك يتفرّع طريق إمّا نحو الهند جنوبا، أو باتّجاه الصّين شرقًا.كان الحرير الصّيني المعروف بإيطاليا ب "سيتا كاتاي" **Ceta Cathay**

1- De Perdenone Odorie: Les voyages…, Henri Cordier, Intro., P. 15

2- Pernot F.: op.cit., P. 43

أو كابتويا **Captuya**أو كاتوكزتا **Catuxta**هي البضاعة الأولى المجلوبة من الصّين، وحسب المؤرخ " لوبيز" روّجها التّجار الجنويون عام 1257 و1259م،في معارض جنوة الإيطالية لأول مرة، أي حوالي إثنى عشرة عاما بعد عودة الراهب جان دي بلان كربان، موفد البابا إنوسنت الرابع الى المغول[1].

ولم يكن التجار اللاتين في هذه المرحلة، يجلبون الحرير بشكل مباشر من الصين، وإنما يقومونبشراءها من القوافل التي تصل الى موانئ البحر الأسود، أوعن طريق إنتقالهم الى أسواق إيران وتركستان وقزوين، وكانت هذه هي الفترة التي فتحت لهم فيها منافذ البحر الاسود نحو آسيا الوسطى[2].

والغريب أنّ سعر الحرير الصّيني كان منخفضا من حيث الثّمن والنّوعية مقارنة مع حرير آسيا الوسطى، فأصبحت البضاعة الصّينية من الحرير رائجة في أوروبا ليس لنوعيّتها وإنّما لثمنها المنخفض وكمّياتها الكبيرة، وإلى جانبها كانت هناك سلع أخرى كأقمشة الدّيباج **Brocarts**وأخرى ثمينة[3].

واتّخذ نشاط التّجار الإيطاليين شكل جماعات لها مسمّيات خاصّة، عرفت كولاغانزا **Colleganza خاصة** بالبنادقة، وأُخرى عرفت بـ "كومندا" **Commenda**كانت تربط في رحلة

---

[1] - Lopez Robert.S :" Nouveaux documents sur les marchands Italiens en chine à l'époque mongole, communication du 11 février 1977 " ,in **comptes rendus des scéances de l academie des inscriptions et belles lettres**,121 é année,n.2,1977,P.445-446.

[2] - Lopez R.S : op.cit,P.447.

[3] - Petech Luciano: «Les Marchands Italiens dans l'empire Mongol», in: ***J. A***, N° 250, 1962, P. 551

واحدة بين شريكين أحدهما مقيم يعرف بـ "ستان"«**Stans**» وآخر متنقّل[1] بروسارتون **Procertans**أو تراكتاتور **Tractator**، ويساهم الشّريك المقيم بثلثي رأس المال وشريكُهُ المسافر يساهم بالباقي، وكانت مدينة أورغنج **Ourghenj**عاصمة خوارزم القديمة هي المركز التّجاري الحقيقي في إقليم تركستان – ما وراء النّهر– وفي هذه المدينة كانت تصنع أنواع من الأقمشة الرّائجة المعروفة بالأورجندي **Ourgendi**وهو لا يزال يصنع إلى يومنا هذا، فكانت المدينة مركزًا لنشاط تجاري واسع ومجالُهُ الكبير الخانات، أي الأسواق المنظّمة[2].

ويرى لوبيز أنّ التّجار الجنويين حتى حدود القرن 13م، لم يحصلوا على الحرير الصّيني بشكل مباشر من الصّين، وإنّما تمّ شراءه من القوافل التي تجلبها إلى موانئ البحر الأسود وقزوين، وتجدر الإشارة إلى أنّ هذه المرحلة هي مرحلة هامّة حيث فتحت لهم منافذ البحر الأسود نحو آسيا[3].

لاسيما وأنّهم قد أخذوا مكانهم في المبادلات التّجارية مع آسيا، عندما أصبحوا بمثابة المالكين لمرافئ للبحر الأسود، التي مفتوحة لمضاربات المفاوضين البنادقة، فعرفوها منذ القديم وعلموا أنّ الاستحواذ عليها يعني فتح آفاق التّجارة مع آسيا كلّها فأسّسوا في أقصى الخليج حيث كانت مدينة تانايس القديمة **Tanaïs**، مدينة تجارية انتعشت وازدهرت في وقت قصير جدّا، وغدت "تانة" **Tana**أو أزوف **Azoff**مدينة التّجار البنادقة سوقًا كبيرًا للمُغول وأحد أغنى المرافئ التّجارية الآسياوية، ثمّ أنشؤوا مرفأ تجاريّا آخر في صوداغ/ صولدايا **Sodagh/ Soldaia** في شبه جزيرة القرم، فكانت ملتقى التّجار الأتراك والآرمن والرّوس

1- Petech Luciano: op.cit., P. 551.

2- Petech. L.: op.cit., P. 558.

3- Lopez. Robert S. : op.cit., P. 447.

القادمين من مدن نوفڨورود **Novgorod**ومن موسكو. كما كان البنادقة يتعهّدون تجاريّا مع جنوب البحر الأسود بشكل كبير، فأنشأوا مباسط للسّلع في مدن طرابزون **Trébizond**، سينوب **Sinope**، وفتحت بذلك منطقة قزوين ومن وراها آسيا للتّواصل التّجاري.[1]

ففي البحر الأسود كانوا المحتكرين الأوائل للتجارة مع المسلمين سواء منهم الأتراك أو المغول الذين أسلموا لاحقًا، وقد كان القنصل البندقي في القسطنطينية – ذات الحكم اللاّتيني منذ حملة (1204م– 1261م)– هو الرّجل الثاني في الدّولة والمراقب لأكبر الجزر اليونانية، وكانت البندقية القوّة البحرية الأولى لدى المسيحية، والنّاقل البحري لكلّ الحملات الصّليبية، ليس هذا فحسب فقد كانت هي من يُقْرِض المال لبارونات وملوك أوروبا[2].

هذا ولم يكن التّجار البنادقة النّشطين الوحيدين في البحر الأسود وإنّما كان هناك منافسوهم تجّار جنوة، الذين تمكّنوا من أن يتّخذوا لهم موطن قدم في شرق القرم عام 1269م، حيث أسّس تجار غلاطة **Galata**الجنويين، مستوطنة تجارية في موقع كافا **Kaffa**– فيودوسيا **Fédosia**حاليا، واتّخذوها قاعدةً لتجارتهم في البحر السود وبحر آزوف[3].

والثّابت أنّ أمن المسالك التّجارية نحو اوروبا، قد أصبح منذ هذا الوقت من تقاليد طريق الحرير، وفي هذه الفترة صدر "الموجز الفلورنسي للتّجار" الذي أكّد لمستخدميه أنّ المسالك البرّية التّجارية من مدينة تانة **Tana**في قلب بحر آزوف **La mer d'Azov**وصولاً

1- De la PrimaudaieF. Élie: Etudes sur le commerce au moyen âge, Histoire du commerce de la mère noire et des Colonies Génoise de la Krimée, comptoire des imprimeurs-unis, Paris, 1848, PP. 60, 61, 62.

2- Pernot . F.: op.cit., P. 43-44.

3- De La Primaudaie F.Élie: Etudes sur le commerce, P. 74.

إلى بلاد الخِطا (الصين) آمنة تماما، سواءً في اللّيل أو في النّهار، حسب ما أكّدَهُ التّجار الذين قطعوها والمتردّدين عليها[1].

وصف المؤرّخ لوبيز **L. Lopez**، التّبادل التّجاري الكثيف في هذه المرحلة، بذروة "الثّورة التّجارية"،والتي كانت في طور إحداث تغيرات بطيئة في أوروبا، لا تقلُّ أهمّية عن التّأثيرات التي ستُحدثُها الثّورة الصّناعية بداية القرن التاسع عشر في أوروبا، حيث اتّسع نطاق التّأثير الاقتصادي، والتّجاري على أوروبا، ورفع مستواها المعيشي، وهو ما يبرز الحجم الكبير لنشاط التّجار الإيطاليين في الإمبراطورية المغولية[2].

والحاصل أنّ من جملة التّجار اللاّتين الذين تركوا روايات وأخبار أسفارهم وعكسوا شكل النّشاط التّجاري في آسيا الوسطى والشّرقية، التاجر البندقي ماركوبولو، والفلورنسي بيغولوتي **Pegolottis**1330–1340م، وجان دي مارينيولي **John deMarignollis**الفلورنسي 1338–1353م وغيرهم، فالأخبار الواردة على ألسن الرّهبان المسيحيين عن أسواق الشّرق ووفرة بضائعها الثّمينة، من توابل متنوّعة كالفلفل والزنجبيل وجوز الطّيب وغيرها، والحرير والقطن الهندي والثّياب القطنية والأحجار الكريمة، كانت كفيلة بجذب التّجار والمفاوضين الأوروبيين لعقد اتّفاقيات تجارية رابحة والمشاركة في الإنتفاع االأرباح.

1– Luciano Petech: «Les Marchands Italiens dans l'empire Mongol», in: **Journal Asiatique**, N° 250, 1962, P. 549.

2– Petech L.: op.cit., P. 550.

1-تّاجر البندقية ماركوبولو 1274- 1295 Marco-Polo:

قبل الخوض في الحديث عن التّاجر الرّحالة "ماركوبولو" **Marco-Polo(1251-1324)** وتفاصيل رحلته وما أوردهُ عن الحركة التّجارية في آسيا الوسطى، أو كما يسمّيها "تركستان الكبرى"، يجب الاطلاع على المقدّمات التي هيّأتهُ إلى أن يكون أوّل التّجار اللاّتين المتعاملين مع الأسواق الآسياوية والعارفين بمسالكها ومدنها والشّعوب القاطنة بها والسّلع الرّائجة فيها. ينتمي ماركوبولو إلى أسرة من مدينة البندقية الإيطالية، امتهنت التّجارة كمفاوضين ومباشرين للأعمال التّجارية مثلهم في ذلك مثل أغلب البنادقة، الذين كانوا حينها أسياد التّجارة في حوض البحر المتوسّط تقريبًا، فالإخوة الثّلاثة بولو **Polo**، كانوا قد أنشأوا في القسطنطينية مَبْسَطًا للسّلع ومكتبا تجاريا، وكذا في صوداق **Soudak** في القرم التي كانت تدفع غرامة مالية لخانية القبجاق المغولية وكان ماركو (الكبير) هو المسؤول على إدارة مَبْسط القسطنطينية، بينما كان شقيقيه مافيو **Mafeo** ونيقولو بولو **Nicolo Polo** المسؤولان على إدارة مباسِط شبه جزيرة القرم، فكانوا يتاجرون في الفرو القادم من روسيا وقمح أوكرانيا وفي السّمك المُملّح لبحر أزوف، وفي الأقمشة الحريرية وتوابل آسيا، كما كانوا يتاجرون في الرّقيق المجلوب من قبائم القبجاق التّركية المجاورة[1].

ففي هذه الظّروف المُميّزة كان التّجار البنادقة يمارسون التّجارة بكلّ حرّية، فالإخوة "بولو" كانوا يتنقّلون بين القسطنطينية، ومدينة صوداق والبندقية، وكان "ماركو" الشّقيق الأكبر للإخوة مقيمًا في القسطنطينية إلى أن تقدّم به العمر فقرّرَ إنهاء نشاطه والعودة إلى موطِنِهِ الأم، بينما بقي "ماثيو" و"نيقولو" ينشطان بحريّة، وقرّرا في عام 1260م، أن يوسّعا مجالهما

---

[1]- Boulnoi Luce: La route de la sois, PP. 340, 341.

التّجاري، فخرجا من القسطنطينية عام 1260 حاملين معهم تشكيلة من المجوهرات والحلي، قاطعين البحر الأسود وصولاً إلى "صوداق" حيث مَبْسطهم التجاري، كما كان لشقيقهم منزلاً هناك أُحصِيَ من ضمن ممتلكاته وإرْثِهِ المذكور في الوصية في 1260م.[1]

كان هدف الإخوة بولو من رحلتهم، هو الوصول إلى بلاط خان القبيلة الذّهبية بالقبجاق، بركه خان **Berké Khan** حفيد جنكيزخان الذي يقيم في مدينة سراي على نهر الڤولڤا، وبعد أن تمكّنوا من التّخلص من بضاعتهم التي باعوها بضعف ثمنها للخان، فكّروا في العودة، لكن الحرب التي اندلعت بين بركه خان وهولاكوخان (1262– 1263م) أعاقت عودتهم، قرّروا اختبار حظّهم، والتوجّه بحثا عن الأرباح شرقًا وبعد عبورهم للسّهوب وصلوا إلى بخارى التي كانت ضمن ممتلكات أبناء جغطاي **Djagathaï**ابن جنكيزخان، ونظرًا لكون المنطقة كانت تحت تأثير الحرب، بقي الإخوة بولو مجبرين في مدينة بخارى، مدّة ثلاث سنوات[2]. ولم يتمكّنوا من الخلاص من هذه الوضعية إلاّ بفضل حادث عارض، حين صادفوا سفراء المُغول المبعوثين من هولاكوخان فارس متّجهين إلى قوبيلاي خان-**Koubilaï Khan** الذين كان في إقامته الصّيفية جنوب منغوليا، وطلب السّفير المغولي من الإخوة بولو، مرافقتهم إلى الصّين لأنّ للخان رغبة كبيرة للتّعرّف على الأوربيين اللاّتين، ووعدهم أنّهُ سيكرمهم وأنّهم سيجنون أرباحًا كبيرة هناك[3].

1- Boulnoi Luce: op.cit., P. 344; Heyd W.: op.cit., T. 2, P. 215.

2- Heyd W.: op.cit., T. 2, P. 215.

3- Rusticien de Pise: Le Livre de Marco Polo, Citoyen de Venise conseiller privé et comissaire imperial de Kaboulaï Khaàn, Traduit par: M.G. Pauthier, Librairie de firmin didot frère, Paris, 1865, Introduction, P. 5.

وكان نتيجة لقاء بخارى، أن انقلب مسار رحلة التّجار البنادقة "بولو" رأسًا على عقب، حيث أصبحت وجهتهم الصّين، بتشجيع من السّفراء المُغُول، وأمنَّت لهم هذه الرّفقة مخاطر الطّريق، وتفادوا بذلك مصاعب وأخطار كثيرة ووشيكة، وبعد أن قطعوا كل آسيا الوسطى بكلّ اتّساعها في عام واحد، وصلوا إلى بلاط الخان قوبيلاي **Koubilaï** الذي رحَّب بهم واستجوبهم حول أمور كثيرة كانت تشغله، وأشبعوا فضولهُ، خاصّة وأنّهم كانوا قد تعلّموا اللّغة المُغولية في أثناء طريقهم الطّويل، فسألهم عن ملوكهم وأباطرتهم ونبلائهم وعن البابوية في روما وكناسهم وتقاليدهم اللاّتينية وأساليب الحكم لديهم.[1]

وبعد حديث طويل بينهم، طلب قوبيلاي من الأخوة "بولو" أن يكونوا سفراءه إلى بابا روما، برفقة أحد أكبر الشّخصيات في بلاطه، طالبًا من البابا أن يُرْسِل إليه بعثات علمية، لتنقل إليهم العلوم الأوروبية، وخبراء في الفنون السبعة ورجال دين ليسألوهم عن المسيحية الكاثوليكية، قَبِلَ الأخوة بولو القيام بهذه المهمة، وانطلقوا في رحلتهم عام 1266، لكن مرافقهم المغولي لم يكمل معهم الرّحلة حيث مرض واضطرّوا للسّفر دونه، خاصّة وأنّهم استغرقوا ثلاث أعوام للوصول إلى أوروبا 1269عن طريق مدينة لاياس **Layas**.لكن التّجار البنادقة لم يتمكّنوا من إنجاز مهمتهم فور وصولهم،حيث كان كرسي البابا شاغرًا، واستغرق التّعيين والاختيار وقتًا، إلى أن جاء خريف 1271حيث نُصّب غريغوار العاشر **Grégoire X** بابا على كنيسة روما.[2]

---

[1]- Rusticien de Pise: op.cit., Introduction, P. 4.

[2]- ورد نص الرّسالة مترجمًا إلى اللّغة الفارسية للمؤرّخ بونتيي، للمزيد يراجع: Rusticien de Pise: op.cit., P. 5.

فأبلغا الأخوين بولو تفاصيل رحلتهما الطّويلة 1261- 1269م، في الإمبراطورية المُغولية ورغبة قوبيلاي خان في معرفة أكثر عن ديانة الفرنج وطلبهِ من البابا إرسال مائة من الرّجال المؤهّلين لذلك، وقد حمّلهم «**Païza d'or**» تعطيهم صفة السّفراء من قِبَلِهِ[1].

وبمجرّد أن استقرّ على كرسي البابوية، باشر البابا الجديد في سياسة استخدام التّجار، للتّواصل مع المُغول لعقد تحالفات سياسية، وجني أرباح اقتصادية، فكانت من أوائل الأعمال التي قام بها، هو تكليف الإخوة التّجار "بولو" بإيصال رسالته إلى الخان الأعظم، وتعيين راهبين دومينكان، ضلِعَيْنِ بأمور البلاد الشرقية لتنفيذ المهام هناك، لكن نظرًا للظروف غير المواتية، عادت سفارة البابا أدراجها، فحينما كانت في آسيا الصغرى وصلتها أنباء بقرب قدوم جيش المماليك من مصر بقيادة بيبرس البندقداري لغزو أرمينيا الصغرى، فواصل الإخوة بولو رحلتهم دونهما إلى الصّين[2] حاملين معهم رسائل البابا، وكان برفقتهم هذه المرة ماركو – ابن أخيهم نيكولو بولو المتوفى- الذي أدخلوه بلاط الخان وعرفوهُ عليه عام 1275، وقد حضي الشاب ماركو باهتمام وحفاوة قوبيلاي خان، ذلك لأنه اكتسب معارف حول المُغول وعاداتهم وتقاليدهم وتعلّم لغتهم وحتى فنون القتال لديهم، وكتابات متنوعة تستخدم في إمبراطوريته. تأقلم ماركو بولو الشّاب بمهارة ملحوظة مع الأعراف والعادات الشّرقية، فكسب مع مرور السّنين ثقة الحاكم المغولي. وأبقى هذا الأخير على التّجار الإيطاليين في إمبراطوريته مدة سبعة عشرة سنة. قام خلالها ماركو بولو وبتكليف من الخان بجولة تفتيشية في الإمبراطورية، فأقام في يانغ شان **Yang-chan** ثلاث أعوام كحاكم على الإقليم، ثمّ وكلت

1- Richard Jean: La Papauté et les missions d'orient au moyen âge (XIII-XV siècle), école Française de Rome, Paris, 1977, P. 84

2- Rusticien de Pise: op.cit., P. 6

إليه مهمّة سفير الخان إلى الهند. وفي هذه الأثناء كان والده وعمهُ قد قدَّمَا خدماتهما للخان ولكن لم ترْقَ إلى مستوى وأهميته مهام ماركو بولو، واهتما أكثر بتجارتهما وأعمالهما لاسيما تجارة الأحجار الكريمة مجال اختصاصهما[1].

وفي عام 1292، غادر الثّلاثة الصّين عن طريق البحر، فزارا سومطرة والهند وهرمز التي نزلوا بها، وقطعوا بلاد فارس نحو الشّمال، حيث ركبوا إلى طرابزون، بعد التوقّف في القسطنطينية، ثمّ بعدها نغربون **Négrepont**، وصلوا في الأخير إلى موطنهم 1295. وحتى أثناء رحلتهم هذه كان عليهم القيام بمهام كثيرة كسفراء لقوبيلاي خان، منها مرافقة الأميرة المغولية التي طُلبت للزّواج من طرف خان بلاد فارس، كما كلِّفوا بإيصال مجموعة من الرّسائل إلى بابا روما، وإلى ملوك فرنسا وإنجلترا وإسبانيا وأمراء آخرين.وهكذا جعلت سلسلة من الظروف القاهرة في مظهرها، مسار رحلة التجار البنادقة الإيطاليين يتغير بعد أن كانت وجهتهُ هي نواحي نهر الغولقا، تغير وأخذ منحى البلاد الصينية، وكان من أهم نتائجه هو فتح معارف الأوروبيين حول هذه البلاد البعيدة والغنية[2].

سجّل ماركو بولو، ملاحظاته الشّخصية كلّها، فأورد وصفا وتفاصيل حول المدن ليس الشّهير منها فحسب، وإنّما في كلّ البلاد، وذلك من ثلاث نواحي مختلفة، البشري الاثنوجرافي، وإحصائيات وملاحظات في الاقتصاد السياسي، وبصفته أحد أبناء فئة التّجار الإيطالية العريقة، لم يَفُتْه تدوين ملاحظاته حول المواد الطّبيعية والمصنّعة للبلاد التي مرّ بها. والبضائع التي تدخل في إطار التجارة الكبرى أو تلك المحلية الصّغرى والمراكز والطرق التجارية. وتعتبر المعلومات التي أوردها، على جانب كبير من الأهمية، ولا تقدر بثمن

1- Heyd W.: op.cit., T. 2, P. 217

2- Heyd .W : op.cit., T. 2, P. 217

بالنسبة إلى من يتوقون إلى القيام بتجارة، وكسب الأرباح في هذه المناطق البعيدة، والمجهولة حينها لدى الأوروبيون[1].

وكلّ ما كتبه حول هذه البلاد وأهلها، وحسب ترحيبهم به والاستقرار والسّلام والنّظام الذي يسود هذه البلاد، ثرائها وحسن طباع أهلها، كان كفيلًا بأن يجذب من يهتمّ باتّباع خطى ماركوبولو، ويعطي تطلّعات وأطباع جديدة في عالم التّجارة والأعمال(2).

فبصفته تاجر ومن أسرة اختصّت بالتّجارة تناول ماركوبولو في مذكّراته الحديث عن المنتجات والسّلع التي كانت متداولة في أسواق مدن آسيا الوسطى، ويستخدم كثيرًا تسمية "تركيا الكبرى" **La grande Turquie** في أثناء وصفه للمدن المارِّ بها هناك ومن أكبر مدنها سمرقند كشغر وخوتان وبام «**Pem**» وتشرشن. ومن المدن التي مرّ بها ماركوبولو مقاطعة باذخشان، وبحكم اهتمامه بتجارة الأحجار الكريمة أشار إلى وفرتها في هذه المقاطعة خاصّة ياقوت بالاسي **Balasci** الجميل والثّمين، ويستخرج من مغارات في جبال شِكينان **Sighinane**- في أفغنستان حاليا- وهناك يبادلُهُ التّجار في مقابل الذّهب والفضّة(3).

وعبر ماركوبولو جبال البامير والبولور، ليصل إلى كشغر وهي من أهمّ وأكبر مدن تركستان الكبرى، وبها أشهر الأسواق حيث تصل إليها سلع وثياب متنوّعة وبها حرفيون مهرة لاسيما في مجال الصّناعات القطنية وأراضيها خصبة منتجة للفواكه والعنب والقنب والكتان وغيره، وأكثر أهل مدينة كاشغر يمتهنون التّجارة. كما تختصّ مدينة خوتان الواقعة جنوب

1- Heyd .W : op.cit., T. 2, P.218

2- Heyd .W : op.cit., T. 2, P.218.

3- .Polo Marco: op.cit., P. 4

غرب تركستان الشّرقي – حسب ماركوبولو- بإنتاج القطن والكتّان والقنب والحبوب والكروم والزّيوت ويعيش أهلها على الحرف والتّجارة أيضا[1].

وتعد تشرشن **Tcherchen** الحالية، التي سمّاها ماركو بولو "سيارسيان" «**Ciarcian**»، من أكبر وأشهر المقاطعات الشّرقية لتركستان الكبرى، وأهمّ ما يميّزها هي وديانها – تشرشن دريا- **Tcherchen Darya**- التي يستخرج منها حجر اليَشب **Jaspe** وحجر يَمَان **Calcédoine**، وأنواع أخرى من الأحجار، ويقصد الصّينيون هذه المقاطعة لشرائها، ذلك لأنّها مطلوبة بكثرة هناك، فيجنون أموالاً طائلة من هذه التّجارة، كما تعتبر مدينة كِريا من أهمّ مدن تركستان الشّرقية المنتجة للأحجار الكريمة بكمّيات كبيرة، وأهلها يعيشون من الأرباح التي تُدرُّها هذه التّجارة وغيرها من أنواع البضائع فضلاً عن الحرف التي يتقنها أهلها[2].

كما مرَّ بمدن إقليم قانصو **Kan.sou** الشّهيرة بتجارة الحرير، مثل مدينة توان هوانغ (**Touen-Houang**)، وساسيو **Saciu** وتونغوت **Tangut**، ومدينة كامول **Camul**، وهي هامي **Hami**الواقعة في أقصى واحات تركستان الشّرقية، وكلّها من أكبر، وأنشط محطّات طريق الحرير التّجاري، وتتمتّع هذه الأخيرة بإنتاج وفير للفواكه والخضر، وفيها من المياه ما يُؤمّن احتياجاتها ويفيض عنها، حيث تبيعُهُ أو تعطيه للمسافرين، وذلك على الرّغم من وقوع "كامول" في منطقة صحراوية قاحلة[3].

1- Polo Marco: op.cit, PP. 61, 63

2- Polo Marco: op.cit, PP., P. 64

3- Polo Marco: op.cit., PP. 67, 69, أنظر الملحق رقم:4.

فلا تكادنصوص ماركوبولو تخلوا من الإشارة إلى أسواق مدن تركستان والبضائع الرّائجة فيها، كما خصَّ باهتمامه مواطن تواجد الأحجار الكريمة، وما تُدرُّهُ من أرباح على أهالي المنطقة والتّجار القاصدين لها.

2- يغولوتي فرانسيس بالدوتشي *Francis Balducci DE PIGOLOTTi*

يعتبر التّاجر الفلورنسي ف . بغولوتي من أشهر التّجار اللاّتين وأنشطهم على الطريق التّجاري نحو الصّين، خاصّة وأنّ ما ألّفه حول النّشاط التّجاري في آسيا، في النّصف الأول من القرن الرابع عشر، هو من أهمّ المؤلّفات الأوروبية اللاّتينية التي تعُود إلى العصور الوسطى في هذا المجال. وليس لدينا معلومات كثيرة حول التّاجر الفلورنسي، سوى ما ضمّنهُ هو من معلومات في نص مخطوطه، فقد كان يشغل وظيفة ساعي في شركة تجارية في فلورنسا عرفت بشركة باردي الفلورنسية **Bardi of Florence** وكان وكيلهم التّجاري في الفترة ما بين 1315- 1317م، ثمّ تمّ نقلُهُ إلى مدينة لندن، ثمّ عُيّن في قبرص من 1324- 1327م، وفي عام 1335م، قام بحيازة امتياز من ملك أرمينية الصّغرى للمتاجرة في ميناء أجازيو **Ajazio**على خليج الإسكندرونة لصالح الشّركة الفلورنسية باردي[1].

وضمَّن كتابهُ المرسوم بـ"كتاب أوصاف البلدان والمعايير" «The book of descriptions of countries and of measures» معارف هامة تخصّ التّجارة، والأعمال في آسيا، ونوّه في بداية مؤلّفه أنّ كتابهُ مُوجّه إلى كلّ التّجار، والمفاوضين التّجاريين في العالم حينها، ففيه كلّ ما يحتاجونه من معلومات عن البضائع والمبادلات التجارية، وعن أفضلية

1- Yule H.: op.cit., T. 3, P. 138-139.

سلعة على أخرى، ومن أين تجلب مختلف البضائع، وكيف يتمّ حفظها أطول مدّة ممكنة حتى تصل إلى البلد المستهلك[1].

ففي البداية أشار بيغولوتي إلى أهمية "السّوق"، ومختلف تسمياته المتداولة في أشهر مدن العالم حينها، وحسب لغة أهلها[2]، وفصّل في ذلك، وبما أنّ وجهة كلّ التجار اللاّتين، وفي مقدّمتهم الإيطاليين، بلاد الصّين **Cathay** لرفاهية بضائعها، قام بيغولوتي لسرد تفاصيل المحطّات التّجارية، الرّابطة بين مدينة تانة **Tana**في بلاد القرم، وصولاً إلى الصين وخط سير القوافل مرورًا بـ أورغنج في خوارزم وبخارى وسمرقند، ثمّ محطّة أُترار على نهر السيردريا ثمّ ألماليك **Almalec** وصولاً إلى كامول **Kamul**– هي هامي الحالية **Hami**– في تركستان الغربي، ومنها إلى مدينة كينساي **Quinsai**، أوائل المدن الصّينية على الحدود الغربية مع تركستان الشّرقي[3].

---

[1]– Yule H.: op.cit., T. 3, P. 138-139.

[2]– فصّل التّاجر بيغولوتي في الحديث عن الأسواق، حيث ذكر أن كلّ الأمور المتعلّقة بالبيع والشّراء، وتبادل السّلع والمفاوضة عليها، تتمُّ في المدن الكبرى، وفي القرى حيث يجلب إليها كلّ ما تحتاجه حياة المرء، وتُقام في أماكن إمّا بشكل يومي أو أسبوعي أو شهري أو سنوي، وتعرف هذه الأماكن بمسمّيات مختلفة، ومتعدّدة حسب البلدان المتواجدة فيها، ففي أرمينية تُعرف بـ "بيسادون" **Pesadone**، ولدى المسلمين وفي صقلية ومملكة أبوليا ونابولي تُعرفُ بـ "دوانة" «**Doana**»– أصلها عربي ديوان– كما يعرف في بيزا تحت مسمى فنداقو **Fendoco**، وفي بلاد اليونان وقبرص كومرشيو **Comerchio**، وفي كلّ فرنسا يعرف السوق بـ "بارا" «**Bara**»، لأنّها كانت تُقام عند أبواب وحدود المدن «**Les Barrières**»، وتسمى الأسواق في جنوة بـ "بازارا" «**Bazarra**» و"ربا" «**Raba**»، يُفترض أن يكون أصل هذه الأخيرة غربي وهو الرحبة؛ وألّلاَ **Allà**، هال (**Halle**) بالفلمنكية، وتعرف بـ سُوقو **Sugo**– سوق في بلاد المسلمين، كما تعرف في تونس وبلاد المغرب بـ "فيدو" «**Fedo**» وأصلها عربي وهو فضاء، وعند التركستانيين «**Tuscan**» يعرف بماركاتو «**Marcato**» للمزيد يراجع، Yule H.: op.cit., T. 3, PP. 144-146.

[3]– Yule H.: op.cit., T. 3, PP. 146, 147, 148

عامة كان الطّريق التّجاري في آسيا منذ القرن الثالث عشر حتى منتصف القرن الرّابع عشر مستقر وآمن ولم تقع فيه اضطرابات تذكر إلاّ في حالة وفاة الخان المُغولي، حيث تمارس بعض المخالفات غير الاعتيادية اتّجاه الأوروبيين اللاّتين وأجانب آخرين، لكن بمجرّد الإعلان عن الخاقان الجديد يعود السّفر مُمكنًا وآمنًا على طول الطّريق.

ومن جملة المعلومات التي يفيدنا بها بيغولوتي، قيمة تكلفة الرّحلة فقدَّرَها بالنّسبة لتاجر مع مراقبه، مترجم وخادمين، ببضائع بقيمة 25 ألف قطعة فلوران ذهبية **Florins**، فستقدّر مصاريف رحلته من تانة بالبحر الأسود إلى خان باليق بكين في الصّين لا تتعدّى ستوّن إلى ثمانين سومي (**Sommo**)- سبيكة فضية- وذلك في ظروف جيّدة من حيث المسكن والمأكل وكلّ ما يحتاجُهُ التّاجر مع مرافقيه ودوابه، وأمّا طريق العودة، فبحساب الأجور العالية التي يتقاضاها الخدم والمترجم ومصاريف المعيشة، وباقي النّفقات، يكون حاصل المصاريف هو خمسة سبائك فضيّة،هي مصاريف الفرد الواحد أو أقل، والسّبيكة الفضية تساوي خمس قطع ذهبية فلوران[1].

وتبرز أهمية وتميُّز ما كتبهُ التّاجر بيغولوتي في اعتباره بمثابة مُدوَّنة موجهة لفئة التّجار ومُرشِدٌ تجاريٌ من الدّرجة الأولى، فلم يترك أمرًا من تفاصيل الرّحلة التّجارية وما تطلبه من أمور أساسية تهُمُّ التّجار اللاّتين المُقبلين على قطع طريق الحرير التّجاري، إلاّ ذكرها ونصح بما تستلزمهُ الرّحلة . فمن بين النّصائح التي تصدّرت حديث التاجر الفلورنسي؛

---

[1]- ذكر المؤرّخ يول هنري أنّهُ بحساب 1 قطعة ذهبية فلوران Florin/ دوقة Ducat التي قيمتها 9s. 6d وتساوي 12000£، فإنّ قيمة البضائع تكون حوالي 12000£جنيه إسترليني، وتكون تكلفة مصاريف رحلة الذّهاب بالنّسبة للتّاجر تتراوح بين 140£ إلى 190£،وتكون حوالي 12£ تكلفة مَصاريف الدّابة الواحدة في طريق العودة، للمزيد يراجع: Yule H: op.cit, T. 3, P. 153.

هو ضرورة أن يتزوّد التّجار أصحاب القوافل، بمؤونة غذائية تكفيهم طيلة المرحلة الأولى،ابتداء من تانة إلى أول محطات آسيا الوسطى في خوارزم، وتتمثّل هذه المؤونة في طحين وسمك مملّح، لأنّ هذا القسم من الرّحلة يستغرق مدّة طويلة وهي خمسة وعشرون يومًا.

فمن جملة ما يستوجب أن يستأجره التّاجر ترجمانًا – ويبدو الأصل العربي واضحًا للتّسمية التي أوردها بيغولوتي وكانت متداولة في فلورنسيا والمدن الإيطالية- فالتّاجر حسب بيغولوتي لا يزال في مأمن وفي سلامة ما دام قد حضي بترجمان جيّد.وإلى جانب ذلك يجب أن يكون في خدمته خادمان يثق فيهما ويكونان مُلمّين باللّغة التّركية لأنّها المنتشرة على طول طريق الرّحلة، الممتدّ عبر تركستان الكبرى[1].

نستتشفّ من خلال التّاجر بيغولوتي أنّ خلال العقود الثّلاثة الأولى من القرن الرابع عشر الميلادي،نشطت حركة التّجارة بشكل كثيف، على طريق الحرير الآسيوي، حيث استفادت القوافل التّجارية من حالة الاستقرار، على المسلك الرّابط بين مدينة تانة في بلاد القرم،وعاصمة خطاي الصّين، حيث كان آمنا تمامًا، سواء سلكتهُ القافلة ليلاً أم نهارًا، وهذا ما يشهد به كلّ التجار الذين تردّدوا عليه[2]. وفي حالة وفاة التّاجر على الطّريق تعود كلّ ممتلكاته إلى الخان المُغولي الذي تكون البلد ضمن ممتلكاته، حيث يقوم موظفو الدّولة بمصادرتها، وهذا ينطبق على كلّ الأراضي المسيطر عليها المُغول، ابتداءً من خانية

1- Yule H.: op.cit, T. 3, PP. 151-152

2- Yule H.: op.cit., T. 3, P. 152

القبجاق الذّهبية إلى خانية جغطاي في آسيا الوسطى، إلى فارس وخانية الصّين، لذلك يُنْصح أن يكون في رفقة التّاجر أخٌ لهُ أو صديقٌ مقرّبٌ، عندها تذهب ترِكَتُهُ إلى من رافقهُ[1].

وفي نفس إطار الحديث، عن تكاليف الرّحلة نحو الشّرق الأقصى وجب على التّجار الأخذ بعين الاعتبار مصاريف الدّواب التي تَجرُّ العربات المحمّلة بالبضائع، وتكون تكلفتها على حسب نوع الدّابة المخصّصة لها، فالعربية التي يجرُّها ثور واحد يُقدّرُ وزن حمولتها بـ 10 قنطار جنوي، أمّا العربات التي يتطلّبُ جرُّها ثلاث من الجمال، فتقدّر حمولتها بثلاثين قنطار جنوي، أمّا العربات المخصّصة لجرّها خيل واحد، فتقدّر حمولتها بستة قناطير ونصف قنطار من الحرير الصّيني، والقطعة منهُ كانت تقدّر بين 110 إلى 115 جنيه جنوي[2].

والملاحظ أنّ التّاجر الفلورنسي لم يُوفّر جهدًا في إسدائه للنّصائح، والإرشاد للتّجار اللاّتين العازمين على التّوجّه نحو الشّرق الأقصى، والانتفاع من تجارة الطّريق الآسيوي، حتى أنّهُ فصَّل في كيفية القيام بعمليات التّفاوض التّجاري، والبيع والشّراء وأسلوب التّبادل التّجاري في كلّ أجزاء الإمبراطورية المُغولية.ولا يخفى على المُطَّلِع على ما دوّنهُ بيغولوتي استخدامُهُ لمصطلحات ذات أصول عربية، التي يبدو واضحًا من خلالها تأثير الحضارة الإسلامية في الموازين،المعمول بها بين تجّار المدن الإيطالية، حيث ذكر: القنطار الجنوي **The Cantar Génoese** والذي كان وحدة الوزن المستخدمة لدَى التّجار اللاّتين في إيطاليا وحتى في تانة **Tana** وأصلها قنطار، و" روتولو"«**The Ruotolo**» وهي مشتقّة من الرّطل، فكلاهما كانا معمول بهم في جنوب إيطاليا وصقلية، وكلاهما اشتقّا واستُمدًّا من اللّغة

1- Yule H.: op.cit., T. 3, P. 152.

2- Yule H.: op.cit., T. 3, PP. 153-154.

العربية[1]، هذا إلى جانب استخدامِهِ الكثير لكلمة "فونداقو" **Fundaco** للدّلالة على الخانات والنّزل التي تُقيم فيها كلّ القافلة من تجّار ودواب ومركبات وغيرها، فهو مصطلح عربي انتشر في أوروبا سيما في إيطاليا[2].

كما تعكسُ لنا هذه المعطيات أسبقية التّجار الجنويين، قبل غيرهم من تجار المدن الإيطالية الأخرى في تصدّرهم والهيمنة على المبادلات التّجارية مع الشّرق، فقد كانوا قادة التسابق الأوروبي اللاّتيني في التّنافس على التّوابل الآسيوية، كان نتيجتها ظهور واحدة من أقدم الخرائط الأوروبية في هذا المجال، تعرف بالخارطة الجنوية ويُرجّحُ أنّها تعود إلى سنوات 1447- 1457م «**La carte Génoise**»[3]، ويجدر بنا أن نشير إلى أنّ البرتغاليين الذين

1- Yule H.: op.cit., T. 3, P. 157.

2- انتشرت التّسمية العربية "فندق" في بيزنطا وإيطاليا وكان على صيغ متنوّعة فونداقو **Fondaco**، فندق **Fondouk**، أو فوندكس **Phoundax**، وهو سوق مُغلق ومحروس يحتوس على بضائع وسلع موجّهة إلى التّصدير الخارجي، ومحجوز في الأساس إلى فئة معيّنة من تجّار الجملة الأجانب عن المدينة أو البلد، ويتمّ فيه تحديد وتثبيت قيمة الضّرائب التي يجب دفعها عن السّلع، للمزيد يراجع: Taouati François Olivier: Vocabulaire Historique du moyen-âge, La boutique de l'histoire, Paris, 1995, P. 91

3- صورة للعالم ذات شكل محذوف، رُسمت على ورقٍ مُلوَّن، مركّبة من قطع شُدّت إلى قطعة خشبية أبعادها 75 على 30سم، الأسماء مكتوبة بوضوح نادر، وكتبت مفاتيحها باللّغة اللاّتينية، ورُسِمت بعناية، وتُقدم العالم المعروف حينها؛ السّواحل الشّرقية لإفريقيا والجزر البريطانية، أرخبيل الكناري، وإفريقيا مع خليج واسع مترامي نحو الشّرق؛ المحيط الهندي مفتوح جنوبًا، والسّاحل الشّرقي الأسيوي مع جزيرتين كبيرتين، السّاحل الأوسط محفرة بثلاث خلجان كبرى، السّاحل الشّرقي إلى غاية الخليج الذي يفصل كوريا عن الصّين، آخذة اتّجاه شرق غرب وليس الاتّجاه الصّحيح شمال – جنوب، لكن السّواحل الصّينية دقيقة وصحيحة إلى حدّ كبير، يبدو أنّ الخارطة وُضِعت لتوضّح إمكانية الوصول إلى جزر التّوابل عن طريق الجنوب والشّرق، ووجود رسم لباخرة على المحيط الهندي توحي بذلك، فكانت الخارطة بمثابة اقتراح علمي جنوي، بناءً على تجارب طويلة في الميدان، أخذ بهِ البرتغال وعملوا به فيما بعد، للمزيد يراجع: Nicolà dé Conti: Le voyage aux Indes, Présentation de Geneviève Bouchon et Anne-Laure Amilbat-Sazary, traduction de Diane Ménard Chandeigne, Lebrairie Portugaise, Paris, 2005, PP. 68-69.

خلفوا الجنويين في التّسابق على التّوابل، لم يكن نتيجة تخلّي هؤلاء عن المنافسة وإنّما لأنّهم وضعوا خبراتهم الميدانية والعلمية في هذا المجال في خدمة المملكة البرتغالية الفتية والنّشيطة حينها. وكان لاجتماع هاتين القوّتين أن أعطى دفعًا قويًّا نحو فتح المجالات الجغرافية في المحيط الهندي والأطلسي أمام أوروبا[1].

ولكن ويبدوا من تقارير البابوية بروما، المتعلّقة بمصير نشاط إرسالياتها الديبلوماسية لدى المغول وكذا التجار الايطاليين ونشاطهم، أنّ العلاقة بين البابوية والتجار الإيطاليين لم تخفَ على أهالي المنطقة، لاسيما وان مباسط سلعهم، مثّلت سندًا معنويًّا وماديًّا لا يُستهان بها لبابوية، ولم يكن بإمكانها التّخلّي عن المُعاونة المُعتمة للتّجار الإيطاليين.، وما يدلُّ على ذلك حادثة مقتل الرُّهبان الفرانسسكان المُنصِّرين 1339م، في مدينة ألماليغ **Almaligh**، حيث كان من جملتهم تاجر جنوي غيلوتوس مركاتور **Gillotus Mercator** كما كان يُعرف بغيوم دي مودينا **Guillaume de Modena**، كما يعتمد على وثائق الأرشيفية الجنوية والبيزاوية لنشاطهم في المشرق، وهي مجموعة الوثائق القانونية حول تأسيس الشّركات التّجارية، ودعاوى، وعقود تجارية.[2]

وإلى غاية منتصف القرن الرابع عشر كان هناك عدد لا بأس به، من الرحالة الأوروبيين المترددين على الطريق الواصل بين آسيا الوسطى والصين، سواء كانوا

1- Lopez Robert S.: Nouveaux documents.., P. 452

2- Petech, L.: op.cit.,. PP. 550, 558

الإرساليات المسيحية أو التجار. إلاَّ انه ابتداء من 1340م بدأت أعدادهم تتراجع، فقلما نجد نصوص لرحالة جُدُّد تعرفنا على مدن تقع على الطريق نحو الصين[1].

يُرجِع المؤرّخ "هايد" هذا التّراجع في نشاط التّجار والرحالة الأوروبيين، في آسيا إلى عاملين أساسيين؛ أوّلهما هو تحوّل المغول أهالي منطقة آسيا الوسطى من الوثنية وغيرها إلى الإسلام،فانتقلوا من النقيض الى النقيض، وأصبحوا كما وصفهم أكثر تعصبًا، تمامًا كما كانوا قبل ذلك على قدر كبير من التسامح، إلى درجة أن رجال الدين المسيحيين لم يكونوا يأمنون على حياتهم، أما بالنسبة للتجار المسلمين فلم تقابلهم نفس مخاطر الهلاك، إلّا أن الترحاب والمعاملة الخاصة التي حضوا بها من قبل كانت قد تغيرت.والخلاصة إنّ أغلب الوثائق المتعلّقة بالعلاقات التّجارية لإيطاليا مع الصّين تعود إلى النّصف الثاني من القرن الرّابع عشر الميلادي، تشير الى تراجع النشاط الأوروبي في آسيا الوسطى،في الوقت الذي أصبحت فيه الإمبراطورية المُغولية مجرّد ذكرى، وحتى إمبراطورية أسرة يوان **Yuan**المغولية في الصّين كانت قد عَرَفت اِنحدارًا كبيرًا. فكان لتغير الأسرة الحاكمة في الصين دورهُ، حيث أن الأسرة المحلية مينج كانت أقل اهتمامًا بالأوروبيين من سابقتها أسرة يوان [2].

1- Heyd, W.: op.cit., T. 2, P .504.

2- Heyd W.: op.cit., T. 2, P.505.

3-**التّجارة في آسيا الوسطى في القرن التاسع الهجري/ 15 ميلادي:**

عرف إقليم تركستان تحوّلاً كبيرًا، حيث أسقط تيمورلنك حكم أحفاد جغطاي – ثاني أبناء جنكيز خان- واستحوذ على سمرقند عام 1370م، وأسّس لحكم جديد وعند وفاته 1405م، ترك لورثتِهِ أوسع إمبراطورية ممتدّة على بلاد فارس، والهند وآسيا الوسطى لم يُرَ لها مثيلٌ في العالم[1].

ولقد نتج عن غزواته أن نُصبت بغداد وشيراز ودمشق، وتعذّرت حينها حركة التّجار نحو موانئ الخليج الفارسي، وتلك المتوجّهة نحو المشرق لمدّة من الزّمن، ولكن بعد أن أمسك بزمام الأمور، قام تيمورلنك بإعادة تنظيم الطّرق، والمسالك التّجارية الآسيوية مُحتذيًا في ذلك حذو الجغطائيّين المغُول. فشجّع بنفسه نشاط التّجار، والحرفيين في الإمبراطورية، وجعل من العاصمة سمرقند سوقًا تجارية عالمية، تقصدها قوافل التّجار والسّلع من كلّ الأصقاع، فشهدت رخاء اقتصاديا لا مثيلَ لهُ[2].

فمن ناحية تنظيم الطّرق التّجارية، لا يمكننا في هذا السّياق أن نجد وصفًا، وتقريرًا عن المسالك في آسيا الوسطى، وآليات تنظيمها حينها أدقّ ممًا سجَّلَها السّفير الإسباني **راي دي غونزالس دي كلافيجو Ruy Conzález De Clavijo** سفير ملك قشتالة إلى تيمورلنك (1403- 1406)، حيث يمكن القول أنّ تيمورلنك ربط منطقة البحر الأسود والقوقاز بآسيا الوسطى بإنشاء سلسلة من المحطّات البريدية، والتّجارية مبدأها من مدينة تبريز المسافة التي تفصلها عن بعضها البعض، هي مسيرة يوم واحد وهو ما يعرف بالمرحلة، وتحتوي كلّ واحدة

1- Bretschneider,E : op.cit., T. 2, P. 140.

2- Bouvat Lucient: L’empire Mongol, P. 75; Heyd W.: op.cit., P. 504.

منها على الخيول التي توضع لخدمة السّفراء خاصة، والمسافرين عامة، المتّجهين إلى سمرقند، وهي ما يسهّل عملية التّنقل في ظرف زمني قصير، وحسب كلافيجو فإنّ هذه المحطّات "اليام" «**Yam**»، منها ما يضمّ خمسون حصانا، وأخرى تضمّ من مائة إلى مائتي حصان بديل، جاهزين للخدمة عند وصول القوافل، فتساعد في قطع المسافات الطّويلة بيسر وسرعة سواء كان السّفر ليلاً أو نهارًا، وهناك إلى جانب الخيل مطايا أخرى جاهزة[1].

ومن أهمّ فوائد هذه المحطّات المنشأة على الطّرق، هي التّسريع في حركة الرّسائل الصادرة والواردة إلى تيمورلنك، وبين موظّفي دولتِهِ وهو ما يُحكم سيطرتهُ على هذه الأقاليم الواسعة، حسب كلافيجو. كما أمر بإنشاء خانات جديدة لاستقبال القوافل التّجارية في الأماكن غير المأهولة، حيث يتمّ توفير الخيول البديلة، ويقوم على إدارة هذه المحطّات ومنشآتها موظّفون يعرفون باليامتشي «**Yamtchi**» وهم يستقبلون موظّفي البريد والسّفراء الأجانب والتّجار، فيقومون بنزع السروج من أعلى أظهر الدّواب، وتغيير الخيل المتعبة من مشقّة الطّريق بخيل أخرى أكثر نشاطا واستعدادًا.[2]

ونظرًا لأهمّية الدَّواب النّاقلة للمسافرين في سُهوب وجبال آسيا الوسطى، فرض تيمورلنك على الرّعيَّة توفير المطايا للمسافرين ولو اقتضى الأمر من خيلهم ودوابهم الخاصّة هذا في حالة احتاج إليها المسافرون من سفراء ورسل أو تجار، القاصدين عاصمة تيمورلنك، وفي حالة ضاع خيلٌ تابعٌ للإدارة اليام في الطريق، يتمُّ الإعلان عنهُ بتحديد مواصفاتهِ

1- De Clavijo Ruy González: La Route de Samarkand au temps de Tamerlan, relation de voyage de l'ambassade de Castile à la Cour de Timour beg, traduite et commentée par: Lucien Khren, imprimerie Nationale, P.

2- De Clavijo Ruy González: La route, P. 179

ومعلومات وافية عنهُ، وإمعانًا في تنظيم المسالك وتيسيرها للمسافرين، أوجد تيمورلنك معالم على الطّريق حُدّدَت مسافة الفراسخ، فتمّ نصب معلم مسافة كلّ فرسخ واحد[1].

وحظيت سفارة "دون كلافيجو" بخدمات خاصّة وفَّرَهَا لهم "الرّيس" «**Raïs**» أرالوجيه وهو المكلّف بخدمة السّفراء وتوفير المأكل والمشرب والمركب لهم، والأمن، ونقلهم إلى سمرقند.

وأُلْزِمَ الأهالي بتوفير المأكل والمشرب وكلّ ما يحتاجُهُ السُّفراء والوافدون أو موظّفو تيمورلنك خاصة، وفي حال تقصيرهم يعاقبون من ضرب وتغريم، ولقد شهد كلافيجو ذلك بنفسه بعد عبورِهِ لنهر "بلخ" أموداريا، حين عُوقِب أحد "الجغطائيين" الأهالي[2].

وتصدّرت مدن ما وراء النّهر لاسيما العاصمة سمرقند، ثمّ بخارى وكوشان الحركة التّجارية، فشهدت سمرقند عاصمة ملك تيمورلنك رخاءً اقتصاديًّا لا مثيل لهُ حيث أصبحت مركزًا اقتصاديًّا لا مثيل لهُ، فكانت تصلُهُ القوافل التّجارية من كلّ مكان، من حرير الصّين إلى القوافل القادمة من الهند عبر مضايق جبال باميان وممرّات ترمذ – جنوب بلخ- فتموّل الأسواق بأنواع التّوابل من قرنفل وزنجبيل وراوند ومسك، كما كان تجّار الأحجار الكريمة الثّمينة يتوافدون على سمرقند لعلمهم بشغف تيمورلنك بها[3].

فقد كانت تصل إلى عاصمة تيمورلنك قوافل من بلدان عديدة، ودون توقّف مُحمَّلَة – حسب وصف كلافيجو- من روسيا ومن منغوليا بجلود وأقمشة، ومن الصّين يصلها أحسن

1- De Clavijo Ruy Concález: La route, P. 179

2- De Clavijo R.C.: op.cit., PP. 183, 185, 186

3- Heyd W.: op.cit., P. 504

وأفخر أنواع الحرير، كالأطلس "الستان" «**Satin**» الصّيني، والعقيق والألماس الصّيني، والمسك، كما تردُ قوافل "الهند ببضائعها الثّمينة"، وهي أحسن أنواع التّوابل بكلّ أنواعها، ومنها ما هو غير متوفّر حتى في أسواق الإسكندرية، ومن أهمّ بضائعها جوز الطيب وأعواد القرفة والزنجبيل، وغيرها وبفضل توافد القوافل المستمر على المدينة فإنّ حركة التّجار فيها لا تنقطع ليلاً ونهارًا، ويُباع في أسواقها لحومٌ مطبوخة ومُنَكّهة بأنواع مختلفة من النّكهات، كما تُباع أنواع من الطّيور المطبوخة، والمُعدَّة إعدادا جيّدًا، للزُّوار والمسافرين[1].

كما رأى المؤرّخ سيرو **Siroux**أنّ بعد تحوّل قازان خان**Cazan Khan**، إلى الإسلام ظهرت ردّة فعل قويّة ضدَّ الإرساليات المسيحية التّنصيرية، خاصة من رجال الدّين، حتى أنّ الرّاهب أودوريك دي بردنون **Odoric de Perdenon** غيّر طريقهُ نحو" يزد" عام 1315م، كان للنّزاعات التي نشبت بين خانات فارس والهند، تأثيرًا سلبيا على الحركة التّجارية، فهدّدت أمن القوافل، وخسرت المسالك البرّية أهمّيتها، ودورها التّجاري لصالح المسالك البحرية، حيث استفادت السّفن البحرية من هذه الظّروف لتحصد أرباحًا طائلةً.[2]

ولم تكن مدينة سمرقند من أهمالمراكز التجارية في آسيا الوسطى فحسب، ولكنّها ومنذ زمن بعيد، منتجة لسلع هامّة ومطلوبة كصناعة الكاغد، والصناعات التعدينية من ذهب وفضة، وأضاف تيمورانك إلى حرفيي المنطقة، حرفيين وفنانين آخرين جلبهم من خارج

1- De Clavijo R.C.: op.cit., P. 257

2- Siroux M.: op.cit., P. 7

سمرقند في خضمِّ حركته التّوسّعية، وحيثما أُعْلِمَ بوجود صناعة رائجة وذات قيمة، وكان يختار أحسنهم وأكفأهم ثمّ يُنقلون بالقوّة إلى العاصمة سمرقند.[1]

وحسب شهادة كلافيجو فإنّ تيمورلنك استحوذ على الحرفيين والصّناع وكلّ معلّمي الحرف وأحضرهم كُرهًا إلى سمرقند، خاصة منهم الدمشقيين العرب، من معلّمين في حرفة حياكة الحرير بكلّ أنواعه، وصنّاع الأسلحة وأقواس السّهام، والزّجّاجين وصنّاع الفخار، واعتُبِرَ الدّمشقيّون حينها أحسن حرفيي الفخّار في العالم، وجلب من غزوهْ للأناضول حرفيين أتراك مختصّين في صناعة قاذفات السّهام وبنّائين، ومهندسين مختصّين ف بصناعة آلات الحصار وأدواتها، وحرفيين مُشذبين الأحجار الكريمة[2].

وكان عدد هؤلاء الوافدين على سمرقند كبيرًا جدًّا، تجاوز 150.000 شخص، منهم الأرمن والمسيحيون الكاثوليك والنّساطرة، ونظرًا لأعدادهم لم تسعهم المدينة، وكان تيمورلنك قد خصّص لهم خيمًا يقيمون بها في الضّياع المحيطة بسمرقند، فكانت سياسة تيمورلنك هي المنشّط للحركة الاقتصادية والتّجارية في سمرقند، وأصبح بها مصانع هامّة منها مصانع بِطانَة الأقمشة، على نوعين، الأوّل بطانة الحرير، والثّاني بطانة الفرو، هذا إلى جانب مصانع المواد الصّبغية المنتجة للأصباغ الذّهبية، والأزرق[3].

أمّا بالنّسبة للتّجار اللاّتين، الذين كانوا قد حضوا بمكانة خاصّة لدى خانات المغول أبناء جنكيزخان، ونشطوا على طول المسالك الآسيوية، فقد تضرّروا في الفترات الأولى التي

Heyd W.: op.cit., P. 504 -[1]

De Clavijo R.C : op.cit., P. 257 -[2]

De Clavijo R.C : op.cit., PP. 156, 257 -[3]

أعقبت غزو تيمورلنك للمنطقة وتوقّف النّشاط التّجاري الإيطالي بعد أن خرّب تيمورلنك كلّ من تانة **Tana** وأورغنج **Ourgendj**، ففقدوا أهمّ مدينتين تجاريّتين على الطّريق نحو الصين قد أَلِفوا المرور بهما وأسّسوا بها مستوطنات تجارية، ولكنّهم في نفس الوقت – لاسيما التّجار الجنوبيين والبنادقة منهم– لم ينقطعوا على أسواق تبريز **Tebris**، والسلطانية **Soultanièh** وتعود الأهمية التجارية لهذه الأخيرة إلى عهد أحفاد هولاكو، وكانت تصلها القوافل القادمة من هرمز جنوباً محملة بالتوابل وغيرها عبر فارس في مدة 60 يومًا، وحتى بالنسبة للتّوابل الرّهيفَة لم يكن يُخشى عليها من طول المدة الزمنية المستغرقة برًّا، بقدر ما كان التجار يجتنبون ما استطاعوا التنقل عن طريق البحر[1].

وهذا ما يفسر انفراد أسواق سلطانية، ببعض السلع غير الموجودة في غيرها، لا في الإسكندرية ولا في أسواق الشام، ونفس هذه القوافل كانت تحمل أحجار كريمة وثمينة وتمُرُ بهرمز لتخريمها، ومن الناحية المقابلة لها أي مدينتي جيلان **Ghilan**،وشيروان **Chirwan** يَصل الحرير الخام،ومنها تصدر إلى سورية وآسيا الصغرى، كما كانت مصانع بلاد فارس في شيراز ويزد **Yezed** ترسل ما تنتجه من أقمشة حريرية أو قطنية إلى أسواق السّلطانية. كما اشتهرت هذه المدينة بصناعة الحُليِّ من الذّهب والفضّة، وعرف إقبالا كبيرًا من التّجار، وكانت معارضها المقامة ابتداءً من شهر جوان إلى أوت مقصداً لكلّ التّجار، وكان التُّجار الأوروبيون من ضمنهم، يأتون عبر كافا **Caffa** وطرابزون[2].

1- Heyd W.: op.cit., T. 2, P. 506

2- Ibid

خلاصة الفصل الثالث:

ان أهم حدث ميَّزَ القرن السابع الهجري/ الثالث عشر ميلادي، هو قيام إمبراطورية المغول،و بسطهم لسطتهم عبر كل آسيا تقريبا، فكان التّجار المسلمون يتردّدون على الخيم البدوية المُغولية، وذلك منذ القرن الثاني هجري/ 8م وتحديدًا بعد معركة طراز، يبادلونهم ثياب ومفروشات من الأقمشة القطنية، والحريرية والمنسوجة بخيوط مذهبة أو فضية. ببضائعهم المحلية من مختلف أنواع الدَّواب ومصنوعات من اللُبَّد، فكان لهذا الاحتكاك دور كبير في رفع المستوى الثّقافي والحضاري، لأهالي إقليم منغوليا من جهة، وانتشار الإسلام بينهم من جهة أخرى، والملاحظ أن تأثير التجار المسلمين – ولا سيما الفرس السرتقطاي– في المغول، كان أعمق من تأثير الإرساليات المسيحية بكل طوائفها، وكانوا بالنّسبة إليهم **أمة التُّجار** الأكثر **تمدنا** في المنطقة،، وهو ما يشير اليه تراثهم الأدبي.

وأصبح من الطّبيعي أن يتعاون التّجار المسلمون، قبل غيرهم، مع خان المغول، بعد زوال دمار الغزو المُغُولي، ويستفيدوا من النّظام التّجاري الجديد الذي أرسى دعائمه جنكيز خان، حين رفع من مكانة التّجار وأمر بتسهيل نشاطهم، لإدراكه تمامًا أهمية دورهم الاقتصادي والحضاري، وإسهامهم في تمدين المجتمع المغولي البدوي، وفي هذا السّياق نستشهد برأي ابن العبري، الذي رأى أنّ الذي دفع المغول إلى محاربة الأمم المتمدّنة المجاورة هو حاجتهم كبدوٍ للتحضّر، خاصة وأنهم كانوا شغوفين، بكلّ ما يمثّل التمدّن، سواء لدى أباطرة الخِطا (شمال الصين) أو سلاطين خوارزم المسلمين، فكتب جنكيزخان إلى التجار يؤمّنهم ويشجّعهم للحضور إلى بلاده وأمر حرّاس الطّرق المعروفون بـ "القرقوشيين – أو القاراقجيان– بحماية القوافل التجارية الوافدة.

ولم تكن حادثة مقتل تجار أُترارOtrar 615 هـ/1218م، التي على إثرها غزت الجيوش المغولية أراضي السلطنة الخوارزمية، إلا صورة حيَّة تعكس طموح جنكيز خان وسعيه لخلق الذرائع، للسيطرة على مراكز التجارية الكبرى لطريق الحرير التجاري في إقليم تركستان .

والثّابت أنّ المُغُول حذوا حذو المسلمين والصينيين في الاعتناء بالطّرق وتحسين أحوالها والعناية بآليات وشروط السّفر، فأنشأوا محطّات جديدة من خانات للقوافل التجارية وأخرى للبريد " يأمَها "، ونظرا للأهمية الكبرى التي منحها المغول لتنظيم التجارة، وصفت النّظم الإدارية الرّقابية المغولية بالإفراط والمبالغة.

كانت البابوية أول المبادرين لإقامة علاقات وُدِّية تحالفية مع المغول، فاتحةً في ذات الوقت باب النشاط التجاري أمام التجار الإطاليين اللاَّتين، فكتب الرُّهبان السفراء، **تقاريرهم** التي ضمنوها دليلا مفصلا، عن المسالك التجارية في آسيا، ومختلف السلع الثمينة المتداولة فيها، ومن أبرز الرُّهبان سفراء اللاَّتين الى المُغول الرّاهب جان دي بلان كاربان Jean de Plan Carpin 1246– 1247م، سفارة وليم دير وبروك Guilliaume De Rebrouck. وسفارة الرّاهب جون أف منتكورفينو Jean of Montécorvino 1305.

والحاصل أن كان التجار اللاَّتين، هم المستفيد الأكبر من السياسة البابوية والمغولية المنفتحة على الغرب بشكل كبير. فقبلها لم يكن يتجاوز نشاطهم التجاري سواحل بلاد الشام، وسواحل البحر الأسود وبحر آزوف. ففتح لهم المُغُول آفاق آسيا والصين تحديدًا، وأسّسوا لهم مستوطنات ومكاتب تجارية في تركستان والهند والصين، ووُصِلَت أوروبا بالشّرق الأقصى وامتدّ ذلك النشاط حتى القرن الرّابع عشر الميلادي.

وكانت الأمم الاوروبية المُتاجِرَة «**Les nations commerçante**» هي المنشّط لهذه الحركة التّجارية اللاّتينية، ويأتي في مقدّمتهم تجار "جنوة"، ثمّ منافسيهم البنادقة الذين أنشأوا فيها أكثر المُستوطنات التّجارية نشاطًا وثراءً.والحاصل أنّ كلّ من شبه جزيرة القرم وطرابزون وبلاد القوقاز وإمارة أرمينية الصّغرى وجنوب روسيا كانت منافذ تجار ايطاليا نحو بلاد فارس ثم الى الشّرق الأقصى.

يتبيّن من النّصوص التّاريخية التي تعود إلى القرن الثّامن والتّاسع الهجري/ الرّابع عشر والخامس عشر الميلادي، أنّ الحدود الشّمالية من آسيا الوسطى، كانت منفذا نحو منطقة سيبيريا الباردة، يقصدها التّجار الأثرياء المهتمّين بتجارة فرو الحيوانات الشّمالية، لاسيما فرو الفُقْمَة L'hérmine، إلى جانب فرو حيوان السمُّور والسّنجاب وكلّها أغلى أنواع الفراء، لاسيما منها فرو الفقمة الأبيض الفقي، فقد أشار كلّ من الأسير الألماني شيلتبرغر J.Schiltberger لدى المغول، والرحالة ابن بطوطة الطّنجي اللّذان جالاَ في شمال تركستان، إلى رواج هذه السلعة وتوافد التّجار لاقتنائها، فعرفت " سيبيريا" في نصوص شيلتبرغر تحت تسمية إيبيسيبور Ibissibur بينماعرَّفها ابن بطوطة باسم "أرض الظّلمة" لقِصَرِ عدد ساعات النّهار بها.

وإن كان قد تميز بداية العهد المغولي، بالانتشار الواسع للتجار اللاتين، في كل آسيا تقريباً، وانتفاعهم من الحركة التجارية على طريق الحرير البري والبحري، فهل بقي نشاطهم محتفظا بنفس الوتيرة مع نهاية العهد المغولي، وماهي التحولات التي عرفتهاالمنطقة في القرون الأخيرة من العصر الوسيط في مجال التجارة العالمية؟.

الفصل الرابع

شراكة تجارة مرافئ المحيط الهندي

the Emporia Partnership)
(Trade

من القرن 3- 7ه/ 9- 13م

أولا : التجارة في المحيط الهندي قبل ظهور الاسلام.

ثانيا : القوى الإسلامية والصينية وشراكة تجارة المرافئ.

1- السفارات الدبلوماسية والعسكرية وتوسيع النشاط التجاري.
2- الوسيط التجاري الفارسي " بوسي –Posee".

ثالثاً : المعاملات والعقود التجارية في أسواق المحيط الهندي.

رابعاً : النشاط التجاري في المرافئالكبرى للمحيط الهندي .

1- **مرافئ شبه القارة الهندية**
2- **التجارة في جزيرة سرنديب (سيلان = سيرلانكا)**
3- **النشاط التجاري في المرافئ الأندونيسية وماليزيا.**
4- **الأسواق في النظام الإقتصادي الصيني عهد أسرة تانغ وصونغ**

أولاً: تجارة المرافئ في سواحل المحيط الهندي قبل ظهور الإسلام :

إن ازدهار التجارة الآسيوية القاطعة للمسافات الطويلة، عريقة في المحيط الهندي، وتعود إلى فترات أبعد من تتواجد النشاط الأوروبي فيها، وكان نشاط تجار الممالك الهندية الساحلية القديمة سواء في الهند الكبرى (شبه القارة الهندية) أو الهند الصغرى(أندونسيا، ماليزيا) يتنقلون بين المرافئ الكبرى بفضل إتقانهم لأساليب وتقنيات علم النواتي[1] البحري لخوض التجارة البحرية، فلقد حازوا هذا العلم لكونهم مجتمعات ساحلية، في المحيط الهندي، ولم يكن يهم التجار الهنود طيلة سفرهم الطويل تجاوز مخاطر قراصنة البحر، أو غضب الملوك وأمراء الممالك الهندية الساحلية، بقدر ماكان يهمهم مواجهة تقلبات، والخطر الأكبر منهم جميعا، وهو البحر المحيط ورياحه القوية، لذلك أصبحوا ضليعين في نظريات الملاحة البحرية، والمعارف الفلكية كما أصبحوا أسياد التجارة البحرية، والوسطاء الأساسيين فيها.[(2)]

كانت المبادلات التجارية في أيدي خبراء ومؤهلين، وكانوا ينشطون كأفراد خواص يتمتعون بدعم من الممالك، وتمتعوا بحرية سياسية غير عادية في النشاط ضمن تجارة المرافئ The emporia Partnership Trade للمحيط الهندي، وفي حين كان هذا هو الوضع الطبيعي لتجارة عبر القارات في المنطقة، كان هناك جماعة من الحكام الآسيويين من يشاركون أحيانا في رحلات تجارية بحرية، تدفعهم الرغبة في تحصيل الأرباح حينما

[1]-من نوت : نات الرجل نوتا: تمايل، وهو أيضا في نيت، والنوتي: الملاح. الجوهري: النواتي الملاحون في البحر، وهو من كلام أهل الشام وأحدهم نوتي، النوتي الملاح الذي يدير السفينة في البحر، وكأنه يميل السفينة من جانب إلى جانب. للمزيد يراجع: ابن منظور: مادة " نوت"، لسان العرب، مج.2، ص.101.

[(2)]– Choudhuri K.N : Trade and civilization in the Indian océon ,an Economic History from the Rise of Islam to 1750 , Cambridge University Press ,2001 , P.15.

تكون الرؤية واضحة، والظروف مناسبة، فتخرج حينها السفن تحت أسمائهم، وكثيرا ماتكون بشركة مع أغنى التجار وأكثرهم خبرة.[1]

والثابت أن خلال القرن السادس الميلادي، كانت جزيرة سريلانكا (سيلان ceylon) هي ملتقى التجار القادمين من الصين، ومن الجزيرة العربية، وباقي الممالك الهندية، حيث شهدت الجزيرة نشاطا تجاريا كثيفا حينها، فقد ذكر الجغرافي الرحالة الإغريقي كوزموس cosmos في القرن السادس الميلادي، أن " ***موقع الجزيرة المتمركز في وسط الطريق البحر نحو الشرق الأقصى جعلها مقصد السفن التجارية من كل مكان؛ من الهند ومن إيثوبيا وفارس ومن أبعد البلدانأقصد بها تزينستا Tzinista(الصين) وبلاد أخرى، حيث تجلب سفن هذه الأخيرة الحرير، وتصلها سفن بلاد حمير (اليمن)، فجزيرة سيلان تَتلَقى سلع من كل البلاد المشار إليها وفي نفس الوقت تصدر منتجاتها الخاصة إلى كل الاتجاهات*** " [2]

يجب التمييز بين مجالين من الرحلة التجارية البحرية في المحيط الهندي، يحتل المجال الأول مكانه بين المدن التجارية المتجانسة، ما بين البحر الأحمر والخليج الفارسي، لاسيما بعد أن تم توحيدها في القرن الأول الهجري السابع الميلادي تحت راية الإسلام، أما المجال الثاني فيقع ضمن المسار الطويل بين شبه القارة الهندية، والجزر الإندونيسية وبلاد المالاوي

---

(1)– Chaudhuri K.N : Trade and civilization , P.16 , Chou JU–KUA : His work on the chinese and Arab Trade in the Twelve and thirteen Centuries , entiteled chu.–fan– chitranslated by : Fredirich Hirand w.Rockill.P.03

(2)– ARNOLD: op.cit , P.294 .

والصين، وشكَّل الأول الذي يحده المحيط الهادي من جهة، والبحر المتوسط من جهة أخرى حلقة التجارة العالمية [1].

كما يُمَيَّز بين التجارة البحرية Le Commerce maritime والملاحة التجارية La navigation Commercialeفعلى الرغم من وجود صِلة قوِّية بينهما، إلا أنهما مجالين مختلفين ؛ فالتجارة البحرية لها وحدات إحصائية خاصة تتعامل بها وهي العملات الدوقية الجنوية Le Ducat، الفلوران الفلورنسيةLe Florin، الدرهم، الدينار أو غيرها من معايير العملات النقدية، أما الملاحة التجارية فوحداتها الخاصة هي؛ الميل Le mille المرحلة البحرية La lieue marineوتقدر بحوالي أربعة كيلومترات، ووحدة " برميل" Le Tonneau لقياس حجم قدرة استيعاب السفينة، ووحدة لقياس شكل أو قالب المركوب Le Last، القنطار وغيرها من معايير قياس المسافة أو الوزن والحجم.والدليل المرجعي الأساسي للتجارة هو عدد العمليات التجارية المنجزة، بينما بالنسبة للنقل هو حجم البضائع المنقولة المُعبر عنها بالطُّن على المَيْل البحري. كما يدخل في الميدان التجاري معايير أخرى خاصة بالكيف أو النوع، حيث يمكن التمييز بين صنفين من التجارة؛ تجارة حسب النوعية وتجارة حسب الحجم، وذلك باعتبار البضاعة الخفيفة الوزن غالية الثمن أو بضاعة ذات حمولة كبيرة وثمنها ضعيف وعموما كل البضائع المحملة في المراكب تُقيَّد في كشوف التجار [2].

---

(1)– Chaudhuri K.n : opcit , P.15.

(2)– Com Nougue , Michel : Les nouvelles méthodes de Navigation durant Le moyen age, Conservatoire national des arts et métiers, CNAM 2012 , Thèse Doctorat soutenue le 29 novembre 2012 , Ecole Doctorale ABBE Grégoire Histoire Techniques Technologie Patrimoine , P.26

وفي بادئ الأمر كانت المراكب تلتزم الملاحة في المحيط الهندي، بمحاذات سواحل الجزيرة العربية وجنوبها والتوجه نحو الشرق باتجاه مضيق هرمز ثم الالتصاق مجددا بالساحل الهندي والمواصلة على هذا النحو نحو الجنوب، ولكن مع الوقت وخبرة الطريق أصبح الملاَّحون، يقطعون الطريق مباشرة من ميناء عدن على السواحل العربية إلى خليج كمباي Combay أو نحو سواحل المالابار، وهو الطريق الذي كانت تسلكه المراكب الرومانية القادمة من الإسكندرية بمعدل حوالي سبعون رحلة في الموسم الواحد، وهو ما تؤكده الرحلات الميدانية التي قام بها الملاح اليوناني" بلين القديم" 23-79م Piline l'Anciene، والجدير بالإشارة إليه أن هذه الطريق قبل أن يكتشفها الرومان، كانت تحت السيطرة الكاملة للملاحين الهنود الذين كانوا يذهبون في خط مباشر رابطين الهند بالساحل اليمني في عدن. ثم اكتشفه الرومان وحذوا حذْوَهم.[1]

ارتبطت الملاحة التجارية في مياه المحيط الهندي، بمراقبة هبوب الرياح الموسمية المناسبة، وقد أعطى الملاَّح ابن ماجد قائمة دقيقة بالمواعيد والتواريخ المحددة التي يحبذ فيها، خروج المراكب لقطع المحيط، ومن المستحسن حسب تقديراته أن لا تُبحر متأخرة خشية أن تفقد الرياح الموسمية قوتها قبل نهاية الرِّحلة، وسلوك نفس الطريق حين العودة للوصول إلى نقطة الانطلاق، من جهة أخرى أثبتت التجارب – حسب الملاح ابن ماجد- أن الرياح الموسمية الجنوبية الغربية أشد من الشمالية الشرقية، لاسيما إذا كانت الرياح في أوج موسمها، حينها نوافذ من الأزمنة المواتية للانطلاق بمراعاة المرافئ وموقعها [2].

---

(1)- Com Nougue , Michel : Les Nouvelles .P.59-60.

(2)- Com Nougue , Michel : opcit , P.60

ثانياً-القوى الإسلامية والصينية وشراكة تجارة المرافئ:

شكل حدثان هامان منفصلان جغرافيا ومتقاربان زمانيا، نقطة البداية لنظام عالمي جديد بالنسبة للتجارة وحضارة المحيط الهندي، ففي عام 618م صعد " لي يوان" " Ly yuan" عرش الإمبراطورية السماوية الصينية، إثر مقتل آخر أباطرة أسرة سوي the sui dynastyولقب لاحقا بصاحب النسب العالي، وخلفه ابنه لي-شي- مين Li.Shih-min، الملقب بالجد الأعلى الأكبر " The grand Ancestor"، واشتراك الرجلان في تأسيس حكم أسرة تانغ 618-907م، وهي من أقوى الأسر الإمبراطورية التي حكمت الصين، وضعت أسس سياستها الداخلية والخارجية عبر تاريخها الطويل.

في نفس الفترة الزمنية وتحديدا بعد أربعة أعوام، في 6 جويلية 622م وفي الجزيرة العربية، هاجر النبي محمد صلى الله عليه وسلم، من موطنه مكة ليستقر بالمدينة، وسيطر حينها على الطريق الذي يربط مكة بالشام، وتحديدا بأسواق غزة وبصرى وشرع في تأسيس دولة إسلامية مترامية الأطراف، ولم ينقضي النصف الأول من القرن السابع الميلادي، حتى أصبحت القوتان تهيمنان على الطرفي الشرقي والغربي للمحيط الهندي، وغدت منطقة جاوة هي نقطة التقاء واحتكاك الطرفان تجاريا.[1]

خلال فترة السيادة الإسلامية القرن الأول /7م إلى التاسع الهجري -15م، كان ثمة نطاقين تجاريين حيويين، يقعان على حدود سوق واسعة غنية بسلعها الثمينة المطلوبة، يمتد خارجيا على سهوب آسيا الوسطى المعروف بطريق الحرير البرِّي، كما يمتد في ما وراء

[1]- Chaudhuri K.N : opcit,P.34

خلجان البحر الفارسي، والبحر الأحمر ما عرف بطريق التوابل أو طريق الحرير البحري [1]، وكلاهما كانا يمثلان موردا ماديا معتبر سواء للخلافة الإسلامية أو الممالك الواقعة على السواحل البحرية وصولا إلى الإمبراطورية الصينية مقصد كل التجار المنطلقين من الغرب نحو الشرق.غير أن الطريق الاكثر أمنا وسلوكا من طرف التجار كان الطريق البري الذي لم يكن يحاد عنه إلا فترات الحروب والفوضى الداخلية، ذلك لخطورة الطريق البحري الذي تتحكم في الرياح الموسمية، وفي هذا الموضوع سجل التاجر اليهودي بن يامين التيطلي الأندلسيBenjamain of Tudéla،أن للوصول إلى بلاد " زين Zin" (أول كاتب " أوروبي" يشير إلى الصين بهذا التسمية) يجب المرور عن طريق بحر محفوف بالمخاطر لأن به رياح قويةوتطول رحلته البحرية.[2]

وكانت فكرة الابحار في المحيط الهندي من أكبر المخاوف التاجر اليهودي يعقوب الأنكوني فلولا الضرورة التي فرضتها أعماله التجارية المتراجعة فيهناك، لما عرض نفسه لخطر العواصف البحرية القاتلة في المحيط الهندي.[3]

في القرن الاول الهجري/ السابع الميلادي، اتسع نشاط التبادل التجاري بين الصين وبلاد فارس والجزيرة العربية، وأصبح ميناء سيراف على الساحل الشرقي للخليج الفارسي هو مرسى السفن الصينية " الجنك" " Junk"، وكانت أسرة تانغ قد أطلقت العنان للتجارة البحرية والانفتاح على الممالك الغربية، حتى أنها أشارت في سجلات حولياتها التاريخية المعروفة ب " كوانغ تونغ" Kawang Tung، الى وصول المسلمين الأوائل إلى الصين كتجار أجانب

---

(1)- Hourani.J.F : Arab seafaring , Khayat ,Beyrut, 1963,P.64

(2)- BenJamain of Tubela : opcit , P.59

(3)- Jacob D'Acone : op.cit , P.55

فسجلت " في بداية عهد تانغ، وتحديدا إلى ميناء كانتون أعدادا كبيرة من بين جملة الأجانب من ممالك الأنام Annam كمبوديا، ***"ومن مملكة " مو.ده- نا Mo -De -na " (المدينة) وهؤلاء الغرباء يعبدون السماء (الله) دون صورة أو تمثال في معابدهم، وهذه المملكة قريبة من الهند، ديانة أهلها تختلف في أصولها عن البوذية، وهم لا يأكلون لحم الخنزير ولا يشربون الخمر ويعتبرون أي حيوان لم يذبح على طريقتهم غير طاهر، ويعرفون اليوم ب هوي هوي Hui–Hui وكانوا قد سألوا الإمبراطور أن يسمح لهم بالإقامة في " كانتون" ووافق على طلبهم فأنشأوا فيها دورا رائعة ذات طراز مختلف عن دور بلادنا، وهم تجار أثرياء جدا، ويطيعون الزعيم الذي اختاروه بأنفسهم ليرأسهم*** " [1]

لذلك يرجح أن استقرار التجار المسلمين في "كانتون" في هذا الوقت المبكر، هو ما أكَّد فكرة أن دخول الإسلام إلى الصين أول الأمر كان عن طريق البحر. غير أنه توجد مؤشرات أخرى في سجلات الصينية التي يمكن اعتمادها، والخاصة بالعلاقات الديبلوماسية تشير إلى وجود اتصالات بين المسلمين، وأباطرة أسرة تانغ عن الطريق البري، وذلك حين أسقط المسلمون حكم الإمبراطورية الساسانية وقضوا على "يزدجرد" آخر الا أكاسرة الفرس، فاستنجد ابنه فيروز بإمبراطور الصين طالبا مساعدته، لكنهم رأوا أن بعد المسافة حتى بلاد فارس يصعب من مهمة انتقال الجيش، وقاموا بإرسال سفارة إلى المسلمين في المدينة لتحري حقيقة هؤلاء القوم الذين أطاحوا بالملك الساساني، و حسب السجلات الصينية أرسل الخليفة عثمان

---

(1)- ARNOLD.TW : op.cit , P.294-295

بن عفان أحد قادته العسكريين، لمرافقة السفارة الصينية في طريق العودة، وكان ذلك عام 30هـ/651م، واستقبله الإمبراطور بحفاوة كبيرة.[1]

حسب ما سجلته حوليات أسرة تانغ فإن السفن التجارية الصينية ترددت على ميناء " وولا- wula" أي الأبله جنوب البصرة في عهد الخليفة عمر بن الخطاب (13-22هـ/634-643هـ)، وبالرغم من أن ليس هنالك ما يؤيد هذه الرواية، لكن الأرجح أنه كانت ثمة جماعة من السفن المتعددة الجنسيات ترددت على الميناء، منتقلة بين موانئ الخليج الفارسي والموانئ الجنوبية للصين لاسيما ميناءها المركزي حينها " كانتون"، فيبدوا أن الازدهار الذي عرفته الصين في فنون الملاحة البحرية، أوصلت السفن الصينية إلى سواحل الجزيرة العربية، وكانت تستورد المواد النادرة والجديدة، خاصة منها المواد العلاجية الطبية التي كثر الطلب عليها أكثر من ذي قبل.[2]

1- السفارات الديبلوماسية والعلاقات العسكرية وتوسع النشاط التجاري:

في نفس الوقت كان للبيت الأموي دوركبير، في ربط علاقة اقتصادية متينة مع بلاط أسرة تانغ، التي توسع نفوذها في البحار الشرقية، اجتماعية مفككة إلى ساحة تديرها سلطة واحدة قادرة على تنظيم وإدارة مقدراتها العظيمة على الرغم من تنوع مكوناتها العرقية والعقائدية، وهي الدولة الأموية التي وجهت اهتمامها نحو ارتياد البحر وتنشيط المبادلات التجارية، ففي هذا السياق كتب جون أوف فيناك John of Phenek أحد المسيحيين

---

(1)- Arnold .TW : op.cit , P.295

(2)- JiH- Ming- chang : Les Musulmans sous la chine des Tang(618-905),Cheng wen- Taipei,1980 , P.96

النسَّاطرة من شمال الجزيرة الفراتية Mésopotamiaفي القرن الأول الهجري، واصفا عهد الخليفة معاوية بن أبي سفيان فسجل ما يلي: ***" في عهده، أزهر العدل تحت حكمه،وعمَّ سلام كبير في البلاد التي تسوسها قوانين دولته .... وأعطت الأرض ثمارها بسخاء كبير، وعمت الأخوة والرخاء بين الناس وتضاعف حجم التجارة."*** [1]

وكان للاحتكاك العسكري الأموي- الصيني في عهد الوليد بن عبد الملك 86-96هـ/705-715م، دور في تعريف الحكام الصينين، بمدى قوة وخسارة جيوش العربيةالإسلامية، حينما فتح القائد قتيبة بن مسلم الباهلي- كما مر بنا في الفصل الأول- مدينة كشغر Kachgar في آسيا الوسطى التي كانت ضمن المحميات العسكرية الصينية في المنطقة وأرسل سفارة إلى الصين معلنا دخول المنطقة برمتها تحت سيطرة الخلافة الأموية.[2]

وبعد فترة زمنية قصيرة أشارت الحوليات الصينية إلى وصول سفير عربي يدعى سليمان من طرف الخليفة الاموي هشام بن عبد الملك عام 107هـ/726م في عهد الإمبراطور هسوان تسونغ Hsuan-Tsung . وكان لهذه السفارات دور في دعم مكانة التجار المسلمين، ومصالحهم في الصين، وتتالت السفارات الديبلوماسية للأمويين في البلاط الصيني، كتلك التي سجلتها في الفصل 795 حوليات الشهر الثاني عشر، حسب التقويم الصيني الموافق ل 123هـ/741م حيث وصل سفير من بلاد داشي (العرب)، ليقدم تَحِيَّاته

(1)- Chaudhuri K.N : Op.cit , P.44

(2)- Arnold .T.W : op.cit , P.295

واحترام ملكه، وقد تم اعطائه لقب "القائد العام للحرس كيو – وُو"Kiu –ou ،، كما منح رداء بنفسجي مع زنار مزدان بالفضة .(1)

إلا أنه يعود أقوى عوامل تكوين مجتمع التجار المسلمين الأوائل في الصين إلى عام 138هـ/756م، وذلك في خضم أحداث الانقلاب على الإمبراطور الصيني هسوان تسونغ المذكور، فيها طلب من الخليفة العباسي أبو جعفر المنصور بدعمه عسكريا، فأرسل كتيبة من الجنود المسلمين الذين نجحوا في مساندته، واستعاد عاصمتي ملكه وهما مدينة سنيان فو Singan- Fu، و"هو- نان- فو "Hu.nan-Fu من أيدي المتمردين، ويبدوا أن هذه الحادثة كان لها نتائج بعيدة المدى، أبعد من الحفاظ على حكم الامبراطور " هسوان" حيث لم يغادر الجنود المسلمين الصين. وتذكر الروايات أنهم نقلوا إلى مدينة كانتون الساحلية للإبحار إلى البلاد الإسلامية من هناك، إلا أنهم أرادوا الاستقرار بها والاشتغال بالتجارة لاسيما وأن جماعة من التجار المسلمين كانوا يقيمون في المدينة- من عرب وفرس- إلا أن حاكم المدنية رفض وأراد ترحيلهم بالقوة الأمر الذي دفع بهم إلى التمرد واحداث شغب في كانتون ونهبوا البيوت التجارية الكبرى بها . ويبدو أنها كانت ثورة عارمة أجبرت حاكم المدينة لاحتماء داخل القلعة، ولم يدخل إلى المدينة حتى اعطاه الامبراطور موافقته بالسماح لهؤلاء المقاتلين المسلمين بالبقاء في كانتون والاقامة بها، ليس هذا فحسب وإنما منحهم منازل وأراضي في مدن مختلفة، حيث استقروا وتزوجوا بصينيات.(2)

---

(1)- Chavannes .E.D : « Notes additionnelles sur les Toukiue Ture occidentaux » in ***Toung Pao,*** BiLL Leiden 1906 , serie II , Vol 5, P.67.

(2)- De thiérsant Darby .P : Mahometisme en chine, PP.70-71, Arnold.T.W : opcit,P.296

يبدو واضحا أن الصين، كانت تعاني من ضعف عسكري واضح، دفع بها إلى الاستعانة بطرف خارجي للتحكم بزمام الأمور، فضلا عن أن هذه الاحداث المروية في حوليات أسرة تانغ، تؤكد وجود تجمع للتجار المسلمين استقروا في مدينة كانتون، منذ زمن أبعد من تاريخ هذه " الثورة"، وأن أعدادهم الكبيرة ساهمت في أحداثهم فوضى عارمة، وفي هذا السياق ذكر " حوارني" أن هذه آخر مرة، أُشير فيها إلى " بو.سي" الفارسي في الحوليات الصينية، حيث استبدلت منذ ذلك الحين بمسمى" داشي" Dashi/Duoshi/Tachi ، وهكذا عُرِف التجار المسلمين في السجلات الرسمية في الصين [1]. ويمكن القول أن متانة العلاقة ، بين الحكام المسلمين- سواء من أمويين أو عباسيين- مع الأباطرة " تانغ" هو ما ساهم في انتشار الإسلام في الصين، وذلك عن طريق السماح بإنشاء مستوطنات للتجار المسلمين، في أكبر مدن الساحل الجنوبي الصيني، التي أصبحت مرتكزا لنشاطهم التجاري ، و منطقهم منها. و كان من اهم نتائج حادثة نهب كانتون عام 140هـ/758م ، أن مُنع التجار الأجانب، من الوصول إلى المدينة لفترة زمنية طويلة ، أصبح خلالها ميناء " تونغ كينغ "Tong-King [2] هو الحد الذي تتوقف عنده السفن التجارية الأجنبية،

---

[1]- HOURANI, J.F : op.cit , P.63 , Vendermeerch :« Les Relation sino.Arabes aux XV et XVI,un chapitre de L 'Histoire des Ming» , in **cahier de L'Inguistique , d'orientahisme et de slavistique** , n°1,2 , P.271

[2]- عرف بكياو-شي Kiau-Chi في المصادر الصينية، يرى إداورد شافان chavannes .E أنها التسمية القديمة لإقليم هانوي Hanoi ، وأضاف بيليو Pelliot أنها التسيمة الأصلية المُحرَّفة، لما يعرف اليوم بإقليم كوشين- شين Cochin china، والواضح أنها المنطقة الساحلية المحاذية لجنوب شرق الصين،على الساحل الأنام Annam، وقد ذكر الموظف الصيني شو-جو-كو chu.Jukua (القرن.12م) أن كل الأسر التي حكمت الصين حرصت على إبقاء كتائب من الجيش الصيني على هذا الساحل بصفة مستمرة، وقد تعرضت هذه السياسة،لانتقادات كثيرة داخل الصين، بوصف أن المنطقة لاتعود بفائدة اقتصادية كبيرة على الصين، بينما الوجود العسكري الصيني فيها أثقل خزينة الدولة، إلا أن نزعتها التوسعية جعلتها تحافظ على تواجدها هناك. للمزيد يراجع:Chu.Ju.Kua : chu.fun.chi , P.45-46

إلى أن أعيد فتح مرافئ مدينة كانتون أمام نشاط الأجانب عام 175هـ/792م وذلك حسب ما أشارت إليه السجلات الصينية[1].

ونشطت بوضوح شراكة التجار المسلمين، في أكبر المرافئ الهندية والصينية، منذ مطلع القرن الثاني الهجري/ الثامن الميلادي، فكان أن أنشأ التجار المسلمون القادمون، من سواحل البحر الأحمر والخليج الفارسي، مستوطنات تجارية حضارية على سواحل المحيط الهندي،و حتى* في السواحل الشرقية لأفريقيا في أكثر من موضع، كمقديشو وزنجبار وكيلوا، التي ارتبطت بتجارة المحيط الهندي.وليس هناك أدنى شك في أنه لم يكن حينها أي نوع من الحقد الديني اتجاه المسلمين في كل من الهند والصين.[2]

ولقد كان من مظاهر انصهار التجار المسلمين في المجتمع الصيني، تشبع المسلمين بالملامح الصينية وذلك بفعل المصاهرة، كما وجهوا مخاطر التقلبات السياسية التي مرت بها الصين، خاصة في الفترات الأخيرة من عمر أسرة" تانغ"، فعندما قامت ثورة المتمرد هوانغ شاو Huang chaoعام 264هـ/878م، وقضت على أكثر من مائة وعشرون من التجار الاجانب، كان أغلبهم من المسلمين، هذا إلى جانب مسيحيين النساطرة، ويهود ومجوس، ويعود سبب ذكر اعدادهم إلى أن الإدارة الصينية كانت تقوم بإحصاء التجار الأجانب المقيمين في الصين حتى تضبط قوائم الضرائب. ويدل هذا العدد المعتبر للتجار الأجانب في مدينة كانتون على الحجم الكبير للمبادلات التجارية في الصين أواخر عهد " تانغ"[3].

(1)- HOURANI , J.F : op.cit, P.66

(2)- CHAUDHURI, K.N : op.cit , p.44

3- Hourani.J.F :op.cit , P.77-78

ولقد أتبعت هذه الأحداث الدموية في المدينة. بحالة من الفوضى فرض فيها التضييق على الجاليات المسلمة العربية، وسجلت تجاوزات في التعامل مع أصحاب المراكب المرتادة للمرافئ، كما عمد هؤلاء المتمردين إلى فرض اعباء رسوم اضافية غير قانونية وجائرة على التجار، ثم قاموا بمصادرة ثرواتهم، في الوقت الذي ضعفت فيه قوة أسرة "تانغ"ما جعلها تفقد زمام الأمور.[1]

أما من الجانب الغربي فقد تم اعتماد – في البداية- ميناء الأبلة الساساني في التواصل التجاري مع المراكز التجارية في المحيط الهندي، ثم أتبعت بمدينة البصرة التي أنشأت حديثا 17هـ/638م. ومدن الساحل الفارسي مثل سيراف وكيش وهرمز التي سرعان ما ازدهرت في خضم تجارة المرافئ الكبرى. وكان ملاك السفن وأصحاب المراكب القادمين من الشرق يجدون أسواقا جاهزة للتبضع بالسلع، لاسيما وأن مواعيد رحلاتهم مرتبطة بمواقيت الرياح الموسمية، فيحملون ما يحتاجونهو يسلكون طريق العودة إلى أوطانهم، فقد مثلت البصرة لقرون عديدة المرفأ التجاري الأول والمدينة الإسلامية بكل مقاييسها، هذا إلى جانب أن كل من العراق وبلاد فارس كانتا مركز الحضارة الفارسية بمكوناتها الاقتصادية الثرية .[2]

كانت البصرة بالنسبة لتجار العالم في العصر الإسلامي، مبدأ التجارة البحرية للتوابل والحرير، وأهم أبواب المحيط الهندي، وبها مركزا تجاريا تفرغ فيه حمولة المراكب، والسفن التجارية القادمة من كل مكان، كما شحن منه بضائع متنوعة، ففي البصرة مصانع لأنواع ثمينة من الأقمشة الحريرية، التي تختص بصناعتها- وحسب ما نقله التاجر الأنكوني يعقوب

---

[1]- Hourani.J.F :op.cit , P.77-78

[2]- CHAUDHURI , K.N :op.cit, P.47

اليهودي، كان يجلب منها الحرير المشجر بكل أنواعه نقشي Nacchi، وتقشيني Nacchini والبروكار Brocarts ، ذات الرسوم المميزة لحيوانات برية كالأسود والدببة وغيرها، وهي منسوجة بخيوط ذهبية تدل على مهارة حرفية عالية جدا.وكانت بالبصرة ورشات لبناء السفن التجارية الكبيرة القاطعة للمحيط الهندي نحو جزيرة سيلان (سيرلانكا)، وقد كانت شركات تجمع ملاك مسلمين ويهود.[1]

كما لا يمكن إغفال الدافع الاقتصادي التجاري وراء اختيار المنصور أبو جعفر لموقع مدينة بغداد عند الأمر بإنشائها، فلقد وقع اختيار الأطراف الجنوبية لنهر دجلة، لارتباط النهر بمياه المحيط الهندي، وخيرات وسلع الشرق الأسيوي، حيث نقل الطبري في كتابه على لسان المنصور عن سبب بناءه المدينة في الموضع التي هي عليه " ***هذا موضع معسكر صالح، هذه دجلة ليس بيننا وبين الصين شيء، يأتينا فيها كل مافي البحر، وتأتينا الميرة من الجزيرة وأرمينية وماحول ذلك، وهذا الفرات يجئ فيه كل شيء من الشام والرقَّة وما حول ذلك*** ". فأصبحت بغداد بعد اتمام بناءها عام 146هـ، مرسى لبضائع من مختلف ممالك وإمبراطوريات العالم حينها، فلم تكن تصل إليها بضائع البصرة، والأبلة وعمان فحسب، ولكن كانت تصلها تجارة الشام ومصر وشمال افريقية، وأذربيجان وأرمينيا واصفهان وخرسان، ومن بلاد الروس والبلغار عن طريق الفرات، والدجلة فكان اختيار موقع المدينة

---

[1]- Jacob , D'Acone : La cité de Lumiére , P.84, 84

بين مجرى نهرين كبيرين وبالقرب من المحيط الهندي أن جعلها سوقا كبيرة وخاضعة لبضائع ثمينة وباذخة وتصلها من كل أصقاع الأرض.حتى الصين وهي أبعد الممالك.[1]

فيما بقيت مدينة البصرة محافظة على صدارتها الاقتصادية والتجارية حتى في الفترة التي تلت سقوط العاصمة بغداد في يد المغول، فذكر التاجر يعقوب الاتكوني الذي زار المدينة في حدود عام 668هـ 30-31 جويلية 1270، أن نشاط التجار الاجانب في المدينة كبير جدا واغلبهم قدموا من الهند الكبرى والجور الأندونيسية ومن الصين، لاسيما وان المدينة مرتبطة بمرفأ جميل يعرف ب " صراغي" Saraggi تصله السفن الصينية التجارية الكبيرة وتستخدمه في إنزال او شحن البضائع، ولليهود مستودعات في المرفأ، كما لهم ورشات لبناء المراكب ويأجرونها إلى التجار الذين يقصدون بلاد الهند .[2]

2-الوسيط التجاري الفارسي "Po.See":

بقي العنصر الفارسي، محافظا على مكانته التجارية في الصين، حتى بعد الإسلام، وهو ماتُشير إليه السجلات الصينية، فمن أقدم الإشارات لتواجد سفن للتجار الفرس المسلمين في ميناء كانتون تعود إلى عام 51هـ/671م، حيث تذكر أن أحد الرُهبان البوذيين الصينيين يي جينغ Yi-Jing، استقل أحد مراكب التجار الفرس، التي انطلقت نحو الهند مُبحرة جنوبا، نحو سومطرة ومنها نحو الغرب، كما تذكر الروايات الصينية توافد عدد كبير من سفن القادمة من جزيرة سيلان(سيرنلانكا)، إلى الميناء المذكور عام 98هـ/717م وكان عددهم

(1)– الطبري: تاريخ الرسل والملوك، الطبعة الثانية، دار المعارف، القاهرة، 1976، ج7، ص614. ; Hourani ,J.F op.cit , P.64

(2)– Jacob D'Acone : op.cit, P.84

حوالي خمسة وثلاثون مركبا، كان من بينها سفن لتجار مسلمين فرس، كما سجل توافدهم عام 727م " على بلاد الهان "Han" (الصين) لجلب الحرير وبضائع أخرى مشابهة"، ويبدو أن نشاط التجار الفرس المسلمين كان كبيرا في هذه الفترات الزمنية المبكرة، حتى أنهم كانوا يقيمون في جزيرة هينان Hainanجنوب الصين، وأنشأوا بها قرية خاصة بهم، التي كشفت عنها التنقيبات الأثرية مؤخرا، وتعود إلى عام 130هـ/748م، وهي نفس الفترة التي تشير فيها المصادر الصينية، إلى وجود مراكب تجارية للأجانب، من بوسي وبراهمة هنود وملاويين.[1]

والمعروف أن السفن التجارية للوسطاء التجار الفرس كانت تتردد على الموانئ الغربية وبقيت نشاطهم حتى بعد انتشار الاسلام وهو ما أكدته التنقيبات الأثرية الحديثة في ضاحيته كوجيان Qujian في إقليم كانتون حيث تم العثور على مجموعة من القطع النقدية الفارسية في إحدى القبور التي تعود إلى القرن الخامس للميلاد .[2]

تبوأ العنصر الفارسي مكانة خاصة في بلاط أسرة تانغ، حيث سجل في عام 95هـ/714م قيام الإمبراطور كزوان- زونغ Xuan –Zang لأول مرة بإنشاء مكتب خاص للسفن التجارية في كانتون، أسندت فيه وظيفة مفتش السفن التجارية الأجنبية إلى أحد الرُهبان النساطرة الفرس، كانت مهمته انتقاء الرفيع من الآلات والبضائع الأجنبية، وعرضها

(1)- Hourani George Fadlo : Arab Seafaring , P.62

(2)- JiH.Ming : op.cit, P.79

على الإمبراطور، ففي هذا إشارة إلى أن الفرس المسلمين كانوا من ضمن موظفين الدولة الصينية في عهد أسرة تانغ .[1]

من شواهد نشاط التجار الفرس المسلمين، في الصين في عهد تانغ، ماذكرته حوليات هذه الأسرة، حيث ورد فيها بتاريخ يوافق 94هـ/713م، أنهم "***يَقْدِمون في جموع كالسبيل من مسافات بعيدة أقلها 1000 مرحلة، من أكثر من مائة مملكة أجنبية، حاملين معهم كتابهم المقدس" القرآن الكريم " على سبيل الإتاوة، وهناك سُلِّم إلى جهة مختصة في القصر الإمبراطوري، مهمتها ترجمة الكتب المقدسة والقانونية إلى اللغة الصينية، فابتداء من هذه الفترة انفتحت الصين على الإسلام، وسمحت بممارسة شعائره فيها بشكل علني***" [2]

ولقد وصف سليمان التاجر في حوالي 236هـ/851م، المجتمعات التجارية المسلمة المقيمة في كانتون الصينية، والمساجد التي سمح للتجار بإنشائها، لغرض ممارسة شعائرهم الدينية.[3]

---

[1]– Ming.JIH : op.cit ,P.98

[2]– De Thiérsant Derby : op.cit , vol 1 , P.153

[3]– سليمان التاجر: سلسلة التواريخ، ضمن أخبار رحلات العرب والفرس الى الهند والصين، (ج.إ) منشورات معهد تاريخ العلوم العربية والإسلامية، فرنكفورت، 1992، مج 164.،ص ص. 35،36

ثالثاً- المعاملات والعقود التجارية في أسواق المحيط الهندي:

كان شكل المبادلات التجارية في الأسواق الساحلية للمحيط الهندي يعتمد في الأساس على حركة كبار التجار وبراعتهم في انتقاء السلع المطلوبة وبأثمان مناسبة لإعادة تسويقها في أسواق المرافئ حيث يكثر الطلب عليها فكانت تنقل من إقليم إلى آخر ويجني التجار أرباحا طائلة منها. فكان كبار التجار ملزمون- عموما- بمرافقة بضائعهم إلى أسواق ما وراء البحر حرصا منهم على أموالهم وتجارتهم، وفي حالات أخرى كانوا يقومون بتكليف شركاءهم التجاريين الصغار للقيام بهذه المهمة، أو ينتهجون الطريقة الثالثة المعمول بها وهي تفويض وكلاء تجاريين وأصدقاء عن طريق تحرير وثيقة متعارف عليها، تنص بتكفل التاجر الفلاني بحمولة المركب، وتحمل شروط التعاقد الرسمي بين الطرفين.[1]

وقد تم العثور في وثائق " الجنيزة" – المخزن باللغة العبرية- في مصر والتي تعود الى العهد الفاطمي، على عقود ومعاملات تجارية بيع وشراء وتوكيلات تجارية، خاصة بيهود شمال إفريقيا وبنشاطهم التجاري في سواحل البحر الاحمر والمحيط الهندي، وهي سلسلة من الوثائق فريدة من نوعها في هذا المجال، تم اكتشافها في حدود النصف الثاني من القرن التاسع عشر، تمثل رصيدا ثريا للدراسات التاريخية، وتعكس الأبعاد الجغرافية الواسعة لنشاط

---

(1)– Chaudhuri K.N : Trade and civilization in the Indian océan , an Economic History From the Rise of Islam To 1750, Cambridge University Press , 2001, P.11

التجار عامة والتجار اليهود خاصة في العصر الوسيط، حيث تربط بين التجار والوكلاء المقيمين في مدن الموانئ التجارية، مختلف أنحاء العالم حينها.[1]

كما لم يكن تجار في العصور الوسطى يحملون معهم الكثير من العملات النقدية، وإنما كانوا كثيرا ما يعتمدون في عملية التموين بالبضائع وفي تسديد حساباتهم على ممثليهم في المحطات التجارية، أو على أفراد من عائلاتهم المقيمة هنا وهناك، او على أفراد من نفس جماعتهم الدينية أوالعرقية، ضمن اتفاقيات مالية منظمة، وينتج عن هذه العقود التجارية شراكة قوية ومتينة، فالتاجر المشتري يتعهد ويربط اتفاقه إما شفهيا أو كتابيا يدفع مبلغ من المال، في مكان آخر قد تم تحديده والاتفاق عليه، بينما كان بإمكانه تسليم القيمة المالية إلى وكيل البائع إلا أن هذه الصيغة المبنية على الثقة تسهل عمليات البيع والشراء للتجار ذوي النشاط الواسع.

كما اعتمدت أشكالا عديدة أخرى للمعاملات التجارية، كرسائل القرض التي تسحب من عائلات التجار، الذين يتمركزون في المدن الواقعة على طول الطرق التجارية ضمن مستوطنات خاصة، ويعملون بأنظمة خصم معقدة تساعد في تنشيط حركة البيع والشراء، ولقد برع في هذا المجال التجار اليهود والايطاليين في العصر الوسيط .[2]

وفي هذا السياق ليس هناك ضمن النصوص الخبرية التاريخية ما يعطينا صورة أوضح وأدق عن دور العلاقات الأُسرية والجماعات العِرْقية في حركة البيع والشراء في المراكز

---

(1)– حول الوثائق يراجع: Goitein.SD : Letters Of Medieval Jewish Traders, Translated From The Arabic with introduection and notes , Prinston 1973

(2)– Jacob d'Ancone : La cité de Lumiére, see note : Selbourne.D , P.60

الساحلية التجارية للمحيط الهندي، اوضح وأدق مما أورده التاجر اليهودي الإيطالي يعقوب الأنكوني Jacob d'Ancone الذي سبق التاجر البندقي ماركو بولو في وصف أسواق السواحل الهندية والصينية في النصف الثاني من القرن السابع الهجري/ الثالث عشر ميلادي. فمن خلال نصوص التاجر يعقوب، يتبيَّن مدى التداخل الكبير والواسع للعلاقات العائلية والدينية والثقافية التي تحكم معاملات البيع والشراء، لكافة الطوائف المسلمة والمسيحية واليهودية، وفي نفس الوقت يتبين عدم تقيد العنصر اليهودي بالحدود الجغرافية وغيرها، فهي آخر ما يمكن أن يحُدَّ نشاطهم، فالمتتبع لرحلة يعقوب التاجر اليهودي من مرفأ بلدته أنكون Ancone الإيطالية المطلة على بحر الأدرياتيكي إلى غاية وصوله إلى مدينة " زيتون" الصينية، يلاحظ تمركز شبكة من العائلات اليهودية من الشركاء وأصهرتهم في كل محطات التجارية المنتشرة على طول الطريق التجاري البحري وصولا إلى الصين، وهي هدف كل السفن التجارية في العالم،فإذا أخذنا عائلة يعقوب بن سلمون كمثال نجده يبرز لنا أن عامل المصاهرة بين كبار التجار اليهود من أهم عوامل دعم وتوسيع شبكة النشاط التجاري اليهودي في العالم، فالتجار ذاته اصطحب معه ابنه إسحق إلى البصرة حيث عقد قرانه على ابنة أكثر تجار يهود البصرة ثراء ويدعى إزاي الصقوليIsai D'AscoLi .[1]

ويضيف نفس المصدر، أن الحسابات تجارية بين العائلات أو التجار عموما، تقام على أساس المراسلات البطيئة، ذلك لأن إدارة الأعمال كانت عملية شاقة مرتبطة بالتنقلات وطول المسافة، وعموما كان يتم اختيار الوكيل التجاري " Commissi" والساعي Fattori من بين المهاجرين المنتمين إلى نفس العائلة أو الديانة أو إلى نفس البلد، لأن المعاملات

(1)- Jacob d'Ancone : op.cit, P.84

التي تستند إلى رؤوس أموال ضخمة أساسها **الثقة**، ولكن مع ذلك –أكد التاجر اليهودي– أنه لا غنى للتجار الشركاء عنالانتقال والسفر، بين المرافئ التجارية البعيدة للوقوف على البيع والشراء، ومراقبة الوكلاء والسُعاة المستخدمين من حين لآخر، وإبطال بعض الاتفاقيات التجارية، وضبط الحسابات، وتحصيل الأموال والديون، وتغيير الموظفين، إذا لم يكونوا في مستوى الأمانة،والمهام المكلفين بها، فهي ضرورة لا يمكن للتجار تَغافُلَها، فيقطعون المسافات الطوال بالرغم من خطورة الملاحة في المحيط الهندي، وبُعْدِهم لأعوام عديدة عن أهلهم وديارهم، حتى لا تتراجع أموال التاجر حَدَّ الإفلاس، كما حدث مع والد التاجر يعقوب[1].

ومن مهام الوكلاء التجاريين اللاتين واليهود والأرمن والمسلمين وغيرهم في المرافئ التجارية الصغيرة تسيير شؤون مكاتب الصرافة ومباسط السلع المعروفة لدى التجار الإيطاليين عامة ب " فونداقو Fondaco، وهي مخصصة للقيام بإدارة حساباتهم التجارية، حيث تتواجد مخازن السلع، فيستلم الوكلاء شحنات من البضائع هناك، ويشترون أو يصرفون أخرى، وفيها تصلهم دفعات من مستحقات المالية أو ينفذون دفعات مالية، ولكنهم في نفس الوقت يعتقدون اتفاقيات تجارية لحسابهم الخاص في المكاتب التجارية المذكورة.[2]

ويبدو أن العائلات والشركاء اليهود واللاتين – خاصة منذ القرن هـ/13م – نسجت علاقات تجارية واسعة ليس في مدن المرافئ للبحر الأبيض المتوسط فحسب وإنما في السواحل الشرقية للمحيط الهندي، وفي أكبر مراكزه التجارية، في الهند وإندونيسيا والصين،

---

(1)– Jacob d'Ancone : op.cit , P 101

(2)– IBID

التي كانت موزعة على طول المسلك البحري، أساسها النشاط الحرفي والشراكة التجارية انطلاقا من وسط إيطاليا، وكانت أبرز مدنها، البندقية، جنوة وفيرون، توسكانيا، نابولي، ومدن إسبانيا، ومدن الساحل الشامي والمصري، عكا وعزة والاسكندرية، ودمشق والبصرة، وسيراف وهرمز. كما يُستشّف مما دوَّنه يعقوب الأنكوني أن عدد الوكلاء اليهود العاملين لدى تجار يهود كبار أو لدى مجموعة شركاء تجاريين مسلمين، كان كبيرا جدا لاسيما المراكز التجارية لسواحل المحيط الهندي، سواء في بغداد أو دمشق أو البصرة وهرمز وغيرها.[1]

هذا إلى جانب اشتغال الوكلاء التجاريين في خدمة التجار المسلمين كالبصرة وغيرها فحسب رأي التاجر يعقوب بالرغم من مهارة التجار المسلمين في البيع والشراء، إلا أنه يبقى التفوق في مجال إمساك الحسابات وتحصيلها للعنصر اليهودي.[2]

(1)- Jacob d'Ancone : op.cit , P 101

(2)- Jacob d'Ancone : op.cit , P 84

رابعاً – النشاط التجاري في المرافيء الكبرى للمحيط الهندي :

منذ عهود قديمة كان للعنصرين العربي والفارسي دور كبير في تنشيط تجارة المدن والموانئ الآسيوية، فكانت موانئ بحر فارس [1]،والبحر الأحمر تزخر بالسلع الهندية والصينية التي كانت تجلبها المراكب التجارية [2].

تشير السجلات الصينية، التي ترجع إلى عهد أسرة هان HunDynasty (206 ق.م –200م)، أنه في الوقت الذي فتحت فيه هذه الأسرة الحاكمة الطريق البري التجاري المعروف " بطريق الحرير" أو " درب المراعي" بين الصين والغرب، فتح الداشي الطريق التجاري بحرا الذي عرف " بطريق التوابل" وكان يربط بين البحر الأحمر وبحر فارس وسواحل الصين، بالمرور عبر سيريلانكا ثم شبه جزيرة ماليزيا وإندونيسيا. [3]

ومن الثابت أن أهل عمان بصفة خاصة قد أسهموا في تمهيد هذا الطريق بفضل موانئهم في مدينتي مسقط وصُحاَري، ولم تكن مراكز تجارية حيوية ومنطلق البحرية إلى

---

[1]– عُرِفَ المسطح المائي الذي يقع إلى الشرق من شبه الجزيرة العربية والذي يرتبط ببحر عمان عن طريق مضيق هرمز " ببحر فارس" في كل المصادر والخرائط الإسلامية: المسعودي: مروج الذهب ومعادن الجوهر ج1، ص.129، الإصطخري: كتاب المسالك والممالك، ص.6، البيروني: كتاب تحقيق ما للهند، ص.96، ابو الفدا: المصدر السابق، ص.353؛ ابن حوقل، كتاب صورة الأرض القسم الأول، ص.46–47، وقد أورد خريطة تفصيليه للبحر وموقعه بالنسبة للمحيط الهندي. انظر الملحق رقم:3.

Bekingham (C.F) : “ Bahr faris “ in the **E. I**, new edition Leiden, EJ. Brill. 1986, V.I,P.P 9–27.

[2]– Sauvaget Jean.M : Relations de la chine et de L’Inde rédigé en 851, société des belles lettres 1950, p.XXXIX.

[3]– ذانج هو: المعاملات بين الصين والعرب في العصر الوسيط، حصاد ندوة الدراسات العمانية، سلطنة عمان 1400هـ –1980م، مج6، ص.10 . انظر الملاحق رقم7،10،9.

الصين فحسب وإنما كانت مراكز لصناعة السفن الشراعية العابرة للمحيط الهندي وقد وصفها أبو زيد السيرفي " بالمراكب المخروزة "[1] لأنه كان يعتمد في صناعتها على خياطة أجزاء المركب بحبال من ألياف شجر جوز الهند حيث تمرر عبر ثقوب في الألواح لتثبيتها هو أن هذا النوع من صناعة السفن لايزال يعتمد عليه في منطقة ظفار الساحلية لسلطنة عمان.[2]

من جهة أخرى كان لبحر فارس، دور الرابط بين بلدان الشرق الأقصى، والبحر الأبيض المتوسط لتمتعه بميزتين أساسيتين، تؤهله للنشاط التجاري في البحار الشرقية أولها، موقعه الجغرافي الذي يتوسط القارتين الإفريقية والآسيوية، وثانيها وقوع سواحله على المحيط الهندي الذي يتعرض إلى تأثير الرياح الموسمية، التي مثلت العامل الملاحي الأساسي،المساعد للمراكب الشراعية للتحرك نحو الشرق، ثم يعود بها إلى مناطق انطلاقها، وذلك وفقا لفترات زمنية محددة، ولقد كان البحارة العرب يستخدمون اثناء ملاحتهم، اساليب بسيطة متوارثة لتحديد الموانئ التي تقصدها المراكب، بالنسبة لخطوط العرض، اعتمادا على مواقع النجوم وتعتبر طريقة " الكمال" من اشهر الأساليب الملاحية .[3]

---

[1]– السيرفي ابوزيد: " الكتاب الثاني" ضمن " أخبار رحلات العرب والفرس إلى الهند والصين " في سلسلة " الجغرافيا الإسلامية" منشورات معهد تاريخ العلوم العربية والإسلامية، فرانكفوت، 1994، مج، صص. 130-131. انظر الملحق رقم (11) .

[2]–عبد العزيز: الدوري تاريخ العراق الاقتصادي في القرن الرابع الهجري، دار المشرق، بيروت 1976، ص.145.

[3]– Hourani (Jeorge fadlo) : Arab seafaring in the indian oaean in ancient and early medieval times , Khayets , Beirut , 1963, p.p 61–62 ,

وبقيت هذه التقاليد متبعة من طرف أبناء المنطقة، إلى ظهور الإسلام فلا عجب إذا وجد المرء في أسواق جدة " بالحجاز في القرن السابع الميلادي سلع قادمة من بحار الشرق كألياف وخشب أشجار جوز الهند.[1]

فمع إنشاء الحواضر الإسلامية على شواطئ الدَّجلة، والفرات كبغداد والبصرة وسمراء، أعطى دفعا كبيرا للعلاقات التجارية مع الشرق الأقصى، فكان التجار يسلكون شبكة من الطرق البرية، فرع منها يمر عبر بلاد فارس، ومدن خرسان نحو منطقة ماوراء النهر (transoxiane) شمالا ومنها إلى حوض التاريم Tarim، وياركندYarkand، وخوتان Khotan، والفرع الآخر يمر عبر بلاد فارس ثم خرسان، ويقطع بلاد الأفغان جنوبا ليصل إلى المدن الهندية التجارية، مثل قنوج Cannauj، والمولتان Moultan، فكانت هذه الشبكة تمثل العمق الحيوي للاقتصاد في العصر العباسي.[2]

كما تمكن المسلمون من إنشاء مستوطنات تجارية هامة، على طول طريق الملاحة البحرية الشرقية، ونجحوا في الحفاظ على نشاطهم التجاري فيها لقرون عديدة، ابتداء من جزر المالديف إلى جاوة، وسومطرة إلى جزر الفليبين، فأصبحت تحتوي على مراكز هامة لهم لاسيما أولئك القادمين من حضر موت وعمان، ومما لا شك فيه أن انتشار الإسلام، في

---

(1)- Sauvaget JeanM relation , p . XXXIII

(2)- Lambard (Marurice) : M L'Islam dans sa premiére Grandeur (VIII–XI) , Flamarion , Paris , 1971, p.47انظر الخريطة رقم (5) .

هذه المناطق إنما تعود إلى هذه الفترة الزمنية، وذلك نتيجة احتكاك أهاليها بتجار المسلمين.[1]

1- التجارة في مرافئ شبه القارة الهندية:

بالاعتماد على المدونات الجغرافية الإسلامية، - منذ القرن الثالث الهجري- يمكن حصر أشهر المدن، والموانئ الهندية التي كانت معروفة لدى التجار المسلمين وغيرهم، وذلك بحكم ترددهم المتواصل عليها. ويبدو أنها كانت تتوزع على ثلاث مناطق هامة :

المناطق الداخلية السندية الواقعة، في حدود الدولة الإسلامية، وهي المحاذية للشمال الغربي للسهول الهندية، شرق نهر الهندوس indus في أرض البنجاب، حيث كانت المدينتين الداخليتين " المولتان" و" المنصورة" كما وصفهما المستشرق " رينو" "M. Reinaud" مستوطنتان إسلاميتان، قائمتان في السهل الهندي، لغلبة المسلمين على النشاط التجاري فيها.[2]

كما كانت المناطق الساحلية الهنديةالغربية، معروفة بشكل واضح لدى الملاحين والرحالة المسلمين، وذلك بحكم العلاقات التجارية التي ربطت الطرفين منذ عهود قديمة لقرب المسافة بينهما. أما المنطقة التجارية الثالثة فكانت المدن الواقعة على الساحل الشرقي لشبه القارة الهندية الواقعة على خليج البنغال.

---

(1)- Sulaiman Nadawi (S) « Arab Navigation » in ***I.c***. Haydar Abad 1942 , p80. Lambard (Marurice) : Op .cit,p 48 انظر الخريطة رقم (7).

(2)- Reinaud (M) : Mémoire géographique historique et scientifique sur L'Inde intérieurement au milieu du XI sciécle de l'ére chrétien , Frankfurt university, 1993 ,p.212.

وفي العهد الاسلامي تطورت هذه المعارف تطورا ملحوظا، وأصبحت المناطق الساحلية الهندية بموانئها ومدنها والمسافات الفاصلة بينها ونشاطها الاقتصادي من الأمور المعلومة لدى الملاحين والتجار المسلمين[1]. ونشير الى أن نشاطهم كان مركزا بشكل واضح على المدن الساحلية والقريبة من الساحل، أكثر من المناطق الداخلية، فقد ذكر القزويني(ت682هـ /1284 م) أن التجار المسلمين في بلادالهند "***لايصلون إلاَّ لسواحلها أما عمقها فقلَّ ما يصل أهل بلادنا لأنهم كفار يستبيحون النفس والمال***".[2]

أ- المراكز التجارية السِّندية :

- المولتان:

تقع هذه المدينة على الشرق نهر مهران (الهندوس- Indus)، وقد اطلق عليها المسلمون تسمية ثغر بيت الذهب، وسبب ذلك أنه عندما دخلت الجيوش الإسلامية فاتحة بقيادة محمد بن القاسم، عامل الحجاج بن يوسف، وجد فيها كميات كبيرة من الذهب فسميت لذلك [3]، وذكر البلاذري أن الحجاج كان قد أنفق على الجيش، الذي فتح هذه المدينة ستين ألف ألف، ووجد ما حُمل إليه عشرين ومائة ألف ألف فقال " ***شُفِينا وأدركنا ثأرنا وازددنا***

---

[1]– Joachime Lelewel : Géographie du moyen age, publication of the institue of arabic – islamic siences , Frankfurt , 1993, in « islamic Géography » , vol 131 ; T.III, et IV , p.3-4.

[2]– القزويني (أبو زكريا)، كتاب آثار البلاد واخبار العباد، نشره فرديناند وستنفلد، في ج.إ، فرانكفورت، 1994، مج.198، ص 86.

[3]– ابن خرداذية: المصدر السابق، ص.57. انظر الخريطة رقم (9) .

ستين ألف ألف درهم" .[1]ويعدها الأصطخري من أكبر مدن الهند بعد المنصورة [2] كما وصفت بأنها من أعمر مدن هذه المنطقة، وتتمتع برخاء اقتصادي كبير نظرا للنشاط التجاري الواسع فيها، فهي تقع على الطريق التجاري الذي يصل مدن الهند بمدينة كابل المتصلة بإقليم خرسان[3].

وحسب المصادر الإسلامية، كان لصنم " المولتان" المقدس لدى الهندوس دور كبير في نشاطها التجاري، ورخائها الاقتصادي ويذكر المسعودي – الذي زار هذه المدينة عام 303هـ = 915م- أن أكثر أموال المولتان مما يحمل إلى هذا الصنم، حيث كان يقصده العباد والنساك من مسيرة أشهر، من كل أرجاء بلاد الهند والسند والصين، وهذا ما كان يدر على هذه المدينة أموالا عظيمة، كما كانوا يجلبون معهم أنواع من الذهب والجواهر وأنواع من الطيب وأفخر أنواع العود، خاصة العود القماري الهندي، الذي كانت تبلغ قيمته مائتي دينار وله ختم خاص، وكان يجلب إلى السدنة ليبخر به الصنم، إلا أن هؤلاء كانوا يتاجرون به ويبيعونه للتجار المسلمين .[4]

أشار المسعودي إلى ان المولتان، ثغر من ثغور المسلمين الكبار مع الأراضي الهندية، ويحكمها أمير مسلم من قريش "أسامة بن لؤي"، وكثيرا ما تتعرض هذه المدينة لهجمات الممالك الهندية المجاورة، محاولين استردادها، لأهميتها الدينية لديهم.

---

[1]- البلاذري أبو العباس: كتاب فتوح البلدان، نشره دي خويه في سلسلة الجغرافيا الإسلامية اصدار فؤاد سيزكين، منشورات جامعة فراكفورت 1992، المجلد 42، ص440.

[2]- الأصطخري: المصدر السابق، ص.172، 173.

[3]- المقدسي: المصدر السابق،ص ؛ الإدريسي: نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، عالم الكتب، بيروت، ط 1989، 1، مج .1، ص175.

[4]- المسعودي : المصدر السابق، ج1، ص.199؛ الإدريسي: المصدر السابق، ج.1 ص 176.

غير أن المسلمين يعمدون في حالة عجزهم عن الدفاع عنها أمام تكتل القوى الهندية، إلى حيلة مفادها تهديدهم بتحطيم صنمهم المقدس، الأمر الذي يجبر جيوشها على الإنسحاب.(1)

ولقد وصف معاصره الأصطخري هذا التمثال، الذي ألبس جميع جسده جلدا، ولايظهر منه إلا عيناه التي زينتا بجوهرتين حمراوين، يقول البيروني أنهما من الياقوت الأحمر، وتوج رأسه بإكليل من الذهب(2)، وأضاف البيروني أن جسد هذا التمثال كان مصنوعا من خشب ملبسا سختيان (نوع من الجلد) أحمر.(3)

وقد نشطت التجارة في المولتان بفضل تواجد هذا الصنم بها، مر بها أبودلَّف الخزرجي، حوالي عام 331هـ = 942م .(4) الذي شدت المكانة الدينية الهامة للمدينة، اهتمامه، فذكر أن جموع من الهنود تحج إليها فهي دار عبادتهم وبمثابة مكة للمسلمين وبيت المقدس لليهود والنصارى، أما عن وصفه للصنم فقد جاء مطابقا لوصف الإصطخري، فهنالك قبة عظيمة داخل المعبد، بداخلها الصنم، إلا أن الأبعاد المذكورة للصنم توحي بالمبالغة، فسمك القبة في السماء ثلاثمائة ذراع وبين رجليه الصنم في جوفها مائة ذراع وبين رأسه ورأس القبة مائة ذراع وبين رجليه الأرض مائة ذراع، ويشير كاتب المخطوط أن هذا

(1)- المسعودي: المصدر السابق، ج1، ص.199.

(2)- الأصطخري: المصدر السابق، ص.174.

(3)- البيروني: المصدر السابق، ص56.

(4)- أبودلف (مسعر بن المهلهل) : الرسالة الأولى، ضمن مجموع في الجغرافيا، السلسلة ج، عيون التراث، إصدار فؤاد سزكين، منشورات معهد تاريخ العلوم العربية والإسلامية، جامعة فرانكفورات، 1987، مج .42، ص.360.

وصف أبو دلف يحمل الكثير من البالغة، واستدل بما كتبه المدائني "كتاب في فتوح السند والهند" حيث قدر طول التمثال (الصنم) بعشرين ذراعا لا أكثر.[1]

وأشار الإدريسي إلى المولتان بانها من المدن الهندية التي غلب عليها الإسلام وحاكمها مسلم فهي عمارة إسلامية في أراضي هندية.[2]

فالمدينة كانت تتمتع بأهميتها الدينية لدى الهنود والصينيين، من جهة كما كانت ذات أهمية استراتيجية عسكرية ورخاء اقتصادي لدى المسلمين من جهة أخرى.

-مدينة المنصورة:

تقع هذه المدينة على نهر مهران، وتبعد بخمسة وسبعون فرسخا جنوب مدينة المولتان وتعتبر قصبة بلاد السند[3]، توجد آثارها على مسافة 75 شمال حيدرآباد في الباكستان[4].

سميت باسم فاتحها منصور بن جمهور عامل بني أمية، ويصفها الأصطخري بأنها تقع بين مجريين لنهر مهران وكأنها في جزيرة [5]، وهو نفس الوصف لدى ابن حوقل، فقد بنيت في جزيرة كونتها تدفقات نهر الهندوس من ناحية الشرق والغرب، ويجتمع في المنصورة

---

(1)– أبو دلف: المصدر السابق، ص.361.

(2)– الإدريسي: المصدر السابق، ج.1، ص، 178.

(3)– المسعودي: المصدر السابق، ج.1، ص.200؛ أبولدف: المصدر السابق، ص، 361.أنظر الملحق رقم 9.

(4)– Maqbul, Ahmed : opcit,p.419.

(5)– الأصطخري: المصدر السابق، ص.173.

طرفي النهر ليتجه جنوبا إلى منطقة الديبل – بالقرب من كراتشي- ليشكل دلتا ويصب في البحر[1].ا

ذكر بن حوقل أن اللغة الجاري استعمالها في الإمارتين الإسلاميتين المولتان والمنصورة هي اللغة العربية إلى جانب اللغة السندية[2]. فيما أشار المستشرق " رينو" ان هاتين الإمارتين كانتا إقطاعات إسلامية وراثية في السهل الهندي، تحكم ذاتيا ومستقلة فعليا عن الخلافة في بغداد، والرابط الذي كان يربط بينهم إنما كان شكليا، شانها في ذلك شأن باقي حواضر الشرق في القرن الرابع الهجري[3].

فأهل مدينة المنصورة مسلمون وحاكمهم أيضا، والخطبة بها ترفع باسم الخليفة العباسي، وتتميز برخائها واحتوائها على النخيل وقصب السكر وثمرة الليمون الحامض بحجم ثمار التفاح،

ويتعامل بكافة أنواع الأموال المتداولة في المنطقة حينها، فإلى جانب الدينار العربي هناك الدراهم القاهرية أو الدراهم الطاطرية الهندية القديمة[4].

ولقد كان المقدسي من الجغرافيين الذين زاروا مدينة المنصورة، ووصفها بكونها أنشط المدن التجارية، أما عن معمارها فذكر أن دورها مبنية من خشب وطين، وهي شبيهة بمباني

---

[1]- ابن حوقل : المصدر السابق، القسم 11، ص.318.

[2]- ابن حوقل: المصدر السابق، قسم 11، ص.318.

[3]- Reinaud.M : op.cit, p.212

[4]- الأصطخري: المصدر السابق ص 174.

مدينة دمشق[1]. فالشعوب القاطنة حول ضفاف نهر مهران، من حد المولتان في الشمال مرورا بالمنصورة وصولا إلى "الديبل" البحرية.وهي أقوام تعرف بالميد أو الميدا، تعيش على التجارة الساحلية، ولها مراع واسعة وخصبة في البرية إلى قامهل [2] "cambel" حيث ترعى مواشيهم، ولديهم مساكن شتوية وأخرى صيفية، وقد اشتهر شعوب الميد "Meyd" بكونهم أحسن الملاَّحين المتمرسين في البحار الشرقية.[3]

أما في الناحية الغربية للنهر تعيش مجتمعات أخرى تدعى" البدهة "، تعرف مدينتهم "بقندابيل"، وهم" ***أهل إبل " يُربُّون الجمل ذو السنامين المعروف " الفالج***" الذي تعتمد عليه القوافل التجارية في نقل البضائع والسلع نحو خرسان وفارس وسائر بلاد آسيا[4].

ب – المرافئ الهندية التجارية الهندية الغربية:

يتبين من خلال فحص أبرز النصوص الجغرافية، المتعلقة ببلاد الهند أن المدن الواقعة على الساحل الغربي للهند، كانت المواقع المعروفة بشكل أدق لدى الجغرافيين والملاحين المسلمينالأوائل، وذلك بفضل العلاقات التجارية، التي ربطت البلاد العربية بالهند، ومثَّلَت المحطات التجارية البحرية الأكثر ارتيادا من قِبَل التجار المسلمين، فقد كانت السفن الإسلامية القادمة من موانئ الخليج الفارسي أو البحر الاحمر، تقصد بحر اللاَّرْوي [5] حيث

---

[1]– المقدسي: المصدر السابق، ص.479.

[2]– الأصطخري : المصدر السابق، ص.176، ابن حوقل: المصدر السابق، ص.324.

[3]– Reinaud.M : mémoires, p.234

[4]– الأصطخري: المصدر السابق، ص، 176.

[5]– بحر اللأَروي هو البحر الذي يمتد على طول ساحل الهندي الغربي من مصب نهر الهندوس شمالا إلى رأس كمورين جنوبا وهناك من يجعل حدوده عند مدينة تانة وهي شاول حاليا chaul. للمزيد يراجع: Reinaud .M :op.cit , p.213

تمر بأشهر موانئ مدن الهند الغربية،كقامهل، كمباية، صيمور وغيرها [1]، من أجل ذلك سنعمد إلى ذكر أهم هذه المدن والموانئ الموصوفة، ذات المواقع الجغرافية المحددة.

والجدير بالذكر ان الساحل الهندي الغربي، يقع ظمن ما يعرف بمملكة الكمكم ويحمل حاكمها لقب " البلهرا " BALLAHARA"، وهي من أشهر الممالك الهندية لدى الجغرافيين والرحالة المسلمين، وملكها أعظم ملوك الهند – حسب وصفهم – ويعرف ب " البلهرا" أو " البلهرى"واللفظ هو تحريف لاسم باللغة النسكريتية فالبهاراجا Vallabharaja معناها الملك الأعظم، وكان ظهور هذه الدولة في منتصف القرن السادس الميلادي، في منطقة الدكن " Decan" وشبه جزيرة كوجارات "Cujarat"، ليشمل اتساعها على كامل منطقة الكونكان جنوبا، وهي التي عرفت عند المصادر العربية تحت تسمية بلاد الكمكم " Comcam" .[2]

وحسب المصادر الاسلامية، هو لقب يطلق على كل ملك يحكم هذه البلاد، مثلهم في ذلك مثل ألقاب ملوك فارس " كسرى" أو الروم " قيصر " [3] وتفسيره " ملك الملوك" "[4]

ويتبين من خلال المصادر الإسلامية أن التجار المسلمين داخل بلاد "البلهرا " تمتعوا بمكانة خاصة وامتيازات تليق برعايا أعظم ملوك الدنيا في تلك الفترة من الزمن، حيث كانوا

---

[1]– الدوري: تاريخ العراق الاقتصادي في القرن الرابع الهجري، دار المشرق، بيروت، 1974، ص ص. 146-147.

[2]– Elliot. H : the History of India as told by its own Historien.the Muhammadan period, in (I.G), Frankfurt university 1998,vol 5, T1,p.354 ; voir aussi , Yule (Henry) ; Gathay and the way , p.241, Nainar : op.cit , p.138.

[3]– سليمان التاجر: المصدر السابق، ص .28، المسعودي: المصدر السابق، ج1، ص.203.

[4]– ابن خرداذبة: المصدر السابق، ص .65.

يعاملون معاملة حسنة، من حيث احترام ديانتهم، وكانت لهم مساجد وجوامع في كل مدن المملكة، واستوطنوها بأعداد كبيرة، فقد كان ملوك "بلهرا" محبين للعرب وكذلك أهل العرب من الهنود وكانوا يعتقدون بأن إعمارهم في الملك متعلق بمحبتهم تلك .[1]

ومما يفيد به ابن حوقل حول هذه المملكةذات الاهمية الاقتصادية الكبيرة، أنها كانت تمتد من كمباية على حدود السند في الشمال، إلى" صيمور" جنوبا وأن صاحبها" البلهرا"، كان مولعا بالأمثال وجمعها في كتاب خاص، وأن أكثر سكان هذه المنطقة من الكفار، غير أن فيها كثير من المسلمين. وجرت العادة أن لايُلبي أمورهم، إلا مسلم يختارونه ثم يعرضونها على البلهرا، كما يشير ابن حوقل إلى أن هذه الامتيازات، التي كان يتمتع بها المسلم في الهند، لم تكن مقصورة على هذه البلاد فحسب، وإنما كان ذلك حال المسلمين،في كل الأطراف التي يغلب عليها غير المسلمين، وذلك مثل بلاد الخزر والسرير واللان وغيرها.[2] وهو الذي يتولى شؤون المسلمين كلها وأهمها القضاء، وقد ذكرت بعض المصادر أن اللقب الذي عرف به شيخ المسلمين في صيمور هو " هنرمن"، وحسب برزك بن شهريار كان يختار من وجهاء البلد وينضوي إليه جميع المسلمين القاطنين فيها، وذلك وفقا للشروط أو المعاهدات بين المسلمين وحكام هذه البلاد، منها أن لايحاكم مسلم إلا في محاكم شرعية خاصة بالمسلمين [3].

[1]– سليمان التاجر: المصدر السابق، ص . 27، 28، المسعودي : المصدر السابق، ج1، ص.202.

[2]– ابن حوقل: كتاب صور الأرض، قسم2، ص.320.

[3]– برزك بن شهريار: كتاب عجائب الهند برُّها وبحرها وجزائرها، تحقيق: ب.أ.فان درليت مع ترجمة فرنسية من عمل مارسيل ديفيس، طبعة ليدن1886، ص.ص 142-143.

وذكر المسعودي الذي زار هذه المدينة عام 304 أنه وجد بها نحو عشرة آلاف من المسلمين قاطنين بها منهم تجار السَّيْرفيين وعمانيين وبصريين والبياسرة، الذين يراد بهم من وُلد من المسلمين بأرض الهند [1].

وفي هذا الإطار ذكر برزك بن شهريار أن المسلم إن سرق في بلاد الهند رد الحكم في أمره إلى " هنرمن"، ليعمل فيه بما يوجبه حكم الإسلام، وهو مثل القاضي في بلاد الإسلام، ولايكون إلا من المسلمين [2].

ويرى مارسيل دي فيك أنه يمكن أن يكون أصل الكلمة فارسي ومعناها الشريف [3] ويشير الإصطخري وابن حوقل إلى أن ببلاد البلهرا مساجد وجوامع، يقام فيها الصلوات كلها بما فيها صلاة العيدين، حيث يعلن عليها بالآذان في المنارة والتكبير والتهليل.[4]

---

[1]- المسعودي: مصدر سابق، ج1، ص.248.

[2]- برزك بن شهريار: كتاب عجائب الهند، ص.161.

[3]- Marcel Devic (L) ; Glossaire , dans livre merveille de l'Inde , p.204.

[4]- ابن حوقل : المصدر السابق، ص.320، الإصطخري: المصدر السابق، ص.176.

ـ مرافئ ساحل بحر اللاَّروي:

أوتكين أولكين:

أول المدن الهندية الواقعة على الساحل الغربي، وهي تقع جنوب شرق نهر مهران واشتهرت بتصدير قصب القنا [1] وكان يستعمل في البناء، كما عرفت بالزراعة في أوديتها، غير أن أهلها "مردة لصوص" كما وصفتهم الاسلامية [2] وحسب نَينار تقع بالقرب من ساحل شبه جزيرة " كوجارات"cujarat.[3]

_كمباية / كنبايةCambay:

من المدن التجارية الساحلية النشيطة للهند تبعد عن أوتكين مسافة يومين ونصف اليوم[4]، حسب وصف المسعودي الذي زارها عام 303هـ = 915م، لها خليج اعرض من نهر النيل والدجلة والفرات، تحيط به المدن والضياع والعمائر المبنية، والجنان الخضراء الجميلة التي تزينها أشجار النارجيل (أشجار جوز الهند)، وفيها حيوانات بديعة كالطاووس والببغاء التي تنقل منها الى الاسواق، وغيرها من أنواع الطيور الهندية، وأشار المسعودي إلى

---

[1]- القنا: هوشجر الخيزران، قضيب أجرد طويل لا ورق عليه، الإشبيلي: عمدة الطيب، القسم الثاني، ص.682.

[2]- ابن خرداذبة: المصدر السابق، ص. 61-62، المسعودي: المصدر السابق ج1، ص117.

[3]- Nainar (muhammed Hussein) : Arab geographers knowledge of southern India, Frankfurt university , 1996 p.53.، انظر الخريطة رقم (9).

[4]- ابن خرداذبة: المصدر السابق، ص.61.

أن هذه المدينة اشتهرت بصناعة النعال المعروفة"الكنبائية الصرَّارة" التي تحدث صوتا،والتي كانت رائجة في البلاد العربية[1].

وفي هذا الصدد ذكر محمد حسين نيناز، أن المدن الهندية الجنوبية اشتهرت بعراقة صناعة الأحذية فيها، المتنوعة وذات جودة، ومن أشهرها، النعال ذات الطرطقة او ذات الكعب وهي التي نعتها المسعودي بالصرّارة، ونعال أخرى دون كعب، ونعال ذات لحمة خشنة وأخرى رفيعة [2].

كما تعرض الإصطخري إلى وصف هذه المدينة، فذكر أنها تقع على نحو فرسخ من البحر[3]، أما الإدريسي فقدرها بثلاثة أميال من البحر، وبها ميناء تجاري ضخم، يقع على مجموعة من الجزر، تقصده السفن التجارية من كل الآفاق، وتخرج منها إلى كل الجهات، لذلك تتواجد فيها جاليات من كل أنحاء العالم آنذاك، وهي ذات مياه وفيرة وخصبة الأرض، كما لها حصن منيع، يقيم فيه حاكمها[4].

وحسب المسعودي فإن حاكمها الذي يدعى "بانيا"، ينتمي إلى السلالة الحاكمة الهندية البراهمة، ويحمل لقب " البلهرا"، وكان مولعا بالاطلاع على ثقافة غيره من الأجناس ممن يرد بلده خاصة من المسلمين، ويدخل في مناظرات طويلة معهم، فلقد شهدت كمباية نشاطا اقتصاديا هاما وآخر ثقافي لا يقل أهمية عنه.

---

(1)- المسعودي: المصدر السابق ج1، ص . 135-136 . انظر الملحق رقم (8).

(2)- Nainar (Muhammed Hussayn) : Arab geographey's knowldge , p.205

(3)- الإصطخري: المصدر السابق، ص.179.

(4)- الإدريسي: المصدر السابق، الجزء ج.1، ص.181.

_ مدينة سوبارة / سُفالة:

مدينة ساحلية تقع على مسافة نصف فرسخ من البحر، وهي جنوب "كنباية" بأربعة مراحل، وتقع تحت نفوذ مملكة البلهرا[1]. يرى المستشرق " رينو" "M. Reinaud" أن الجغرافيين المسلمين أطلقوا عليها في فترات متأخرة تسمية " سفالة الهند" لتمييزها عن " سفالة الزنج" الإفريقية لدورها الكبير في التجارة العالمية في العصر العباسي، وكما يعتقد انها من الموانئ التي اندثرت بفعل تحول النشاط التجاري عنها إلى مواقع أخرى وأنه من الصعب تحديد موقعها حاليا على الخريطة.[2] بينما حدد موقعها " مقبول أحمد" بأن هي نفسها " سوبارة" " sopara" المدينة الساحلية الهندية التي تقع في نواحي حوض مدينة " ثانا" "Thana" [3].

وعلى غرار المدن الساحلية الهندية تتمتع السوبارة بنشاط تجاري كبير، خاصة تجارة الأحجار الكريمة على أنواعها، كما بها أشجار كثيفة لجوز الهند وزراعة الخشب القسط، وتوصف سوبارة بأنها من المدن الهندية ذات البنايات والعمائر الضخمة، التي تدل على سمات فنون العمران الهندي، وهي كثيرة السكان [4]. كما أشار التاجر برزك بن شهريار إلى أهلها الذين ذكر أنهم يأكلون الفئران، ويعتبرونها من أنظف ما يؤكل [5].

(1)- الإصطخري: المصدر السابق، ص.179، ابن حوقل: المصدر السابق، القسم الأول، ص.318.

(2)- Reinaud.M : op.cit : p.221

(3)- Maqbul .A : op.cit, p.419 انظر الخريطة رقم (9).

(4)- الإدريسي : المصدر السابق، ج.1، ص ص 181.182.

(5)- برزك بن شهريار: عجائب الهند، ص. 105، 162.

-سندان:

مدينة تجارية ساحلية تبعد عن سوبارة مسافة ستة فراسخ جنوباً، [1] ويقدرها الإدريسي بخمس مراحل، ويفصل المدينة عن الساحل مسافة ميل ونصف، ويقع في جانبها الشرقي جزيرة تسمى بها وتنسب إليها [2].

ولقد تميزت سندان بعمرانها الراقي وبخاصة المعابد، وبنشاط التجار المسلمين فيها، مثلها في ذلك مثل المدن الساحلية الأخرى كأوتكين وكمباية وتانة، واشتهرت بتصديرها لخشب السَّاج الهندي الذي يستعمل في البناء،وعن موقعها الحالي يرى مقبول أحمد أنها هي نفسها مدينة سانجان Sanjan التي تبعد حوالي 75 كم عن بومباي [3].

-صيمور / جيمور:

هي نفسها المدينة سيمور المذكورة في المصادر الجغرافية الإغريقية، وهي سيمولا symolaأو جيمولا Djymola في المصادر الصينية [4]، يعدها الجغرافيون المسلمون من المدن الساحلية الغربية الكبيرة، تقع جنوب سندان، تتميز بخصوبة أراضيها، ويجلب منها الأرز والموز وجوز الهند، وذكر الإصطخري ان مدينة كمباية متصلة بمدينة صيمور بقرى

---

(1)- البيروني: المصدر السابق، ص 102.

(2)- الإدريسي: المصدر السابق، ج.1، ص.182.

(3)- ابن خرداذبة: المصدر السابق، ص .62، ابن حوقل : المصدر السابق: القسم 11 ص. 319؛ Maqbul (A) : Ibid , p.419، انظر الخريطة رقم (06) و(07).

(4)- Ven , derlith : excursion , p.227 , , Reinaud (M) : op .cit, p.220.

خصبة ذات عمارة جميلة وغابات ملفتة للنظر [1]، وتقع كلها تحت حكم أكبر ممالك الهند وهي مملكة البلهرا بساحل اللاروي [2].

وذكر صاحب عجائب الهند، أن التجار كانوا يسلكون طريقا بريا يربط مدينة صيمور بمدينة سندان [3]. ما سجله المسعودي عن المدينة عام 304هـ= 916م، انه ينشط فيهاعشرة آلاف من المسلمين، يعرفون ب" **البياسرة**"_يبدو ان التسمية مشتقة من فرس Les Perses _وأغلبهم من التجار، الذين قدموا من سيراف أو عمان او بغداد أو البصرة وغيرها واستوطنوها،و يأتي على رأس الطائفة المسلمة شيخا يحكم بينها، ويدير شؤونها يحمل لقب " الهرمة" [4] أو" الهنرمن" – كما ورد لدى برزك ابن شهريار – في حديثه أن في عصره كان الشيخ القائم بشؤون المسلمين في مدينة صيمور يدعى العباس ابن ماهان وكان من وجهاء البلاد.[5]

وعنها يفيد القزويني (ت 682) أن لأهلها حظ وافر من الجمال لكونهم متولدين من التجار الترك والهنود وفيهم مسلمون ونصارى ويهود ومجوس، تصل إليها بضائع تركستان من الشمال، ومن أشهر منتجاتها " العود الصيموري" ويعد من أجود أنواع الطيب، فهي

---

[1]– الإصطخري: المصدر السابق ص .176-177، البيروني: المصدر السابق، ص. 102، برزك بن شهريار: المصدر السابق، ص.142-144.

[2]– ابن حوقل: المصدر السابق، ص.320، المسعودي: المصدر السابق ج1، ص.248، البيروني: المصدر السابق، ص.102

[3]– برزك بن شهريار: المصدر السابق، ص ص .105-106.

[4]– المسعودي: المصدر السابق، ص. 248.

[5]– برزك بن شهريار: المصدر السابق، ص.142.

مدينة نشيطة بأسواقها، وتنوع عناصر سكانها، ففيها معابد للهندوس بهياكلها الضخمة وأصنامها، كما تتواجد فيها مساجد للمسلمين، وكنائس وبيوت لعبادة النار.[1]

_ تانة Thana:

من مدن ساحل اللاروي وهي المطلة على جزيرة سالسيت " Salcette" في نواحي بومباي، ولقد عرفت نشاطا اقتصاديا واسعا لوقوعها على الخط الساحلي التجاري، غير أن دورها تراجع امام بروز مدينة بومباي[2].

ويتبين من خلال وصف برزك بن شهريار، أنها تقع بجوار مدينة صيمور، وأن التجار طانوا يترددون عليها، وذكر في موضع آخر أن ثلاثة مراكب خرجت من سيراف عام 306هـ= 918م وكانت وجهتها مدينة صيمور على الساحل الهندي، وبعد أن قطعت البحر مسيرة إحدى عشر يوما تمكن أصحاب المراكب والراكبين عليها، من تجار وربابنة من رؤية مرتفعات سندان وتانة وصيمور [3] مما يدل على أن هذه المدن كانت ذات مواقع متجاورة.

ويشير المستشرق دفيك مارسيل "DevicMarcel" أن هذه المدينة تتواجد حاليا على مسافة عشرين ميلا من مدينة بومباي [4]. من الإضافات الهامة لأبوا الفدا، حول المدينة، انها تعتبر آخر المدن الساحلية الواقعة على بحر اللأَّروي[5] ويلتقي مع ما أورده البيروني

---

[1]- القزويني: آثار البلاد، ص.64.

[2]- Reinaud, M : op.cit : p.222 , Maqbul,A : op.cit , p 419

[3]- برزك بن شهريار: المصدر السابق، ص.165.

[4]- Devic.M : Glossaire dans les merveilles de l'Inde , p.227

[5]- أبو الفدا: كتاب تقويم البلدان، تحقيق ج رينو ودي سلان في "ج ا" منشورات جامعة فرانكفورت 1992، مج "13" ص .358

عندما ذكرها على الترتيب كمبايت/كمباي إلى سندان ثم مدينة"سوبارة" إلى تانة وأن بين هاتين المدينتين الأخيرتين، مسافة خمسة فراسخ [1].

وفي كل مدينة من المدن المذكورة، توجد مساجد يقيم فيها المسلمون صلاتهم، ودروسهم ويرفعون فيها التكبير، والتهليل في الأعياد [2]، ويشير الإصطخري إلىالتجار المسلمونتمتعوا بمكانة خاصة في مدن مملكة "البلهرا "، ففي كل مدينة من مدنها، مسجد جامع وقاضي للمسلمين، وفيها تطبق أحكام الإسلام ظاهرة وعلانية [3].أما عن موقعها الحالي على الساحل الهندي فيرى الدارسون أنها مدينة شاول "chaul" الواقعة في نواحي كولايا بالقرب من بومباي.[4] كما كان التجار المسلمون يترددون على موانئ هندية أخرى، كمدينة صومنات " Souménat" الشهيرة – لاتزال تحتفظ بنفس التسمية – الواقعة في جنوب غرب شبه جزيرة جوزارات "Guzérate" [5]، كانت ترد عليها مراكب التجار من كل البلاد العربية خاصة من عدن اليمنية، فكانت كما وصفها أبو الفدا: " مشهورة على ألسن المسافرين فينطحها كثيرا مراكب العرب" [6].

---

(1)– البيروني: المصدر السابق، ص.102.

(2)– ابن حوقل: المصدر السابق، ص.320.

(3)– الإصطخري : المصدر السابق، ص .176، 179.

(4)– Yule ,Henry : op .cit , in I.G.V.126,p.305 ; voir aussi : Maqbul ,A : op.cit , p.419.

(5)– Dulaurier ,M : étude sur l’ouvrage intitule : relation des voyages fait par les arabes et les persans dans l’Inde et la chine , dans (I,G) frankfurt university, 1994, vol.126, p.151.

(6)– أبو الفدا: تقويم البلدان، ص.358.

ـ المرافئ التجارية لساحل الملابار "Malabar":

أشارت معظم مصادر الجغرافيا الإسلامية، الساحل الهندي المعروف " بالملابار" " Malabar"، ووردت التسمية بصيغ مختلفة فهي: بلاد المليبار " المنيبار" أو " المليبار" كما وصفت " ببلاد الفلفل" لاشتهارها وتخصصها في إنتاج هذا النوع الهام من التوابل(1).

أما عن تسمية الملابار "Malabar" فهو لفظ سنكريتي، يتكون من قسمين الأول " ملا" وأصله " مالايا" " Malaya" وهي التسمية التي تطلق على الشعوب الهندية القاطنة في الساحل الغربي الجنوبي للهند، كما يعني هذا اللفظ الجبل، أما القسم الثاني " بار" "Bar" فهو دون شك اللفظ الفارسي الذي يعني " أرض" أو ساحل، والملاحظ أن المصادر الإسلامية هي من أطلق هذه التسمية على هذه المنطقة، وعندما حل البرتغاليين وسيطروا على النشاط التجاري في بلاد الشرق، أخذوا التسمية الماليبار عن المسلمين ونشروها بدورهم في أوروبا والعالم.(2)

أشار القزويني إلى بلاد المليبار وأهميتها في انتاج الفلفل، واهتم بوصف شجرها فسبق الأوروبيين اللاتين في ذلك الذين لم يتعرفوا عليها إلاَّ في منتصف القرن الرابع عشر، فهي أشجار عالية لا يزول الماء عنها من تحتها، وثمرها عناقيد متدلية، فكانت تجارة الفلفل

---

(1)– سليمان التاجر: المصدر السابق، ص.52، ابن خرداذبة : المصدر السابق، ص.62،ابوالفدا: المصدر السابق، ص 354. أبو دلف الخزرجي: المصدر السابق، ص .356، الإدريسي: المصدر السابق، ص .191، القزويني : المصدر السابق،ص 83، ابن بطوطة: المصدر السابق، ج2، ص60.

(2)– Nainar , M.H : op.cit, p.58-59

مصدرا لثراء الكثير من التجار المسلمين المروجين لها، في البلاد العربية والإسلامية، وذكر القزويني أن الصليبيين في بلاد الشام كانوايحتكرون تجارتهالى الغرب الأوروبي[1].

كولم ملي (كيلون= Quilon):

"كولم" هي المدينة الساحلية " كيلون" "Quilon" الواقعة جنوب الهند، وهي لاتزال تحتفظ بنفس التسمية، وتتحدث بعض المصادر العربية عن وجود جزيرة تدعى " ملي"[2] قبالة شاطئ كولم، تميزت بحركة تجارية نشيطة فارتبطت تسمية الجزيرة بالساحل ونسبت إليها، فاشتهرت بكولم ملي، ولدى ابن خرداذبة " ملي" وذكرها أبو دلف بلاد " الكولام"، أما عند الإدريسي فهي " كولم ملي" [3] والظاهر ان المصادر الجغرافية لا تفرق بين الجزيرة والمدينة الساحلية واعتبرتهما بلاد واحدة [4].

اختصت هذه المدينة بزراعة الفلفل، وتصديره إلى الخارج[5]، وتبين أن في المراحل الأولى – نهاية القرن الثاني إلى بداية القرن الثالث الهجري– كانت كولم هي أبعد المدن

---

[1]– القزويني: كتاب آثار البلاد وأخبار العباد، نشر فرديناند وستفيلد، منشورات معهد العلوم العربية والإسلامية، جامعة فرانكفورت، 1994، في الجغرافيا الإسلامية، مجلد 198، ص.82،83.

[2]– ذكر الإدريسي أن " ملي" تقع على بعد خمسة أميال من كولم ملي، راجع الإدريسي: المصدر السابق ج.1، ص.182.

[3]– ابن خرداذبة: المصدر السابق، ص.62، سليمان التاجر: المصدر السابق، ص.16.

[4]– Nainar : op.cit , p.58.

[5]– كانت مدينة كولم مالي من المدن الهندية التي زارها الرحالة بن يامين التيطلي اليهودي، وذكر أنها موطن عباد الشمس worshippers وانهم كانوا بارعين في علم النجوم واختصت بلادهم في إنتاج الفلفل، وقد اعطى وصفا دقيقا لكيفية زراعته وحصاده، كما أشار إلى وجود أحسن انواع التوابل بها. يراجع: the etinerary of benjamain of tudela : translated by Marcus nathan adler, In Islamic world in foreign travel acconts Frankfurt university 1995, v.60 p 63-64.

الجنوبية الهنديةالمعروفة لدى المسلمين، لتردد الملاحين المسلمين عليها بصفة مستمرة، ذهاباوإياباً من الصين، ثم تطورت معارفهم حول المدن الأخرى بصفة تدريجية[1].

ويمكن أن يلمس ذلك من خلال ما ذكرته المصادر الإسلامية المبكرة، ففي منتصف القرن الثالث الهجري وحسب سليمان التاجر، كانت كولم ملي من المحطات الاولى التي رست فيها المراكب العربية منذ انطلاقها من ميناء مسقط العماني[2].وقد ذكرها ابن خرداذبة ضمن ست مواقع هندية على الساحل الغربي [3] ثم توالت تفاصيل عن مدن ومواقع أخرى متعددة، لاسيما في القرن الرابع الهجري حيث أصبحت معظم المدن الواقعة على الساحل الهندي معروفة لدى الجغرافيين المسلمين.

وقد ذكر أبوا الفدا أن الإبحار بين ميناء كولم، وميناء عدن في اليمن كان مستمرا ومنتظم، حيث كان التجار اليمنيون يترددون عليها، ولهم أحياء خاصة بهم ومسجد " جامع"، في المدينة الهندية، وهي كثيرة البساتين، ويجلب منها خشب البُقَّم الذي يستعمل في الصباغة.[4]

---

[1]– Nainar.M.H : op.cit , p.59

[2]– سليمان التاجر: المصدر السابق، ص.16،52.

[3]– ابن خرداذبة: مصدر سابق، ص.62.

[4]– أبوا الفدا : المصدر السابق، ص .361 و351.

منجور وجرفتين:

والاولى هي منجلور "Mangalor" حاليا، من المرافئ الكبرى ساحل، ذات تجارة نشيطة مع البلاد الإسلامية، تخصصت في إنتاج الفلفل وتصديره [1].

وأشار إلى موقعها الجغرافي، الدمشقي، حيث ذكر أن مدينة منجور تقع على نهر يصب في البحر الذي يتميز بظاهرة المد والجزر، وأضاف أن الفلفل متوفر فيها بكميات كبيرة[2].

كما ذكر أبو الفدا أنها تقع شرق المدن الساحلية صندابور وهانور وباسرور، وهي أكبر مدن المنيبار (المالابار) وملكهم من الكفار[3].ويبدو ان هذه المدينة بقيت محافظة على اهمية مكانتها الإقتصادية عندما زارها ابن بطوطة، وجدها تعج بتجار فارس واليمن، يجلبون منها الفلفل والزنجبيل بكميات كبيرة جدا.[4]

أما الثانية جرفتين فهي من مدن المليبار الثلاث حسب الإدريسي المتخصصة في انتاج الفلفل [5]، وحدد الجغرافي جواشيم "-Joachim" موقعها على خريطة الهند، فهي

---

[1]– Dulaurier, M : Etudes sur l’ouvrage intitule relation des voyages p.154, voir aussi : Nainar : op.cit , p.6، أنظر الملحق رقم 13.

[2]– الدمشقي: المصدر السابق، ص. 170.

[3]– أبوا الفدا : المصدر السابق، ص .351.

[4]– ابن بطوطة: المصدر السابق، في إ ج، مج 178، ج4، ص ص 79-80.

[5]– ابن خرداذبة: المصدر السابق، ص.62.

المدينة الساحلية الشرقية التي تتقارب تسميتها السنسكريتية بالصيغة المعربة، وهي دروراجاباتام "Drouradjapatam" (1)

فندرينة:

ذكر الجغرافي جواشيم Joachine. L أن هذه المدينة تقع بالتحديد، عند مصب نهر كافيري "kaveri" المنحدر من بلاد الملابار Malabar(2). ويرى " نينار" أنها على هي مدينة بونتالايني كولم Pantalayinikoulam(3)،أشار إليها الإدريسي كأحد المدن الشهيرة بإنتاج الفلفل الأبيض، وذات مرفئ واسع تقصده مراكب التجار من السند كم عرفت بين التجار بإنتاجها لواحد من اجود أنواع الطيب الهندي وهو عود القاقلي (4).

ـ مرافئ بلاد المَعْبَر (الكورومندال):

أطلقت المصادر العربية تسمية بلاد المعبر على الساحل الهندي الواقع في أقصى جنوب الهند، وسميت كذلك بوصفها منطقة عبور المراكب التجارية، في المضيق الذي يفصل بين جنوب الهند وسواحل جزيرة سيريلانكا، وهي مُتجِّهة إلى موانئ الهند في خليج البنغال أو إلى جزر جنوب شرق آسيا كجاوة وسومطرة والصين، ثم تناقلت المصادر اللاتينية

---

(1)– Joachim ,L :Géographie du moyen age , p.11

(2)– Joachim, L : op.cit ,p.11

(3)– Nainar,M.H : op.cit , p.64راجع الخريطة رقم 7 و13

(4)– الإدريسي: المصدر السابق ج1.ص191.، راجع أيضا: Nainar.M H : op.cit , p.183

التسمية العربية، في حدود القرن الثامن الهجري /14الميلادي بمَعَبَر Maabar، كما سيأتي ذكره في الفصل الخامس من الدراسة (1).

وتضم بلاد " صوليان" وهي كولا (Colas) (2) حيث المعبر الصغير والمعبر الكبير، وهي ذات أهمية اقتصادية وتجارية كبيرة، فيها تجمع البضائع القادمة من الشرق، وملتقى التجار من كل الجنسيات.

وحسب ابن سعيد ان المنطقة بها أسواق خشب " اللانس" الذي يستخرج منه اللون الأحمر الذي يستخدم للصباغة، وفيها حرفة تبييض القماش التي تعرف " بالقصارة" (3).

فمنطقة المعبر بسواحلها وجزرها، كانت محطة أساسية ومركز تجاري كبير على الطريق البحري، وقد أشار ابن خرداذبة إلى مرفأ مدينة " بلين"، المعروف لدى الملاَّحين المسلمين، الذي يعتبر مفترق الطرق نحو الشرق الأقصى (4) حيث كانوا يقضون فيه أشهر للاستراحة، ثم ينطلقون منه إما في اتجاه الشمال نحو مدن ساحل خليج البنغال، وإما تتجه

---

(1)– Nainar.M H : op.cit , p.53.

(2)– وهي التي تعرف في المصادر الصينية ببلاد " شوليان" " chu–lien " فقد ذكرها صاحب كتاب " شوفان شي " " chufan–chi" أن " التجار داشي" " Tachi" أي المسلمون من أبرز من ينشطفي هذه البلاد،و عند حلولهم بها يعاملون معاملة مميزة، فعند وصولهم يستريحون في مجالس خاصة خارج أبواب المدينة، وينزلون في منازل للضيافة ومنعزلة وخاصة بهم، مزودة بمرافق من غرف للنوم وأخرى للأكل مع وجود خدم قائمين على راحتهم . راجع : Chau Ju–Kua : Chu–fan– chi : Translation from chinese and annotated by : Fridrich hirth and ww. Rockhill , Frankfurt 1996 , In Islamic world in foreign travel accounts v.73 , p97.

(3)– Nainar : op.cit , p.55

(4)– ابن خرداذبة: المصدر السابق، ص.61-62.

المراكب نحو مجموعة جزر نيكوبار، نحو بلاد الصين، ولقد حدد " مقبول أحمد" موقع " بلين" بأنه دون شك هو ميناء ومدينة نجاباتام Négabatamعلى ساحل الكورمندل [1].

_ المرافئ الشرقية للهند:

ذكرت مصادر الجغرافية الإسلامية والرحلات عدداً من المدن الهندية التجارية الهامة الممتدة على الساحل الشرقي من رأس كمهري إلى مصب نهر الغانج شمالا أبرزها: [2]

_ تندا:

من مدن المعبر الكبير على الساحل الشرقي، وملتقى المراكب وتبادل البضائع والسلع [3] وتقع في منطقة تاندي " Tondi"، وتبعد حوالي عشرين ميلا عن كليار كوفيل " kaliar kovil" المدينة الداخلية، الواقعة على طريق مدينة مدورة، ولقد كانت مركزا كبيرا لتجارة الشرق، وشملت حتى البضائع الصينية [4].

_ مندروفين:

وردت على صيغ متعددة، ولكنها متقاربة فهي لدى المسعودي " مندوفين"، وهي " مندوقين" عند أبو دلف، و"مندري" عند ابو الفدا و" مندروقين" عند ياقوت، فحسب المسعودي تقع هذه المدينة الساحلية في قبالة جزيرة سرنديب " سيريلانكا"، من جهة أخرى كانت

---

[1]- Maqbul . A : op.cit , p.419،أنظر الملحقين رقم 13،12.

[2]- Joachin ,L : op.cit , p.11

[3]- الدمشقي : المصدر السابق، ص .235.

[4]- Nainar,M.H : op.cit , p.82

مندورفين من ضمن المدن الهندية التي زارها أودلف، وفي وصفه توضيحا لموقعها، فبعد أن تحدث عن تنقلاته بين المدن الهندية الواقعة في الشمال الغربي، كمدينة "جاجلة"، وكشمير الأعلى ثم كابول الأفغانية، ذكر أنه قصد سواحل الهند آخذا جهة اليسار حيث البلد المعروف " مندوفين"، واعتمادا على هذا الوصف يكون موقعها على السواحل الشرقية، وهو ما يتفق مع وصف المسعودي، ويضيف أبو دلف أن التجار يجلبون منها " القنا"، وخشب الصندل [1] وكما يجلب منها الطباشير [2]

حسب" نينار" أن الموقع الحالي لمندروفين، هو مدينة " مادورا" " Madura"، والتي كانت عاصمة ملوك بونديا ThePandyaking في العصور الوسطى، وأشار إلى ان كل المميزات الواردة لدى الجغرافيين تنطبق تماما عليها، وخاصة وفرة شجر القنا والصندل فيها، فالمنطقة لا تزال تشتهر بها لاسيما في نواحي منطقة مِدْراس " medras" [3].

والجدير بالإشارة إليه هو ان الموظف الصيني " شو جو كوا " ذكر أن هذه المنطقة هي موطن الخيزران، ومعروفة بغاباته الكثيفة وتصدره إلى الخارج [4].

---

[1]– **الصندل** : نوع من الشجر، يشبه شجر الرمان، ويتميز خشبه برائحته الطيبة، ويستعمل كاحد انواع الطيب، ويصنع من خشبه الألواح والأمشاط والصناديق والتخوت، يجلب من الهند والصين واليمن، راجع: الإشبيلي: عمدة الطيب في معرفة النبات، القسم الأول، ص.533-534.

[2]– **الطباشير**: قصب عفن أبيض من القدم بتعرضه للريح والماء وتغير الهواء ... راجع : الإشبيلي: عمدة الطيب، القسم الأول، ص.368.

أبو دلف : المصدر السابق، ص .358.

[3]– Nainar,M.H : op.cit , p.60، راجع أيضا: شارل بيلا: فهارس " مروج الذهب "، الجزء السادس، ص.620.

[4]– Chau- Ju-Kuq : Chu-fan-chi , p.96.

_ منيفتن:

من أهم مدن الساحل الشرقي الهندي، وأشار إليها أبو الفدا وإلى ميناءها ذو الأهمية التجارية الكبيرة، يتوافد عليه مراكب التجار من الصين وعمان واليمن وسائر بلاد الهند [(1)].

وحسب " نينار" هي نيجاباتام Négapatam المدينة العريقة وعرفت لدى اليونانيين تحت تسمية " نيقاموس" " Négamos"، لا يزال ميناءها ينشط، وتسمى المدينة نسبة للشعب القاطن بها وهم " الناقا" "Naga "، وقد كانت من المواقع الأولى التي احتلها البرتغال في السواحل الشرقية الهندية، وأطلقوا عليها تسمية " مدينة ساحل كورومندل " [(2)].

_ كنجة:

ميناء مدينة كنجة، من الموانئ الواقعة على نفس الساحل الشرقي للهند، وذكر ابن خرداذبة انها معروفة بإنتاجها للحنطة وللأرز، ويقصدها التجار المسلمون من كل الأقطار [(3)]. ولقد حدد موقعها على الخريطة في " كونجان" " Conjan" بإقليم كونجيفارام Conjévaamبينما يرى " مينورسكي" أنها تقع بالتحديد إلى الشمال من " كونجان" جنوب مدينة باروقا " Barova" وخلاصة القول، فهي تقع في النواحي الساحلية الشمالية الشرقية للهند [(4)].

---

(1)– أبو الفدا: المصدر السابق، ص .355.

(2)– Nainar : op.cit , p .60-61.

(3)– ابن خرداذبة: المصدر السابق، ص . 63-64.

(4)– Joachim (L) : op .cit , p.11 , Maqbul (A) : op.cit , p.419 ;the Anonymous:op.cit, p.214.أنظر الملحق رقم: 7و12.

_ سَمَنْدر:

أما مدينة " سمندر" فقد ورد ذكرها في أقدم مصادر الجغرافيا الإسلامية، حيث كان يتردد عليها التجار بانتظام لجلب الأرز الذي كان من أشهر منتجاتها، وهي تقع شمال " كنجة" وتبعد عنها مسافة عشرة فراسخ [1] ولاتزال هذه المدينة – والجزيرة المقابلة لها – تحتفظ بنفس التسمية سمندار " Semindar" وهي واقعة في مصب النهر القادم من جبال كارامو Karamaut في نواحي كشمير الداخلية " [2].

2- التجارة في جزيرة سرنديب/ سيلان = سيريلانكا:

مثلت هذه الجزيرة مركزا تجاريا ضخما منذ عهود قديمة، وفي عالم العصور الوسطى كانت مصدرا لسلع ثمينة من توابل وأحجار كريمة وذهب، وغيرها فكانت مقصدا للسفن الفينيقية، وعرفها اليونان باسم " تابروبان" " Taprobane"، ولم يكن معروف لديهم أنها جزيرة منفصلة عن الهند، إلا منذ عهد الإسكندر المقدوني، كما تردد عليها عرب الشام والرومان[3].

حسب وصف المصادر الإسلامية، كانت جزيرة سرنديب أشهر الممالك بحر الهند في العصور الوسطى، لوقوعها على الطريق التجاري المؤدي إلى الصين، ولاحتوائها على ثروات كثيرة ومتنوعة، وقد وردت تسميتها في المصادر الإسلامية، على صيغ متعددة فهي "سرنديب" أو "سورنديب"، كما وردت "سهيلان" أو "سيلان" وهي سيريلانكا حاليا.

---

(1)– ابن خرداذبة: المصدر السابق. ص، 64.

(2)– Joachim (L) : op.cit , p .11. أنظر الملحق رقم:12

(3)– Dulauier M : op.cit , p.p 177,174

وكان سليمان التاجر من أقدم المصادر الإسلامية، التي تعرضت بالحديث على جزيرة سرنديب، وأفاد بمعارف هامة حولها، فحول موقعها ذكر أنها أول جزر بحر هركند (خليج البنغال) وهي تلي جزيرة الديباجات (المالديف)، وهي مملكة مقسمة بين ملكين، وهي واسعة وعظيمة [1] ، وقدر ابن خرداذبة مساحتها بثمانون فرسخا مربعا، فهي شاسعة ومشهورة [2].

فقد كتب عنها برزك بن شهريار، وذكر أنها " من الجزائر الموصوفة التي ليس مثلها في البحر، جزيرة سرنديب وتسمى سهيلان"[3]. بينما انفرد أبو الفدا بذكر التسمية الهندية للجزيرة فذكر أنه تطلق تسمية " سنكاديب" باللسان الهندي [4]، ولقد أشار المستشرق دي لوريي Dulaurier أنها تسمية سنسكريتية "سنكاديب" Syngadib وتعني جزيرة الأسد، واعتبر أبو الفدا هو الجغرافي المسلم الوحيد الذي أورد التسمية الأصلية للجزيرة.[5] وتسلط المصادر الإسلامية على الأهمية الاقتصادية لمملكة، فحسب وصفها، كانت مصدرا لخيرات كثيرة، ففيها مغاص لجمع اللؤلؤ والشنك الشهير[6]، ويجلب من جبالها كافة الأنواع الثمينة للجواهر،

---

[1]- سليمان التاجر: المصدر السابق، ص6.

[2]- ابن خرداذبة: المصدر السابق، ص.62، الإدريسي: المصدر السابق، ج.1، ص ص72.73.

[3]- برزك بن شهريار: المصدر السابق، ص.179.

[4]- أبو الفدا: المصدر السابق، ص.375.

[5]- Dulaurier : op.cit, p.175

[6]- الشنك: من الأصناف البحرية الهندية ذات شكل منحني كالبوق ولون أبيض، وله قداسة لدى الهنود، لايزال يشكل مادة تجارية هامة وواسعة الانتشار، يصطاد من خليج المنار Golf de manar على ساحل سيريلانكا، ويصنع منه الحلي للنساء كأساور وخلاخل وخواتم، ويعتبر الشنك الأخضر ذو اهمية خاصة لأن الحيوان المائي لايزال حي بداخله أما الأبيض فيكون ميتا. يراجع Reinaud .M : MEMOIRE ; P ; 233

الأحمـر، الأخضـر والأصـفر، ووصـف أبـو زيـد كيفيـة اسـتخراج هـذه الجـواهر، وأن منهـا مـن يخـرج مـن قلـب الجبـال، بفعـل الميـاه التـي تـدحرجها مـن الكهـوف والمغـارات ومسـايل الميـاه، غيـر أن علـى هـذه المخـارج حراسـة خاصـة، باسـم ملـك هـذه الـبلاد، وأكثـر الأوقـات التـي تظهـر فيهـا هـي فتـرات مـد البحـر، كمـا يسـتخرج مـن جبالهـا أنواعـا مـن الأحجـار الثمينـة، مثلمـا تسـتخرج المعـادن مـن المنـاجم، فينقىالشوائبالملتصـقة بالجواهر المختلفة.[1]

وأضاف ابن خرداذبة إلى ثراء سرنديب،بالماس والبلور وغيرها من النفائس، كما يجلب منها أنواع من الطيب كالعود والمسك "، فلهم فيها دواب تحمل المسك" فضلا عن شجر جوز الهند والأرز، وقصب السكر وغيرها من الصادرات الهندية التي تتميز بها الجزيرة .[2]

وينسب إلى هذه الجزيرة إنتاج معدن " السنباذج"، الذي يخرط به البلور والزجاج، ومن أشهر التوابل التي يجلبها التجار منها، القرفة التي تنسب إليها وتعرف "**بالقرفة السهيلانية**" وهي عبارة عن لحاء تنزع من أشجار مرتفعة، كما يجلب منها نوع من الأعشاب الحمراء اللون، تستخدم في صباغة الأقمشة، والخيوط القطنية، وهو صباغ يفوق في فاعليته

[1]- أبو زيد السيرفي: المصدر السابق، ص.122.

[2]- ابن خرداذبة: المصدر السابق، ص.ص 63-68.

الأعشاب الأخرى كالبُقَّم [1]، والزعفران[2] وفي هذا الصدد يجب أن تشير إلى أن سيريلانكا، لا تزال تحتفظ بميزة اختصاصها، في تصدير القرفة إلى العالم منذ العهد الإغريقي[3].

فتحت هذه الجزيرة أمام نشاط باقي الأجناس والملل الأخرى، فحسب أبوزيد السَّيرفي – كان ثمة جاليات من أعراق مختلفة، استوطنت سرنديب– فيها جمع كبير من اليهود، ومسلمين ومن سائر الملل ويشير أبو زيد إلى أن الملك كان متسامحا مع كل فريق منهم، ويسمح لهم بممارسة مختلف شرائع دياناتهم.[4]

أفادنا الجغرافي الإدريسي بوصف نشاط التجار في موانئ جزيرة سيريلانكا، وهي نموذج عن نشاطهم في كل المحيط الهندي، خاصة وأن هذه المملكة تمتعت بثروات إقتصادية كبيرة، فليس في بلاد الهند من هو أغنى من ملك سرنديب، وهو يتصف بالفطنة ويتحرى العدل والإنصاف والاهتمام بتفقد أمور رعيته، وله ستة عشر وزيرا، اختارهم من كافة الملل التي تنشط في المملكة، أربعة منهم من ملته، وأربعة نصارى وأربعة مسلمين وأربعة يهود، وكلهم يمارسون نشاطاتهم التجارية والدينية بحُرِّية، ويهتمون بحل كل ما يعترضهم من منازعات، واكل ملة منهم مقر خاص بها تجتمع فيه. وأضاف الإدريسي أن بالجزيرة انواع من الدُّرِ النفيس، كالياقوت الجليل، والماس وكافة أنواع الأحجار الكريمة، الموجودة بكثرة في جبالها، وفي أوديتها وبحرها، كما سعى التجار المسلمون إليها كغيرهم لجلب الحرير، وأنواع

---

[1]– البُقَّم: بفتح الباء والقاف المشددة، شجر ضخم، يشبه ورقه ورق اللوز، أحمر الساق، تتخذ منه مادة للصباغة باللون الأحمر. يراجع محمد عمارة قاموس المصطلحات الاقتصادية في الحضارة الإسلامية، ص97.

[2]– برزك بن شهريار: المصدر السابق، ص.180.

[3]– Dulaurier ; op.cit , p.174

[4]– السيرافي أبو زيد: المصدر السابق، ص .ص 122-123.

كثيرة من العطور. ومما زاد من أهميتها الاقتصادية المذكورة، وقوعها في مجرى تجاري حيوي، هو المعبر الصغير (خليج المنار)، حيث تمرالمراكب السيارة بين هذه الجزيرة، والساحل الهندي مدة شهر إل شهرين، من المراكب الصينية والإسلامية، وسائر الممالك الهندية المجاورة، فكانت بمثابة ملتقى لكافة تجار العالم حينها، فشهدت هذه المملكة ازدهارا تجاريا منقطع النظير.[1]

والجدير بالذكر إلى أن الثروة الاقتصادية، التي اشتهرت بها جزيرة سرنديب في القرن الخامس الهجري، لم تبق على نفس الوتيرة، حيث ذكر البيروني أن مغاص اللؤلؤ الذي اشتهرت به فيما مضى من الزمن بَطُلَ في زمنه، وانتقلت الشهرة إلى بلاد الزنج- إفريقيا الشرقية- التي أصبحت تضم أشهر مغاص في القرن الخامس الهجري.[2]

وورد في المصدر الصيني (شو جو كوا) ان ثراء هذه المملكة يعكسه أبهة ملكها، من ملبس وقصر فهو من أقوى ملوك الهند، ذو بشرة سوداء وشعر طويل غير مرتب، ورأس غير مغطى وهذا بخلاف الصينيين، الذين يحلقون في الغالب، ويحرصون على تغطيته،ويلبس في رجله نعال حمراء ذات خيوط ذهبية، ويستخدم الفيلة للتنقل. أما عن قصره فهو من أجمل قصور الدنيا، رصع بأثمن الجواهر كالزرقاء والحمراء ويوجد في قصره الشرقي شجرة مصنوعة من الذهب الخالص، ثمارها وأزهارها من الأحجار الكريمة، ويأتي أسفل هذه الشجرة، عرش الملك المصنوع من البلور الشفاف.[3]

---

[1]- الإدريسي، المصدر السابق، ص ص .74.75.

[2]- البيروني: المصدر السابق، ص.103.

[3]- Chau Ju kua : Op.cit, p72

ومن مظاهر الأبهة الملكية فيالجزيرة، ان ملكها يلبس في يده خاتم طول جوهرته خمسة أصابع، ولايمكن أن تحرقها النار وهي تلمع في ظلمة الليل مثل القنديل، كما يصنع من هذه الحجرة الكريمة قناعا يوضع على بشرة الملك يوميا، ويقولون أنها تحافظ على شباب ورونق بشرته حتى وإن جاوز التسعين عاما من عمره. الملاحظ أن ما أضافه من وصف حول ما تنتجه هذه المملكة الغنية يتفق مع ما أوردته المصادر الإسلامية، فمن أهم السلع التي يجلبها التجار الاجانب، أشكالا وانواعا كثيرة من الأحجار الكريمة، من أشهرها تلك التي تعرف في بلاد الصين بعيون القط، كما يجلب منها الزجاج الأحمر الشفاف، ومنتجات خاصة لتبييض وتنظيف الملابس، فضلا عن أجود العطور التي يبادلونها مع خشب اصندل والكافور والفخار الأسود والحرير.[1]

---

[1]– Chau Ju kua : Op.cit, p.73

3_النشاط التجاري في الجزرالأندونسية وماليزيا (الهند الصغرى):

تُصَوِّر معظم المصادر الإسلامية بلاد الهند، بأنها بلاد شاسعة، وأوسع من بلاد الصين، حتى ان البحر الكبير(المحيط) الذي يحاذيها نسب إليها وعرف " ببحر الهند"، وهذا بدءا من سليمان التاجر في القرن (الثالث الهجري/ التاسع ميلادي) إلى ابن بطوطة، والدمشقي القرن الثامن الهجري/ الرابع عشر الميلادي،وسبب ذلك أن الحضارة والثقافة الهندية، انتشرت في أقاليم أوسع، فهي لم تبقى حبيسة شبه الجزيرة الهندية فحسب، وإنما بانتشارها في كل من بلاد سرنديب (سيريلانكا)، وبلاد قمر (برمانيا وكمبوديا)، وبلاد الزابج (جاوة،أندونيسية وماليزيا) شملتها، وعرفت تلك المناطق، ببلاد الهند الصغرى، أو الممالك الهندية الشرقية [1].

فكان انتشار للثقافة الهندية، منذ فترات زمنية متقدمة، فقبل حوالي إثنى عشر قرنا من تاريخ الكتابات الإسلامية، وفي حدود القرن الرابع والثالث قبل الميلاد، انتقلت مجموعات هندية من مدينة كالينجا " Kalinga" الواقعة على السحل الشرقي للهند، نحو برمانيا " Birmanie" والسيام " Siam" وكمبوديا " Cambodge" وشمبا " Champa"، ونحو سومطرة وجاوة، حيث نقلت معها لغتها الدرافيدية " Dravidienne" بل وحتى لغتهم الأدبية الخاصة بالبراهمة وملوكهم المعروفة بالسنسكريتية " Le Sanskrite" إلى جانب نقلهم لدياناتهم البوذية والبراهيمية وعبادة الإله الهندي جيفا "Giva"، كما تبنت هذه المناطق من آسيا الفنون الهندية المختلفة المعمارية والحرفية وجملة من العادات والتقاليدالهندية [2].

---

[1]– سليمان التاجر: المصدر السابق، ص .56، المزوري: المصدر السابق، ص.26، البيروني: المصدر السابق، ص.96.

[2]– Ferrand(M) : voyage . p.15 .

وتركت اللغة الهندية السنسكريتية آثارا واضحة، وعميقة في اللغة الماوية Mawi، والجاوية القديمة، كما أغنت كثيرا من اللهجات المحلية، في حين لم يترك الصينيون أي أثر حضاري من أي نوع على هذه المنطقة، بالرغم من قدم علاقتهم بها.(1)

وتنامت معالم الحضارة الهندية بصفة مستمرة، واصطبغت المنطقة بصبغتها، الأمر الذي جعل الرحالة والجغرافيون المسلمون، يعدونها بلادا واحدة مترامية الأطراف، مقسمة بين ممالك هندية عظيمة متعددة، كإمبراطورية شعب خمير " khmer" في كمبوديا، التي عرفت عصرها الذهبي في الفترة مابين القرن التاسع الهجري/ إلى القرن الحادي عشر الميلادي، ومملكتي تشولا "Tchola" وبالافا "Pallava" في القرنين العاشر والحادي عشر الميلادي، التي امتدت سيطرتها من سيريلانكا إلى سومطرة وجاوا . (2)

ويمكن عرض أهمها:

- مملكة قمار Kamar / خمير = كمبوديا:

من أبرز الممالك الهندية التي تشير إليها المصادر الإسلامية فهي حسب وصفهم مملكة تقع على طرف من الأرض وليست جزيرة وفيها جبال، ذات كثافة سكانية عالية، وهي مجاورة لمملكة المهراج، وجزيرته المعروفة بالزابج (جاوة) وبينهما مسافة عشرة أيام إلى

(1)- Dulaurier (M) : op.cit , p.207.

(2)- Grousset R ; Histoire de l'Asie , presse universitaire de France , Paris , 1941 , p .55

عشرين يوما حسب هبوب الرياح وأكثر أهلها رحالة وتجار، يتاجرون بأفخر أنواع الطيب وينسب إلى بلادهم وهو العود القماري الذي كان يحمل إلى البلاد العربية [1].

ويمكننا التعرف على موقع هذه الأخيرة من خلال وصف ابن خرداذبة الذي يذكر أن المسافة بينها وبين بلاد الصنف كمبا "Champa" المجاورة لها مسيرة ثلاثة أيام على الساحل، وانها بلاد يجلب منها نوع من أنواع العود الذي يعرف بالعود القماري، إلا أن عود بلاد الصنف المجاورة لها أجود منه، كما يجلب منها الأرز [2].

فالملاحظ أن أبا زيد السيرافي – وغيره من الرحالة والجغرافيين المسلمين– كان دقيقا في تحديده موقع مملكة قمار " خمير" ، حيث أشار أنها تقع بالقرب من إمبراطورية الزابج (جاوة)، وذكر أن حكامها كانوا يعينون من قبلالمهراج ملك الزابج،مما يدل على أنها في القرن الرابع الهجري/ 09 ميلادي تابعة لسلطة مملكة جاوة البحرية.[3]

ويبدو من خلال الوصف الذي أورده المسعودي لهذه البلاد، مدى إعجابه بأهلها للخصال التي يتميزون بها، والتي تشبه خصال المسلمين، فأهل القمار يتميزون بطيب رائحة أفواههم لاستعمالهم السواك، كاستعمال أهل ملة الإسلام، ويضيف المسعودي أن عهده كانت مملكة قمار تابعة لإمبراطورية الزابج [4].

---

[1]– المسعودي، المصدر السابق، الجزء الأول، ص.94.

[2]– ابن خرداذبة: المصدر السابق، ص.66.

[3]– أبو زيد: المصدر السابق، ص.94.

[4]– المسعودي: المصدر السابق، ج1، ص.94.

ويرى فيران Ferrandأن هذه المملكة إنما هي إمبراطورية كمبودياقمار" Kamar" القديمة، الواقعة في غرب البلاد المعروفة بالهند الصينية، وأشار فيران إلى أن معرفته الجيدة والمباشرة لبلاد الهند، والهند الصينية والصين، وخاصة لتاريخها، مكنته مطابقة الألفاظ والتسميات المختلفة الواردة في المصادر الإسلامية، والتحقق من حقيقة بلاد قمار (1).

ومن الناحية التاريخية شهدت منطقة برمانيا " Birmanie" وبيجو "Pegou" والسيام وكمبوديا قيام دولة قوية وهي إمبراطورية خمير Khmer التي عرفت عصرها الذهبي من القرن 9 إلى 11م، وحكمتها أسرة شريفة هندية من العرق الدرافيدي، وفي حوالي العام 1000م كونوا إمبراطورية بحرية في خليج البنغال ويمتد نفوذها من سيريلانكا إلى سومطرة وجاوة وماليزيا (2).

-مملكة الزابج (جاوة) بلاد الذهب :

توسطت هذه البلاد طريق التجار نحو الصين، كما احتوت ثروات ثمينة أولها الذهب، وكان التجار المسلمون يترددون عليها بكثرة، لاقتناء الذهب وسلع أخرى، وصفها سليمان التاجر وأبو زيد السيرفي، وذكرا انها تقع على يمين بلاد الهند، وهي قريبة من بلاد الصين مسافة شهر في البحر أو أقل من ذلك حسب سرعة الرياح، وهي مجموعة من الجزر الواسعة والصغيرة إندونيسية، تتوسط الطريق نحو الصين ويحكمها المهراج، لباس كل أهلها الفوط، سواء منهم الغني والفقير، والجزيرة التي يقيم فيها هي من أخصب الجزر وذات بناء معماري منتظم وتقدر مساحته هذه الجزر – حسب أبي زيد- ألف فرسخ أو أكثر لشاسعتها

(1)- Ferrand , op.cit , p.13.

(2)- Grousset , op.cit ,p.109 , 110.

ومن أهمها: جزيرة سربزة أو سريرة، والرامي (سومطرة)، جزيرة "كله" (برزخ كرا، Isthme de kra) الواقعة على الساحل الغربي بماليزيا، وقد كان التجار المسلمين خاصة العمانيين منهم يترددون على هذه المملكة ويجلبون من جزرها المذكورة خشب البقم والكافور والعاج والصندل والرصاص القلعي والآبنوس ومواد أخرى يطول شرحها [1].

ومن جهة أخرى يذكر المسعودي أن مملكة الزابج تتكون من عدد من الجزر أهمها جاوة، و" كله"، ونضيف إليها سرنديب، وهي سيريلانكا الحالية، وحتى مملكة قمار كانت في بداية القرن الرابع هجري /العاشر الميلادي تابعة لسلطة ملك جاوة.[2]

أما عن المهراج لقب ملك الزابج/ جابة، فقد نقلته المصادر الإسلامية نقلا صحيحا من اللغة السنسكريتية فهو لقب ينقسم إلى قسمين مها، Maha ويعني كبير والراجا Raja وتعني الملك، أي الملك الكبير، وكانت جزيرة جاوة هي العاصمة ومقر الملك [3]، فهي عند ابن خرداذبة تدعى مملكة "جابة الهندية"[4] وتحت حكمها، عدد من الجزر كجزيرة "كله" و"بالوس"

---

(1)- سليمان التاجر: المصدر السابق، ص.ص 18-19، أبو زيد السيرافي، المصدر السابق، ص.ص 89-90،، يراجع: برزك بن شهريار، المصدر السابق، ج1، ص.176.

(2)- المسعودي : المصدر السابق، ج1، ص.ص 94،96.

(3)- Elliot H.M : the history of india as known by its own historiens, Frank Furt, university , 1998, Vol.1 ,P.04.

4- أفاد المستشرق فيران أن تسمية " جابة/الزابج" في المصادر الإسلامية إنما اشتقتمن لغة الجاويين وهي جاواقا Jawaga أو جافاتا Javaga حسب القراءة الهندية أو الصينية يراجع Férrand (G) : études sur la géographie arabo-islamique , Frankfurt university 1956 V2,P.585.

و" شهلاط" وجزيرة "جابة"، عاصمة الملك، وهي عظيمة وملكها يلبس حلة وقلنسوة من ذهب ويعبد بودا.[1]

كما تعرف بلاد المهراج عند المسلمين ببلاد الذهب، ففي جملة حديث برزك بن شهريار عن قصص الربابنة الذين قصدوها في زمانه كان "مردودية بن زرايخت" هو من أشهر ناخذة الصين وبلاد الذهب، [2] وكذا إبراهيم بن مرداس[3].وفي هذا الصدد أشار أبو الفدا في معجم البلدان ان جزائر المهراج جزائر كثيرة وصاحبها من اغنى ملوك الهند وأكثرهم ذهبا وفيلة [4].

وحول هذه التسمية، ذكر البيروني أنها الجزائر الشرقية الواقعة في بحر الهند، وهي القريبة من حدود الصين " ***ويسميها أهل الهند سورن ديب أي جزائر الذهب*** "[5] لذلك يعتبر فيران Ferrand أن البيروني هو أول جغرافي مسلم يذكر التسمية السنسكريتية الهندية لبلاد الزايج، وأورد في موضع آخر أن جزائر الزابج تسمى " أرض الذهب" لأن الذهب الكثير يرسب في غسالة التراب فيمكن استخراج كمية كبيرة من الذهب من كمية قليلة من التراب، وفي هذا إشارة إلى سهولة استخراج الذهب في هذه البلاد.كما كان يجلب منها إلى البلاد العربية، معدن الرصاص القلعي وخشب القنا (الخيزران)، والكافور من بالوس (سومطرة)

---

[1]– ابن خرداذبة، المصدر السابق، ص 64.

[2]– الناخذ هي تسمية فارسية تعني الربان أو قائد المركب .. يرجع Ferrand(G) : etudes p ;586;

[3]– برزك بن شهريار: المصدر السابق، ص.7.

[4]– أبو الفدا: المصدر السابق، ص.175.

[5]– البيروني: المصدر السابق، ص.103.

إلى جانب النارجيل (جوز الهند) والموز وقصب السكر، والقرنفل، كما تجلب من جاوة الثياب القطنية.(1)

في هذه البلاد على قرى كثيرة ومتصلة بصفة منظمة، ويشيد التاجر سليمان بجمال عمارتها وانتظام مبانيها، فلا مجال للخرابات في هذه البلاد، كما أن من الأمور التي تثير إعجاب المسافر في بلاد الزابج هو سهولة الانتقال بين مدنها وقراها فتتوفر فيها عربات خاصة تيسر ذلك (2).

ومما يروى حول ثراء هذه المملكة هو وجود غدير فيها يعرف بغدير لبن الذهب، فمن عادات ملوك هذه المملكة أنه في صباح كل يوم يأتي القهرمان، أو الخادم إلى الملك بقطعة من ذهب ويطرحها في غدير القصر المتصل بالخليج الكبير، فإذا كان المد، غمرتها المياه وإذا كان الجزر وتراجعت عنها المياه وظهرت ولمعت تحت الشمس، أمام أنظار الملك ويستمر هذا العمل طيلة حياته، وعند موته تخرج كلها وتحصى ثم تذاب وتفرق على أهل بيت المملكة رجالهم ونساءهم وقوادهم وخدمهم، كُلٌّ حسب مرتبته ، وما تبقى منه يوزع على الفقراء والمساكين (3).

وفي مجمل القول اتفق كل من المستشرقين رينو Reinand وفيران Ferrand، أن بلاد الشعوب المالوية، قطنت في جزر جنوب شرق آسيا، وأسست إمبراطورية مالوية مترامية الأطراف في القرن 7م، عرفت بالأرض التي تفرز ذهبا، وهي التي أشارت إليها المصادر

---

(1)- ابن خرداذبة: مصدر سابق، ص64، 65.

(2)- أبو زيد السيرافي، ص.ص 89، 90.

(3)- السيرافي ابو زيد: المصدر السابق، ص.91، 92؛ المسعودي: المصدر السابق، ج1، ص.97.

الإسلامية بالزابج، ومثلت قوة سياسية في المنطقة، ارتكزت على سومطرة وجاوة وكانت سلالة سيلاندارا çailandraهيمن دعم ركائزها فأصبحت إمبراطورية كريدفابالاديفا Cridvapaladeva من أقوى إمبراطوريات القرن 10 م[1] ويشهد كل التراث الأدبي المالوي والجاوي، والآثار التي تغطي جزيرة جاوة على ذلك.

4- الأسواق في النظام الإقتصادي الصيني عهد أسرة تانغ وصونغ:

وُحِّدت الصين في عهد أسرة تانغ، تحت حكم ملك واحد، عاصمة ملكه مدينة خمدان أي " شان غان" حاليا [2] ويحمل الملك الأعظم للصين لقب " البغبون" كما ورد في مصادر أخرى " بغبور" و "فغفور" [3] وقد أشار سليمان التاجر إلى المعنى الدقيق لهذه التسمية فقال أنها تعني " ابن السماء" وأضاف – بأسلوب يوحي بالاستخفاف بمعنى اللقب- أن التجار المسلمين يدعونه المغبون [4]، ويمكن رد ذلك إلى تضارب المعنى مع العقيدة الإسلامية، في حين أن التسمية ليست صينية [5].

---

[1]– Ferrand.G ; op.cit , v1, p.14 , 15

[2]– سليمان التاجر: المصدر السابق، ص.26، اين خرداذبة: المصدر السابق، ص.69.

[3]– سليمان التاجر: المصدر السابق، ص.46؛ برزك بن شهريار: المصدر السابق، ص.92؛ المروزي: المصدرالسابق، ص.14.

[4]– سليمان التاجر: المصدر السابق، ص.46.

[5]– ذكر كل من المستشرق هـ.يول "H.Yule "، وخ.فيران " G.Ferrand" أن هذه التسمية ذات أصل فارسي قديم،ووردت بصيغ مختلف، وأن المصادر الاسلامية نقلتها بصيغتها الاصلية حرفيا، فهي في أصلها مكونة من لفظين باق "Bak" ومعناها السماء وفور "Four" ومعناه الإبن، والملاحظ أنها لاتزال تستعمل في اللغة الفارسية الحديثة باغ "Bagh" ومعناه الرب وبور "Bour" ومعناه الإبن، وأضاف المستشرقين ان اللقب الصيني الإمبراطوري، في العصور الوسطى كان تيان تزي " Tien Tze"، وهي تحمل نفس المعنى المذكور" ابن السماء"، خلاصة القول أن سليمان التاجر ذكر المعنى الصحيح للقب الإمبراطوري الصيني، للمزيد يراجع.Ferrand (G) : op.cit , p.62 ; Yule (H) : op.cit , p.299

وتصنف المصادر الإسلامية للقرن الثالث الهجري /التاسع الميلادي، وهي المعاصرة لعهد أسرة تانغ، أن كل المدن الصينية التي يبلغ عددها أكثر من مائتي مدينة مرتبطة بشكل مباشر بالملك المتواجد بخمدان – شان غان – عن طريق " خِصِّيانه" موظفي الدولة السامين، الذين ينسقون مع حكام المدن ويجمعون الضرائب [1] وأشار سليمان التاجر ان الإمبراطور الصيني " الملك الأكبر" لا يرى إلا مرة واحدة في كل عشرة أشهر اعتقادا منهم أن احتكاكه الكثير بالناس ورؤيتهم له تقلل من هيبته، وأن الحكم لا يقوم إلا بالقوة والتجبر وإحكام ضبط أمور الرعية[2] ويتبين من خلال وصف سليمان التاجر أن الإمبراطور الصيني يسيطر على كل الموارد والثروات الاقتصادية الهامة لبلاده، فكانت موارد الملح والشاي، الفخار الصيني، خاضعة للتسيير وللاحتكار الإمبراطوري المركزي، من حيث مراقبة الإنتاج والتفتيش ثم إلحاق موارده لصالح الخزينة المالية العامة في " شان غان" [3].وقد ذكر المستشرق الفرنسي " سوفاجيه" " Sauvaget" أن احتكار أباطرة الصين لتجارة الملح يعود إلى عهود قديمة لأنها مثلت موردا ماليا هاما، الذي كان يعتمد عليه للإنفاق على احتياجات القصر من أبهة المباني والمفروشات وفاخر الثياب والعربات وخيول البلاط، فضلا عن تمويلات الجيش، ورواتب الموظفين ولقد تضاعفت عوائده خاصة بداية القرن التاسع الميلادي، ولاتزال أهميته الاقتصادية كبيرة إلى يومنا هذا في الصين[4].

---

(1)– سليمان التاجر: المصدر السابق، ص.ص.33-34.

(2)– سليمان التاجر: المصدر السابق، ص40.

(3)– سليمان التاجر: المصدر السابق، ص.41.

(4)– Sauvaget .J : op.cit , p.60

كما كان للحكم المركزي الصيني، دور كبير في حماية الرعِّية من غلاء الأسعار، وذلك عن طريق المخازن الإمبراطورية المنظمة، التي تضمن التوزيع العادل للمواد، ليستفيد كل الصينيين لاسيما في مواسم الكوارث الطبيعية كالفيضانات التي غالبا ما تتعرض إليها هذه البلاد، " فيخرج السلطان من خزائنه المواد الغذائية لتباع أرخص من سعر السوق ".[1]

وفي هذا الإطار ذكر المستشرق سوفاجيه أن نظام الخزينة المركزية المذكور، للدولة في الصين هو نظام متبع فيها منذ عهود قديمة، أنشأ للقيام بالمهمة التي وصفها سليمان التاجر، وبرزت بشكل واضح في عهد أسرة تانغ حين أصبحت تمثل عنصرا هاما في نظام المراقبة الرسمية للأسعار في الأسواق الصينية، والملاحظ أنه متوارث، حافظت عليه كل الأسر التي حكمت الصين، حتى أن الرحالة الاوروبي " ماركو بولو" أشار إلى هذا النظام وذكر أن الدولة تشتري الحبوب بكميات كبيرة من الفلاحين في موسمها وتخزنه، وعندما يرتفع سعرها في باقي أشهر السنة تدفع بها إلى الأسواق لتباع تخفيفا عن المستهلك ولحمايته من احتكار التجار .[2]

إجمالا وصفت المصادر السابق ذكرها بلاد الصين، في عهد أسرة تانغ بالبلاد ذات الحكم المركزي المظبوط، والمسيطر على كل المبادلات التجارية، ونشاط الأسواق في كافة مدن البلاد، وفي حالة حدوث أي تمرد من الحكام المحليين الموزعين على أكثر المدن الصينية فإن الإمبراطور يكون له بالمرصاد ليفشل سعيه للاستقلال أو التمرد [3] إلا أن الاستقرار السياسي والرخاء الاقتصادي الذي عرفته الصين في عهد تانغ الذهبي ما لبث وأن

---

[1]– سليمان التاجر: المصدرالسابق، ص.41.

[2]– Sauvaget .J : op.cit , p.60

[3]– سليمان التاجر: المصدر السابق، ص.53.

عرف نهايته بسبب الثورات الداخلية التي عرفتها الصين في النصف الثاني من القرن 9م، كان لها أثرها السلبي على التجارة والتجار الاجانب خاصة، الى أن تمكنت أسرة سونغ "SongDynasty" (960- 1279م) من السيطرة على زمام الامور فأعادت الى البلاد استقرارها ووحدتها.

ويجد الدارس لنصوص أبو زيد السيرفي، وصفا دقيقا للفترات الأخيرة التي ميزت حكم أسرة تانغ، قامت ضدها ثورات داخلية كانت من بين الأسباب المباشرة لسقوط دولتهم، وأشار إلى أن في عام 264هـ / 878م تمرد على حكم الأباطرة الصينيين ثائر عرف بـ " البانشو"، واستولى على عدد من المدن الصينية مثل كانتون، ولقد تفاقم خطر هذا الثائر الذي تمكن من الوصول إلى عاصمة ملك أسرة " تانج" المعروفة في المصادر الإسلامية بـ " خمدان" حيث احتلها [1]، إلا أن الملك تمكن من الفرار إلى الحدود الصينية التيبتية، وطلب المساعدة من القبائل التركية التغزغز، لاستعادة عرشه وإعادة النظام إلى الصين، وحسب أبو زيد السيرفي كانت هناك علاقة مصاهرة بين الصينيين والمملكة التركية، من أجل ذلك وجد ملك الصين الدعم الحقيقي منها، ومُدَّ بجيش قوي تمكن بفضله من القضاء على تمرد " البانشو" واستعادة العاصمة، غير أن هذه الثورة أضعفت أركان الدولة وخربت خزائنها، ولم تعد سلطة الملك على النواحي، والأقاليم محكمة كما كانت عليه من قبل، وإنما غدت شكلية[2].

---

(1)- السيرفي ابو زيد: المصدر السابق، ص، 66.

2- نفسه.

ويستفاد مما ذكره أبو زيد أن حتى بداية القرن الرابع الهجري= العاشر الميلادي، كانت الصين في حالة من الفوضى حيث تسلط كل حاكم بإقليمه، ودخل بعضهم في نزاعات وهو ما انعكس على احوال التجار المسلمين في مدينة كانتون وباقي المدن الأخرى، الذين اشتكوا من كثرة الظلم والتعدي على مراكبهم وأربابهم، من سلب لأموالهم، أو فرض رسومات جديدة أثقلت كاهل التجار[1]، وأثرت سلبا على سير الحياة الاقتصادية في الصين.

إن ما ذكره أبو زيد حول الاضطرابات التي شهدتها الصين، وتراجع نشاط التجار الأجانب فيها، له خلفيته التاريخية، في كتب الحوليات الصينية، فهذه الثورة التي هزت حكم أسرة تانج من بين أسباب زوال سلطتهم، وقد دامت من 261-269هـ/ 874م إلى 882م، ويشير الدارسون أن بفضل نصوص أبو زيد السَّيْرفي، يمكن التعرف على أحوال كانتون أثناء الاضطرابات المذكورة.

ففي الفترة مابين265-266هـ/ 878-879م، استولى الثوار الفلاحون بقيادة " هوانج تشاو" " Huang-chao"، على مناطق هامة من الصين مثل " شانغ دونغ " Chan dong" وهينان " وجيان غسو "Jiangsu " ومن ضمنها كانت مدينة كانتون، حيث قتل فيها الكثير من الأهالي والجانب وكان من بينهم تجار عرب وفرس ونصارى ويهود[2].

ثم في حدود القرن السادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي، نقل المَرْوَزي معلومات هامة حول الأوضاع السياسية التي سادت بلاد الصين، فحسب وصفه كانت هناك ثلاث قوى أساسية تسيطر على البلاد، مقسمة إياها إلى ثلاث ممالك: المنطقة الاولى الشرقية

[1]- السيرفي أبو زيد : الكتاب الثاني، ص ص .66-67.

[2]- Herlouag'h M. J : une étape. p.270

والجنوبية تقع تحت سلطة حكومة محلية صينية، ثم مملكة خطاي في الشمال، أما المملكة الثالثة التي أشار إليها المَرْوَزي، فهي مملكة الأيوغور الأتراك الذين سيطروا على المناطق الغربية من الصين، وأضاف أن بين هذه الممالك الثلاث، مناطق متنازع عليها تتسبب في حدوث اضطرابات وحروب من حين إلى آخر(1).

والملاحظ أن معطيات المروزي مطابقة تماما للتقسيمات التي شهدتها الصين في تلك الفترة، فالمملكة ذات الحكم المحلي، يمكن أن يكون قصد بها إمبراطور سونج الجنوبية، التي كانت عاصمة ملكهم " هانغ زهو HangZhou، أما مملكة قتاي / خطاي، فقد امتد نفوذها في الصين الشمالية، وهي التي تعرف لدى الصينيين بمملكة لياوو " Liao" ذات الأصول المُغولية, التي كانت تسيطر على كامل المناطق الشمالية، والوسطى في جنوب منغوليا الحالية، أما مملكة الأُيغور التركية، فهي التي عرفت تاريخيا بمملكة كزيا " XiaDynasty" 1038-1227م(2).

أما في منتصف القرن السابع الهجري/ الرابع عشر الميلادي فقد وافق تواجد الرحالة المغربي ابن بطوطة في الصين، نهاية فترة الحكم المغول لهافكانت البلاد تعيش السنوات الأخيرة من عهد أسرة "يوان، وكان أغلب التتار الفاتحين قد دخلوا الإسلام (3)،" وقد زار عاصمتهم خان باليق(بكين)، وأشار إلى أنه لم يجد الخان الأعظم، لأنه خرج لمحاربة ابن

(1)– المروزي: المصدر السابق، ص، 3،14.

(2)– PILLETIER : CHINE , JAPON , COREE GEOGRAPHIE UNIVERSELLE,PARIS , 1994 , p.8 ; Hartman .M :AL SIN .p.646

(3)– Ahmad Nafis : « Muslim Contribution to the Geography duringe the middle ages » , in ***I.C*** . Heyder Abad , JULY ,, 1943 , P258

عمه الذي أراد أن ينفرد بحكم مدينة قاراقورام، عاصمة إقليم خطاي بالصين الشمالية، وقد حشد الحشود لمواجهته، كما أفاد ابن بطوطة بمعطيات هامة حول النزاعات الداخلية التي صبغت الصين في نهاية فترة الهيمنة المغولية عليها .[1]

أ- **المدن الصينية والنشاط التجاري من القرن الرابع إلى السابع الهجري:**

منذ فترات مبكرة تعرضت المصادر الإسلامية إلى وصف بلاد الصين، ومواصفات الحياة الاجتماعية والاقتصادية فيها، حيث تعطي نصوص سليمان التاجر، في النصف الأول من القرن الثالث الهجري، وابن خردادبة وأبو زيد السيرفي، وصفا حيا للمدن الصينية التي كان يتردد عليها التجار المسلمين في عهد " أسرة تانغ" " Tang" (619-906م) والملاحظ أن المدن الساحلية الجنوبية، كانت المناطق التي تردد عليها كثيرا هؤلاء التجار، وبصفة منتظمة، فقد كانت موانئ الصين الجنوبية مفتوحة أمام التجارة الخارجية في عهد " تانغ"، على عكس حدودها الشمالية والغربية البرية، التي أغلقت في القرن الثامن الميلادي، نظرا للاضطرابات التي ميزت علاقة الصين بجيرانها اهل التبت من جهة، والأتراك الأويغور " ouigour" [2] من جهة أخرى.

---

[1]- ابن بطوطة : المصدر السابق، ج3 ص 299.

[2]- أو اليوغور "ouighour" شعب من أصل تركي، يعيش في آسيا الوسطى والعليا، وهم ينتمون إلى المجموعات التركية الناطقة باللغة الألتائيكية " Langue altayique" سيطروا على كامل حوض التاريم، تحالفوا في القرن السابع الميلادي مع أسرة تانج، وفي عام 744م سيطروا على كامل منغوليا، وكانت عاصمتهم في صحراء كراكورام، غير أنه في عام 840 أخرجتهم من منغوليا القبائل المحلية كيرغيز kirghiz، فأسسوا مملكتين في الشمال الغربي للصين واحدة في نواحي قانصو، والأخرى في نواحي إقليم كزنجيانج Xinijang، وقد سقطت هذه الأخيرة على يد الماغول في القرن 13 الميلادي، ويشكل اليوغور اليوم أغلبية سكان المقاطعة التابعة للحكم الصيني وأكثرهم مسلمون. راجع: sellier.J et sellier.A : Atlas des peuples d' Orient , édition la Découverte , Paris , 1993 , p.143

ومن المؤكد أن كل هذه النزاعات أثرت على المبادلات التجارية على طول المسالك التقليدية لطريق الحرير، وهو مادفع أسرة تانج ابتداء من عام 763م إلى أن تقطع كل اتصالاتها البرية، وبالرغم من معاهدات السلام التي كانت تعقد بين الحين والحين، كمعاهدة عام 822م بين الصين والأيوغوريين، ومعاهدة عام 823م بين الصين والتبتين، إلا أن الأولوية أعطيت للمدن الساحلية الجنوبية في الانفتاح على الخارج[1].

وهذا ما يفسر انتعاش الملاحة البحرية التجارية في المحيط الهندي خلال القرن التاسع الميلادي، حيث شكلت بالنسبة للتجار المسلمين، بديلا عن التاجرة البرية، فظهرت نصوص الرحالة التاجر سليمان حول هذه البلاد، فقد وصف هذا الأخير بلاد الصين – خاصة المدن الجنوبية الساحلية التي زارها – بأنها من أجمل وأحسن البلدان التي رآها، وأنزهها، وأن هواءها أصح وأقل أمراضا من هواء بلاد الهند فقلما يرى بها أعمى ومن به عاهة، وهي عامرة بالمدن المنظمة ذات التحصينات الضخمة ومعظمها تشقها أنهارا كبيرة أكبر من تلك الموجودة في البلاد الإسلامية كالدجلة أو الفرات [2].

ويقع تحت يد ملك الصين أكثر من مائتي مدينة من أمهات المدن تتمتع كلها بتحصينات هامة، وتتميز المدن الكبرى في الصين عن غيرها، باحتواء كل باب من أبوابها على " جادم" وهو مثل البوق طوله ثلاثة أو أربعة أذرع ينفخ فيه في اوقات محددة من الليل

---

(1)– Herlouag'h (M) : « une étape de la route maritime de la soie la partie méridionale de l'ISTHME kra au IX e siécle», dans :***J. A*** , sociéte asiatique , Paris , 1988 , (T : 286) p 267

(2)– سليمان التاجر: المصدر السابق، ص .58.

أو النهار ليعرف بها الوقت ويسمع على بعد ميل من المدينة، ويحكمها حاكم يعين من قبل الملك ويساعده خصي [1]، وهو موظف قائم بشؤون الإدارة [2].

وأضاف أبو زيد السَّيْرفي معلومات هامة حول " الخصي"، حيث ذكر أنهم مجموعة من الموظفين المسؤولين عن جمع الخراج، أما عن أصولهم فمنهم من سبي في الحروب ومنهم من دفع بهم أولياء أمورهم من أهل الصين، لخدمة الملك تقربا منه، ويعرفون بين الصينيين بمراكبهم الخاصة التي يتقدمها رجال يضربون بنواقيس، فإذا عبروا شارعا ما في المدينة، وجب أن تبتعد العامة عن الطرق، حفظا لهيبتهم، وهم يرتدون من اللباس الصيني أفخره ومن الحرير الذي لا يصل إلى بلاد المسلمين [3].

ومن الوصف العام للمدن الصينية هو ماكتبه ابن خرداذبة حول وجود ثلاثمائة مدينة كلها عامرة بالصين، منها تسعون مشهورة ومعروفة، إلا أنه لا يذكر منها إلا أربعة وهي: لوقيف، وخانفو (كانتون)، وخانجو (هانج – تشو، Hang – tshou)، وقانصو وهي مدينة قيانتشوا والواقعة في مقاطعة شانتونتغ (Kian – tshou)، وهي في مجملها ساحلية جنوبية، كما اشار الى أن لكل المرافئ نهر عظيم تدخله السفن ويتعرض للمد والجزر [4].

---

[1]– إن وظيفة " الخِصِّي" "Eunuques" أوجدتها الحكومة الصينية في عهد أسرة تانج في حدود النصف الثاني من القرن الثامن الميلادي، وهو مفتش المراكب التجارية وجابي الضرائب منها، وعرف باللغة الصينية ب " شيبوسي" "Shibosi".

راجع HerGoulac'H,Michel : une étape De la route Maritime de la soie, Dans ***J–A***, 1998, 1, p.296.T.286

[2]– سليمان التاجر: المصدر السابق، ص.35.

[3]– السيرفي أبو زيد: المصدر السابق، ص، ص . 73-74.

[4]– ابن خرداذبة: المصدر السابق، ص.71.

ومن تنظيمات التجارة الداخلية الصينية الهامة، ما أشار اليه التاجر سليمان الى كيفية تنظيم انتقال الأشخاص، والبضائع بين المدن الصينية، حيث كانت تتم هذه العملية وفق ضوابط دقيقة، ومنتظمة تسهل تنقل الأفراد، وفي ذات الوقت تؤمنهم، وتضمن سلامة بضائعهم أو ممتلكاتهم، وكان يخضع لها الأجانب وأهالي على حد سواء، وهي تقضي بأن يحصل المسافر بين المدن الصينية على ترخيص بالسفر كتابي من حاكم المدينة وآخر من نائبه، يحمل الأول، بيانات حول اسم المسافر وعمره واسم من يرافقه وأعمارهم وإلى أي فئة ينسبون، أما الترخيص الثاني فيحمل معلومات عن الأموال والمتاع المحمول، والجدير بالإشارة إليه هو إجبارية حمل هذه التراخيص خاصة وأنه تنتشر على طول الطرق الرابطة بين المدن، محطات لشرطة التفتيش الذين يسجلون مايلي:

" مر بهذه المحطة فلان بن فلان من الفئة الفلانية صينيين أو أجانب، في اليوم المحدد والشهر المعين والسنة المحددة، وإشارة الى المال أو السلعة المنقولة، وعدد مرافقيه، وأشار سليمان إلى أن هذه التدابير لها إيجابيات كثيرة فهي تحفظ أموال المسافرين من الضياع أو السرقة، وفي حالة ما إذا حدث لصاحبها مكروه أو مات ردت إلى أهله، الانظباط من ميزات أهل الصين [1].

فكان التاجر العرب يتوافدون بانتظام على أهم المدن الساحلية الجنوبية، ومنها يعبرون إلى باقي مدن الصين، وقد احتلوا الترتيب الأول من بين التجار الأجانب فيها، من حيث حجم التجارة والثروة، وكان الأباطرة الصينيين يستعينون بهم لجلب الاستثمارات الأجنبية، وكانت تجارة الصين الخارجية تتركز في العاصمة الغربية، مدينة ثيان، حاليا، والعاصمة

[1]– سليمان التاجر: المصدر السابق، ص.42.

الشرقية، مدينة لووا يانغ، حاليا، وكانتون قوانغ تشو حاليا، ومدينة الزيتون (تشيوان تشو) ومدينة مينتشو (نينغبو) وغيرها، وأكثرها مدن السواحل أو على شواطئ نهر اليانغتسي، وكان الطريق التجاري البحري، حينها قد رجحت كفته لأنه الطريق الأسهل والأرخص تكلفة والأكبر حمولة والأكثر أمنا. برز على الساحة من بين التجار المسلمين، عدد كبير من الأثرياء الذين كانوا يتمتعون بالشهرة الواسعة في البلاد حتى أنهم عُيِّنوا في مناصب مرموقة، ومن الأمثلة الواردة في الوثائق الصينية الرسمية نذكر:

- " البوشي" التاجر الذي قدم في سنة 993م هدايا إلى إمبراطور الصين تاي زونغ 976-998م في عهد أسرة سونغ SongDynasty، وتمثلت في ؛ 50 نابا كاملا من العاج، وألف كيلوجرام من البخور الراقية، ومائة زجاجة من العطور الممتازة، وأربعة كيلوغرام من سبائك الفضة والنحاس، ثم في سنة 995م قدَّم ابنه باسمه هدايا إلى امبراطور الصين تفوق هدايا أبيه، ويمكن التعرف على مدى ثراءه من قوائم الهدايا التي قدمها، والمسجلة في سجلات القصر الصيني .[1]
- التاجر "السنغاتور" الذي سجلت المصادر الصينية أنه، ذو أصل عماني من مدينة " صحاري" الذي أقام في مدينة كانتون عشرات السنين وكانت له ثروة بلغت عدة ملايين " مين" وهي عملة صينية قديمة.
- التاجر " البوياري" ذو الأصل اليمني وصل قبل سنة 1131 وتزوج إحدى أخوات الحاكم الصيني بالإقليم، وجاء في التقارير أنه أحضر من بلاده ذات مرة 209 أنياب كاملة من العاج و35 قرنا من وحيد القرن (الكركدن)، ويزيد وزن كل ناب من العاج عن

---

[1]- لي تشين تشونغ: " الإسلام والثقافة الصينية"، في مجلة " **التسامح**"، مسقط سلطنة عمان عدد: صيف/1425هـ/200م؛ ص.258

ثلاثين كيلوجرام، واختار القصر الملكي منها 100 وحدة عاج و35 وحدة قرن للاستعمال الخاص [1] والملاحظ أن الملوك الصينيين كانوا يتهافتون على مثل هذا النوع من البضائع، فحسب روايات سليمان التاجر، كان أهل الصين يصنعون من قرون الكركدن أحزمة، وكاناالتجار المسلمون يحرصون على جلبها إلى الصين لما تدره من أرباح معتبرة [2].

ب –مدينة ومرفأ " خانفوا" /كانتون، قوانغ تشو " kuang-tchou":

مدينة كانتون باللغة الصينية هي قوانغ تشو Kouang –Tchou، أو " جوانج زهو" " GuangZhou"، تقع على الساحل الجنوبي للصين، وهي عاصمة إقليم قوانغ دونغ Guang dong، على نهر الجواهر " زهو جيانج " Zhu– jiang"، ويعتبر ميناءها من أكبر الموانئ الصناعية والتجارية في الصين، ويرتبط به ميناء آخر يتقدمه ب 15 كلم يعرف بميناء " هوانغ بو" " Huangpu" ويقع على نفس قناة ، ويعتبر أكثر موانئ الصين نشاطا وفعالية، حيث يسيطر على ربع التجارة الخارجية للبلاد، ويبدو أنه هو الميناء الذي تتحدث عنه المصادر الإسلامية الذي كان يتردد عليه التجار العرب والفرس والهنود وغيرهم [3].

فقد عرف لدى الرحالة العرب بخانقوا في نصوص سليمان التاجر، وأبوزيد السيرفي، والمروزي وغيرهم، ووردت عند ابن خرداذبة " خانفو" ، و" خانفو" لدى أبو الفدا، أما عند ابن

---

[1]– لي تشين تشونغ: " الإسلام والثقافة الصينية"، في" **التسامح**"،؛ ص.258.

[2]– سليمان التاجر: المصدر السابق، ص.35.

[3]– Herlouag'h (M) : une étape de la route, dans ,***J A***, T .286 .1 (1998) , p.269

بطوطة فقد جاءت تحت تسمية " صين الصين"، وأضاف أن أهلها يسمونها " الصين كلان"[1].

ومن خلال وصف أقدم المصادر الإسلامية للمدية يتبين أن الميناء الواقع على النهر العذب، كان هدف السفن التجارية الإسلامية القادمة من بحر فارس، حيث تجتمع فيه كل البضائع الصينية وتلك القادمة من الغرب في القرن الثالث الهجري، وكانت المراكب تصل إلى المرفأ بعد أن تجتاز الخليج نحو الشمال، باختراقها الوادي الذي يصب في بحر الصين، ذو المّد والجزر مرتين في اليوم والليلة [2].

وأضاف ابو زيد السَّيرفي تفاصيل كثيرة عن موقع المدينة بالنسبة للميناء، فذكر أن هذا الأخير تفصله مسافة أيام يسيرة عن المدينة وهما يقعان على نفس الواد العظيم الذي يتجه إلى البحر[3].ولقد ذهب دي خويه، إلى القول أن ميناء " خانقو" الذي تتحدث عنه المصادر الإسلامية هو نفسه الميناء الشهير " هونغ كونغ" " Hongkong" الواقع في جنوب كانتون الحالية [4].

[1]– سليمان التاجر: المصدر السابق، ص.13، أبو زيد السيرفي: المصدر السابق، ص.62، ابن خرداذبة: المصدر السابق، ص.71،ابن بطوطة : المصدر السابق، ج3، ص.268.

[2]– سليمان التاجر: المصدر السابق، ص.21.

[3]– السيرفي أبو زيد: المصدر السابق، ص.63.

[4]– Yule. H : op.cit (I.G) .V.126, p.293

كانت كانتون – الميناء أو المدينة– في القرن الثالث الهجري = التاسع الميلادي، تمثل مركزا تجاريا نشيطا، لاحتوائها على أسواق متخصصة كثيرة، تنتشر في كل ناحية، وذلك حسب سليمان التاجر، وكانت مقصد التجار المسلمين [1].

وكانت فيها جالية مسلمة، استوطنت المدينة وأن ملك الصين يعين منهم – رجلا مسلما– يكون إماما عليهم وقاضيا بينهم، فيأمهم في صلواتهم كلها والأعياد، وفي خطبه يدعو لخليفة المسلمين ببغداد، والملاحظ أن حتى التجار القادمين من العراق لا ينكرون زعامته على طائفة المسلمين في كانتون فكانوا يلجئون إليه في معاملاتهم التجارية أو منازعاتهم [2].

وفي هذا الصدد تتحدث الحوليات التاريخية الخاصة بمدينة كانتون عن وجود رجل من بلاد الداشي(العرب)، أقام بها، عمر كثيرا وبلغ مائة وثلاثون عاما ومع ذلك بقي يتمتع بحاسة سمع ممتازة وبنية جسدية جيدة وكان قد أقام مدة طويلة في الصين لإنباهره بحضارة الامبراطورية في عهد تانغ وقد أهداه الامبراطور الصيني ردءا مصنوعا من البروكار مع حزام قضي وقطعة حرير ويبدو أنه كان يشغل وظيفة منسق بين التجار المسلمين والحكومة الصينية.[3]وكان التاجر المسلم في كانتون يدفع الجزية التي فرضها الحكومة الصينية على كل الذكور، حتى الصينيين أنفسهم ملزمون بها، ليحفظ ماله[4].

---

[1]– سليمان التاجر: المصدر السابق، ص.21.

[2]– سليمان التاجر: نفس المصدر، ص .14.

[3]– Chau Ju Kua : Op.cit P118 .

[4]– سليمان التاجر: المصدر السابق، ص ص. 40–41.

نقل سليمان التاجر صورة لنشاط التجار المسلمين في بلاد الصين، فحين وصول المراكب التجارية للميناء خلال الفترة الموسمية لوصولها، ينقل الموظفون الصينيون، السلع إلى مخازن خاصة حيث يحجزونها، في ظروف تؤمن سلامتها من التلف او غيره، وتظل هناك دون تصريف لمدة ستة أشهر، وذلك حتى تصل كل المراكب البحرية التجارية الأخرى التي انطلقت في نفس فترة الرياح الموسمية المواتية للإبحار، كما كانت الحكومة تأخذ رسوما عن البضائع الواردة، من كل عشرة، ثلثه أي بنسبة 30 % من مجمل السلعة، ويسلم الباقي إلى صاحبها، أما السلعة التي تعجب الحاكم وأراد أن يأخذها، فيشتريها بأغلى الثمن ويعجل في الدفع، وتعتبر مادة الكافور هي البضاعة التي يحرص الحاكم على شرائها بثمن باهض، حيث يقدر الوزن منه بخمسين " فكوجا" – العملة الصينية– والفكوج يساوي ألف " فلس" من النقود النحاسية، بينما إذا بيع خارجا في الأسواق أخذ بنصف الثمن [(1)].

ومن الإشارات الهامة التي أفاد بها هذا المصدر، هي أن كانتون عرفت ثروة المرافئ بفضل ازدهار النشاط التجاري فيها، وتردد التجار المتواصل عليها، فبفضل عائدات التجارة كان يدخل خزينة هذه المدينة وحدها في كل يوم ما يعادل خمسين ألف دينار، وهو دخل ضخم، خاصة وأنها ليست أكبر المدن الصينية [(2)].

وأضاف ابن خرداذبة حول تجارة المسلمين في كانتون، أن التجار كانوا يجلبون من هذه المدينة الحبوب والفواكه على اختلافها والبقول والحنطة والشعير والرز وقصب السكر [(3)].

[(1)]– سليمان التاجر: المصدر السابق، ص.36.

[(2)]– سليمان التاجر: المصدر السابق، ص.41.

[(3)]– ابن خرداذبة: المصدر السابق، ص65.

وفصل سليمان التاجر في أنواع البضائع، التي تحمل إلى الصين فذكر أن المعاملات تتم بالفلوس، وأهم السلع هي العاج، واللبان،وسبائك النحاس، و" الذبل" التي جلود ظهر السلاحف من الجزر، وخاصة قرون البيشان أو حيوان الكركدن، المتواجد فالهند بكثرة، وهي من السلع المطلوبة في الصين حيث يصنع منها المناطق " الأحزمة"، أما السلع الصينية التي يتهافت التجار المسلمين عليها، فهي ما يعرف " بالغضار الصيني الجيد" وهو من أجود أنواع الخزف الذي وصف بأن الأقداح المصنوعة منه في رقة وشفافية القوارير، " يرى ضوء الماء منه" من شدة إتقانه..[1].

ويتبين من خلال ما تقدم أن أباطرة الصين في القرن التاسع الميلادي، كانت سياستهم قائمة على تشجيع التجار المسلمين، والأجانب لتنشيط المجال التجاري للبلاد عبر كانتون، وغيرها من البلاد الساحلية، وهو يوافق فترة سلالة تانغ "Tang Dynasty" 618-907م، ويتفق ما أوردته المصادر العربية لهذه الفترة مع ما سجلته كتب التاريخ الصينية حول سياسة أسرة تانج حيال الأجانب، حيث كانت تشجع ورودهم على مدن السواحل، لاسيما كانتون التي كانت البوابة التي يعبر منها إلى الصين عن طريق البحر، فقد جاء في الكتاب القديم للعهد الملكي لهذه الأسرة " JuTangShu" في الجزء 131، أن في عام 770م، عين لي ميان " Li – mian" حاكما على مدينة كانتون، ومنطقة جنوب الصين، ونظرا لاتصافه بالنزاهة والعدل وحرصه على جذب التجار الأجانب إلى هذه المدينة، ارتفع عدد السفن

[1]- سليمان التاجر: المصدر السابق، ص ص .35-36.

التجارية القادمة إليها من البحر، فبعد أن كان لا يتعد 50 سفينة سنويا، أصبح في آخر عام من حكمه أربعة آلاف سفينة بحرية سنويا [1].

ويستنتج مما رواه سليمان، أنه في القرن الثالث الهجري كان للمسلمين مسجدا جامعا في الحي الخاص بهم في مدينة كانتون، يقيمون فيه صلواتهم الخمس والأعياد، ويحلون فيه كل ما يواجه من مسائل امور التجارة والحياة المدنية، وتذكر الدراسات الخاصة بتاريخ انتشار الثقافة الإسلامية في الصين، أن أقدم مساجدها مسجد " هواي تشينغ" أي " الشوق إلى النبي" في مدينة كانتون وأمام قلة الأدلة حول التاريخ الدقيق لبناء المسجد، إلا أنه بالاعتماد على روايات سليمان التاجر التي تشير إلى وجود جامعا في المدينة، يمكن أن يكون هو نفس المسجد، ويعود على الأقل إلى أوائل القرن التاسع الميلادي [2].

كما تطرقت المصادر الإسلامية المراتب الإدارية الصينية في مدينة كانتون، والملاحظ أن المدن الصينية الصغرى يعرف حاكمها ب " طوسنج" أي القائم على المدينة، بينما يعرف حاكم المدينة الكبيرة وذات الأهمبة ب " ديفو" [3] ثم يليه الخصي الذي يعرف باللغة الصينية " بالطوقام" وهؤلاء الموظفين في أغلبهم ذوي أصول صينية خالصة، أما قاضي القضاة فيلقب ب " لقشي مامكون"، ويضيف سليمان التاجر، أن لديه ألقابا أخرى لمراتب الموظفين،

---

(1) سليمان التاجر: المصدر السابق، ص ص .35-36.

(2)– ذانج هو: المعاملات بين الصين والعرب في العصر الوسيط، في حصاد ندوة الدراسات العمانية، وزارة التراث القومي والثقافة، سلطنة عمان، نوفمبر 1980، المجلد السادس، ص.23. راجع أيضا: لي تشين تشونغ: الإسلام والثقافة الصينية، مجلة التسامح، ص . 259.

(3)– إن هذه التسمية أصلها في اللغة الصينية هو " تاي فو" Tai –fu ومعناها الحاكم Gouvernant . راجع :
M.Hertman – Bosworth C.E : Al–sin dans (E.I) , V : IX, p.646.

إلا أنها صعبة الضبط من لغتها الأصلية، وهذا مايدل على احتكاكه الكبير بالمجتمع والإدارة في الصين خلال رحلاته الكثيرة إلى هناك [1].

كما كان المروزي من المصادر الإسلامية التي وصفت مدينة كانتون، فكتب عنها وعن أسواقها وذكر أن بها أعظم مرافئ الصين، ويخترقها نهر عذب كبير عليه جسور، وعلى أحد جانبيه أسواق خاصة بالتجار الغرباء، أما على جانبه الآخر فهناك توجد أسواق أهل المدينة، وأكثر هؤلاء الأجانب هم المسلمين لاسيما العرب والفرس، ومن تنظيماتهم أن تتم معاملات البيع والشراء والمعاملات التجارية طيلة النهار، فإذا غربت الشمس تقرع الطبول في الجانبين فتتصرف كل فئة إلى موضعها المخصص لها، وإذا حدث وأن خالف أحدهم هذا النظام غرم وأُدِّبَ، ولايحق للغريب أن يأخذ من الصينيين غلام أو جارية على سبيل الرق، ومن البضائع التي تحمل إلى الصين من البلاد العربية أو غيرها، أنياب الفيل والفلفل والزجاج واللازورد والزعفران وجميع الفواكه اليابسة كالتمر والزبيب [2].

وفي القرن الرابع الهجري، سجل أبو زيد السيرفي، أن هذه المدينة المشهورة لدى التجار المسلمين عرفت في النصف الثاني من القرن الثالث الهجري فترة حرجة من تاريخها، فقدت على إثرها مكانتها ورخائها الاقتصادي لفترة، وذلك بسبب حركة التمرد التي قادها أحد الثوار الصينيين وعرف ب " البابشو" عام 264هـ، وحسب ابو زيد، وصل هذا المتمرد إلى "

---

(1)– سليمان التاجر: المصدر السابق، ص .38.

(2)– المروزي: أبواب في الصين والترك، ص.10.

خانفو" وحاصرها لمدة طويلة إلى أن استولى عليها، قتل أهلها والأجانب المقيمين بها، وكان من بينهم مسلمين ونصارى ويهود ومجوس، وبلغ عدد القتلى مائة وعشرين ألفا [1].

ويرى ذانج هو، أن العدد المذكور لضحايا ثورة هوانج تشاو، مبالغ فيه، وأنه من غير الممكن تصديق أن كل الأجانب قتلوا في تلك الأحداث، إلا أنه يمكن استنتاج أن عدد المسلمين في المدينة كان معتبرا [2].

كما يتبين من خلال الحوليات الصينية أن المجازر التي ذهب ضحيتها أعدادا كبيرة من المسلمين في مدينة كانتون، أثناء ثورة الفلاحين المذكورة، لم تكن هي المرة الوحيدة في عهد أسرة تانج وإنما سجل في الكتاب الجديد لعهد تانج " Xin−Tang−Shu" في الجزء 144، عن سيرة الإمبراطور تيان تشين فونغ، أنه في سنة 756 قامت فتنة في مدينة " يانغ تشو" وقتل فيها كثير من الأهالي ومن ضمنهم تجار فرس وعرب وبلغ عدد القتلى منهم عدة آلاف[3].

فلقد كانت هذه الثورات الداخلية من الظواهر التي طغت على بلاد الصين في أواخر عهد حكم أسرة تانج، إلى أن سقطت عام 906م، فهو تقريبا نفس ما عرفته المدينة " بانجشو" الواقعة شمال كانتون، حيث ذكرت السِّجلات التاريخية الصينية، أن جنود الحكومة في أثناء قمعهم لحركة التمرد في المدينة عام 760م، نهبوا السكان وعمدوا إلى نبش القبور القديمة، ولقي ألوف من التجار العرب والفارسيين حتفهم في خضم تلك الفوضى، واعتمادا

[1]– السيرفي أبو زيد: المصدر السابق؛ ص ص .62-63.

[2]– ذانج هو: المعاملات بين العرب والصين، ص .15.

[3]– لي تشين تشونغ: المرجع السابق، ص .257.

على ذلك يمكن القول أن عدد التاجر المسلمين المقيمين في " بانجشو" حينها كبير ومعتبرا[1].

ومهما يكن من امر كل هذه الاضطرابات التي شهدتها الصين، فإن أبا زيد السيرفي، أكد أنها أدت إلى انقطاع سير المراكب على كل المدن الساحلية التجارية، وعرفت نوعا من الركود، فحسب وصفه، نزع الله عز وجل البركات منهم جميعا ومنع البحر جانبه، فلم تعد تصل السفن التجارية إليهم[2].

وبالمقابل استفادت الإمبراطورية البحرية " السيريفيجايا–Srivijaya" من ظروف الصين الداخلية، في إنعاش اقتصادها، فلقد كانت تسيطر على كامل جزر إندونيسيا وسومطرة وجزء كبير من شبه الجزيرة الماليزية، ومكنها موقعها الاستراتيجي الذي يتوسط الطريق نحو الصين في البحارة الجنوبية، من أن تستحوذ على كامل النشاط التجاري في المحيط الهندي، في مطلع القرن العاشر الميلادي، وأصبح ميناء" كده" / كله" " keyda" الواقع في وسط الساحل الغربي لماليزيا، هو المحطة الأخيرة التي ترسى عندها المراكب التجارية القادمة من الغرب، بعد أن كان يعتبر منتصف الطريق البحري بين الصين والبلاد الإسلامية، وغدى مجمع كل البضائع الصينية والعراقية واليمنية، ومن إفريقيا، أي مركزا تجاريا عالميا حقيقيا، يساهم في رخاء وازدهار مجتمعات جزر جنوب شرق آسيا كلها[3].

---

[1]– ذانج هو: المرجع السابق، ص .14.

[2]– أبو زيد السيرفي: المصدر السابق، ص.67.

[3]– Herlouagh ; une étape De la route . dans (J.A) , 1998.1, T 286 ,p.236

إلا أن الرحلة التجارية نحو الصين لم تنقطع بشكل كُلِّي، حيث توجد إشارات تعود إلى القرن الرابع الهجري/10م عند برزك بن شهريار أن بعض التجار اليهود كانوا يتنقلون بين عمان إلى الصين، كالتاجر " إسحق ابن اليهودي" الذي هرب من عمان إثر خصومة بينه وبين أحد اليهود ثم عاد إليها بعد مرور ثلاثين عاما [1].

وتشير حوليات " تاريخ أسرة تانج"، أن مدينة كانتون سبق وأن أغلقت في وجه التجارة العالمية، ومنع التجار من الدخول إليها في منتصف القرن الثامن الهجري، فقد شهدت المدينة فوضى عارمة، كان السبب فيها التجار الاجانب " داشي" " Ta–chi" وهم العرب، و"بوسي" " Po–sse" وهم الفرس، حيث أحرقوا المدينة وألحقوا بها الخراب وهربوا من البحر، وأمام جهل الأسباب التي أدت إلى هذه التجاوزات من قبل التجار المسلمين، يمكن أن يكون ضعف الحكومة في كانتون هو الذي شجع على حدوث هذه الفوضى، ففي هذه الفترة الزمنية، كانت الإمبراطورية الصينية منشغلة بحشد قواتها في تركستان الشرقية، شمالا لمحاربة المتمردين الأتراك في " لوشان" " Lu– Shan"، إلا أن هذه الأحداث أدت إلى إصدار قانون يمنع دخول التجار الاجانب إلى المدينة، وبقيت محرمة عليهم إلى حدود عام 792، حيث أعيد فتحها من جديد. ويمكن استخلاص أن التجار المسلمين كانوا مستقرين ومنظمين، في كانتون التجارية في القرن الثامن الميلادي وأن أعدادهم كانت كبيرة، وذلك حوالي مائة سنة قبل وصف التاجر سليمان السيرفي [2].

---

[1]– برزك بن شهريار: عجائب الهند ....، ص ص 107–113.

[2]– Hourani ,George fadlo : op.cit , p p .63,66

بقيت كانتون على ما هي عليه من توقف لنشاطها التجاري، منذ سقوط حكم أسرة تانج عام 906 م إلى مجيء عهد أسرة سونج " SungDynasty"، حيث استأنفت النشاط البحري بين العالم الإسلامي وبلاد الصين وأضحت أكثر ازدهارا ورخاء[1].

فقد كانت تسيطر على الصين حينها قوتين محليتين:

حكومة أسرة لياو " Lyaw / liao – Dynasty" (960-1127م) التي كانت تسيطر على كامل المناطق الشمالية الغربية للصين، وكانت معاملاتها مع البلاد الإسلامية عن طريق البر، وحكومة السونغ، التي سيطرت على مناطق وسط وجنوب الصين [2].

وجاء في كتابات المؤلفين الصينيين لهذا العهد أن " تجار" "داشي" أي العرب في مدينة كانتون كانوا أغنى التجار الوافدين من البلاد الأجنبية وأكثرهم اقتناء" للكنوز"، لاسيما تجار التوابل العربية، حيث كان استخدام البخور شائعا بين طبقات المجتمع العليا لعهد سونغ، وكانوا يقبلون عليها، وتفيد سجلات التجارة الخارجية، في عام 1077، أن كمية البخور واللبان التي وردت غلى كانتون بلغت 348،673 جينا (كل 2 جين= 1كيلوجرام) [3].

شجعت أسرة سونغ التجار المسلمين على القدوم إلى الصين وممارسة النشاط التجاري فيها، واحتذت بسياسة سابقتها أسرة "تانغ"، فأعيد بذلك تنشيط حتى الأجانب في كانتون، وجاء في كتاب " سونغ هوى ياو" (تاريخ النظم الأساسية الدستورية لأسرة سونج)، أنه وفد على كانتون التاجر " كين ياتيو" وهو الشيخ عبد الله من المدينة العُمَانية " صُحار"، وعاش

---

[1]- Hourani , G.F : op.cit , p.78

[2]- ذانج هو: المرجع السابق، ص. 30.

[3]-ذانج هو: المرجع السابق، ص. 30.

فيها مدة من الزمن، وعين رئيسا لحي الأجانب في كانتون، وقد أسهم في خدمة التجار المسلمين، ونظرا لانتشار صيته، أعجب به الإمبراطور الصيني فعينه ضابطا للهجرة ، والجدير بالذكر هو أن التعيين الإمبراطوري هذا، دوَّنه الكاتب والسياسي الصيني الشهير سوشي (1027-1101م)، وذكر أن الشيخ عبد الله توجه شخصيا إلى عاصمة السونغ (كاي فنج) الشمالية، لتقديم احتراماتهللإمبراطور وتسليم الهدايا إليه، وتذكر المصادر الصينية أن هذا التاجر كان واسع الثراء، حتى أنه كان قد اقترح على حكومة سونغ تبرعهبترميم سور مدينة كانتون، وحينما كان على أهبة مغادرة البلاد إلى وطنه عام 1072م، أهداه الإمبراطور شن زونغ، جوادا أبيض وسراجا.[1]

ومن خلال ما سبق يمكن القول أن التجار المسلمون، مثلوا الفئة الأجنبية الأكثر نشاطا في مدينة كانتون الصينية، وذلك منذ بداية القرن الثالث الهجري /التاسع الميلادي، حسب ما اعتمدنا عليه من المصادر الإسلامية، هذا إن لم نقل أنها تعود إلى ما قبل تلك الفترة، وماسبقها من مقدمات مهدت لهذا النوع من النشاط، والعلاقات بين البلاد الإسلامية والصين، هو الذي يبقى غامضا أمام قلة المصادر حوله، واستمرت أهميتهاحتى أواخر العصر الوسيط.

[1] - ذانج هو: المرجع السابق، ص. 30.

خلاصة الفصل الرابع :

منذ القديم كانت الملاحة البحرية والمبادلات التجارية في المحيط، بيد الفرس والهنود الضليعين في الملاحة البحرية والمعارف الفلكية، وهؤلاء الآخرين أَسَّسُوا لهم ممالك قوية مترامية الأطراف، سواء في شبه القارة الهندية والجزر الإندونيسية وبلاد الملايو، أو في أراضي كمبوديا والفيتنام . وتمتع التجار من فرس وهنود وعرب وغيرهم، بحرية في النشاط ضمن تجارة الشراكة في مرافئ المحيط الهندي*The emporia Partnership Trade*، القائمة على المبادلات التجارية للأقليات من كافة القوميات منها المستقر ومنها المتنقل، وقد اصطلح على تسميتها بـ " تجارة الشتات" *the Trading Diaspora*.

ومع قيام الخلافة الاسلامية وتوسع رقعة دولتها، اندمجت مراكب التجار المسلمين وأصبحت جزء من هذا النظام التجاري العالمي السلمي التناغمي، القائم على حرية المبادلات التجارية مع مراعاة الحقوق الضريبية المفروضة في كل المرافئ التجارية .

تزامن ظهور المسلمين كشريك أساسي في التجارة البحرية للمحيط الهندي، مع ظهور حكم أسرة تانغ the Tang dynasty (618 –907م) وهي من أقوى الأسر التي حكمت الصين، وكانت هذه الأسرة قد أطلقت العنان، للتجارة البحرية والانفتاح على الممالك الغربية، ونشطت عبر المسالك البرية والبحرية، بترويج أشهر بضائعها من الحرير والخزف . وكان ميناء "سيراف" على الساحل الشرقي للخليج الفارسي هو مرسى السفن الصينية " الجنك" " Junk"، هذا الى جانب ترددها على ميناء " وُولاًّ = Wula " أي ميناء "الأُبُلَّة" جنوب البصرة منذ عهد الخليفة الراشدي عمر ابن الخطاب (13–22هـ / 634–643م)

حسب سجلات الحوليات التاريخية المعروفة ب " كاوانغ تونغ" Kawang Tung، وهي نفسها التي أشارت الى وصول المسلمين الأوائل إلى الصين كتجار أجانب في وقت مبكر.

أما عن كيف كانت تتم المعاملات التجارية، فعلى العموم لم يكن تجار في العصور الوسطى، يحملون معهم الكثير من العملات النقدية، وإنما كانوا كثيرا ما يعتمدون في عملية التموين بالبضائع وفي تسديد حساباتهم، على وكلائهم في المحطات التجارية، أو على أفراد من عائلاتهم المقيمة هنا وهناك، او على أفراد من نفس جماعتهم الدينية أوالعرقية، ضمن اتفاقيات مالية منظمة، وينتج عن هذه العقود التجارية شراكة قوية ومتينة.

كما اعتمدت أشكالا عديدة أخرى للمعاملات التجارية، كمقايضة سلع بأخرى، أو التعامل برسائل القروض التي تسحب من عائلات التجار، الذين يتمركزون في المدن الواقعة على طول الطرق التجارية ضمن مستوطنة خاصة، ويعملون بأنظمة خصم معقدة تساعد في تنشيط حركة البيع والشراء، ولقد برع في هذا المجال التجار اليهود والايطاليين.

تمكن المسلمون من إنشاء مستوطنات تجارية هامة، على طول طريق الملاحة البحرية الشرقية، ونجحوا في الحفاظ على نشاطهم التجاري فيها لقرون عديدة، ابتداء من جزر المالديف إلى جزيرة سومطرة وجاوة وبورنيو ووإلى جزر الفليبين والمدن الساحلية الصينية، فأصبحت تمثل مراكز تجارية حيوية لهم، لاسيما أولئك القادمين من حضرموت وعُمَان. ومما لا شك فيه أن انتشار الإسلام في هذه المناطق إنما تعود إلى هذه الفترة الزمنية وذلك نتيجة احتكاك أهاليها بتجار المسلمين، العهد الاسلامي تطورت هذه المعارف تطورا ملحوظا، وأصبحت المناطق الساحلية الهندية بموانئها ومدنها والمسافات الفاصلة بينها ونشاطها الاقتصادي من الأمور المعلومة لدى الملاَّحين والتجار المسلمين.

تخصصت السواحل الغربية للهند بإنتاج الفلفل الابيض والاسود حتى عرفت ببلاد الفلفل، الى جانب انتاجها للزنجبيل، وقصب الخيزران، وانواع من النعال الشهيرة والعود العطري، أما جزيرة سيلان فقد اشتهرت بأحجارها الكريمة **والقرفة السهلانية** التي تحمل الى الآفاق، بينما تخصصت الجزر الإندونيسية مثل؛ جاوة وبورنيو والمولوك والسوندا في تصدير **الذهب** و**اللبان الجاوي، وعود القرنفل** و**جوزة الطيب** و**المستيكَ** و**الكُبَّابَة** وغيرها .

وبرزت مدينة كانتون في المصادر الإسلامية، منذ القرن الثالث الهجري / 9م، كأحد أبرز المرافئ الصينية الرائدة في تجارة الشرق، ومثَّل المسلمون الفئة الأكثر كثافة والأكثر نشاطا، من بين كل الجاليات التجارية المقيمة والمترددة على الصين.

ولكن هل سيبقى هذا النظام التجاري في سواحل المحيط الهندي، محافظا على نفس المعايير التي عرفها حتى القرن السابع الهجري / 13م، القائمة على الشراكة وحرية التبادل التجاري في مرافئ المحيط الهندي، ومُحترَمًا من كل الأطراف الناشطة أم أن هناك من سيحاول فرض سيطرته وقوانينه بالقوة على الشركاء التجاريين في المنطقة لاسيما الممالك البحرية التجارية؟

الفصل الخامس

التجارة البحرية في مرافئ المحيط الهندي

من القرن 7 -9ه/13-15م

أولاً–المراكز التجارية الكبرى والسلع المطلوبة:

1 – هرمز ملتقى السفن والقوافل التجارية

2– كمباي combay

3 – مدن ساحل المالابار

4 – جزيرة سيلان (سيرالانكا)

5 – قاليقوت calicut

ثانياً – المبادلات التجارية في الجزر الأندونيسية وشبه جزيرة الملايو

ثالثاً–الصين وتجارة المحيط الهندي 7 -8 هـ/13-14م

رابعاً - نشاط التجار "هُوَيْ هُوَيْ" Hoey Hoey

خامساً- المراكز التجارية الصينية الكبرى

1– مدينة زيتون المركز التجاري العالمي

2– مدينة خان باليق" بكين"

3- مدينة خنسا"هونغ تشيوHang- tcheou"

4 - مدينة كانتون

سادساً– أسرة منيغ الصينية والهيمنة على تجارة المحيط الهندي القرن التاسع هجري/15م

1 –انقلاب عام802هـ/1402م والتحول نحو الخارج.

2– الحملات الصينية العسكرية في المحيط الهندي 806 – 836هـ / 1404- 1433م

3- انعكاسات الحملات العسكرية الصينية في الداخل والخارج .

أولاً : المراكز التجارية الكبرى والسلع المطلوبة:

بالاعتماد على ما دونه الرَّحَالة الأجانب، من سفراء أو التجار المترددين على أسواق المرافئ الساحلية الكبرى بالمحيط الهندي، يمكن تحديد المجالات التجارية الأكثر حيوية في المنطقة المذكورة خلال الفترة من القرن 7 إلى 9م، ويمكن تمييز ثلاث نطاقات تجارية رئيسة في المنطقة، تقع الأولى ضمن سواحل بحر العرب إلى مصب نهر السند Indus، وأشهر مرافئها عدن وهرمز؛ وتقع الثانية ضمن سواحل الغربية للهند، (الملابار- وكيلون وجزيرة سيلان) والنطاق الثالث شمل جزيرة جاوة وسومطرة (إندونيسيا) وشبه جزيرة المالايو وسواحل كمبوديا، والملاحظ أن لكل منطقة ما يُميِّزها من إنتاج سلع اختصت بها دون غيرها.

1- " هرمز" ملتقى السفن والقوافل التجارية:

كان مرفأ مدينة هرمز- بندر عباس حاليا- من المحطات الرئيسية التي تتوقف عندها السفن التجارية الكبرى وتجهز قبل خوض غمار المحيط الهندي، فكانت مدينة تجارية مفتوحة يقصدها تجار الهند والصين، وحتى بعد سيطرت المغول على آسيا الوسطى ومسالكها التجارية بقيت هرمز محافظة على مكانتها كمحطة عبور تجارية ممتازة وأساسية، التي تعبر من خلالها سلع آسيا نحو تبريز، وطرابزون وسمرقند [1].

زارها النصف الاول من الثامن الهجري/14م، الرَّاهب الفرنسسكاني أودوريك دي بردنون Odoric de Perdenone، وانبهر بنشاطها التجاري الواسع، وقد كان بها مدينتين الأولى

---

(1)- D'aconeJacob : op.cit, P.109, De Conti Nicolo : Voyage aux Indes , traduit par : Diane Menard , Librairie Portugaise , Paris, 2004, P.91

قديمة والثانية جديدة، وهذه الأخيرة أنشئت مقابل القديمة وسط البحر، مشكلة جزيرة وتعرف أيضا ب "جراوون Djeraoun "، وهي مدينة كبيرة بها أسواق واسعة، تُمَّون بالسِّلع في كل وقت وبانتظام، فاعتبرت مخزن البضائع الهندية والسِّندية، حيث تنقل منها إلى العراقين العربي والعجمي، والى فارس وخرسان .[1]

فكان مرفأ هرمز مركز تجاري كبيرمطل على المحيط الهندي، وملتقى القوافل التجارية، التي تقصده من الأقاليم السبعة، من الشام ومصر وأذربيجان وبلاد الروم ومن العراقين العربي والعجمي، ومن تركستان الكبرى – ماوراء النهر- ومن بلاد القبجاق شمال قروين ومن كل بلاد الصين شمالها بلاد الخِطا وجنوبها مه- صين Ma.Sin، وتعددت تسميتها بين هرمز و" جيرون"، و"بار الآمان" حسب سفير شاه روخ (2).

ولقد شاهد السفير المُغولي " عبدالرزاق" مستهل القرن التاسع هجري في مرفأ المدينة مراكب تجارية، قدمت من كل أنحاء الشرق الأقصى من الخان باليق (بكين) الصينية، ومن الممالك الساحلية لبلاد جاوة، وبلاد البنغال وجزيرة سوقطرة، وجزر "ذيبة المهل" (المالديف) وبلاد المالابار وشبه جزيرة غوجارات Gujarat، وكمباي وزنجبار على الساحل الإفريقي ومن عدن وجدة، وكلها تحضر بضائع ثمينة، ونادرة يكثر الطلب عليها، ساهمت قوى الطبيعة من شمس وأمطار وقمر في إعطائها الكمال والجمال، وهنا يجد التجار المسافرون من كل صوب ضالتهم، وتقوم معاملات البيع والشراء بالعملة النقدية، أو

(1) De Perdenone Odoric ,Les voyages en Asie au XIV du bien heureux frére odoric de saint-François, pp.86_87 .

(2)- Major .R.H : India in the Fifteeth century , P.05

بتبادل السلع، ومقايضتها بكل يسر، إلا الذهب والفضة يدفع عشر قيمتهم، كضريبة لخزينة مدينة هرمز.[1]

وكانت هرمز منطقة خصبة في أسواقها انواع كثيرة من فواكه أراضيها، وبها أسواق خاصة بمختلف الأحجار الكريمة وأخرى تروج لتجارة الخيول العربية الأصلية المطلوبة في الهند بكثرة، وهي تجارة مربحة لذا يحرص التجار على شراءها، خاصة التجار اليهود القادمين من أوروبا، وتحديدا من المدن الإيطالية، ويُباع الفرس الواحد بخمسون قطعة فضية في الأسواق الهندية وذلك لأن الخيل العربي يضاف الى رشاقته ومرونة حركته، يمتاز بسرعته الكبيرة ، فيكثر عليه الطلب في الأسواق الآسيوية، حسب التاجر اليهودي يعقوب.[2]

ويحرص التجار في هرمز على شراء وجمع كل السلع المطلوبة في بلاد الهند، مما خَفَّ وزنه وغلا ثمنه، وكان من أهم مايتهافت عليه ملوك وأثرياء الهند، أو كما سماهم التاجر اليهودي " الوثنيون من بلاد الهند الكبرى والصين"، حجر بالاسى Balasciو هو أجود أنواع الياقوت ويدفعون بسخاء للتجار الذين يحملونه اليهم، إلى جانب حجر الفيروز وأنواع من المواد العطرية، وصبغة النيلةالزرقاء.[3]

ومما لاشك فيه أن أهالي مدينة هرمز كانوا المستفيدين الأكبر من المبادلات التجارية التي كانت تنشط في المرفأ، ففي أثناء الحملات العسكرية الصينية بقيادة قائد البحرية الصيني" شنغ هو" Sheng ho، أخبرنا "مه هوان "Ma Huan الكاتب المرافق للحملة أن أهل هرمز "هو لو مو سو" Ho lu mo ssu, يتمتعون بثراء كبير بفضل كثافة النشاط

---

(1)- MaJor R.H : op.cit , P,06

(2)- D'Ancone.J : opcit, PP.109,113

(3)- D'Ancone.J : opcit, P.113

التجاري بها،فسجل ذلك قائلا: " ليس بين سكان هرمز فقراء، فالتجار الأجانب يسافرون اليها من كل البلدان، عن طريق البَّر ليقتنوا السلع القادمة من المحيط الهندي وهذا هو سرُّ ثراء أهلها المشتغلين بالتجارة " [1].

وبقيت أسواق هرمز مركزا لتبادل السلع على تنوعها، فإلى جانب رواج الفواكه المجففة وغير المجففة، كالعنب والزبيب بشتى أنواعه، والتفاح والتمر الفارسي، كانت في ذات الوقت سوقا كبيرة متخصصة في الأحجار الكريمة، حسب مه هوان، ابرزها الياقوت الأصفر والأزرق والأحمر، وحجر عين القط وهو نوع من الزمرد، ويطلبه الصينيون بكثرة[2].

هذا الى جانب رواج أقمشة الكتانية والسجاد الصوفي، كما يجلب اليها الذهب والفضة، وكذا قطع الخزف الصيني الفاخر المزدان بالأزرق والأبيض، وتباع فيها المواد الصبغية الخاصة بالساتان والحرير، وأنواع خشب الصندل والفلفل والعلك، حسب ماذكره المصدر الصيني "فاي هاسين" Fei Hsin[3].

من بين شتىالقوميات العالمية حينها، بقي التجار المسلمون ، هم الأكثر نشاطا، في أسواق المحيط الهندي فحسب ماذكره نيكولودي كونتي، في حدود 1440، أن المسلمين من عرب وفرس، ومغاربة، ومن مالاباريين، وغوجاراتيين، ومالاويين وبنغالين، هم المسيطرين على تجارة العبور البحرية ووصفهم ب " شعوب البحر"، "فهم تجار أثرياء جدا، إلى درجة

1- Ma Huan :Ying–Yai sheng– Lan , the overall survery of the ocean's shore's 1433 , Translated by : J.V.G.Mills, Combridge The University Press, 1970, pp.165,166.

2- Ma huan : ying –yai sheng– lan, P.170

3- Fei Hsin : Hsing –ch'a sheng – lan , the Overall Survey of the star Raft, translated by : J.V.G.Mills ,Weisboden , 1996, P71.

أن التاجر منهم كان يملك 40 سفينة حينها، وتقدر أرباح الواحدة منها ب 50.000 دوقية ذهبية جنوبية"، كما قدره دي كونتي.[1]

وكان أغلب سماسرة النشيطين في مدينة " هرمز" من اليهود، كما أن التجار اليهود فيها ذوي ثراء كبير ويقاربون 250 تاجرا، كما يوجد بينهم أطباء وعائلات كثيرة مختصة في حرفة الصباغة.[2]

2 – كمباي: cambay:

وبقيت هذه المدينة محافظة على رخائها الاقتصادي حتى عصر ابن بطوطة، الذي سماها كنباية، وذكر أنها مأهولة بعدد كبير من المسلمين ووصفها بأنها من أجمل مدن الهند، من حيث عمارة المساكن والمساجد، فهذه المدينة من أحسن المدن في إتقان البناء وعمارة المساجد وسبب رخائها أن أكثر سكانها التجار الغرباء[3]، فكانوا يبنون الديار الحسنة والمساجد العجيبة وينافسون في ذلك. فكان النشاط التجاري هو السبب الرئيسي لازدهار وثراء مدينة كمباية وأهلها.

فالمرفأ يقع في شبه جزيرة كوجارات GuJarat، على مصب نهر السند، وتكمن أهمية المدينة وميناءها لموقعها الاستراتيجي، فمعروف أنه تصله القوافل من البَّر، القادمة من الشمال عبر ايران، وذكر يعقوب الانكوني أن أغلب سكان المدينة مسلمون ولهم مساجد

---

[1]– De Conti Nicolo : opcit , P.108

[2]– D'Ancone.J : opcit, P.109

[3]– ابن بطوطة: رحلات ابن بطوطة، تحقيق: شارل دفرمري: ب. سانجتي، منشورات معهد تاريخ العلوم العربية والإسلامية النص العربي مع الترجمة الفرنسية، فرانكفورت ألمانيا، 1994، في. ج إ، مج 178، ج4، ص.53.

جميلة، ولليهود كنيس لهم فيها أيضا، ويحتكر هؤلاء تزويد الملك، وزوجاته وكل من القصر، بالمجوهرات الثمينة من جلبة، وأطقم الذهب والفضة وغيرها.[1]

وكانت " صندابور" حسب الدمشقي من الموانئ الهندية الجنوبية التي عرفت نشاطا كبيرا للتجار المسلمين، وحسب ابن بطوطة هي جزيرة تتوسط مدينتين، إحداهما قديمة بناها الهنود " الكفار" وأخرى خاصة بالمسلمين، وأقاموا فيها مسجدا جامعا كبيرا [2].ويرى مقبول أحمد ان صندابور التي تتحدث عنها المصادر الإسلامية إنما هي نفسها خليج " جوا" "Goa" والتي تقع فيها الجزيرة المذكورة، غير أن " نينار" يرى أنها هي مدينة شدا شيفاقاد " Shadashivagad" الهندية الواقعة على ساحل الكورومندل [3].

3 – مدن الساحل المالابار:

الشواطئ الغربية للساحل الهندي المعروف بالمالابار هو الساحل الاكثر نشاطا تجاريا، وبقي محافظا على ذلك طيلة فترة القرون الوسطى، لاسيما وانه المصدر الأساسي لا نتاج الفلفل،وقد زارها التاجر الرحالة ابن بطوطة وأخبر بحدودها وأهميتها التجارية، فبلاد "المليبار" هي بلاد الفلفل، ويصدر منها إلى كل أسواق العالم حينها، وتمتد على مسيرة شهرين من السَّفر على طول الساحل الهندي الجنوبي، من حدود سندابور (جوا Goa)، في الشمال إلى منطقة (كليون Quilon) في أقصى الجنوب [4]. كما تنشط فيها سفن ضخمة لنقل أقوى

---

1) D'Ancone.J : opcit, P.119, DE'conti , Nicolo : opcit, P.92

(2)– ابن بطوطة: المصدر السابق، ج3 ص.57، الدمشقي: كتاب نخبة الدهر في عجائب البر والبحر، نشره ;غ فيران في " ج إ"، منشورات جامعة فرانكفورت, 1994، ضمن (ج. إ), مج: 203، ص .42.

(3)– Maqbul : op.cit , p.149 , Nainar : op.cit , p74

(4)– ابن بطوطة: المصدر السابق، في (ج. إ)، مج 178، ج4،.71.

التوابل العطرية، وأجود أنواع شمع العسل في العالم، إلى جانب العطور والعود الذي هو مطلب الكهنة البوذيين، لذا فهي من التجارات المربحة في كل آسيا .[1]

تنتشر فيها " **المحامل**" لنقل البضائع والأشخاص، وذلك لندرة الخيل التي تقتصر على السلطان، فيحمل العبيد والمستأجرين على اكتافهم اصنافا من البضائع، فكل من كان معه متاع من تجارة أو سواها اكترى رجالا يحملونها على ظهورهم.[2] والمسلمين هم أعز الناس في هذه البلاد، فالهنود يفسحون الطريق ليَمُر المسلم، إلا أنهم لا يشاركونهم الطعام ولا يدخلونهم دورهم.[3]

وصف نبات الفلفل وشبهه بالدوالي العنب وهم يغرسونها في إناء النارجيل فتصعد فيها كصعود الدوالي ويثمر عناقيد صغار فإذا كان أوان الخريق قطفوه وفرشوه على الحصر في الشمس، كما يصنع للعنب ويُقَلِّبونه حتى يَسْتحكم ويسْوَّد لونه .[4]

ويشير أبو الفدا إلى تواجد عدد كبير من اليهود الذين ينشطون في التجارة في المدن الجنوبية لساحل الملابار وهذا مايفيد أن النشاط التجاري لليهود في جنوب الهند يعود إلى فترات مبكرة جدا [5] .

وكان الراهب الفرنسيكاني أودوريك دي بردنون، من الأوروبيين اللاتين الأوائل، الذين زوَّدوا أوروبا بمعلومات قيمة، عن تجارة الفلفل في الساحل المالابار، واصفا اياه " ببلاد

---

[1]- D’Ancone . J : opcit, P.128-129

[2]- ابن بطوطة: المصدر السابق في ج إ، مج 178، ج4 ص 73.

[3]- ابن بطوطة: المصدر السابق في ج إ، مج 178، ج4 ص 75.

[4]- إبن بطوطة : المصدر السابق: في " ج إ"، مج 178، ج4، ص.77.

[5]- أبو الفدا: المصدر السابق، ص.355.، الدمشقي : مصدر سابق، ص 173.

الفلفل"، وان سفن التجارية للمسلمين حينها، كانت أكثر من ينقل الفلفل الأبيض والأسود الى موانئ البحر الأحمر، وبكميات كبيرة ومعتبرة، حتى انها كانت تنقل ما ينتج منه في بعض الجزر البعيدة، المجاورة لمالاقا وسومطرة وجاوة وجزر سوندا الجاوية الشرقية، في حين أشار الى انه، لم تكن يتعدى عدد السفن البرتغالية التي تنقل الفلفل من هذه المناطق البعيدة، إلاَّ بمعدل سفينة واحدة كل عامين .[1]

ومن مرافئه التجارية المُتَردد عليها **مرفأ مانجيلور** " **Mangalor /Mangialur** "، وهي من المدن الهندية، النشيطة طيلة العصر الوسيط، وبقيت محافظة على مكانتها حتى نهايته، وكان التجار الأذكياء كما وصفهم التاجر اليهودي- يقتنون فيها السلع من التوابل والعود العطري، وعاج الفيلة، والمرجان، بأسعار جد مناسبة وينتفعون كثيرا عند بيعه بأثمان مرتفعة في الصين، ويبدو أن أغلب التجار النشيطين والمُبحرين بين سواحل المحيط الهندي خاصة المقتدرين منهم، كان هدفهم أسواق الصين، وياتي في مقدمة السلع المنقولة الى الصين الفلفل بنوعيه الأبيض والأسود، وخشب الصندل والصبر L'Aloés وأنواع من العود العطري والبخور، كما يشترون منها أجود أنواع الكافور الذي يباع في الصين بوزنه ذهبا، ذلك لأنه من أسس الطقوس الدينية البوذية حيث يرش به مدارج الهياكل البوذية.[2]

4- مرفأ مدينة كولام Colam:

هو مرفأ مدينة كيلون Quilon، حاليا، ويُعدُّ أحد أشهر الموانئ الجنوبية على ساحل المالابار الهندي، وكان تجار المقيمين في المدينة من أغنى التجار في المنطقة، وكونوا ثروة

1- De Perdenone Odoric : op.cit, PP.103,104.

(2)- Jacob , D'Ancone : op.cit, P, 134

كبيرة من تجارة الفلفل التي اشتهر بها الساحل، وكان يقصدها التجار من كل صوب ومن الصين لجلب الفلفل والذهب والزنجبيل وصبغة النيلة والخشب الأحمر.[1]

فقد اشتهرت المنطقة كلها بزراعة الفلفل وكانت تجارته من الامتيازات التي حصل عليها النساطرة المسيحيين أتباع القديس الشهير " توماس" من ملك المالابار، حتى أن أتباعه حافظوا على هذا الامتياز، وأصبحوا المحتكرين لتجارة الفلفل في منطقة المعبر MaaBar وهو ما يدعم فكرة العلاقة الوطيدة بين الرهبان المسيحيين والنشاط التجاري، ولقد وصف الرَّاهب التاجر مارينيولي Marignolli الذي أقام في ساحل المالابار أربعة عشر شهرا، مزارع الفلفل، وشجره، فقدم لأوروبا اولى المعلومات حول هذه النبتة الهامة اقتصاديا بعد ان كان يجهلون شكلها وطبيعتها، وكانت معارفهم مقترنة بالخرافات والأساطير، فسجل انها في طول شجرة كرم العنب، وثماره تشبه عناقيد العنب الخضراء ثم تأخذ لونا أحمر، وبعدها تترك في الشمس لتجف وتأخذ اللون الأسود أو الأبيض [2].

وبحكم موقعها جنوب الهند وتخصصها في انتاج الفلفل، ظلت مدينة كولم محافظة على أهميتها التجارية بالنسبة للتجار المسلمين في القرن الثامن الهجري،وهو ما تخبرنا به نصوص ابن بطوطة فكانت من ضمن المدن التي زارها، وحسب وصفه هي أحسن بلاد المليبار وذات أسواق حسان وتجارها يعرفون بالصوليين وهم أثرياء، فمنهم من يشتري المركب بما فيه من السلع ويعيد شحنه بسلع اخرى، وفيها عدد كثير من التجار المسلمين من العراق وبلاد قزوين، وهم فيها محترمون، وبها مساجد جامع رائع العمارة بناه احد التجار المسلمين [3]

---

(1)– Jacob , D'Ancone : op.cit , P,135 , DE Conti Nicolo : op.cit ,P.103 أنظر الملحق رقم.13.

(2)– YuLe .H : opcit , T3 ,PP, 217 , 252 , DE Conti Nicolo : opcit, P,93

(3)– ابن بطوطة: المصدر السابق، في ج إ، مج 178، ج4، ص.ص 99-100.

أفاد ابن بطوطة أن أحد سلاطين المالبيار، كان ثرياً جداً، بفضل إدارته لتجارة كبيرة للفلفل، وامتلاكه لمراكب كثيرة، تتنقل بين اليمن وبلاد فارس وعمان[1].

ومن صور التي تعكس المكانة المرموقة للتجار المسلمين في ساحل المالابار الهندي، في القرن الثامن الهجري / 14م، ما أخبر به ابن بطوطة عن مدينة فندرينة المشهورة بإنتاج الفلفل الأبيض،ففيها طائفة كبيرة من التجار المسلمين، الذين كانوا موزعين عبر ثلاثة أحياء خاصة بهم، وكانوا يتمتعون بأوضاع ممتازة، حيث كان يضم كل حي من أحياءها مسجدا خاصا به، فضلا عن المسجد الجامع الذي يقع خارج المدينة، وقد وصفه بالعجيب لجمال عمارته ووقوعه على شاطئ البحر فله مناظر ومجالس جميلة، وقاضيها وخطيبها من بلاد عُمَان. [2].

في حين تفيدنا مصادر تاريخية أخرى تعود الى القرن التاسع الهجري/15م، على التجار المسلمون بقوا محافظين على نفس المكانة في جنوب الملابار في الفترة المذكورة، حيث احتلوا المرتبة الثانية بين المجتمع الهندي بعد الطبقة الحاكمة التي كانت تضم ؛ الملوك و"الفارما varma" العلماء البراهمة، والكشاترية kshatriyas وهم العسكر وحكام الأقاليم . وكان لكل من مرفأ مدينة كولام وكوشين cochin في جنوب ساحل المالابار، الرِّيادَة في تجارة الفلفل، حتى أن أهلها من الأسر التجارية الثرية، يُودِعُونها في مخازن خاصة، تُعمَّر من الخشب، خصيصا للمحافظة عليها،ثم يُسوِّقونها للتجار، مقابل مبالغ نقدية أو يبادلونها مع التجار الصنيين مقابل صبغيات الأقمشة الحريرية والساتان، أو مقابل القطع الخزفية الصينية المُزْدانَة بالذهب والفضة والألوان من أزرق وغيره. هذا الى جانب سلع أخرى

[1]– ابن بطوطة: المصدر السابق، مج 178، ج4، ص ص 82-83.

[2]– ابن بطوطة: المصدر السابق، ج4، ص 88.

من المرجان، وأزهار الغاردينة، والذهب والفضة، والحديد والمسك، وكلها من أشهر ما يتم تداوله في مرفأ وأسواق كولام (كيلون) الهندية [1].

5 - قاليقوطcalicute:

برز مرفأ التجاري لمدينة قاليقوت الهندية بقوة، منذ القرن الثامن الهجري / 14م، وأصبح منافسا كبيرا لأشهر مدن ساحل الملابار، وهي حالياالاتزال تحتفظ بنفس التسمية " كاليكوت،كانت من بين المدن التي زارها ووصفها ابن بطوطة، وذكر أن ميناءها هو من أعظم موانئ بلاد المليبار، تقصدها المراكب من بلاد الصين وجاوة وسيلان (سيريلانكا) ومن المُهْل (جزر المالديف) ومن بلاد اليمن وبلاد فارس، ويجتمع التجار فيه من كل الآفاق ومرساها من أعظم مراسي الدنيا، ومنها تقلع السفن إلى عدن اليمنية، وبها أمير للتجار" شاه بندر" من أهل البحرين، ونظرا لكبر وسعة مرفئها التجاري، تدخل المراكب الصينية الضخمة وتقوم بعمليات الإنزال أو شحن مختلف أوزان وحمولة بضائعها [(2)].

عُدَّت قاليقوت من أكبر وأهم المرافئ التجارية للتوابل في الهند، بفضل وقوعها في منبع انتاج الفلفل والزنجبيل، وأجمع كل الرَّحالة على وصف مياهها بالآمنة، وتجارها ورجال أعمالها بالنزاهة والعفة في التعامل التجاري، هذا إلى جانب مهارة القائمين على إدارة ميناءها، وقد كان يعرف ملكها ب ساموتيري Samuttiriأي سيد البحر، وكان المحتكر لتجارة الفلفل، لاسيما وأنه كان يدفع ثمنه ذهبا، والملاحظ أن طائفة التجار المسلمين حظيت بمكانة خاصة لدى ملوك الأسرة الحاكمة لقاليقوط فمنحوهم الحماية وحرية التجارة، فتجدر الإشارة الى أن ازدهار وثراء المدينة، إنما يرجع الفضل فيه إلى الحجم الكبير لنشاطهم

---

[1]- Fei Hsin: Hsing – ch a sheng Lan , PP.66,67; Ma Huan: op.cit , PP.130,131,133

[(2)]- ابن بطوطة: المصدر السابق، ج4، ص ص . 88-89، 91.

التجاري فيها.وفي منتصف القرن 9هـ/15م، كانت مجمع كل السلع الهندية من " **فلفل**" ، و" **لُكَّ**" و"**زنجبيل**" و" **القرفة**" و" **كُرْكُم**" وفواكه مجففة.[(1)]

فبرز ميناء قاليقوت الواقع جنوب ساحل المالابار، ولاسيما في القرنين 8-9هـ/ 15/14م، كأهم المرافئ التجارية الواقعة على الساحل الجنوبي، ونافس ميناء كولام / كيلون الحالية Quilon- وحل مَحلَّه، وهو الذي كان كثير النشاط منذ مطلع العصر الوسيط.

ويُعَّد المرفأ التجاري والمدينة من أكثر الأماكن أمنا، ويصل إليها التجار من كل البلاد، لاحتوائها على سلع نادرة وثمينة، فيجتمع فيها التجار القادمين من الحجاز ومن بلاد الزنجبار، وأكثر المقيمين فيها مسلمين ولديهم قاضي وأغلبهم على المذهب الشافعي، ولكل السفن والمراكب التجارية مكان خاص بها، في ميناء كاليكوت، ويتميز التجار المسلمين عن غيرهم، بثيابهم الجميلة وزيهم العربي المميز حسب ما وصفه السفير عبد الرزاق.[(2)]

كانت غلبة نشاط التجار المسلمين، واضحة في أسواق قاليقوت الهندية، طيلة القرن 9 هجري، حيث أفادنا " فاي هسين" انها نقطة تمركزهم، فأعدادهم تفوق أعداد بقية التجار الأجانب، كما كان تأثيرهم الثقافي كبير حتى على الأهالي، وأغلب سكانها أثرياء ويرتدون ثيابا على الطراز الإسلامي، ومن جملة ما اختصت في تسويقه أسواق قاليقوت ؛ الحبوب، فضلا عن أجود فصائل الخيل في المنطقة كلها .[3]

---

(1)- DE Conti , N : opcit , P.106

(2)- Major ; opcit , P.13,14,15

3- Fei Hsin: op.cit ,PP.67,68,69

يُحَّمل الفلفل في مراكب إلى أسواق البحر الأحمر ومكَّة، كما تتردد السفن الصينية على المدينة وهي محطة من محطاتها التجارية الرئيسية.[1]

6- جزيرة سيلان (سيريلانكا):

بقيت سرنديب او سيلان/ سهيلان كما عرفها الرحالة، والتجار محافظة على اهميتها الاقتصادية ونشاطها التجاري حتى نهاية العصر الوسيط، فقد كان لهذين العاملين الأساسين دور في ذلك وهما؛ موقعها الاستراتيجي الذي يتوسط الطريق البحري، وثرواتها المتنوعة والثمينة ، فجعلاها محطة بحرية تجارية أساسية في المحيط، خاصة وأن من أهم ما كان يحمل منها الأحجار الكريمة النادرة المطلوبة، من الياقوت الأحمر Les Rubis ، الياقوت الأزرق الشفاف والمعروف أيضا ب "سفير Saphir " و" اللاَّزَوَرْدLapis-lazuli "، وحجر البِيجَادِّي أو العقيق الأحمر Les grenats، والحجر المعروف بـ " عين القط"، كما يجلب من سيلان القرفة السيلانية الشهيرة [2]، وهي مطلوبة كثيرا في الصين وغيرها فيأخذها التجار لبيعها هناك بأسعار مرتفعة، ولقد انبهر التاجر اليهودي يعقوب بجمال مملكة سيلان وشبهها بجنة عدن " المذكورة في التوراة، فليس فيها من شجر إلاَّ ويفوح منها العطر، فالبلاد كلها معطرة بالروائح الطيبة للتوابل والعطور بشكل مذهل "، كما تحمل من الجزيرة الأعشاب الصيدلانية مثل زيت التوربيث " L'Huile a Turbith" الذي كان يستخدم لتطبيب داء الصفراء [3].

(1)- Major : op.cit , P.19

(2)- DE Conti.N : op.cit, P94

(3)- D'Ancone .J : opcit, PP. 137,138

و تبقى الأحجار الكريمة هي من أهم ما يميز التجارة، في جزيرة سيلان من بين كل دول العالم حينها، وبها حرفيون مهرة يصقلونها بدقة، وأغلاها ثمناً الياقوت ثم الزبرجد Topaz والمعشوق Améthystes واللاَّزُورد وأحجار أخرى بيضاء وردية اللون، أرَّقُ ما يمكن أن يشاهده المرء.[(1)]

ومن جملة الأحجار الكريمة التي اشتهرت بها جزيرة سيلان في المصادر الصينية ماذكره " مه وان " أنه يستخرج من جبالها، الياقوت الأحمر والأزرق(سفير)، وأحجار كريمة أخرى" قيل من شدة جمالها وندرتها كأنها تكونت من دموع بودا"[2]

وكانت جزيرة سيلان تبادل سلعها من قصب السكر وجوز الهند والفواكه وأحجار كريمة نادرة مقابل انواع فاخرة من الحرير الصيني المشجر، والخزف الصيني الرقيق، والكافور والمسك، إلا ان ملوك جزيرة سيلان فقدوا في هذه الفترة استقلالهم الاقتصادي وجزءا كبيرا من سيادتهم، حينما أصبحوا ملزمين بدفع ضرائب لأباطرة الصين من أسرة مينغ، مما تنتجه بلادهم من أحجار كريمة ومواد أخرى، كما سيأتي ذكره لاحقا [3].

---

(1)- D'Ancone .J : opcit, P139

2- Ma Huan : op.cit ,PP.127_128

3- Ma Huan : op.cit, P.129

ثانياً – المبادلات التجارية في الجزر الأندونيسية والمالايو:

شملت مملكة المجاباهيت Majabahit الهندية 1293-1520م، كل مايعرف بإندونيسيا اليوم ؛ جاوة وبالي Bali، مادورا Madura، وسومطرة والجزر المجاورة لها، فضلا على جزيرة بورنيو شرقا وشبه جزيرة ماليزيا، فهي كما سبق وأن مرَّ بنا في الفصل الرابع، شكلت ما عُرِفَ عند المسلمين الجغرافيين والرَّحالة الأوائل "**بمملكة الزابج**"، المتحكمة في تجارة المرور بين طرفي المحيط الهندي الشرقي والغربي، بفضل موقعها الاستراتيجي المتميز الواقع على المنفذ البحري نحو الصين "مضيق مالاقا"، الذي أكسبها أهمية اقتصادية وتجارية كبيرة، فاشتهرت من بين الممالك الهندية في المنطقة، مملكة السايلاندرا البوذية في شبه الجزيرة المالاوية، وكانت قد تحكمت في الطريق التجاري المَّار عبر المضيق منذ القرن الثامن الميلادي.[1]

ومِمَّا لا شك فيه أن علاقة العرب التجارية مع المنطقة، ترجع الى عهود قديمة قبل الإسلام، حيث كانوا يسلكون الدرب التجاري البحري، على طول المحيط الهندي وصولا الى الصين، إلا أن الإسلام أعطى دفعا كبيرا، وسندا قويا، لرحلاتهم التجارية البحرية، وكان الخَّط الذي سلكه الاسلام للانتشار في الجزر المذكورة هو نفس خط سير التجار المسلمين، عبر مرافئ ساحل سومطرة وجاوة ومالاقا، فتسجل المصادر استقرارهم في شمبا champa، على الساحل الكمبودي، ومصاهرتهم مع أهالي المنطقة، ولكنهم في نفس الوقت حافظوا على تميزهم الديني والثقافي، بأن انتظموا في جماعة وفي أحياء خاصة بهم تظم مساجد وقاضي

[1]- حول تاريخ هذه الممالك الهندية يراجع : Hall D.G.E : A history of South east Asia,Macmillan & co, London, 1955, p.58.ss ..

وشيخا للتجار، وكان استقرارهم مماثلا في باقي الجزر الإندونيسية بما فيها جاوة وسومطرة ومجموعة الجزر المعروفة بجزر التوابل، المحيطة بهما[1].

وتعود أقدم الآثار الاسلامية المادية في جاوة الى تاريخ 495 أو578هـ/ 1102 أو 1182م، وهو شاهد لبلاط حجري لقبر نقش عليه، لإحدى المسلمات العربيات قيل انها ابنة الخليفة العباسي المأمون، كما اشتهرت نقوش أخرى تعود الى تاريخ 822هـ/ 1419م، لقبر آخر وهو أحد أشهر الشخصيات الإسلامية التي ساهمت في نشر الإسلام في جاوة، وهو "مالك إبراهيم" .[2]

وفي حدود نهاية القرن السابع الهجري / 13م، كان حكام الممالك في إمبراطورية جاوة، يدينون بالإسلام، ففي هذا الصدد أشار ماركو بولو ان سلطان "مملكة سومادرا" (سومطرة) مسلم وأن كثير من رعيته تبعوه، والحاصل ان الاسلام انتشر في الجزر، على المذهب الشافعي، كما أخبر به ابن بطوطة، وهو المذهب الشائع بين الإندونيسيين اليوم.[3]

واندمج المسلمون في إمبراطورية جاوة، حتى أنهم أصبحوا في القرن التاسع الهجري /15 م، يحتلون أعلى مرتبة في طبقات المجتمع الجاوي، حسب ما أخبرنا به المؤرخ الصيني" مه هوان"، فطائفة التجار المسلمين هناك كبيرة، ومن شتى القوميات، قدمت من مختلف أقاليم البلاد الغربية المسلمة من الجزيرة العربية وبلاد فارس والهند وتركستان والسواحل الافريقية، وآخرين هاجروا من الصين، لاسيما في نهاية عهد أسرة " تانغ"، وما

1- Majumdar,R.C : Ancient Indian colonies in the far east, vol. 2 ,Suvarnadvipa, Dacca , 1937, P.401; Hall ,D.G.E :op.cit, P176.

2- Majumdar,R.C : op.cit, P.401 ; Hall.D.G.E : op.cit, P.176.

3- Hall ,D.G.E :op.cit ,PP.176,177

شهدته من اضطرابات وعدم استقرار داخلي فهاجروا اليها من "إقليم كوانغ تونغ" Kuang Tung، ومنهم من" شانغ شو" Chang Chu ومنهم من" شوان شوو" Chüan Chou، ومناطق أخرى من الصين.[1]

كانت جزر جنوب شرق آسيا لاسيما جزر نيكوبار وسومطرة، وإندونيسيا: جاوة الصغرى وجاوة الكبرى (بور نيو Bornéo)[(2)]، وشبه جزيرة المالايو (ماليزيا) مجالا واسعا للمبادلات التجارية، والمُمَّول الحصري للعالم بأنواع خاصة من التوابل العطرية، غير متواجدة في غيرها من المناطق، ويأتي في مقدمتها جوز الطيب وأعواد القرنفل، فحسب الرَّاهب أودوريك دي بردنون الذي تنقل بين سوماطرة، وكمبوديا وجاوة وبورنيو (1316-1330م)، أخبرنا بما تختص بإنتاجه كل منطقة، فالجزرالشرقية لجاوة الكبرى المعروفة **بجزر التوابل** هي المصدر لأنواع حصرية من التوابل، لاسيما سوندا Sunda وهي جزيرة ضمن أرخبيل مولوك MOLUCQUES الواقع شرق جزيرة بورنيو ، فهي الموطن الذي يشحن منه التجار عود القرنفل clou de Girofle ، ***" وهي الأفضل من بين كل الجزر الموجودة، حيث ينموا فيها الكافور la câfora والكُبَّابَة le cubebe وأجود أنواع الزنجبيل le melegete وجوز الطيب La noci muscate وأنواع أخرى من التوابل الثمينة، وهي أيضا بمثابة متجر كبير لتموين النبيذ "*** ، بينما جزر الباندا Banda كانت المُوَرِّد المختص بجوز الطيب وجوز macis أو ما يعرف بقشر جوز الطيب العطري [3]. ولقد ذكر المؤرخ الصيني " مه هوان" القرن التاسع هجري /15م، أن هذه الجزر كانت تَعُجُّ بالتجار الأجانب

---

1 - Ma Huan : op.cit , P. 93

(2)- DE Conti.N :op.cit , P101

3 - De Perdenone Odoric : op.cit, PP.148,150,160 ; Yul .H : op.cit ,T.2 , PP. 153,154.

القادمين لشراء الذهب والأحجار الكريمة، وسائر البضائع التي تباع بكميات كبيرة وأسعار مناسبة.[1]

كما كانت السفن التجارية تقصد جزر نيكوبار، أو كما كان يعرفها تجار وملاَّحين المحيط الهندي ب "جزر العراة" لجلب جوز الطيب وهناك يقايضون "القاقِّلة" والعود العطري بالسكر[2].

وفي هذا السياق سجل التاجر الإيطالي الأنكوني معلومات هامة عن المناطق التي كان يقصدها تجار أوروبا لجلب التوابل المذكورة وتقع أسواقها في سومطرة شمال الجزيرة الإندونيسية، وقد كانت حينها تعرف بمملكة سومانطلا Sumantala ، وأشار يعقوب الأنكوني في النصف الثاني من القرن الثالث عشر، أنها مملكة مسلمة، حيث يدين الملك وشعبه بالإسلام، وهي من أغنى الممالك وأكثرها نشاطا تجاريا، فيجد التاجر في مباسط السلع السومطرية كل مايريده ويصبوا إليه من السلع الثمينة، فينقلها ويبيعها بأضعاف ثمنها في الصن والهند وأوروبا، ومن جملة ماعدَّدَه من التوابل والعطور وغيرها من البضائع، الذهب السومطري الصافي، والبخور الأبيض الذي يسميه المسلمون " اللُبان الجاوي" ويباع بسعر مرتفع في الهند والصين وكذا في روما حيث يطلبه الرهبان المسيحيين بكثرة، كما ينقل التجار من منطقة فنصور Faunsurشمال سومطرة، الكافور الذي ينسب إليها ويعرف بين

---

(1)- Ma Huan : ying . yai Sheng.Lan, P.90 ; De Conti . N : opcit P.102 أنظر الملحق رقم:7،10.

(2)- D'Ancone .J : opcit, P.144

التجار بالكافور الفنصوري الأبيض اللون، ويعود ترويجه في الأسواق بمنفعة مادية كبيرة على التجار.[1]

هذا إلى جانب ماكان يجلبه التجار من سومطرة، من خشب الصندل وعود النَّد/الصبر، و" لِكٌّ" La Laque وهي عصارة صبغية حمراء تستخدم في صباغة الجلود ونحوها، وإلى جانب كبش القرنفل وجوز الطيب، ينقل من سومطرة تابل " الكبَّابَة" Cubébe، ويشتري التاجر هذه التوابل بأسعار منخفضة من هناك، ثم يبيعها بأسعار مثالية، تَدُرُّ عليه أرباح فيجني منها ثروة طائلة، لاسيما تجار أوروبا، الذين يحملون نصفها إلى الصين ونصفها الآخر يبيعونه في الأسواق الأوروبية.[2]

ولم يكن هدف السُّفن التجارية جلب التوابل، وأنواع الخشب الآسيوي الجيِّد فحسب، من الجزر الإندونيسية وإنما كان التجار يسعون الى شراء أنواعا من فصائل الطيور الجميلة الآسيوية كطير الببغاء، المجلوب من منطقة " باندا" Banda الواقعة غرب جاوة، حيث يتواجد الببغاء ذو الريش الأحمر والمنقار الأصفر الزعفراني، وأنواع أخرى متعددة الألوان، وكانت تعرف عند أهل المنطقة ب " نورو" " noros"، ونوع آخر أبيض من الببغاء وهو بحجم الدجاجة – كما وصفها التاجر دي كونتي- وهي أحسن أنواع الببغاء ويُعرف لديهم ب " كاشي" cashi بمعنى " المُتَفوِّق"، وتعود أهميته إلى مهارته الكبيرة في تقليد كلام البشر إلى

(1)- D'Ancone.J : opcit, P.152

(2)- D'Ancone.J : opcit, P.152

درجة أنه يجيب على الأسئلة التي تطرح عليه ويبدو أنه نوع من الببغاء المعروف ب " كنوة *Cacatoés*.[1]

كما كان لجماعة التجار المسلمين نصيبا كبيرا، في تسيير عددا معتبرا من المرافئ الجاوية ومراقبتها، وكان من أشهرها مرفأ " توبان Tuban" التجاري[2]، فتبوؤا مكانة مرموقة في مجتمع مملكة جاوة " شاوو–وا Chao-wa"، وفي هذا أشار " ما هون" أنهم يأتون على رأس هرم المجتمع الجاوي، الذي انقسم إلى ثلاث طبقات، يأتي هوي هوي " Hui–Hui" المسلمون في مقدمتهم، وهم قدموا من كافة الممالك الاجنبية الغربية، واستقروا فيها بصفتهم تجار، وإن أهم ما ميَّزهم ثيابهم ومعاشهم النظيف، ثم تأتي طبقة من الصينيين اللاجئين، الذين هاجروا إلى جاوة واستقروا بها، ولم يعودوا إلى الصين، لأسباب كثيرة، وغالبا ما تكون الحروب الأهلية هي المتسبب الاول فيها، أو تلك الأحداث التي تسفر على تغيير نظام الحكم، ومن ضمن هؤلاء، المسلمون صينيون الذين هاجروا، اليها، وأقاموا فيها حدود الشريعة وشعائرها الإسلامية وشعائرها، ثم تأتي الطبقة الثالثة وهم الأهالي المحليين لمملكة جاوة، المعروفة بمملكة ماجاباهيت Majapahit.[3]

ومن جهة ثانية تبين كيف اندمج التجار المسلمون وذابوا في المجتمع الجاوي، ليس هذا فحسب، وإنما سادوا دون غيرهم من التجار الأجانب، فحملوا مسؤولية إدارة موانئها، والأسواق الإندونيسية، فكان لهم دورهم التجاري الرَّائد فيها، في وقت مُبكِّر، قبل أن يكون لهم دور سياسي مع مطلع القرن السادس عشر، وإن نجاح التجار المسلمون في خلق لهم مكانة

---

(1)– DE'Conti.N : opcit , PP.102–103

2 – Fei Hsin : op.cit , P.50

(3)– Ma.Huan : opcit, P.93

اقتصادية، واتساع نشاطهم التجاري ليدل على طريقة تعاطي هؤلاء التجار مع أهالي المنطقة في ظروف خاصة زمانا ومكانا لاسيما وأن من عادة الأهالي الاشتباه بصفة تلقائية في الأجانب. بينما التاجر المسلم كان معروفا بمسالمته، وبكونه لايلحق ضرر وهذا ماجعله موضع ترحيب فحضي بالأمن ومنح امتيازا خاصا. لاسيما وأن مظهره ومعاملاته وطريقة عيشه أكسبته ثقة الآخر وقبوله.(1)

في هذا الجانب حتى المصادر البرتغالية التي تعود الى القرن الخامس عشر الميلادي، تؤكد في معلوماتها حول منطقة جزر جنوب شرق آسيا، على غلبة المسلمين الواضحة في المنطقة ومهارتهم في إدارة المرافئ التجارية المعروفة، وأن الأغلبية الكبرى لسكان الجزر مسلمين، ومنهم من يزال يخضع لسلطة الملوك الهنود [2].

ومع ضعف الممالك المتفرقة في امبراطورية ماجاباهيت، بدأت هذه الأخيرة في نفس الفترة الزمنية، بالتحالف مع قوى خارجية واعلان التبعية لها، كما حدث مع اقوى الممالك سومطرة التي أعلنت تبعيتها للصين، حيث ذكر "مه هوان" أن عقب قيام قائد البحرية الصينية " شانغ هو" بغزوه جزيرة "سو من طا لا" **Su men ta la**أي سومطرةعام818هـ/ 1415م على رأس أقوى السفن الصينية العسكرية المعروفة ب"**سفن الكنز**"، عزل سلطانها وعين محله ابنه الذي قبل ان يدفع الجزية للصين، من ثروات البلاد وانتاجها الخاص .[3]

(1)- Arnold T.W : the Preaching of Islam , a History of Propagation of the Muslim Faith , London , 1913, PP.418-419.

2- Majumdar,R.C : Ancient Indian colonies..,P.402

3- Ma huan : op.cit, P.115.

والحاصل أن مملكة جاوة بكل جزرها، ويأتي في مقدمتهم سومطرة شمالا، كانت الممول الحصري لشتى أنواع التوابل التي لم تكن توجد بغيرها، مثل جوز الطيب وجوز Casic، وعود القرنفل وهي توابل يكثر عليها الطلب في العالم، فكانت موانئها الشمالية والغربية أسواقا تجارية حيوية مربحة للتجار الذين يشحنون منها ما استطاعوا من بضاعة لبيعها بأسعار مرتفعة في الصين وفي أوروبا. ومن جملة ما عددته المصادر التاريخية عن سلع الجاوية، الاحجار الكريمة من ياقوت و"حجر عين القط " الأزرق والأحمر، والحجر المعروف بأم الأحجار الكريمة، والذهب التي أصبح سكان جاوة أثرياء بفضل المتاجرة بها، وبضائع أخرى كأنواع من العود العطري والخيزران والخشب المستخدم في العمارة وصناعة الأثاث والمظلات التي اشتهرت بصناعتها جاوة، فمن جزيرة تيمور Timor، يجلب خشب الصندل الأبيض العطري الذي يغطي كل غاباتها ولا تنتج غيره، فيقصد التجار مرافئها الاثني عشر، خصيصا طلبا لخشب الصندل، بينما يجلب من جزيرة بورنيوالماس وخشب لَكَّ Laka wood والكافور، خشب sapan wood caesalpinia sappan والفلفل الطويل من جزيرة الصوندا sunda، وكما كان يجلب من مجموعة الجزر الجنوبية الشرقية الآسياوية التي عرفت لاحقا ب "**جزر التوابل**" ؛ جزيرة بوندا Banda وجزر مولوق (المولُّوك) Molluccas، التابل الشهير "جوزة الطيب" والماسي.[1]

هذا الى جانب تداول مواد أخرى، في اسواقها كجوز الهند والموز وقصب السكر والشمَّام، والطيور النادرة من أصناف الحمام النادر والببغاوات ذات الالوان الخمسة والخضراء

[1] D'AconeJacob : opcit, P.154 , Ma Huan : op.cit , PP.89,90,91 ; Fei Hsin : op.cit ,– P. 42,47,87.

والقادرة على نطق الكلمات، وتجرى عملية البيع والشراء اما نقدا او بالمقايضة مقابل الأرز وأنواع من الأقمشة الفاخرة، أ والأواني الخزفية الصينية، أو بسلع اخرى.[1]

أما المملكة الواقعة على سواحل شبه الجزيرة الماليزية، فكانت المجال النشيط لتجارة عاج الفيلة، المطلوب في الصين والبلاد الاسلامية، هذا إلى جانب الخشب البُقّم الأحمر Bois de Brésil، وخشب الصندل، وبها تتوفر بأثمان منخفضة، فحسب التاجر الأنكوني المتاجرة بهذه المناطق كلها له مكاسب، وقد اشتهر ملكها "اسكندر شاه " Mgat Iskender shah، الذي اعتنق الإسلام وهو في سن 72 عاما وتوفي عام 1424م، وأثَّر كثيرا في رعيته.[2] وإلى شمالها الشرقي كانت السفن التجارية تقصد مملكة شامبا " سيام" Champa- من القرن 3 إلى 17 الميلادي- التي كانت تشمل جنوب الأنام- وسط الفيتنام- وشمال الكوشنيشين – جنوب الفيتنام- وهي مملكة غنية بالكافور والذهب، والعود القُماري L'Aloés الذي يستخدم في مجال الصيدلة والطب.[(3)]

ثالثاً – الصين وتجارة المحيط الهندي (7-8هـ-13-14م:

كانت استقرار الحالة الأمنية للمسالك البرية، هو المتحكم الأول في حركة القوافل التجارية، المحملة بالحرير الصيني والخزف والتوابل الهندية، وغيرها من البضائع المتهافت عليها، وهذا حتى النصف الأول من القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي حينما سادت بعض الاضطرابات السياسية في المنطقة ببروز قوة السلاجقة الأتراك، ومانتج عنها من منازعات عسكرية، جعل أسرة صونغ تتخذ إجراءات حاسمة، حيث وضعت حدودها

1- Fei Hsin : op.cit , P.48 Ma Huan : op.cit , P. 92. ;

2 - Hall : op.cit ,P. 181.

(3)- DE conti .N : op.cit , P.103

الشمالية الغربية المحاذية للأراضي الخلافة الإسلامية تحت الرقابة القصوى وأعطى أحد الأباطرة أمرا بأن يقطع الاتصال التجاري والديبلوماسي عن طريق البر عام 1023م وأن يقتصر على الطريق البحري، ومع ذلك كانت الاتصالات تستأنف من حين لآخر من السلام. على المسالك البرية وتنشط حول بحري الآرال وقزوين.[1]

فشرعت الصين في عهد أسرة صونغ the song Dynasty (960-1279م) في نظام تجاري خاص عبرتكوين شبكات بحرية حيوية استمرت في تنشيط المبادلات وحركة السفن التجارية في مرافئ المحيط، بين العالم الإسلامي – الوسيط التجاري الأول في المنطقة . وبين السواحل الهندية والصينية. أما في أقصى الشرق لم يعد كانتون المرفأ الصيني الكبير الوحيد ومستودع البضائع الصينية والاجنبية والمتصدر للمبادلات التجارية، وإنما انظم إليه ميناء " زيتون" زهنع زهو " Zhang – Zhou على ساحل فوجيان Fujian الحالية، وأصبح أول واوسع المرافئ التجارية في عهد صونغ وأُنشِأت فيها أحياء خاصة بكل الجنسيات من التجار الأجانب، وفي مقدمتهم المسلمين الذين أنشأوا أحياء خاصة بهم، وكانت هذه المستوطنات الغنية تدار من قل قضاة شرعيين مسلمين متمتعين كلية بثقة السلطة الصينية.[2]

فحرص أباطرة صونغ على الانفتاح أكثر على البحار الجنوبية والمتاجرة مع الجزر اليابانية جنوبا وبلاد كمبوديا والأنام وجزر الفليبينية التي أصبحت تشكل مجالها التوسيعي التجاري الأول، فضلا عن الجزر الإندونيسية والمالاوية والهند غربا، فضاعفت من رحلاتها

---

(1)- ChudHuri : op.cit , P,56

(2)- Vander meerach, L : « Les Relation sino-Arabes au Xv^{e} et xvi siecle , un chapitre de l'Histoire Des Ming » , **in.*C.o s***, n°1,2,P.271.

البحرية كما أنشأت أساطيلا تجارية لهذا الغرض، وكانت الصين تعمل على استيراد انواعا مختلفة من السلع أولها المصنوعات النسيجية ويأتي القطن في مقدمتها، إلى جانب التوابل والأدوية وبضائع أخرى، كما تبقى السلع الثمينة المطلوبة في الصين كالأحجار الكريمة الثمينة مثل الكهرمان amber وهو حجر أصفر اللون، والمرجان والخشب الثمين الأبنوس Ebony، الأسود اللون الصلب الذي يصنع منه الأواني والأثاث والتحف الفخمة، والكافور "نو-تزي nou-Tzi" والعود والبخور المستخدمة في الطقوس الدينية البوذية وغيرها، ولتعطير الجسد، وعاج الفيلة وهي المواد التي تستوردها الصين منذ عهد أسرة هان.

فمنذ العهد الأول لحكم أسرةصونغ الصينية، قام أباطرتها ببذل جهد كبير لتشجيع توافد السفن الأجنبية، إلى موانئ كانتون ثم زيتون لاحقا، حيث تتمركز التجارة البحرية.(1)

وتقيدنا نصوص الرحلات الخاصة بالتجار من مختلف الجنسيات التي قطعت المحيط الهندي قاصدة السواحل الهندية والصين، بالتدابير التي كان يحرص التجار على القيام بها، لجني أكبر المنافع من رحلتهم التجارية، أولها كان تأمين السفن التجارية المحملة بالبضائع، باستئجار عناصر مسلحة لحماية التجار الأثرياء، والحمولة أيضا عند نزولهم بالمرافئ البحرية الكبرى، وذلك حين تتم عملية نقل البضائع من سفينة إلى أخرى.

كما كان التجار يحملون معهم البضائع الثمينة الخفيفة الوزن والغالية الثمن والمطلوبة في الأسواق الهندية والصينية، ويأتي في مقدمتها المصوغات الذهبية المصنوعة بأيدي حرفيين مسلمين في عكا وبلاد الشام والعراق وغيرها، لتباع في أسواق سواحل المحيط

---

(1)- Chau Ju Kua : chu fan chi , PP.193, 212,, 216

HIRTH,F : China and the Roman Orient , Researched into their Ancient and Medieval Relation as Presented in old chinese Records , Leipsic , Munich 1885 , P.73

الهندي، ذلك لأن عليها اقبالا كبيرا من نبلاء وملوك البلاد الهندية الكبرى، والجزر الإندونيسية، وماليزيا الذين يفضلون نوع الحلي الإسلامي، أكثر من أي نوع آخر في العالم، ويدفعون في مقابل الحصول عليه أثمانا باهظة، من أجل ذلك كان التجار يحرصون على اقتنائها واخفاءها في ملبسهم الشخصية مخافة السرقة لاسيما، وأنهم كانوا يعتمدون عليها في استئجار السفن لنقل البضائع التي ستنقله في طريق العودة نحور أوروبا.[1]

بينما حمل التجار القادمين من المدن الإيطالية، بضائع من أقمشة المخمل الإيطالي والصوفية، والخيط الذهبي الأنكوني الإيطالي الذي يباع في الصين بأسعار مرتفعة، فضلا عن الزئبق والخمر وكمية كبيرة من الحبوب وبضائع أخرى ذات قيمة مطلوبة هنالك.

كما كانت تجارة الخيول العربية من التجارات المُربِحَة فكان التجار المسلمون وغيرهم يحملونها من البصرة لتباع في أسواق الهند، هذا إلى جانب تحميل تمور العراق التي اعتبرت أجود أنواع التمور في العالم، ويتم في البصرة مقايضة الحرير والثياب الأرجوانية وكل أنواع التوابل.[2]

في الوقت الذي سمحت المرحلة الثانية من حكم أسرة صونغ للصين بتكوين نظام تجاري خاص، وشبكة بحرية نشيطة في المياه الجنوبية والغربية للمحيط الهندي، ساهمت السياسية التوسيعية العدوانية لأسرة يوان المغولية، في أن يكون لها الأثر الأكبر في إنشاء شبكة بحرية صينية رسمية، حيث سيطرت على المواصلات البحرية وتحكمت في المبادلات التجارية، وعملت على جمع الضرائب من الأقاليم الواقعة، تحت هيمنة قطعها الحربية،

---

[1]- D'Ancone .J :op.cit , PP.60,61,64

[2]- D'Ancone .J : op.cit , PP.59,84

ففرضت التبعية على ممالك حينها، مثل مملكة الآنام والملاوية وحتى الجاوية، مثلما فرضتها على تركستان الشرقية ومن الشواهد التاريخية للسياسة الاستعمارية الصينية في عهد اسرة يوان في جزر الجنوبية الشرقية للمحيط الهندي، ما سجله "فاي هاسين " أن في هذه المرحلة دأبت الصين على الهيمنة على الممالك في جاوة بالقوة، حين شَنَّت حملة عسكرية عليها وأخذت ملكها أسيرا وفرضت عليه دفع الجزية [1] .

وفي نفس الإطار حرص أباطرة " يوان" المغول حسب المؤرخ رشيد الدين على تكوين شبكة من القنوات المائية لنقل البضائع، وتيسير السبل امام وصول التجار الى المراكز التجارية في مدن الصينية، هذا إلى جانب استخدام الأنهار الطبيعية، فقاموا بحفر قنوات تصل المرافئ الكبرى الجنوبية القريبة من النهر الأصفر لربطها بالتجارة القارية شمالا، كما تم حفر قنوات أخرى تربط عاصمة المغول خان باليق، بالمرافئ التجارية العالمية للصين وهما مرفئ خنسا Khinsai وزيتون zaitoun، وهي قنوات تسهل عبور السفن التجارية القادمة من الهند والبلاد الاسلامية وأوروبا إلى جانب السفن المحلية [(2)].

هذا إلى جانب إنشاء الطرق وفرشها وظيفتها الربط بين المدن التجارية وتسهيل على مرتاديها من تجار ومسافرين التنقل ببضائعهم .[(3)]

والجدير بالإشارة إليه أن تواجد المغولي في آسيا عامة والصين خاصة أحدث بها تغيرات هامة وعميقة، على كل الأصعدة ، لاسيما النشاط التجاري ، فمن جهة استفاد المسافرون عبر البَّر بالتحرك في آسيا، و الانتفاع مما عرف بالسِّلْم المُغولي La Pax

---

1 – Fei Hsin : op.cit, P . 41

(2)– Yule .H : op.cit , voL_3 , P.115

(3)– Yule . H : op.cit , voL_3 , P.116

MangoLica ، مستخدمين المسالك الآمنة، والمجهزة تجهيزاً جيدًا، يسهل مهمة التجار وحركة القوافل، كما استفادوا من الرحلات البحرية التي تدعمها الحماية المغولية، ومن جهة أخرى أدى الغزو إلى نقل أعداد معتبرة من الأسرى المسلمين مُرْغَمِين من إقليم إلى آخر وهو ما كان له انعكاسات اقتصادية وحضارية كبيرة، فكان منهم جنود وحرفيين وتجار وإداريين أو فلاحين مستوطنين، والحاصل أنهم استقروا بها بصفة دائمة، واندمجوا في المجتمع الصيني وساهموا في ازدهاره، ومع مرور الزمن فقدوا خصائصهم الأصلية، من ملامح وصفات فيزيولوجية بفعل التزاوج مع النساء الصينيات.[1]

فقد أُجبِر المسلمين بمختلف انتماء تهم القومية من ؛ عرب، فرس، ترك، وأمم أخرى على الهجرة القصرية، حتى أن الرحالة الصيني سي يوكي SI–yu–Ki الذي انتقل من الصين إلى آسيا الوسطى، للقاء جنكيز خان ذكر في نصوصه التي تعود إلى (618–621هـ/ 1221 – 1224م) بأنه كان يقطن في مدينة سمرقند وحدها، مئات الآلاف من الأسر المسلمة لكن بعد غزو جنكيز خان لم يبق منهم سوى الربع، منهم من قتل ومنهم من نقل إلى الصين، و" بالمقابل تقاسم الأهالي المتبقين ضياعهم ومنازلهم مع الغزاة من الكيتان Ki–Tan " القراخطأيين"، ومع الصينيين ورجال من الهو – سي Ho–SI ويقصد بها البلاد الواقعة غرب النهر الأصفر – والملاحظ أن الحرفيين الصينيين حينها انتشروا في كل مكان في آسيا الوسطى "[2]

كما وجد حكام أسرة يوان المغول في الأتراك الأُيغور المسلمين، خبراء ضليعين في ميادين كثيرة، كالجانب الإداري المالي والتقني والعلمي، فاستعانوا بهم وأسندوا إليهم وظائف

---

(1)– ARNOLD.W : op.cit , Vol_3 , P.297 ; Com'nougue , Michel : op.cit , P.46

(2)– Bretschneider.E : op.cit , T_1 , P.78

مرموقة وحيوية في الدولة، فعُيِّن عبد الرحمن إ.ج E.G Abd al RaHman على رأس الخزينة المالية للإمبراطورية، عام (642هـ/ 1244م)، وقد أثَّر إيجابا على الفلاحين الصينين، حين قام بإعفائهم من الضرائب الكثيرة، التي فرضت عليهم قبل الغزو المغولي. كما شغل عمر شمس الدين في وظيفة الشؤون المالية، لدى قوبيلاي خان عام 657هـ/1259م،وكان من مدينة بخاري، واشتهر ب سيد آجال Sayyid AjaLL ، ثم أصبح حاكما على ولاية يوننان yunnan الغربية بعد أن تم فتحها، وإلحاقها بالإمبراطورية الصينية المغولية، وحتى بعد وفاته 1270 بقيت أسرته تتمتع بنفس المكانة المميزة لدى حكام يوان، لاسيما وأنه خلف وراءه حيثا حسنا كشخصية تنويرية وكفاءة إدارية، وكان قد أنشأ معبدا للكنفوشيوسية ومسجدا للمسلمين في مدينة يونان.[1]

فكان لسياسة الهجرة القَصْرِّية التي مارسها المغول على المسلمين في آسيا الشرقية عامة والصين، أثرها الكبير على المسلمين سواء تجار أو حرفيين أو موظفين في الدولة، ذلك لأن تواجدهم في الصين بأعداد كبيرة، ساهم في أن يكون عهد أسرة يوان، هو أكثر المراحل التي عرفت انتشار للإسلام في الصين.

من جهة أخرى، طورت الصين من تقنيات الملاحة لديها، تحت حكم الأسرتين "صونغ" و" يوان" – من القرن العاشر إلى منتصف القرن الرابع عشر- خاض الملاَّحون الصينيون الطريق التجاري البحري – الحرير والتوابل – مستخدمين كل أنواع البوصلة المغناطسية، ومطبقين كل المعارف الخاصة بعلم الفلك والنجوم لتحديد مكان السفن، فيعتبر عصر هاتين

[1]- Arnold : op.cit , PP, 297-298 , Vandrmeerch : Les Relation , P.271

الأسرتين، هو العصر الذهبي لكل من العلوم القديمة والتجارة البحرية الصينيتين، مِمَّا ساهم في تقوية المبادلات التجارية شرق – غرب[1].

كما كان من أهم عوامل هذا التطور، القوانين الصينية التي سمحت بانشاء وكالات تجارية خاصة وبناء سفن متقدمة قادرة على الإبحار بعيدا عن السواحل قاطعة مياه المحيط، وإدخال تقنيات تكنولوجية في علم النوتي البحري، فضلا عن اعتماد الرؤية الجغرافية لحجر الزاوية في الملاحة البحرية لتحديد المواقع، وطور الصونغ آلة المغناطسية للملاحة البحرية وعرفت ب زهينانيو Zhinanyu السمكة المعدنية الموجهة نحو الجنوب وشويفوزهان Shuifuzhen الإبرة العائمة، وحسب الوثائق التاريخية فإن آلة الزهينانيو الصينية، يعود إختراعها عام 1044م.[(2)]

رابعاً– نشاط التجار "هُوَيْ هُوَيْHoey – hoey" :

نشط في منطقة الشرق الأقصى برا وبحرا مجموعة تجار " هوي" [(3)]المعروفة اليوم في الصين وهي طائفة التجار، الذين يدينون بالإسلام، ويرجع تواجدها إلى أزمنة بعيدة في الصين، جنوبا وشمالا، وهم جماعة نشيطة، إشتغلت في هذا المجال، وتداولت الأسر المسلمة الإهتمام بالتجارة بالتوارث والتقادم والقدرة وحسن الإئتمان، ومهارتهم في ربط السوق الداخلي بالخارج، حتى أصبحوا من أهم علامات النشاط التجاري في الصين داخليا وخارجيا.

---

1 - (1) – Sun Guangqi : « the Developement of china's Navigation Technology and of the maritime silk Road » , in P.295 .

(2) – Sun Guangqi : « the Developement of china's Navigation Technology, P.296

(3)– في أصل تسمية " هوي"، يقول Miller، أنها سامية، فهي مشتقة من " الأخ" استخدمت بصيغة "خوي"، واللفظ منتشر في المجتمعات الإسلامية، أساسها أن " المؤمنون إهوة" واخوة الإسلام، ثم انتشرت بين أفراد المجتمع المسلم الصيني وتبنوها كتسمية لهم وجرت على ألسنتهم " هوي" يراجع: Ma Huan : op.cit , note, P.93

وبالرغم من تأخر ظهور مصطلح " هوي هوي" في المصادر إلى حدود القرن 7هـ/14م إلا أنه تعود جذوره إلى ظهور طائفة التجار المسلمين، في الشرق الأقصى والصين، وتحديدا إلى عهد أسرة تانغ – التي فتحت مجال النشاط التجاري أمام المسلمين من عرب وفرس فاشتغلوا واستقروا بها، فشهد التاريخ الصيني هجرات على مراحل وفي ظروف مختلفة طيلة 700 عام (618–1368)، الأمر الذي أثر في سير الحياة الإقتصادية والثقافية للصين ومنطقة الشرق الأقصى كلها.[1]

وعُرِفَ التجار النشيطين المسلمين المعروفين حينها بالداشي Dashi ، ينتمون الى قوميات شتى ؛ من عرب وفرس وأتراك وغيرهم، ينشطون في الصين والجزر المجاورة لها في أندونيسيا، ماليزيا، بورنيو وغيرها بصفتهم تجار متجولين أو أصحاب متاجر مستقرة في الأسواق، وكانوا يدفعون الضرائب (الجزية) لحكومة الصين من بضائعهم: كالمجوهرات والعطور وعظام الكركدن والفيلة.

وحينما حان عصر أسرة صونغ، كان قد ملك التجار المسلمون حجما ضخما من رؤوس الأموال وبالتالي تبوؤوا المكانة الأولى من بين التجار الأجانب ومثلوا قوة اقتصادية كبيرة وعرف هذا العصر زيادة في عدد التجار المسلمين الوافدين في الصين مقارنة بعددهم في عصر أسرة تانغ، حيث كثف التجار في تعاملهم مع حكومة الصين، ويمكن القول أن نشاطهم التجاري في عهد صونغ كانت المرحلة الهامة التي دعمت الوجود القوي للتجار الهوي هوي في عهد أسرتي يوانغ ومينغ فيما بعد.[2]

---

[1]– جيانغ شين: الثقافة الشعبية لدى قومية هوي الصينية، الثقافة التجارية، ترجمة: فان رونغ وتشي جي، مراجعة: أحمد، الصين 2011م، ص ص .02، 06.

[2]– جيانغ شيز: الثقافة الشعبية، ص 06–07.

ومثل التجار المسلمون – أسلاف هوي- وسيطا هاما، في عملية التبادل التجاري بين الصين ومناطق الشرق الأقصى مع البلاد الغربية، فوفقا للسجلات الرسمية لأسرة صونغ قدم تجار مسلمون وسفراءهم إلى البلاط الامبراطوري 30 مرة خلال عصرها، كما سجل في وثائق أخرى المزيد من الزيارات، ويعتبر اغلبهم من رسل الخليفة وكان بعضهم يشغل بالتجارة، وتكثف نشاطهم في العهد المغولي حيث كانت الطرق البرية والبحرية سالكة ومؤمنة، وكثرت الأنشطة والمبادلات التجارية عبر طريقي جبال تيان شان ومسالكها عند سفوحه الشمالية والجنوبية من طريق الحرير[1].

والملاحظ أن تسمية " هوي " بقيت مجهولة لدى الصينين خاصة ولم تظهر في سجلاتهم الرسمية، إلى أن جاء عام 1124م، حين ذكرت لأول مرة مع قيام الإمبراطور " يه لوتاشي" ye- Lu Tache مؤسس حكم أسرة سي لياو / كين –Sy–Leao /Quin، بأكبر حملاته العسكرية – كما مر بنا- على تركستان الشرقية حيث سيطر على مملكة الأيغور المسلمين الذين عرفوا بالهوي هوي في قانصو، وأصبح الخاقان يدفع الجزية إلى الإمبراطور " كين" منذ 1229م .[2]

فالجماعة التي عرفت ب "هوي" أول الأمر هم، الاتراك الأيغور الذين يعيشون شمال غرب الصين الحالية، الذين استوطنوا الواحات في الإقليم ذو الطبيعة الصعبة وامتهنوا التجارة، ونظرا لترعرعهم في هذه الظروف القاسية، لا يخاف التجار من الصعوبات والأخطار، ولديهم القدرة على السفر إلى مناطق بعيدة، فكانوا يصلون إلى سيشوان

---

(1)- جيانغ تشين: المرجع السابق، ص 15.

(2)- De thiérsant .P. Dabry : Le Mahométisme en chine et dans le Turkestan orientale , Ernest Le Roux , Paris , 1978, PP.04 , 214

وتنشينغهاي، والتبت كما يسافرون إلى مناطق يونان وفوجيان وهونان لشراء الشاي ثم يعودون شمالا، إلى صحراء تكلا ما كان .[1]

ومن ثمة إنتشرت التسمية لتشمل كل المسلمين المقيمين في المدن الصينية، وحتى في الجزر الجنوبية الشرقية للمحيط الهندي، ونقلها الصينيون غلى لغتهم، فأصبحت " هوي هوي كياو" Hoey– Hoey – Kia ، أو تسين تشين كياو Tsin Tchin kaio وتعني الدِّين النقي الحق" وبرزت هذه التسمية بشكل رسمي عام 1335 م، حينما سمح الامبراطور " شون – تي Chun–Ty " من أسرة يوان، للمسلمين في الصين بأن يعرفوا رسميا وعلنا بهذه التسمية، استجابة إلى طلب أحد أهم الشخصيات الفاعلة في خدمة الامبراطورية الصينة وتسييرها في العهد المغولي، وهو الامير الذي كان يحمل اللقب سان تيان تشي Say.Tien.Teche، أو السيد أجال Sayid .Ed .JeLL[2] المنتمي إلى الأسرة المسلمة

[1]– جيانغ ثمين: المرجع السابق، ص 11.

[2]– هو ناصر الدين إبن شمس الدين عمر سيد أجال البخاري، وكان ناصر الدين حاكم اقليم يونان yunan ، وتعود أهميته في بلاط يوان غلى مكانة والده شمس الدين عمر (1210 –1279م) الذي تذكر المصادر المغولية أنه ينتمي إلى نسل النبي محمد صلى الله عليه وسلم وعرف بالسيد الجليل لكونه من الأشراف، وتذكر أنه إنظم إلى جيش جنكيز خان أثناء حملته على الغرب 1206–1299، وقد كان يناديه بلقبه وليس باسمه تقديرا لمكانته، ثم تقلد مناصب عديدة في عهد أغوداي Ogutai1230 –1242م، حيث عين حاكما عاما على ثلاث ولايات، وفي عهد مانغوخان Mango 1251– 1259م كلف بإدارة ثلاث وزارات، وبرز حين خرج قوبيلاي في حملته لفتح الصين بأمر من مانغوخان، وعرف جيشه أزمة كبيرة حين نفذت المؤن وجرد من كل شيء، حينها تدخل شمس الدين عمر وانقذ قوبيلاي وجيشه من الهلاك، فكانت هذه الحادثة هي التي جعلته يحضى بمكانة مرموقة لدى مانغو خان الذي منحه إدارة إقليم يونان عام 1274 وكسب ثقته وثقة قوبيلاي، الذي حين أصبح امبراطورا على الصين منحه الوازرة، وفي نفس الوقت أوكل مهمة حكم أقليم يونتان إلى إبنه ناصر الدين، كما أعطى باقي أبناءه مهام إدارة اقاليم أخرى، وقد شغل شمس الدين عمر الوزارة مدة 25 عاما، لم تسجل طيلة تلك الفترة أن رفع أي مدع صوته عليه أو عارضه أحدا في الرأي، فأصبح من أشهر المسؤولين المسلمين الذين حكموا الصين وأداروا شؤونها. De Thiérsant , P.Dabry : opcit , T1, P.3

الشريفة .[1] وكان من نتائج ذلك التصريح الامبراطوري، الذي سمح للمسلمين في الصين بان يعرفوا بتسميتهم أن غيروا اسم أقدم مساجد في سي نغان فو Sy.Ngan – Fou – كزيان xian في اقليم شانسي chansi حاليا – وقد كان يعرف أساسا بمعبد الديانة النقية تسين كياو تزي Tsin , kiao Tze، ليصبح المعبد النقي للدين الحق" تسين تشينغ سنزى " Tsin. Tching, Sze.[2]

ولعل من أهم صفات تجار "هوي"، التي ساعدتهم على النجاح في ميدان النشاط التجاري والانتشار الواسع، هي إلتزامهم يقواعد وسلوكيات أهمها الصدق و" الربح التجاري" فعرفوا بشعار في محلاتهم وهو *" **الاعتقاد بالإسلام والتزام الصدق** "*، وهومايتعارض مع سبل كسب الاموال باستخدام الغش أو أساليب غير لائقة، الأمر الذي أدى إلى ذيوع سيرتهم، والتأثير الإيجابي بين شعوب وممالك المنطقة .[3]

---

(1)– De Thiérsant , P.Dabry : opcit , T1, P.3

(2)– De Thiérsant . P. : op.cit , T1 ,P.4

(3)– جيانغ شين: المرجع السابق، ص 11.

خامسا : نشاط التجاري في المراكز التجارية الصينية الكبرى:

1-مرفأ مدينة زيتون/ سيتونغ Citong

(تشيوان تشو فو Thsiuan tchou fou):

في حدود القرن السابع الهجري / الثالث عشر الميلادي، وتبعا لتشجيع أسرة صونغ الصينية للتجارة البحرية والانفتاح على شعوب والممالك الجنوبية الشرقية والغربية لمحيط الهندي، شهدت مدينة زيتون zaiton الواقعة حاليا حوالي كيلومترات من مدينة زهنج زهو Zhang – Zhou في إقليم فوجيان Fujian على الساحل الجنوبي الأوسط للصين، شهدت نموا اقتصادياً كبيرا، وبرزنشاط مرفأها التجاري، لاسيما بعد أن أصبح يضم مصانع وورشات لصناعة السفن في المنطقة، وسجلت الحوليات الصينية أنها عرفت رخاء كبيرا في عصر الأسرتين صونغ الصينية ويوان المغولية، فكانت المدينة ملتقى التجارة العالمية حينها وأُنموذجا للحاضرة التجارية cité Marchande في ذلك العصر .فهي المدينة الصينية الواقعة على الساحل، شمال كانتون، وتعرف عند الصينيين " تسن تونغ " – Tsen thoung، كما تعرف " تشيوان تشوفو" التابعة لإقليم " فوجيان Fujian"، ويرى المستشرق يول Yule أن المصادر العربية نقلت إسم المدينة بدقَّة ، إلا أنه قُرِأَ خطأ نظرا لالتباس زيتون Tze – Tung الإسم الأصلي، باللفظ العربي زيتون لتشابه اللفظين[1].

[1]– Yule H : op.cit ; in (I.G) , V.126 , p.321, Voir aussi : Hertmann et Bosworth : ***Alsin*** , dans ***E.I*** , Vol : IX, p.64، انظر الخريطة رقم ().

وكانت قد أشارت إليها المصادر الإسلامية، والغربية في أكثر من موضع ب " زيتون" أو سيتون çaiton[1] وهي مشتقة من الإسم الأصلي للمدينة " **سَيتوُنـغ**" وهي إسم لنوع من الأشجار ذات أزهار حمراء اللون كانت منتشرة في المدينة ولا يزال بعضها إلى يومنا هذا[2].

إلا أن ذانج وهو في حديثه عن النشاط للمدينة، ذكر أن التجار الجانب كانوا يسمونها بالزيتون، ومعروفة به إلى الآن، واسمها مشتق من أشجار الزيتون التي تزخر بها منطقة الميناء والتي زرعت تحت إشراف ليوكونج- كسياو، حاكم المدينة 944-962م، وكان الميناء القديم يقع عند مصب نهر " جن جيانج" وبحكم هذا الموقع الطبيعي الممتاز، طور

---

(1)- حول التسمية، ذكر التاجر يعقوب الذي زار المدينة في حدود عام 1270 قبل وصول ماركوبولو وابن بطوطةالى الصين،أن أهل المدينة يسمونها سيان – سياو cian– ciao– وهي قريبة من التسمية التي عرفها بها ماركو بولو – وأضاف التاجر أنها معروفة أيضا ب " ها.باهير" Ha – Bahir ومعناها الأنوار وذلك لأنها كانت تشع نورا من كثرة المصابيح والقناديل ذات الزيت التي تضاء بها المدينة في المساء وهو مايجعلها تظهر للعيان من مسافات بعيدة، ولذلك أطلق عليهاتسمية"**مدينة النور**"**La citta Lucenté** ، أما الرحالة ابن بطوطة الذي زار حوالي عام 1347 ذكر أن التسمية لاتعني أن في المدينة يوجد أشجار للزيتون لأنه غير موجود بها ولا في كل الصين والهند وإنما هي تسمية بلغة أهلها، لذلك يرى المؤرخ يول .هـ YuLe , H أن المصادر العربية نقلت التسمية الأصلية صحيحة للمدينة تزي تونغ TZE – Tung، إلا أنه قرأ خطا نظرا لالتباسه باللفظ العربي " زيتون" لتشابه اللفظين، وانتشرت التسمية على هذا النحور وأشار الراهب الفرانسكاني أندرو أسقف مدنية زيتون في تقريره الذي وجهه إلى بابا روما عام 1326 أن " زيتون" هي التسمية الفارسية للمدينة، وهذا مايدل على تأثير النشاط التجاري للتجار المسلمين ذوي الأصول الفارسية وبأن المدينة الواقعة على الساحل الصيني يقيم بها الكثير من التجار الأرمن المسيحين، حتى أن أحدى السيدات الأرمنيات الثريات أنشأت كنيسة فيها، يراجع: Jacob d'Acone : op.cit , PP 163/169 ; Polo, Marco : opcit P.227;

ابن بطوطة: المصدر السابق، ج إ، مج، ص.269 ؛ YuLe .H : op.cit , in (I.G) , Vol 126 , P.321

Voir aussi : HERTMAN et Bosworth : « **AL SIN** » dans***E.I***, vol IX.P.64 ; YuLE.H ; calhay, T3, P.72

(2)- LOMBARD Denys , AUBIN Jean : Marchands et Hommes D'Affaire ..., P.21

حيث زود بمكتب ملاحظة الملاحة التجارية رسميا في عام 1087م، وقد قامت أسرة تانج بإنشاء هذا المكتب، وابتدأ من تلك الفترة النشاط التجاري الفعلي لهذه المدينة [1].

ولقد بلغ إزدهار واتساع مرفأ مدينة زيتون حدا كبيرا حتى أنه انتزع مكانة الصدارة التي كان يحتلها ميناء كانتون (خانفو = سين شالان Sinchalan)، حسب ما أورده يعقوب التاجر اليهودي الأنكوني .[2]

ففي عهد أسرة صونغ كانت الصين هي أول قوة بحرية في العالم، وكان التبادل التجاري والمعاملات المالية نشيطة حينها، حيث كانت مدينة زيتون وحدها تتمتع بكثافة سكانية تزيد عن مائتي ألف 200.000 نسمة منهم الحرفيون والمزارعون والتجار وكانت المدينة تشهد تدفقا متواصلا للمزارعين الريفيين إلى المدن، واستهلاك كبير للبضائع الرفيهة مع وجود حركة استيراد واسعة لمختلف البضائع لاسيما الثمينة منها، حتى أن نشاط مدينة زيتون تجاوز نشاط المدن الإيطالية المعاصرة لها، ففي مطلع القرن السابع هجري /14م، بلغ عدد سكان مدينة البندقية مائة ألف نسمة (100.000 نسمة) وفلورنسا خمسة وأربعون ألف إلى خمسة وستون ألف نسمة، وهو مايُبيِّن أن زيتون كانت أكبر المراكز الإقتصادية التجارية في العالم حينها.[3]

إن هذا الميناء الصيني لم يظهر في الكتابات الإسلامية، إلا في فترات متأخرة، فقد وصفه أبو الفدا، وذكر أن زيتون هو من أكبر موانئ الصين، واعتمد على وصف التجار

---

[1]- ذانج هو: المعاملات، ص .35.

[2]- D'Ancone .J ; op.cit , P.164

[3]- TANSEN.SEN : « the formation of chinese Maritime » in ***JESHO*** , N°49 , 4, PP.424- 425

الذين زاروا هذه المنطقة، وتحتوي مدينتها – التي تبعد عن البحر مسافة نصف يوم- على أسواق تجارية هامة، أما خليجها فهو كبير يمتد مسافة خمسة عشرة ميلا، يصب في رأسه واديا من المياه العذبة، وتدخل السفن إلى هذا الخليج من بحر الصين، وتعرف مياهه المد والجزر، ومن الإضافات الهامة التي أوردها حول تاريخ هذه المدينة، هو أنه لايزال جزء من سورها مدمرا بفعل جيوش التتار التي غزت المدينة، وفي هذا إشارة إلى الحروب التي شنها الماغول للسيطرة على بلاد الصين في القرن الثالث عشر، وأضاف أن أهلها يستعملون مياه هذا الوادي للشرب أو من آبار فيها [1].

ومن الطريف في وصف أبو الفدا لمدينة الزيتون، نقلا عن التجار الذين سافروا إليها، ذكر أن مدينة الزيتون أصغر من مدينة حماة الشامية وهي موطن أبو الفدا [2]، إلا أن " يول" كتب بأنه يشك في دقة هذه المعلومة، وفي صحة هذه المقارنة بين المدينتين [3].

والملاحظ أن أسلوب المقارنة بين بعض المظاهر الطبيعية كالأنهار وغيرها، والبشرية بين البلاد الإسلامية موطن الرحالة والجغرافيين، والبلاد الخرى، كان أسلوبا واردا في النصوص الرحالة والتجار المسلمين والأوروبيين .

فكل التجار الأجانب الذين زاروا المدينة، أو أقاموا بها لسنوات عديدة إنبهروا بشساعة مرفئها، ودقة تنظيمه وإدارته بالرغم من العدد الكبير للسفن التجارية المحلية والأجنبية الواردة إليه، فالتاجر اليهودي يعقوب الذي زارها أواخر عهد حكم أسرة صونغ الجنوبية (الثلث الأخير من القرن الثامن هجري / 14م)، لفت إنتباهه الأعداد الكبيرة للسفن التي استوعبها

(1)- أبو الفدا: المصدر السابق، ص .365.

(2)- أبو الفدا: المصدر السابق، ص .367.

(3)- Yule. H : op.cit , p.321

المرفأ،" " ***وسواء كانت المراكب كبيرة الحجم أم صغيرة، فإن مرفئها يستوعب كل عمليات الشحن والإنزال للبضائع، ولآلاف من المراكب وعلى مدار العام كله دون إرباك أو فوضى***"، فعندما نزل بمدينة زيتون، وصل إليها مالايقل عن خمسة عشر ألف نسمة – حسب التاجر يعقوب- قادمة من البلاد العربية كالإسكندرية، والبصرة وغيرها ومن بلاد الهند، وجزيرةسيلان (سيريلانكا) ومن جاوة، ومن بلاد المغول شمالا، ومن مملكة أراغون بإسبانيا، ومن انجلترا والممالك الفرنجية ومن افريقيا .[1]

ومن خلال مقارنته بين النشاط التجاري لأكبر المرافئ الإيطالية حينها، وهي البندقية مع مرفأزيتون، تفوق هذا الاخير عن الأول كثيرا، ذلك ان الطاقة الإستيعابية والتنظيمية لميناء زيتون تفوق ميناء البندقية بكثير، هذا إلى جانب تميز أن المراكب الصينية على خلاف باقي السفن المعروفة حينها في حوض البحر المتوسط، بحجمها الكبير وضخامتها التي تمكنها من حمل ألف رجل، وهي مجهزة بخرائط دقيقة صنعت بذكاء ومهارة عالية، هذا إلى جانب أن بها علماء في الهندسة الضلعين في استخدام " الإبرة المناطسية" – الإصطراب الصيني- ولهم دراية بعلم النجوم ومواقعها، وتمكنهم هذه الآلة والمعارف من إيجاد طريقهم في أي مكان من هذا العالم الرحب.[2]

ومما زاد من الأهمية الاقتصادية للمدينة وعَزَّز من مكانتها، كمركز تجاري أول في عهد أسرة صونغ، هو حيازتها على أكبر المصانع وورشات لمنتجات الصين المطلوبة في البلاد الأجنبية وقد تم انشاءها في هذه المدينة لتسهيل عملية تسويقها وربطها بالمرفأ العالمي لزيتون، ومنها ورشات أحرف صينية دقيقة الصنع كصناعة الخزف الأبيض الرقيق وغيره،

---

(1)- D'Ancone. J : op.cit ,P.164,166

(2)- D'Ancone .J : op.cit , P.164

ومصانع التعدين وفي حرفة الحرير وصناعة الكاغد والحبر والمنتجات الأخرى، وذكر التاجر يعقوب، أن الورشات تنشط بشكل مكثف وبها حرفيون مهرة كثر رجالا ونساء.[(1)]

وحسب روايات المصادر التاريخية التي زارت مدينة زيتون في النصف الثاني من القرن 7هـ/13م والنصف الأول من القرن الثامن الهجري /14م، فإن المدينة مثلت أكبر المراكز لتجمع التجار من كافة أنحاء العالم، حيث احتوت فسيفساء من البشر، منهم العابرين غير المستقرين ومنهم المستوطنين ضمن جماعات أجنبية كلٌ في حَيٍّ خاص به من مسلمين ومسيحيين نساطرة ولاتين، ويهود وأرمن وملاويين إلى غير ذلك من الجنسيات العالمية، فثمة فنادق وأحياء لفئات التجار، فالمسلمون أو " **سارازان les Sarrasins**"[2]كما تسميهم المصادر اللاتينية. لديهم حي خاص بهم يلجأ إليه كل التجار المسلمون أثناء إقامتهم في زيتون، ولديهم مسجدا يصلون فيه، كما يتواجد بها يهود ومسيحيين بطوائفهم المتعددة والجميع له الحرية في ممارسة شعائرهم الدينية دون تضييق حسب ابن بطوطة الذي زار الصين في حوالي 748هـ/ 1347م .[(3)]

وكُلٌّ يتحدث بلغته فالمسلمين يتحدثون العربية والفرنج بلغتهم الفرنجية وهكذا باقي المجتمعات الأخرى فالمدينة – حسب يعقوب الأنكوني- " ***ليست ملكا للصينيين وحدهم***

---

(1)- D'Ancone .J : op.cit , P.176

2- مشتقة من "ساراسان Saracènes" وهي تسمية اللاتنية، كان قد أطلقها الأوروبيون اللاتين على المسلمين، ويعنون بها العرب الشرقيين،إحدى القبائل العربية التي تقطن شمال الجزيرة العربية، كما تعني لديهم القمح الأسود، للمزيد يراجع: Touati François-Olivier : vocabulaire Historique du moyenage,P.198.

(3)– إبن بطوطة: المصدر السابق، ج.إ، مج، ص ص .269، 270 ; D'Ancone .J : op.cit , P.171

وإنما هي مدينة واحدة تنتمي إلى العالم كُلِّه ففيها لُمباردبين وجَرْمان وأرمن وغيرهم كثير". [1]

بقيت مدينة " زيتون" محافظة على مكانتها الإقتصادية في العهد المغولي، كما كانت في عهد أسرة الصونغ، فحسب نصوص المؤرخ رشيد الدين، أن فاتح الصين المغولي قوبيلان خان، أقام بها عند غزوه لجنوب الصين قبل أن يستقر في عاصمته التي أنشأها خان باليق (بكين)، حيث " **المدينه المُحَرَّمة**" وعند الانتهاء من بناءها، سلَّم إدارة شؤون مدينة زيتون إلى أحد رجالاته الأكِّفاء الأتراك وهو بهاء الدين القنداري Baha – addin Kandari، فبقي مرفأها هو الأكبر والأهم من بين كل مرافئ الساحل الجنوبي الصيني. [2]

أما عن نشاط الفرق الدينية المسيحية اللاتينية في مدينة زيتون، فمن الواضح أن انفتاح المغول على الغرب المسيحي وتشجيعهم على القدوم لآسيا برا وبحرا، كان له انعكاس على أبرز، المدن الآسيوية ومن ضمنها مدينة زيتون التجارية التي عرفت نشاطا واسعا لها، وذلك بشاهدة الرَّاهب مارينيلولي " Marignolli.G " الفرنسسكاني الذي سجل عام 1340م ما يلي:

"...كان للأخوة الصغار (الرُّهبان الفرنسسكان) بمدينة زيتون الكبيرة، ذات الميناء المُبهِر الواسع الأبعاد، ثلاث كنائس جميلة وحمام وفندق "Fundaco" يستخدمونه لتخزين البضائع الخاصة بكل التجار."

(1)- D'Ancone .J : op.cit , P.179

(2)- Yule.H : op.cit , Vol 3 , P. 127

ففي هذا إشارة واضحة للدَّور الاقتصادي الذي كانت تقوم به الطائفة المسيحية التي هي في الأصل ذات طابع استجدائي خيري رَهْباني، وقد انحرفتتحو الكسب التجاري، في أكبر المراكز التجارية في العالم حينها.[1]

وفي في نفس الإطار، نقل الراهب الفرنسسكاني "أندرو" رئيس أساقفة مدينة زيتون Andrew bishop of zaitún، في رسالته الموجهة إلى بابا روما، صورة عن أوضاع التنصير الكاثوليكي في المدينة، وعن شكل الحياة الدينية وحرية المعتقد التي تتمتع بها الأمم المختلفةفي زيتون وفي الصين عامةً، فسجل مايلي:

" هذا البلد تعيش تحت سماءه شعوبا وأُممًا مختلفة العقائد، وكلها تمارس شعائرها بحِرِّية، وللرُهبان المسيحيين حرِّية تامة في نشر عقيدتهم دون أدنى تضييق، هذا إلى جانب ما تمنحه لنا نحن (الرهبان الكاثوليك)، خزينة الإمبراطورية من هبات، تصلنا بشكل منتظم تعرف ب " علفا" " ALAFA" تعادل قيمتها مائة قطعة ذهبية جنوية حسب ما أخبرني به تجار جنوة النشطين في مدينة زيتون ".[2]

ومن شواهد انفراد مدينة " زيتون" لمكانة الصدارة الاقتصادية، في العهد المغولي ما رواه لاحقا التاجر البندقي ماركو بولو، والطنجي ابن بطوطة عن نشاط وازدهار المدينة، التي ترتكز في اقتصادها على الصناعة والتجارة، فيعتبر ميناءها ثاني أكبر موانئ العالم، تصله السلع من الهند على تنوعها، وأغلاها من أحجار كريمة ونادرة وتوابل وغيرها، "منها يبحر التجار الصينيون الجنوبيون نحو الممالك الغربية فالمدينة تعرف رخاء اقتصاديا كبيرا بفضل

---

(1)- Yule.H : op.cit, Vol $_3$, P .229

(2)- YULE.H : op.cit , Vol$_3$, P.73-74

تردد التجار الأجانب عليها من كل صوب، لاسيما وأنها تمتلك شبكة من القنوات المائية والأنهار رئيسية وثانوية تساهم في أن تصلها البضائع من الشمال والشرق والغرب، وتعود أهميتها الاقتصادية إلى مصانع الأواني الحرفية التي تختص بصناعتها أحد قراها المعروفة تينجيو Tingiu ، وهي من أجمل أنواع الخزف وأجودها .[1]

وقد كانت مدينة ومرفأ زيتون أول المدن التي زارها ابن بطوطة، عندما حلَّ بأراضي الصين قادما من الهند، وذلك بصفته مبعوث للسلطان الهندي، وتزامنت رحلته مع الفترة الأخيرة لحكم أسرة يوان المغولية للصين (1271-1363م) وتعتبر معطياته على درجة من الدقة والوضوح تصور لنا المدينة ونشاط المرفأ الإقتصادي.

كما ذكر ابن بطوطة ان مرفأها من " أكبر مراسي الدنيا وهو أعظمها" فهو يقع على خليج كبير، وواسع تمتد مياهه نحو البَّر حتى تلتقي بمصب النهر الأعظم، ويجتمع فيه كل أنواع السفن الصينية كتلك التي تعرف ب"**الجنك**"، وهي نوع خاص من السفن الصينية الضخمة والأخرى ذات الحجم الصغير وذكر أنه شاهد في هذا الميناء حوالي مائة جنك كبار، وأما الصغار فلا تحصى من كثرتها وهو مايدل على السعة الكبيرة لهذا الميناء وقد أورد ابن بطوطة الرحالة والتاجر، معلومات تقنية قيمة حول مراكب الجنك الصينية حتى أن هناك من الدراسين من اعتبرها تفوق دقة ووصفا تلك التي أوردها ماركو بولو حول نفس الموضوع والتي وصفت بالمعارف الضحلة والضعيفة حول مراكب تجارية ملفتة ومميزة من حيث كل المقاييس لاسيما بالنسبة لتجار قادم من البندقية التي كانت بحوزتها أكبر السفن البحرية وأحدثها.

---

[1]- PoLo , Marco : op.cit , P.228

لهذه المدينة تخطيط يشبه باقي مدن الصين، تتوزع الدور الصينية على المدينة بشكل يكون لكل ساكن بيت يتوسط مساحة كبيرة مقسمة بين بستان جميل وأرض مخصصة للزراعة، وأشار ابن بطوطة أن هذا التنظيم يشبه ما رآه في مدينة سجلماسة بالمغرب، ويرى أن هذا ما يجعل المدن الصينية كبيرة وواسعة. كما اشتهرت المدينة بمصانع الأقمشة الدمشقية- المشجر، الكمخة - Les étoffes Damasser، بنوعين المخملي والأطلس (ساتان)المشهورة، وكثير الطلب عليها في البلاد الإسلامية وتنسب إليها فيقال لها " الزيتونية" [1].

أما عن أوضاع المسلمين في مدينة الزيتون، فذكر ابن بطوطة، أنهم على غرار باقي المسلمين في المدن الصينية الكبرى يسكنون بمدينة على حدة، يترأسهم شيخ الإسلام القائم بشؤون المسلمين المدينة والمعاملات، والقاضي العامل بأحكام الشريعة، وأشار ابن بطوطة أنه عندما حل بالمدينة نزل عند الأمير الهندي المقيم هناك بصفة ممثل السلطان الهندي، وأنه تلقى هناك زيارة، شيخ الإسلام والقاضي، وكبار التجار المقيمين في مدينة الزيتون وقد فرحوا به أشد الفرح، لكونه قدم من أرض الإسلام وقدموا إليه الكثير من الهدايا [2].

ومن الإضافات الهامة التي تبين مدى الاستقرار الذي عرفته الجالية الإسلامية في الصين في عهد أسرة يوان، هو وجود " زاوية" لتدريس علوم القرآن والسنة خارج مدينة الزيتون [3].

---

[1]- ابن بطوطة: المصدر السابق، ج إ، مج . ، ص.269 ؛ Com’nougue , M : op.cit , P.46

[2]- ابن بطوطة : المصدر السابق، ج3، ص.270.

[3]- نفس المصدر، ج3، ص.271.

ولقد ذكر المصدر الصيني " شوجوكوا " أن أحد التجار المسلمين وكان يحمل تسمية شهي نايوي Shi-Na Wei قد أقام في ضواحي مدينة الزيتون الجنوبية وكان ثريا جدا ولكنه في نفس الوقت كان كريما سباقا لفعل الخير وغمر الناس بأعماله الخيرة ذلك لأنه جلب معه طباع أهله العرب من الغرب، ومن أهم ما قام به وحفظته السجلات التاريخية الصينية تأسيسه لمقبرة خاصة للتجار المسلمين الأجانب الذين يتوفدون في مدينة الزيتون وكانت تقع في الزاوية الغربية خارج المدينة وقد كان الموظف الصيني مفتش الجمارك هو من أشار إلى أعمال هذا الرجل العربي الشهير [1].

إن مدينة الزيتون برزت في فترة متأخرة، مقارنة بمدينة كانتون العريقة، في تاريخ العلاقات التجارية بين الشرق الأقصى والغرب، فبفضل اهتمام ملوك أسرة سونج، بني ميناءها ووسع في القرن الحادي عشر الميلادي، وتذكر الحوليات الصينية أن التجار العرب الذين كانوا يفدون بكثرة على هذه المدينة كانوا أغنى التجار الأجانب واختصوا بتجارة التوابل، وكانت لهم أحياء خاصة بهم تعرف ب " فان فانج" (أحياء الأجانب) وكان يديرها ضابط يدعى " فانج جانج" (رئيس حي الأجانب)، وكان يجري اتصالات بالتجار الوافدين على مدينة الزيتون، وكان الرئيس يتم اختياره، شرط أن يكون متمتعا بخلق كريم، وسمعة طيبة ويتم تعيينه من قبل حكومة سونج [2].

وتؤكد النقوش الحجرية ان للمسلمين هناك مقبرة، منها ما تدل على أشخاص دفنوا في بداية القرن الخامس الهجري = الحادي عشر الميلادي [3].

[1]- Chau Ju kua ; op.cit , p.119

[2]- ذانج هو: المرجع السابق، ص.36.

[3]-ذانج هو : المرجع السابق، ص.98.

كما يتواجد في هذه المدينة جامع قديم مازال قائما حتى الآن، ويعرف ب " كنج جنج سي"، أي " جامع الصفاء والطهار"، ولقد بني هذا المعلم الهام على الطراز الاموي في دمشق، وهناك نقوش عربية على الجدار الحجري للرواق عند البوابة، تفيد أن الجامع بني عام 400 للهجرة، وأن هذا التاريخ المسجل على المسجد يدل على أن المسلمين استوطنوا الزيتون قبل أكثر من سبعين عاما من إنشاء مكتب الملاحة التجارية رسميا في عهد أسرة سونج.

وجاء في أحد كتب التاريخ الصينية المعروف ب" جو فان جي"" أن تاجرا مسلما يدعى " شيلافي" وربما يكون من مدينة سيراف الفارسية الساحلية، كان يقيم في حي التجار الاجانب في جنوب مدينة الزيتون وكان واسع الثراء إلا أنه لم يكن يكترث بالمال وكان ينفقه في أوجه الخير، ووصف بأنه كان يتحلى بأخلاق الغربيين (العرب)، وقد أقام مجموعة من القبور في ضواحي المدينة الجنوبية الشرقية لدفن الموتى من التجار الأجانب وتبين هذه السجلات أمرين، أحدهما أن الحاجة إلى مجموعة من القبور دليل على كثرة المسلمين المقيمين في المدينة، وثانيهما أن هذا التاجر كان غنيا جدا، حتى تمكن من توسيع المقبرة وتولى بناء القبور للمسلمين. ولقد عثر في المدينة عام 1965 إثر أعمال تنقيبه عن الآثار، على مجموعة من قبور التجار المسلمين، وعثر على قبر حجري منقوش عليه كتابات صينية- عربية وفيها " فان كومو" وتعني " قبور الأجانب" أما النقوش العربية فإنها تبرز اسم الجلالة " الله" .[1]

وفي آخر عهد أسرة سونج برز تاجر مسلم من أقوى تجار مدينة الزيتون وكان ينشط في حقل السياسة فقد كان مشرفا على الملاحة التجارية للمدينة وكان مسؤولا عن مصالح

[1]- لي تشينغ تشونغ: المرجع السابق، ص. 259، راجع أيضا: ذانج هو: المرجع السابق، ص .38.

السفن الأجنبية طوال ثلاثين عاما، حسب السجلات الصينية، وعندما استولت أسرة " يوان" الحكم أصبح حاكما على كل ولاية فوجيان، وأصبح أبناءه ضباطا لدى هذه الأسرة من بعده وعرفت العائلة باسم " بو" (1).

2-مدينة خنساCansaia " هانغ تشو فو" Hang Tchou Fou:

من المدن الصينية الموصوفة في المصادر الإسلامية والأجنبية في فترات متأخرة، فلقد ذكرها أبو الفدا في مؤلفه " خنسا" غير أنه التبست عليه التسمية مع " خانفوا" (كانتون) وظن أن التسميتين لموقع واحد فنجده يشير إليها، مرة بخنساء وأخرى بـ"خانقو" .(2)

بينما وردت تسميتها" كاتوساي CATUSAYE "عند الراهب " أودوريك دي بردنون " وهو أقدم السفراء والرحالة اللاتين في الصين، واعتبرها من أكبر المدن التجارية في العالم، فبها أكبر الاسواق التجارية، وتفوق مدينة البندقية من حيث المساحة، وينشط فيها تجار من كل الملل، منهم مسيحيون ومسلمون وووثيون، وحسب أودوريك فإن المسلمين المقيمين يمثلون الأغلبية في المدينة مقارنة مع باقي الطوائف الأخرى3.

ولقد كانت المدينة الثانية التي زارها الرحالة ابن بطوطة في بلاد الصين بعد حلوله في مدينة " الزيتون" وهي المدينة التي وصفها بعده، الرحالة الأوروبي ماركو يولو، وسماها كنساي "Kinsai" ويتبين من خلال ما تقدم أن " كنساي" أو " خنسا" هي التسمية التي

(1)- ذانج هو: المرجع السابق، ص .39.

(2)- أبوا الفدا: المصدر السابق، ص .365.

3 - De Perdenone Odoric : op.cit ,P P.300,301

كانت تطلق على المدينة الصينية هانغ تشيوفو، الواقعة في مقاطعة شيكانغ " Che – kiang" شمال شرق مدينة كانتون.[1]

وحسب الوصف الدقيق لابن بطوطة، فإن هذه المدينة من أكبر المدن الصينية مساحة، وأكثرها نموا ديمغرافيا، حيث يجتمع فيها أعدادا كبيرة من الأجانب فضلا عن أهلها، ففيها طوائف، كثيرة من المسلمين واليهود والمسيحيين وفئات أخرى، أما عن مساحتها فيبلغ طول هذه المدينة مسيرة ثلاثة أيام وهي غاية في التنظيم، وكانت مقسمة إلى ستة مدن داخلية، ويقطن بكل واحدة منها فئة معينة، ففي المدينة الاولى يسكن رجال الشرطة والحراس وقائدهم، أما المدينة الثانية فيقطنها جماعة معتبرة من التجار اليهود، حتى أن بابها كتب عليه اسم " باب اليهود" ومعهم " نصارى" والأتراك الذين يعبدون الشمس، أما المدينة الثالثة فأهلها مسلمون، وهي حسنة التنظيم، ذات أسواق كثيرة منظمة، على نفس نمط الأسواق في البلاد الإسلامية، ويتواجد بها مساجد كثيرة، وأضاف ابن بطوطة أنه سمع المؤذنين وهم يرفعون أصواتهم بآذان الظهر، وهو على أبواب المدينة،[2] وفي هذا دليل أن المسلمين في هذه المدينة كانوا يتمتعون بحيز كبير من الحرية في ممارسة شريعتهم دون تضييق، وهو ما شجعهم على بناء المساجد ورفع المآذن للإيذان بأوقات الصلاة، أما المدينة الرابعة فيبدو من خلال وصف ابن بطوطة أنها مدينة الحاكم أمير مدينة الخنسا، والحرس والأمناء، وهي أجمل المدن الستة كلها، حيث تشقها الأنهار العذبة التي تنتقل فيها القوارب المخصصة للنزهة والاستجمام، وبها مصانع خاصة لصناعة الأقمشة والثياب النفيسة، وبها أيضا مصانع

---

(1)– Hertman et Bosworth : op.cit , p.644 ؛ انظر الخريطة رقم (10).

(2)– ابن بطوطة: المصدر السابق، ج3، ص.285.

آلات حربية، وأن بها معلمين حرفيين مختصين في هذه المهن الخاصة، قد يصل عددهم إلى ألف وستمائة معلم .[1]

بينما يسكن في المدينة الخامسة عامة الصينيين، لذلك فهي أكبر هذه المدن، وهي منظمة على أسواق حسنة ومصانع للنسيج وبها تصنع الأقمشة التي تنسب إليها الخنساوية المعروفة في البلاد الإسلامية، ومن المنتجات التي أثارت إعجاب ابن بطوطة، في هذه المدينة " أطباق الدست" وتصنع من قصب محلى، ألصقت قطعه أبدع إلصاق ومدهونة بصبغ أحمر مشرق، ومن فرط زفتها، يحسب المرء الأطباق العشرة الموضوعة الواحد في جوف الآخر، طبق واحد ويصنعون لها غطاء يغطي جميعها، ومن خصائصها أيضا، أنها إذا وقعت من علو لاتنكسر، وإذا وضع فيها الطعام ساخنا، لايتغير صبغها، ويبدو أن هذا النوع من الأواني كان رائجا في بلاد الهند وخرسان حيث يجلب إلى أسواقها. [2]

أما المدينة السادسة، فيبدو من خلال وصف ابن بطوطة، أنها كانت خاصة بالبحَّارين والصياَّدين، لقربها من الساحل، وفي ذات الوقت كان يتواجد بها ثكنة ومعسكر كبير لعناصر الجيش من فرسان ورُماة ومُشاة.

ومن الإشارات الهامة التي وردت في نصوص ابن بطوطة حول هذه المدينة، هو ما أورده عن وجود تاجر يعيش فيها من سلالة الخليفة الراشدي عثمان بن عفان رضي الله عنه، يحبه ويوقره جميع المسلمين، كما توجد بها جماعة من الصوفية [3].

---

[1]– ابن بطوطة : المصدر السابق، ج3، ص.287.

[2]– نفسه.

[3]– إبن بطوطة : المصدر السابق، ج3، ص.293.

3- مدينة خان باليق khan balik (بكين):

وردت تسميتها في المصادر الإسلامية خان باليق"، لدى ابن بطوطة " وتسمى أيضا " خانقو"، وهي نفس التسمية الواردة عند أبوا الفدا، والملاحظ أن " خانقو" أثارت بعض الالتباس لتشابهها مع مدينة "خانقو" (كانتون) المدينة الواقعة على الساحل الجنوبي للصين.[1]

وأشار كل من أبوا الفدا وابن بطوطة إلى أنها تقع شمال بلاد الصين في شرق بلاد الخطا Cathayأي الصين الشمالية [2] وهي عاصمة ومقر ملوك الصين الذين يحملون لقب الخان الأعظم، وأشار ابن بطوطة أن هذا اللقب " القان" اختص به الأباطرة الصينيين ذوي الأصول التترية من ذرية جنكيزخان وهم أعظم ملوك الأرض حينها[3].

فمن الناحية التاريخية كانت مدينة بكين عاصمة إمبراطورية الصينية في عهد سلالة " يوان" المُغولية، حكمت الصين (1271- 1368م) وكان قد أسسها الإمبراطور شي زونغ المعروف بـ " قوبيلاي خان" (1214-1294 م) [4] فقد خضعت كل الصين للحكم المُغولي قرابة مائة سنة وهو ما يشير إليه ابن بطوطة، الذي قام بنقل صورة حية عن المدينة والنشاط الاقتصادي في هذا العهد، حيث شهدت أجمل فترات ازدهارها الحضاري، وكانت زيارته له نزولا عند طلب الإمبراطور، واختار أن يسافر إليها عبر نهر " سرو" وهو النهر الأصفر " Huang he" منطلقا من مدينة " خنسا" الساحلية وقد استغرقت الرحلة مدة أربعة وستين

(1)- Hartman et Bosworth : Ibid ; p ; 644 انظر الخريطة رقم:10

(2)- أبوا الفدا: المصدر السابق، ص 265، ابن بطوطة: المصدر السابق، ج4، ص279.

(3)- ابن بطوطة: المصدر السابق، ج4، ص 258.

(4)- لي تشين تشونغ: المرجع السابق، ص، 261.

يوما، وذكر ابن بطوطة أن إقليم بلاد الخِطا الذي تقع المدينة ضمنه، يتميز بكونه منطقة مخصصة للزراعة، فهي عبارة عن قرى فلاحية منتشرة على طول النهر، أين تزرع الحبوب والفواكه وقصب السكر، فالإقليم يغلب عليه الطابع الريفي. ونظرا لعدم وجود مدينة جامعة، فالتجار المسلمين لا يقيمون فيه إلا أنهم يمرون به في أثناء رحلاتهم التجارية [1].

وانتشرت على طول الطريق الذي سلكه ابن بطوطة، شبكة من الخانات " الفنادق" التي بنيت خصيصا للتجار المسلمين، المتنقلين بين مدن وقرى الإقليم وحتى باقي المناطق الصينية وذلك بتشجيع من حكومة أسرة يوان المُغولية لغرض تنشيط التجارة، وفي نهاية المطاف وصل ابن بطوطة إلى حاضرة الإمبراطورية المُغولية في بلاد الصين، وأورد الرحالة وصفا بديعا لها، فهي حسب وصفه مدينة كبيرة تقع وسط سهل أخضر فسيح، وهي ليست منظمة على نفس تخطيط المدن التي مر بها الرحالة المغربي، وإنما تختلف عنها، فالبساتين تقع خارج أسوارها، وهي محاطة بأسوار عالية تقع في وسطها قلعة محصنة وهي مدينة السلطان وفيها قصرهن الذي يمثل تحفة فنية رائعة من الناحية المعمارية فقد استخدم في أغلب عمارته الخشب المنقوش وللقلعة سبعة أبواب، فيقيم في الباب الأول: أمير بوابين السلطان وتوجد مصطبتين مرتفعتين عن يمين ويسار الباب، حيث يجلس المماليك الذين يعرفون بـ "البردارية" وهم مكلفون بخدمة غرف الملك، وحفاظ باب القصر وعددهم خمسمائة رجل أو أكثر، وفي الباب الثاني يجلس الرماة المعروفين بـ " الأصباهية" والباب الثالث يحرسه أصحاب الرماح من أصناف الجيش، ويعرفون بـ"النزدارية"، أما الباب الرابع فيقيم به حاملي السيوف والدروع ويعرفون بـ"التغدارية"[2].

---

[1]– ابن بطوطة: المصدر السابق،،ج4، ص ص، 294.295.

[2]– ابن بطوطة: المصدرالسابق، ج4، ص .297.

أما الباب الخامس حسب وصف ابن بطوطة هو جناح خاص بالإدارة وموظفيها حيث تتواجد فيه كل دواوين الوزارات موزعة على سقائف خاصة بها، فالسقيفة الأولى مرتفعة وهي خاصة بالوزير وتزينها أدواته الذهبية العظيمة وتقابلها سقيفة كاتب السر، وعن يمينها تتواجد سقيفة كتاب الرسائل، وعن يمينها سقيفة وزير المالية وكتابه، وتقابل هذه السقائف دواوين أخرى، كديوان الأشراف والمراقبة وهو خاص بالتفتيش الاسواق والضرائب، وديوان المستخرج ويهتم بالإقطاع وتحصيلاته، أما الديوان الثالث فهو خاص بالتظلمات ويعرف بديوان الغوث، ويرأسه أعضاء مهمين من كبار الأمراء وقاضي القضاة المتفقهين في شرائعهم [1] ويقيم في الباب السادس للقلعة الملكية "الجندارية" أصحاب السلاح (العسكر) وقائدهم، أما الباب السابع فيقيم فيه "خاصة" الملك من الفتيان وهم ثلاث طوائف، فمنهم طائفة الأحباش وأخرى من الهنود وثالثة من الصينيين، ويترأس كل طائفة رئيس خصيان صيني [2].

وكغيرها من المدن الصينية الكبيرة كانت تعيش في مدينة " خان بالق" المُغولية جماعة معتبرة من التجار والحرفيين المسلمين، يأتي على رأسها شيخ الإسلام المسؤول على تطبيق الشريعة الإسلامية وفض النزاعات، وقد كانوا في استقبال ابن بطوطة عند حلوله بالمدينة.[3]

ويبدو أن الرحالة المغربي وصف المدينة الإمبراطورية المُغولية الشهيرة، في بكين المعروفة "بالمدينة المحرمة" التي بنتها أسرة" يوان" مع نهاية القرن الثالث عشر، كما وصف الحدائق الواقعة حولها، والملاحظ أن كل من يذهب إلى بكين عاصمة الصين في الوقت الحاضر لابد وأن يقوم بزيارة القصور الملكية السابقة بالمدينة المحرمة، والحدائق الملكية

[1]– إبن بطوطة : لمصدر اسابق، ج4، ص.298.

[2]–إبن بطوطة : لمصدر اسابق، ج4، ص .299.

[3]–:إبن بطوطة : لمصدر اسابق، ج4، ص.281.

لاسيما حديقة "بيهاي" الواقعة على مقربة من القصور، وهي ذات فخامة وروعة بناء نادرين.[1]

والجدير بالذكر أن البحوث الصينية التاريخية التي قام بها الأستاذ الصيني تشين يوان (1880-1971م) ورئيس جامعة بكين، كشفت عن هوية مُصَمِّم ومنفذ مشروع المدينة المحرمة المُغولية هو المهندس المسلم دو الأصل العربي " إختيار الدين" وهو من أسرة استقرت في الصين منذ عهد أسرة تانغ، وعندما جلس قوبيلاي خان على عرش الصين عينه مديرا للهندسة والمعمار " البيوت والمخيمات" في اللغة المُغولية عام 1267م، نظرا لما اتصف عهد يوان بقمة الغر والجبروت، كان لابد أن تكون القصور من العظمة والفخامة والروعة لتعكس ذلك كله، فكانت مهمة اختيار الدين صعبة ليلا ونهارا في التفكير والتصميم ثم في التنفيذ مع وزير المالية وزير العمل، وبعد انتهاء المشروع منح الإمبراطور لإختيار الدين، هدايا وتشريفات نظير عمله، وقبل بناء القصور والمدينة المحرمة، كان قد تقدم بمشروع لبناء الحدائق عام 1263، ونفذ الشروع في سنة 1964 ومازالت بعض أجزائها باقية، خاصة الجزيرة وسط البحيرة والبرج الأبيض فوقها.كما نشر الباحث مامينغ داو 1908-1991 مقالا تحت عنوان " من بنى مدينة بكين ؟" ضمن كتاب " تأثير الإسلام في الثقافة الصينية" نشره قسم المطبوعات لجامعة الثقافة الصينية بتايوان سنة 1982م يؤكد ذلك ويقول أن المدينة، من تصميم المهندس العربي المسلم مقلدا مدينة بغداد عاصمة الخلافة العباسية، وأضاف أن معبد السماء في بيكين حاليا من تصميمه أيضا .[2]

---

[1]- لي تشين تشونغ: المرجع السابق، ص.270.

[2]- لي تشين تشونغ: المرجع السابق، ص .271، ذانج هو: المرجع السابق، ص .47.

ولاغرابة في ذلك، فإن عصر أسرة "يوان المغولية"Yuan Dynasty 1250 - 1347م، يمثل *" العصر الذهبي"* بالنسبة لتاريخ انتشار الإسلام في الصين، لما حمله من تغيرات ديموغرافية ذات دلالات ثقافية هامة، ساهمت في تكوين المجتمعات الصينية المسلمة المعروفة بالهوي هوي " Hui–Hui" حديثا، ففي أثناء العمليات العسكرية المُغولية للسيطرة على كامل بلاد الصين، جلب المُغول أعدادا كبيرة من مسلمي آسيا الوسطى والغربية والبلاد العربية، لمساندة غزواتهم، وبعد انتهاء الحرب استقرت جيوش المسلمين في المواقع المحددة لهم، في الأقاليم الداخلية بالصين ومنهم من اشتغل بالزراعة، وعين النخبة منهم في مناصب هامة للدولة، والإقليم ونظم أصحاب الحرف في المنشآت الصناعية والفنية، وفي خلال ثمانين سنة من الحكم المُغولي للصين، شغر ثمانية وأربعون مسلما صينيا مناصب حيوية في الدولة، بين وزير وحاكم لإقليمي، وبلغ عدد المسلمين في الصين عند نهاية حكم يوان حوالي 400.000 مسلم [1].

ويبدو أن نظام التنقلات بين المدن الصينية، الموصوف من قبل سليمان التاجر في القرن الثالث الهجري= التاسع الميلادي، بقيالنظام السائر والمعمول به، لضبط حركة المسافرين داخل بلاد الصين، عندما زارها الرحالة ابن بطوطة، الذي توافق زيارته فترة نهاية حكم أسرة يوان، فقد أفاد أن المسافر بين المدن الصينية لابد وأن يحمل معه ما يثبت هويته، وما معه من متاع أو رفقة، وتسجل هذه المعلومات عند حلوله بكل الفنادق التي ينزل فيها، وأضاف ابن بطوطة أن هذا التدبير يعمل به كل الصين، ابتداء من " صين كلان" (كانتون)، إلى " خان بالق" (كمبالو- بكين) في الشمال[2].

---

[1]- Israeli (R.) : ALSIN.Dans **(E.I)** vol , IX, p.64

[2]- ابن بطوطة : المصدر السابق، ج3، ص.268.

4- مرفأ مدينة كانتون :

في منتصف القرن الثامن الهجري، كانت مدينة كانتون من المدن الصينية التي حرص الرحالة المسلم الشهير ابن بطوطة في زيارتها، لما سمعه عن صيتها التجاري والصناعي الكبير، فطلب الإذن من " ملكهم الأعظم" الذي يعرف " بالقآن" (الخان)[1] وأجيب إلى ذلك فسافر إليها على مركب صيني، وهي تقع على طرف النهر الأصفر واستغرق السفر إليها سبعة عشر يوما.

ولقد أفاد ابن بطوطة بوصف مفصل للمدينة وأحوال أهلها وأهمية مكانتها الاقتصادية، فهي تمثل إحدى أكبر المدن الصينية التي زارها، وأحسنها أسواقا، ومن أشهر أسواقها " سوق الفخار" فمنها يصدر إلى سائر البلاد سواء داخل الصين أو خارجها، كالهند واليمن [2].

وكان يتوسط هذه المدينة معبدا ضخما له تسعة أبواب، داخل كل باب أسطوانة ومصاطب، أين يجلس ساكنو هذه البناية، وهم يقطنون في المحلات الواقعة بين الأبواب، وهم من العميان وأهل الزمانات أي المعوقين، ويتولى المعبد نفقات كسوتهم ومعاشهم، ويوجد بداخله مارستان (مشفى) للمرضى، ومطبخ كبير لإعداد الطعام، وفيه أطباء وخدم يعملون على خدمة تلك الفئات من المجتمع.

[1]- القان أو الخان لقب ملوك المغول، الذين حكموا الصين منذ 1271 إلى 1368م حيث تمكن الملك المغولي قبلاب خان من السيطرة على الصين وأطلق اسم " يوان" على سلالة حكمه سنة 1271 تماشيا مع تقاليد الصين في تسمية صلالة حكمهم، واتخذ بكين عاصمة لمملكته عام 1279 بعد توحيد الصين كلها.

[2]- ابن بطوطة: المصدر السابق، ج3، ص.274.

كما يتولى هذا المعبد إعالة الشيوخ المسنين الذين لاقُدرة لهم على التكسب، والأيتام والأرامل من الذين لا دخل لهم، وذرك ابن بطوطة أنه ينسب بناء هذا المعبد إلى أحد ملوك الصين، وأن صورته (تمثاله) يتوسط المبنى ويتوجه إليه الأهالي بالعبادة والصلاة [1].

أما عن أحوال التجار والحرفين المسلمين في مدينة كانتون عندما زارها ابن بطوطة، فمن الواضح أن الحي الذي كان خاصا بهم، أصبح أوسع مما كان عليه في عصر سليمان التاجر، وصار التنظيم أكثر حزما، حيث توسع نطاق منطقتهم، وأصبح لديهم بلدة خاصة بهم، الواقعة في نواحي المدينة بعد أن كانت في ما سبق أحياء معدودة، وفيها المسجد الجامع إلى جانب مدرسة زاوية لتحفيظ القرآن وتدريس علومه، وفيها سوق خاص بهم. كما يتواجد في هذه البلدة أشخاص مكلفون بإدارة شؤون المسلمين وهما : شيخ الإسلام، وقاضي، فالأول ترجع إليه أمور المسلمين كلها والثاني يقضي بينهم، وأشار ابن بطوطة أنه وجد هذا التنظيم ساريا في كل المدن الصينية عندما زارها في القرن السابع الهجري [2].

ومن الملاحظات التي حرص على إيرادها، هو أن هذه المدينة اشتهرت من بين المدن الأخرى بأهميتها الاقتصادية لتخصصها في إنتاج الفخار الصيني ذو الشهرة الكبيرة في البلاد الإسلامية، والتي كانت من أهم أسواقه [3] ومن المعروف أن الرخاء الاقتصادي الذي عرفه الجزء الجنوبي من بلاد الصين، كان يعتمد بشكل أساسي على صناعة الخزف الصيني لمدينة كانتون وضواحي شبه جزيرة ليزهو " Leizhou" [4].

---

[1]–ابن بطوطة: المصدر السابق، ج3، ص ص .272–273.

[2]– ابن بطوطة: المصدر السابق، ج3، ص .274.

[3]–إبن بطوطة: المصدر السابق، ج3، ص.256.

[4]– Hergoualc'H (M.J) : op.cit , p.271

سادساً- أسرة مينغ والهيمنة الصينية على تجارة المحيط القرن 9هـ/15م :

اندرج النشاط التجاري في سواحل وجزر المحيط الهندي، ضمن ما عرف اصطلاحا بـ" تجارة الشتات" "the Trading Diaspora "،وقوامها اشتراك مجموعات من الأقليات التجارية الوسيطة في النشاط التجاري بشكل سلمي تناغمي، وهي على نوعين أحداهما تتحرك لتستقر في المراكز التجارية المعروفة حيث تنشط ضمن مستوطنات معينة، والأخرى تظل في حركة دائمة ذهابا وإيابا دون استقرار.[1]

حتى حدود القرن الخامس الهجري /11م كانت المراكب، والسفن الناشطة في مرافئ التجارية في المحيط، هي مراكب لتجار من مختلف الجنسيات الأجنبية والمحلية، ويأتي المسلمون في مقدمتهم إلى جانب مراكب الممالك الهندية، والجاوية " سيريفيجايا SiriviJaya"، فضلا عن نشاط السفن التجارية الصينية التي كانت تصنف ضمن النوع الثاني من تجارة الشتات غير المستقرة، وكانت قد أخذت لها مكانا في مرافئ ساحل الكورومندل والمالابار جنوب الهند، وأصبحت منطقة عبور أساسية لسفنها أثناء اتجاههم نحو بحر العرب والخليج الفارسي وسواحل البحر الأحمر، حيث تُسَّوِق سلعها من توابل وخزف وحرير وشتى أنواع أعواد العطور وتشحن البضائع المطلوبة في الصين .[2]

ومع ظهور أسرة صونغ الصينية (960-1279م) بدأت تطرأ تغييرات على نظام التجارة البحرية، حيث برز مع الوقت طموحها الكبير في الهيمنة على تجارة التوابل والحرير على الطريق البحري، ثم تبعتها أسرة يوان المغولية على نفس الخط الاقتصادي متعهدة

---

(1)- TENSEN.SEN : the formation of chinese maritime networks To soutern Asia 1200- 1450 » in ***JESHO*** N°49, 4 , BriLL Leiden , 2006, P.423.

(2)- TENSEN.SEN : the formation , P.422

تطوير وتقوية الأسطول التجاري الصيني منتزعة بشكل تدريجي سيطرة المسلمين على تجارة التوابل في المحيط الهندي، ومنشئة لشبكة بحرية أوسع من ذي قبل سمحت بارتفاع عدد المبعوثين الصينين إلى الخارج وأصبح تقليدا منذ ذلك العهد [1].

لكن كان لمجيئ أسرة مينغ (Ming Dynasty 1368-1644م) دور في ظهور تطور كبير في السياسة الصينية اتجاه النظام التجاري العالمي في المحيط الهندي فهي لم تنتهج، نفس نهج سابقتيها في فرض قوتها على المناطق القريبة منها، والحفاظ على قواعد عسكرية ثابتة في جزر جنوب شرق آسيا وساحل كمبوديا (شامبا) وجعلها خلفيتها، فحسب وإنما ذهبت إلى أبعد من ذلك حين بانتهاجها نهج فرض القوة العسكرية على أكبر الممالك التجارية في المحيط الهندي .[2]

الأجانب، حيث كانت لهذه الأسرة ردة فعل عنيفة ومتطرفة أول الأمر اتجاه الأجانب أدى إلى ذوبان تلك المتواجدة في الصين والحد من نشاط التجار الغرباء وذلك وفق إعادتها العمل بالأحكام الأهلية التي تنفر من الأجنبي وتعمل على استبعاده بالقوة .[3]

---

(1)- HaLL.D.G.E : A History of south.EAST Asia , London , MacMiLLAN and campany new york,1955, P.56 ; MENZIS Gavin : 1421 L'Année ou La chine a decouvert L'Amerique , Traduit Par : Julie sauvage , Idition Intervalles, 2012, P.27.

(2)- TENSN .SEN : op.cit , P.423

(3)- YuLe.H : op.cit , T1, P.172 ; Vandermeerch ,L : Les Relation , P.272

وهو ماكان له أثر سلبي على تجارة البحر عموما والصين خصوصا، ذلك لأن أوَّل أباطرة أسرة مينغ وهو " هونغ-وو Hung –wu " [(1)] كان في الأصل يتيما ينتمي إلى طبقة الفلاحين وهؤلاء كانوا حذرين اتجاه الأجانب والصيارفة وحتى المؤسسات المالية، فكان من ضمن اصلاحاته الادراية منع نشاط التجار الأجانب في الأسواق الصينية والأواني واستخدام الفضة كعملة للتبادل التجاري.[(2)]

[(1)]- " زهو يوان زهانغ ZHU yuan ZHANG ، أحد فلاحين ريف كانتون Canton ، كان من الذين ثاروا على نظام حكم أسرة يوان المغولية بعد أن انتشرت الأمراض والفقر والمجاعة بين أوساط الصينيين وأثقلوا بالضرائب المفروضة عليهم، لاسيما بعد موجات الجفاف والفيضانات التي مست محاصيلهم، فتسببت كل هذه العوامل إلى قيام ثورة الفلاحين عام 1352، سرعان ما أصبح زهو يوان زهانغ قائدا لها، فجمع فلاحين وجنودا مناصرين له ونظمهم ووحدهم ولم تمض مدة ثلاث سنوات حتى كانت قد انتشرت الثورة في كل أنحاء الصين، وفي عام 1359 استولى الثوار على مدينة نانكين Nankin الحيوية – جنوب بكين الحالية- وقطعوا وصول المؤونة عن عاصمة الصين الشمالية المعروفة بخان باليق في عهد الأباطرة يوان" والمسماة عند الصينيين ب "تا- تو = TA- TU " أو بكين الحالية، وأجبرت هذه الثورة آخر أباطرة يوان توغون تيمور Toghun Temur على ترك الصين والفرار إلى السهوب الشمالية المغولية، وأعلن زهو يوان قيام حكم أسرة " مينغ" 1368 وأعلن نفسه أول أباطرتها واختار لقب " هونغ-وو"، سيرا على التقليد الامبراطوري في الصين حيث أن الأباطرة لم يكونوا يعرفون بأسماءهم الحقيقية وإنما يختارون ألقابا يحملونها، وبعد وفاتهم يأخذون تسمية من الصفة التي كانوا قد اشتهروا بها والتي تعكس فترة حكمهم ويعرف بها المعبد حيث مدفنهم فيقال: " الإمبراطور المخلص" ... أو غير ذلك .

للمزيد يراجع:.MEMZIZ.G :op.cit , P.382, CHUdhury : op.cit , P.60

[(2)]- Chudhury : op.cit , P.60

1- إنقلاب عام 1402 والتحول نحو الخارج:

أصبح نظام الحكم في الصين بداية أسرة مينغ، بيد الكهنة الطاوية Taoistes[1]، المحافظين على النظام الطبقي لإيمانهم بمبدأ تفاعل القوى الطبيعية، والحرصين على تحديد مكان ووظيفة كل طرف في الحياة الاجتماعية والطقوس الدينية، وطبقا لمبادئهم فإن طبقة الفلاحين هي العمود الفقري وأساس المجتمع الصيني وليس التجار أو الأجانب، فتمكن هؤلاء من تهميش الأجانب وفئة الخصيين الموظفين في الدولة منذ عهود بعيدة وتجريدهم من سلطتهم ونفوذهم القديم، لاسيما وأن أغلبهم حينها كانوا من المغول المنهزمين فكان هذا من ضمن الأسباب التي جعلت من هذه الفئة تسارع إلى مساندة الأمير " زهودي Zhu.di " المطارد لإعتلاء عرش التنين الصيني Le Trone de Dragon، وتلقب ب " يونغ لو- Yong Lo" (1402-1424م).[2]

---

[1]- هي طاؤ Tao أو داؤ Dao (Daochiao/Taochiao) وتعني " الطريق"، وعمادها الإنسان المرتبط بوالديه " السماء والأرض".أخرجت الصين " الطاوية" بعد رحلة طويلة من النضج الفكري، فيمكن اعتبارها من المعتقدات الدينية أو المبادئ أخلاقية ذات جذور صينية حسب المؤرخين الصينيين فإن الفكر الطاوي ظهر نتيجة تراكب عبادة أسرة شهانغ Shang الأسرة الثانية (1766-1122) قبل الميلاد مع حضارة أسرة زهو Zhou، الأسرة الثالثة (1121-222 ق.م)، مدمج بين عبادة شانغ دي Shang di " امبراطور الأعلى" وعبادة السماء " تيان" " Tien"، وامعانا في توقير واجلال هذه المعتقدات بين الناس ربطت بالمنجمين والسحرة والآلهة المتعددة. ولقد أسهم كثيرا الكهنة الطاويين في ميادبين كثيرة في الحضارة الصينية سواء في الفن أو العلوم والطب والأدب وجانب العمراني والهندسي ويبدو أنها كانت محتقرة من طرف الفلاسفة الكونفشيوسيين واعتبروها أحاديث لخلق وناس قاطعي الرجاء ومتصوفة سحرة.

يراجع : LARRE, Claude ; « Tao » in , Dictionnaire des Religions, sous ladirection de Paul Poupard , Presse Universitaire de France, Paris, 1984, Vol$_2$, PP. 1968 , 1969 ; STOCKweLL Foster : Religion in china Today , new world Press , Beijing , china 1993, P55.

[2]- MENZIS.G : op.cit , P.26

وبوصول " ينغ لو" ثالث أباطرة أسرة مينغ إلى عرش التنين الصيني، عرفت العلاقات الخارجية الصينية تحولا كبيرا وبرز شكلا جديدا من العلاقات التي ربطت الصين مع الأمم والممالك التجارية في المحيط الهندي، حيث تجسدت في سلسلة من الحملات البحرية العسكرية الطموحة في الفترة من 1404 إلى 1433م وقد نظمها وأعد لها أكبر خصي في البلاط الصيني ومن أكثر المقربين من " يونغ لو" وهو مستشاره " شنغ-هو "sheng-ho/ زهنغ هو Zhang-Ho [1]، الذي كان في مقدمة من مساعدة وساندة للوصول إلى العرش وكان ذو دراية وعلم في تسيير شؤون الدولة وقريب من الإمبراطور منذ زمن طويل .[2]

---

[1]- تشانغ هو / زهانغ هوو؛ Tcheng –Ho – Zheng – hovo ، أميرال البحرية الصينية ومبعوث الامبراطور يونغ لو Young Lo وخلفيته سيوان – تو- Siuan To ، تبقى سيرة حياته بحاجة إلى أن تكتب، ذلك لأن المعلومات حولها متفرقة وكان محط اهتمام علماء الصينيات الذين عكفوا على ترجمة ماله علاقة بأكبر ملاَّح في تاريخ الصين، من خلال السجلات الصينية المتعلقة بالبلاد الأجنبية أي " مينغ شي Ming che "، كما يمكن اعتماد المعالم المادية التي خلفها وراءه كالنقوش الأثرية التذكارية في جزيرة سيلان (سيرلانكا) إحتفاء بذكرى اخضاعه للملكة. وقد تبين أن شانغ هو، في الأصل كان ينتمي إلى أسرة مغولية مسلمة عريقة تعرف ب" مه – هو Ma– HO ، عاشت في محافظة كون يانغ Kun Yuang – الواقعة في الركن الجنوبي الغربي لبحيرة تيان شيه Tien Chih في اقليم يونان الجبلي yunan، حيث حدود الصين مع التبت Le Tibet واللاوس Laos ، كان والده يحمل لقب " مه – Ma" ويميز ب " حاجي Haji وهو مايدل انه كان مسلما،ولد حوالي عام 1371 وكان ترتيبه الثاني في الصبيان وأربعة نبات، وأظهر في سن مبكرة مهارة وذكاء غير معتادة، إكتسبها دون شك من الدين الإسلامي،وكان من جملة الغلمان الذين وقعوا في الأسر، عند سقوط آخر الحصون المغولية في كون يانغ 1382م، وخضعوا لعمليات التخصية وأُدْمِج في القصر الإمبراطوري، ثم أصبح في خدمة الأمير " زهودي" وهوفي سن 22 عاما، وفي عام 1404 عين في وظيفة أكبر الخصيين وناظر المالية، وتفوق بجمال مظهره الخارجي وذكاءه الفائق وبصيرته النافذة. وكان من المغول المسلمين الورعين وفي نفس الوقت مقاتل شرس وأصبح مستشار للإمبراطور وكان ذو شخصية قوية حتى أنه كان يسيطر على سيده من الناحية العلمية والجسدية أيضا، حيث تعدى طوله المترين،ووزنه أكثر من مائة كيلوغرام وكانت لديه مشيه النمر، درس العلوم الحربية، وعمل في خدمة ثلاث أباطرة من أسرة منيغ، توفي عام 1435م عن عمر يناهز 65 عاما في تانكين يراجع:

Pelliot .P : « les grands voyages maritimes chinois Au début du XV siecle » in **: T.P** , Vol.30, EJ BriLL , Leide , 1933 , P.238 ; MENZIES , G : op.cit, P.24.

[2]- CHUdhury ; op.cit , P.60

2- الحملات الصينية العسكرية في المحيط الهندي 806-836 هـ/ 1404-1433م:

في عهد الامبراطور " يونغ لو" أظهرت الصين اهتماما بالغا في التوسع العسكري، عبر المحيط، وبرهنت على تفوق بحري وازدهار تفتي غير مسبوق، وبرز شكلا جديدا من العلاقات التي ربطت الصين مع أمم والممالك التجارية في المحيط الهندي جعلها تظهر بمظهر المسيطر والمتحكم في تجارة التوابل والحرير على الطريق البحري للمحيط الهادي.

ففي غضون اثنى عشر شهرا من اعتلائه العرش عيَّن " يانغ لو"، كبير الخصَّيين " شانغ هو" القائد الأعلى للأسطول البحري في العالم حينها، وكلفه بمضاعفة عدد الورشات ومصانع السفن البحرية وبالتالي مضاعفة إنتاج السفن " الجنك" الصينية، فتم إضافة 1681 سفينة جديدة، ومن بينها السفن الضخمة المعروفة ب " بوارج الذخيرة" " Les vaisseaux" ذات التسع سواري وسميت كذلك لأن طاقة استيعاب قعر السفينة كبير جدا، واستعان شانغ هو بعشرات الآلاف من النجارين وصناع الأشرعة البحرية من كل المدن والأقاليم الصينية لإنجاح هذه المهمة.[1]

وكان هناك عاملان أساسيان استخدمها " شانغ هو" ومساعديه " لي . كاي Li – Kai ويانغ مين Yang Min في تطوير ملاحة السفن الصينية عبر المحيط اولها الخريطة البحرية وتصحيح دقة الإسطرلاب، وقد ساعدا في رسم تفاصيل صورة السواحل والخلجان وتصويب الشكل العام لها، إلى جانب كتاب الملاحة البحرية الذي لا يفصل المواقع الجغرافية للمناطق الملاحية المختلفة غرب وشمال المحيط الهندي فحسب وإنما بصفة خاصة يحدد أماكن القمم الجبلية، الجزرو الصخور، خطورة أو سلامة الطرق الملاحية قصد سلوكها أو

(1)- MENZIES , G : op.cit , P.27

تفاديها، والإشارة إلى مدى عمق مياه البحر ومعارف عن الخلجان وصفتها، وكان للإسطرلاب ذو الإبرة المغناطسية دوره الأساسي في تحديد مكان تواجد السفن، وحساب مسافة الرِّحلة، على رأس كل ساعتين تقريبا، كما سمحت بتقدير احتمالات التغييرات الجوية كسرعة الرياح أو حركة المياه.(1)

أما العامل الثاني، فهو أخذ الصينيون تقنياتالملاحة وعلم النجوم عن المسلمين فيبدوا واضحا أنهم درسوا بعناية التقنيات المتقدمة لوسائل الملاحة عند المسلمين، ثم شرعوا في تطبيق نظام مراقبة موقع النجوم والحسابات الفلكية للسفر والملاحة في المحيط الهندي.(2)

وبعد سلسلة من الاستعدادات الكبيرة، خرج" شانغ هو" قائد الأسطول الصيني والسفير الأول للإمبراطور " يونغ – لو" في أول حملة استكشافية عسكرية صينية عام 1405م من جملة سبع حملات (1405-1433م) على ممالك وجزر البلاد الغربية وانطلقت أول حملة 1405-1407م من ميناء شانغ لو Chang-Lo من ولاية فوكيان Fukien، متجهة إلى جاوة، سومطرة، جزر لامبري Lambri، ووصلت إلى قاليقوت ويرجع إلى أنها توقفت في جزيرة سيلان (سيرلانكا) .(3)

أما الرحالة الثانية فخرجت ما بين سبتمبر – أكتوبر (1407 إلى 1409م) وصلت إلى جزيرة سيلان (4) وفي هذه الرحلة ترك " شنغ هو" نقوشا في كالكوت Calicut ، تشير إلى النشاط التجاري بين الصين والهند ثم كانت الرحلة الثالثة للملاح " شنغ هو" التي

(1)- Guangqi sun : the developement of china's , P229

(2)- IBID

(3)- Pelliot ,P :Les Grands voyages maritime , P.275

(4)- Pelliot , P : op.cit , PP.278-279

انطلقت مابين جانفي إلى فبراير 1409 واستمرت حتى 1411م، زار خلالها شامبا، جاوة، مالاقا، سيموديرا Semudera، سيلان، كيلون، كوشين. كاليكوت، وفي جزيرة سيلان ترك نقوشا على معبد بوذي بذكر بهبة منحها الإمبراطور إلى المعبد وأهم مايسجل في هذه الرحلة تمرد ملك الجزيرة سينهالس Sinhaleseسيلان- على الوجود الصيني إلا أن " شنغ شو" تمكن من اخضاعه ونقله برفقة زوجته وأبناءه وكبار مساعديه إلى الصين كأسرى، ثم أن الامبراطور عفى عنه واعاده إلى مملكته لاحقا .[1]

أما الرحالة الرابعة فاستغرقت من فريق 1413- 1415م، زار خلالها شامبا، جاوة بالامبانغ Palembang مالاقا، سيموديرا (بنغال) جزر لامبري Lambri، سيلان، جزر المالديف قاليقوت، كوشيف وهرمز، وكانت أول مرة يبحر " شانغ هو" أبعد من الهند.

الرحلة الخامسة (1417-1419م) وكان الهدف المعلن من الرحلة هو مرافقة سفراء تسعة عشرة ممكلة في طريق عودتهم وكان من حملتهم سفراء من بلاد شامبا، جاوة بالامبانغ، مالاقا، سيموديرا لمبري، سيلان، كاليكوت، هرمز، عدن، مقديشو، ماليندي.[2]

الرحلة السادسة، 1421-1422، زار فيها الممالك المذكورة آنفا فضلا عن مدينة ظفار العمانية أما الرحالة السابعة والأخيرة فهي استغرقت من 1431- 1433م، وكان تعداد الذين خرجوا فيها 27550 ضابط وموظف صيني، وأهم مايميز هذه الرحلة وصولها إلى قاليقوت 1433م، ومنها أرسل وفدا كان " ماهون" – الذي رافق " شنغ هو" منذ رحلته الرابعة والذي سجل لنا تفاصيل رحلاته – فردا من هذه السفارة التي زارت " مكة" التي كانت

---

(1)- Ma Houan ; op.cit , PP.11, 12 أنظر الملحق رقم:12

(2)- Ma Houan : op.cit , P.13,14 أنظر الملحق رقم:12.

تعرف بين الصينيين حينها بالمربع السماوي " Tiang Fang" منذ عهد أسرة يوان المغولية.[1]

في هذه المرحلة كان الأسطول الصيني هو أكبر قوة بحرية في الشرق حمل أكثر من 28.000 شخص بين جندي وضابط، وتكونت قطع أسطوله البحري، من 400 سفينة حربية سريعة . كانت متواجدة في ميناء بالقرب من مدينة نانكين Nanking و2700 سفينة حربية حارسة على المحطات الساحلية، و400 سفينة شحن تجارية . موجهة لنقل الحبوب والماء والخيول، و250 من نوع "بوارج الذخيرة" كل واحدة منها قادرة على حمل 500 رجل[2]، ويتحدث المؤرخ مانزيز G.MENZIES عن 3500 مركب، منها 1350 سفينة من نوع الطوافة ومايقربها سفن قتالية حربية منتشرة في قواعد عسكرية على السواحل أو في الجزر، ومهمة المراكب هي مسح المحيطات لرسم خرائط مفصلة ودقيقة والهيمنة على المنطقة بإخضاع الممالك ومجتمعات التجارية في المحيط الهندي للتبعية للصين وذلك بدفع " **ضريبة الطاعة**" والتبعية مقابل الحماية. لكن الملاحظ أن الصين كانت تبيع لشراكائها بضائعها من حرير وخزف بقيمة اضافية على مشترياتهم ماجعل الديون تتراكم عليهم ويبقون حبيسين دين ثقيل لها، كما أوكل إلى هذا الأسطول كل عمليات المفاوضات و المقايضة التجارية .[3]

---

(1)- Vandermeerch : Les Realation ..., P. 272, Mahuan : opcit , P19

(2)- HouanMa : Yaing – yai sheng – Lan « The overaLL survery of the océans shores 1433 » Translated from chinese Text by J.V.G MiLLs , cambridge , Published for The HakLuyt society , 1970

(3)- MENZIES.G : op.cit , P.28

ويبدو واضحا من حجم الإستعدادات الضخمة للسفن الصينية المذكورة، والأعداد الكبيرة للرجال الذين حملتهم المراكب، النزعة الإستعمارية الصينية، وطموحها باستخدامها القوة العسكرية لتحقيق هذا المشروع ذو الأهداف الإقتصادية والتجارية وهو ماتدل عليه النقوش الموضوعة في تيان، في Tien- Fei ، فقد أمر شانغ هو بكتابة مايلي: " المرتبط بالسماء والحارس الروحي للبحر، أخضع القراصنة والأمراء الأجانب الذين تحدوا إرادة الإمبراطور ورفضوا الخضوع لسلطته"[(1)].

فدوافع أسرة منيع للقيام بهذه الحملات الواسعة المتكررة، كانت كثيرة وقد لخص أولُها المؤرخ الصيني" فاي ها تسين "، الذي شهد بنفسه هذه الحملات وشارك في بعضها، حيث سجَّل مايلي: ***في العام السابع من حكم الإمبراطور" يونغ لو Yung-Lo" (1409)، أصدر أوامره الى كبير الموظفين،" شانغ هو" وآخرين، للخروج على رأس أسطول مكون من 27000 جندي، و48 قطعة بحرية لنشر إرادة الامبراطور على باقي الممالك "*** [2]، هذا الى جانب الرغبة الشخصية للإمبراطور في إعادة أمجاد الصين في مياه البحر بعد فترة حكم أسرة أجنبية للصين، ورغبة الامبراطور الشخصية، في تمجيد إسمه بفرض سيطرته على البحر، الشيئ الذي سيجعل بلاطه مقصد السفراء الأجانب طالبين رضاه ووده، كالسلاطين المماليك في مصر البعيدة كانوا يرسلون سفراء إلى الإمبراطور، والسعي إلى إعادت احياء أمجاد الصين خاصة بعد إعلان بعض الممالك الغنية تبعيتهم لها كملوك كمبوديا ومالاقا، بعد استخدامها للقوة العسكرية، وصف فاي ها تسين " هذا المشهد فقال ***"كان جنودنا كأنهم***

---

(1)- Chaudhury K,N : op.cit , P.61

2 - Fei Ht'sin : op. cit , P .35

يضاهون الرَّب من حيث القدرة والقوة، باسطين سيطرتهم، مُجبرين الأفعى والتنين على الفرار من أمامهم ".[1]

هذا فضلا عن السعي وراء توسيع دائرة النشاط التجاري البحري للصين وخاصة مع البلاد الغربية، لما تعود به من فوائد مادية وأرباح على خزينة الدولة، ورفاهية وازدهار كبيرين على البلاد، فضلا على جلب أنواع من السلع التي تحتاجها الأسواق الصينية لاسيما منذ أن قطع تيمور لنك طريق الحرير البَّري عن الصين.(2)

في نفس الوقت كان هناك من ملوك جزر المحيط الهندي من رفض هذه التبعية ودفع الجزية لإمبراطور المينغ، مثل ملك سيلان وملكين من ملوك جزيرة سومطرة، فكان مصيرهما – حسب نصوص الحوليات الصينية – أن وقعوا في الأسر واقتيدوا إلى الصين يالقوة .(3)

وبات واضحا أن البحرية الصينية تحت قيادة الملاح " شانغ هو" كانت آداة للسيطرة بالقوة والهيمنة على شبكة التجارة في المحيط الهندي، فحسب مادونته السجلات التاريخية لأسرة مينغ، وُصِفت البحرية الصينية ب " ***الرائد المتكبر لعرش التنين، المتسلح حتى الأسنان، الدَّاعم لإرادة الإمبراطورية" والمُبلغ لنداء " إبن السماء"، واعلام العالم أن جلالته يهب الأعطيات للملوك والحكام التابعين له، بينما كل من يخالف ارادته، فسيتم إخضاعهبالقوة*** "(4).

---

1 - Fei Ht'sin : op. cit , P .56

(2)- Huan- Ma : op.cit , PP , 1,2

(3)- Huan – Ma : op.cit , P.02

(4)- Huan – Ma : op.cit , P.02

أُرْسِل" شنغ هو" خلال عشرين عاما، في سبع طلعات بحرية على رأس أسطول ذو سفن متنوعة، فيها 36 من سفن الذخيرة على متنها أكثر من ثمانية وعشرون ألف شخص بين ضابط وموظف وجندي، وفرضت الصين هيمنتها على مساحة واسعة من الجزر اليابانية إلى السواحل الشرقية لإفريقيا، متباهية بقوتها، بارزة إياها، عن طريق القيام بعمليات القرصنة، مستخدمة أسطولها العسكري، بعيدا عن بحر الصين حيث مجال نشاطه المعتاد، وتمركزت قواتها العسكرية في موانئ المدن الشهيرة وصولا إلى جزيرة سيريلانكا جنوب شبه القارة الهندية.

لذا رأى الدَّارسون أن هذه الحملات العسكرية، دليل على الطموح الإستعماري لأسرة مينغ، واستدل كل من غوف وايد Geoff wade (2005) وإدوارد داير Edward Dreyer(2006)، بالضرائب التي فرضتها الصين، على كل الممالك الساحلية في جاوة ومالاقا وسيريلانكا وغيرها، كما ألزمتها بتزويد الأسواق الصينية، بأصناف من السلع الكمالية الفارهة وبشكل مستمر وكثيف، وفي هذا السِّياق تدخلت الصين في السياسات الداخلية للمالك المختلفة، وكرَّست مصالحها الخاصة بتعيين مفاوضين تجاريين من قبلها، كان لهم دور كبير في خلق نزاعات بين الحكام المحليين، وهو ماحدث في كاليكوت Calicut وكوشين cochinعلى ساحل المالابار الهندي وحتى في بلاد البنغال [1].

وهكذا اتخذت السياسة الخارجية، لأسرة مينغ طابع الغزو الإستعماري العسكري، لممالك في المحيط الهندي، فمن ناحية الجزر الشرقية المالاوية والأندونيسية، استولى الأسطول العسكري الصيني في عام 1409م، على جزر سمبيلان sembelan Islandsبالقرب من مالاقا Malacca، واستحوذو بذلك على كل الخشب العطري الذي

(1)- TANSEN – SEN : the formation of chinesee maritime , P.422

تشتهر به هذه الجزر، وتصدره للخارج، وامام الضغط الصيني المتكرر على سلطان شبه الجزيرة المالوية خضع هذا الأخير، عام 1415م للامبراطور يونغ لو،وقدم ولاءه، على أن يدفع الجزية للصين مما تعرف به بلاده من سلع غالية ومتنوعة.[1]

3- إنعكاسات الحملات العسكرية الصينية في الداخل والخارج:

وكان من أهم نتائج الحملات البحرية الصينية، أن دعَّم الأسطول الصيني بقوة الحركة التجارية البحرية في المحيط الهندي ذهابا وإيابا، دون إنقطاع، حيث كانت في تواصل مستمر مع بلدان آسياوية وافريقية، فوصل حجم مبادلاتها التجارية أعلى مستوياته، لاسيما مع ازدهار تقنيات الملاحة الصينية، فتحكمت في طرق وشبكة التجارية للمحيط الهندي.[(2)]

إلا أن السياسة الخارجية الصينية عرفت تغيرا واضحا، بعد وفاة الإمبراطور " يونغ لو" وبشكل تدريجي، بدأت تخبوا شعلة الحماس العسكري للحكام الجدد، ليظهر بوضوح نزعتهم ضد توسع الصين في الأقاليم الخارجية، خاصة بعد وفاة كبير الملاَّحين الصينيين " شانغ هو" (1434/1433م)، حيث تعرضت النشاطات البحرية الصينية، لانتقادات كثيرة من قبل موظفين كبار في الصين، واعتبروها السَّبب في تراجع أموال الخزينة، وهو ماكان يراه الإمبراطور جن تسونغ Jen-Tsung، وبكونها مثلت عبئا إضافيا على كاهل الخزينة وكان من أسباب هذا التحول في السياسة الخارجية للصين، والإنغلاق على الخارج هو رغبتها في حماية مدنها الساحلية الجنوبية، من هجمات العصابات البحرية القادمة من الجنوب وتحديدا من الجزر اليابانية، ونهبها للمدن بشكل دوري فضلا عن قطعهم المسالك البحرية

---

1 - Fei Ht'sin : op .cit, PP.55,56 .

(2)- Sun Guangqi : the Developement .... , P.298

أمام السفن الصينية، فكان نتيجتها هو غلق المرافئ الصينية التجارية أمام الملاحين والتجار الأجانب.(1)

وكان من جملة القرارات المتخذة، إلغاء كل الحملات العسكرية المزمع القيام بها، والتخفيف من التواجد العسكري للصين في المناطق البعيدة، ماعدا القريبة منها والجزر المجاورة لها، ومع تراجع الدعم العسكري للحاميات الصينية وانقطاع المدد، على مناطق النفوذ، أن وقعت هزيمة عام 1425م وكسرت شوكة البحرية الصينية التي خسرت حينها 300 سفينة جنك، مما أدى إلى انسحاب قواتها من قاعدة " تونغ كينغ" شمال الفيتنام، عام 1427م.(2)

وبالرغم من ذلك بقيت الصين، محتفظة بصفتها أكبر الدول المسيطرة على المحيط بعد عودة شانغ هو من حملته السابعة والأخيرة (1331-1333م)، وكانت لاتزال أقاليم شامبا Champa وتايلاند Thai Land تابعة للصين، وتواصل النشاط التجاري البحري لأسرة مينغ فيما وراء البحار في اشكال مختلفة، حيث تمكن تجار الرَّابطات الساحلية من بناء سفن جنك خاصة بهم، وحصلوا على موافقة من المكتب المحلي الصيني للنشاط والتعامل التجاري مع جزر الفلبين وتونغ كينغ ومالاقا.(3)

والجدير بالإشارة أليه، ان إلغاء أسرة مينغ مجموعة التدابير والقرارات، التي كانت الصين قد خطت بفضلها خطوات كبيرة نحو الهيمنة على أهم السواحل الاستراتيجية في المحيط الهندي حينئذ، أفضت إلى القضاء على المكانة الكبيرة التي تبوأها الصين في

(1)- CHAUDHUry : op.cit , P.61

(2)- Ma. Huan : op.cit , P.03

(3)- Chudhury : op.cit , P.62

المنطقة، وجردت آسيا من قوة عسكرية يحسب لها ألف حساب، وفتحت المجال أمام البحرية الأوروبية البرتغالية، التي بدأت تفرض هيمنتها بالقوة ابتداء من منتصف القرن التاسع الهجري /الخامس عشر الميلادي.

خلاصة الفصل الخامس:

بقيت المراكب التجارية الناشطة في مرافئ المحيط الهندي، تنتمي إلى مختلف الجنسيات الأجنبية والمحلية، حيث يأتي المسلمون في مقدمتهم إلى جانب مراكب الممالك الهندية والجاوية " سيريفيجايا SiriviJaya "، والسفن التجارية الصينية، وهو ماعُرِف اصطلاحا بتجارة الشتات the Trading Diaspora.

كما تبَّينَ من الدراسة اندماج التجار المسلمون وذوبانهم، في المجتمع الهندي السواحلي سواء في شبه القارة الهندية، أو بعيدا في جزر جنوب شرق آسيا، المعروفة بالهند الكبرى، حيث الممالك المالوية والإندونيسية " في ؛ جاوة، بورنيو، سوندا، مولوكاس / مولوق Les.MOLUCQUES /Molluccas."، ليس هذا فحسب، وإنما سادوا سلميًا دون غيرهم من التجار الأجانب، فحملوا مسؤولية إدارة موانئها، وأسواقها، فكان لهم دورهم التجاري الرَّائد فيها، في وقت مُبكِّر، قبل أن يكون لهم دور سياسي مع مطلع القرن السادس عشر.

وإن نجاح التجار المسلمون، وكسب ثقتهم، لاسيما وأن من عادة الأهالي الاشتباهبصفة تلقائية في الأجانب، لدليل على طريقة تعاطي هؤلاء التجار معهم، فالتاجر المسلم كان معروفا بأخلاقه، وبمسالمته، وهذا ماجعله موضع ترحيب، فحضي بالأمن ومنح

امتيازا خاصا، زد على أن مظهره الحسن ومعاملاته وطريقة عيشه، أكسبته ثقة الآخر وقبوله.

فاعتنق ملوك جزر جنوب شرق آسيا الإسلام، ففي حدود نهاية القرن السابع الهجري، كان حكام الممالك في إمبراطورية جاوة، يدينون بالإسلام، وأشار كل من التاجر اليهودي يعقوب الأنكوني ثم ماركو بولو، الى ان سلطان " مملكة سومادرا" (سومطرة) مسلم الديانة وأغلب رعاياه على دينه، وهو ما يعكس تأثير التجار المسلمين، حتى أنهم أصبحوا في القرن التاسع الهجري، يحتلون أعلى المراتب بين المجتمع الجاوي، وهذا بشهادة مصادر أوروبية وصينية.

وفي نفس السياق برز في هذه الفترة (القرن الثامن الهجري / الرابع عشر الميلادي)، نشاط الجماعة التي ساهمت هي الأخرى في انتشار الإسلام، والتي عُرِفت في المصادر الصينية تحت مُسمى "**هُوَيْ هُوَيْ**"، وعُرِفَ بها أول الأمر الأتراك المسلمين الأُيغور Ouighur، أهالي تركستان الشرقي الواقع تحت هيمنة الصين حالياً، حيث امتهنوا التجارة في واحاتها الصحراوية، ونظرا لترعرعهم في هذه الظروف القاسية، تميَّزَ التجار منهم بالتجلُّدِ وعدم مهابة الصعوبات والأخطار، وذوي طاقة على السفر إلى مناطق بعيدة، فكانوا يتنقلون بين سيشوان وتشينغهاي والتبت، كما سافروا إلى مناطق "يون نان " جنوب غرب الصين، وفوجيان شرقا وهونان لشراء الشاي وغيره، ثم يعودون شمالا، عابرين صحراء "تكلا ما كان" Takla makan متجهين نحو أسواق آسيا الوسطى لترويج بضائعهم .

لكن مع مجيئ أسرة مينغ (Ming Dynasty1368-1644م) لحكم الصين، حدث تطور كبير في السياسة الصينية اتجاه النظام التجاري العالمي في المحيط الهندي، حين

انتهجت نهجًا جديداً. فكان خروج الاسطول الصيني، في سبع حملات عسكرية (1405- 1433م) تحت قيادة " شانغ هو" Cheng-Ho"كبير الملاَّحين الصينيين، إيذانا باستخدام الصين للقوة، في فرض مراقبتها للنشاط التجاري، واستغلال ثروات الممالك الهندية في جاوة وسومطرة وسيريلانكا وغيرها، بفرض الضريبة عليها وإنشاء حاميات عسكرية بها للمحافظة على مصالحها .، غير أن الهيمنة الصينية على تجارة المحيط الهندي لم تستمر، حيث ألغتها أسرة مينغ، وهو ما أفضى إلى القضاء على المكانة الكبيرة التيتبوأتها الصين في المنطقة، وجردت آسيا من قوة عسكرية يحسب لها ألف حساب، وفتحت المجال أمام البحرية الأوروبية البرتغالية، التي شرعت في فرض هيمنتها بالقوة ابتداء من منتصف القرن التاسع الهجري /الخامس عشر الميلادي.

الخاتمة

الخـاتمة :

وممَّا لاشكَّ فيه أن النشاط التجاري للجماعات البشرية في البلاد البعيدة، يعتبر من المواضيع التاريخية الشيِّقة، باعتبارها هيكل ذو فروع متنوعة سياسية واجتماعية وثقافية متطورة عبر الزمن، ومتأثرة بعوامل مختلفة ولعَّل العامل الانساني هو الأكثر تأثيرًا بها، تبعا لتغير موازين القوى التي تحسمها المعارك الحربية.

وتميزت حركة التجارة الآسيوية سواء في شقَّيها البَرِّي أوالبحرِّي، بأهمية حيوية منذ العهد القديم،وكانت بالنسبة للتجارالمجال الأمثل لحصد ثروة كبيرة، فتهافتوا على مراكزها التجارية الكبرى بالرغم من صعوبة طرقها البحرية الطويلة المحكومة بالرياح الموسمية ، ومسالكها البرية ومشاقها وارتباطها بالأوضاع الأمنية والسياسية.

كانت الممرَّات القارية البَّرية والبحْرية الآسيوية، المُؤدية إلى بلدان الشرق الأقصى بمثابة شرايين حيوية بالنسبة للنشاط التجاري في عالم العصور الوسطى ؛ سواء تلك التي تمر بأراضي فارس الشمالية عبرخرسان، ومنها نحو منطقة ماوراء النهرLa Transoxiane، أو عبر ممرات إقليم كِرمان جنوب فارس لتصل الى أراضي الهند عبر بلاد السند، أو تلك الممَّرات البحرية التي تمر بسواحل البحر الفارسي، والمدن الساحلية العمانية ثم الهندية وشبه جزيرة الملايو وأرخبيلات إندونيسيا وصولا الى الصين، حيث كانت تنشط أشهر مدن الموانئ التجارية المصدرة للتوابل الآسيوية والحرير والخزف الصيني .

والدارس لحركة النشاط التجاري في آسيا، أو ما عُرِف حديثا بطريق الحرير والتوابل، يجد أن المنطقة المعروفة ب" **آسيا الوسطى** " **L'Asie Centrale** هي القلب النابض للطريق التجاري الآسيوي البَرِّي، حيث تتم في حواضره، أكبر عمليات البيع والشراء

والتفاوض التجاري، والتبادل الثقافي والحضاري، وإجمالا الإنساني، فتعتبر مدن واحاته المنتشرة حول حوض التاريم ومن أهمها ؛ شارشان Cherchen، خوتان Khôtan،توان هوانغT'ouen Houang، طورفان Turfan، هامي Hami ، كاشغر Kashghar، فضلا عن مدن بخارى وكيش وسمرقند وياركند ببلاد الصغد La sogdiane وبلخ عاصمة إقليم باكتريان La bactriane، هي حلقات هذا التواصل والملتقى الاقتصادي والحضاري للتجار المنتفعين على اختلاف انتماءاتهم القومية والدينية في العالم .

وتسمية "آسيا الوسطى" كما يبدوا واضحا، لا تتعدى أن تكون ذات دلالة جغرافية لا أكثر، وقد اعتادت الدراسات الغربية الحديثة استخدامها، وهي المنطقة الواسعة الواقعة في قلب آسيا، الممتدة من حدود بحر قزوين ونهر أموداريا غربا، وحدود جبال الهندوكوش والتبت جنوبا، إلى الناحية الشمالية حيث الإستبس الروسي، والمنغولي في الشمال شرقي،وحدود الصين شرقا .

بينما عُرفت المنطقة تاريخيا، وفي المصادر الإسلامية والأجنبية بتركستان الكبرى، لا سيما منذ قيام أول مملكة تركية "تو- كيو"Tou-kiouفي منتصف القرن السادس الميلادي، وشُرِعَ منذ ذلك الحين في تتريك المنطقة، ثم أمعنت في التتريك في العهد المُغُولي ، وقد كانالفرس هم من أطلق تسمية **تركستان** على كل المنطقة المذكورة، ومن المهم أن نشير الى أن الأتراك الشرقيين "**هُوَيْ هُوَيْHoey-Hoey**"، الذين تقع أراضيهم حاليًا تحت الهيمنة الصينية، لا يعترفون بالتسمية الصينية" **الصين كيانغ** "، وإنما يستخدمون عبارة "موجولمان يورتي"«Mouçoulman Yourti» أي أرض المسلمين، أو مُوجولْمَان خالِكْMouçoulman Khalk وتعني حيث يقطن المسلمون، كما يدعون أنفسهم بالموجولمان تيلي «Mouçoulmân Tili»الذين يتحدثون بلغة الإسلام.

أما عن أهميتها التجارية، برزت آسيا الوسطى بوصفها نطاق تجاري حيوي، منذ نهاية القرن الثّاني قبل الميلاد حين فتحت الصين، ما عُرِفَ حديثا بـ" **بطريق الحرير**"،ففي عهد أسرة هان the Han dynasty(206ق.م–220م)، دأبت على فرض وجودها العسكريّ في جزء واسع من آسيا الوسطى لاسيّما القسم الشّرقيّ منه " تركستان الشّرقية" .، فنجحت في إنشاء ما عرف تاريخيا، بإقليم "**إكزيو**" **Xiyu**" أو **ب** " **الحدود الجديدة** " **الصين كيانغ Sin Kiang**"، وكوّنت ثماني حاميات عسكرية، امتدت عبر جبال البامير Pamirوجبال تيان شانT'ien chan،،مهمتها السّيطرة على الطّريق التّجاري، واستبعاد سلطة الممالك التّركيةمن الممرات التّجارية، وإضعافهم كوسيط تجاري أساسي، باستغلال خلافاتهم وخلق النزاعات بينهم.

لكن مع ظهور الإسلام وانهيار الإمبراطوريّة السّاسانية، عرفت الهيمنة العسكرية الصّينية والممالك التركية في آسيا الوسطى، مصيرا مختلفا غير متوقع،وذلك بفعل حركة الفتح بداية القرن الأول الهجري/ السابع الميلادي، فشكّل التّواجد الإسلاميّ في ما وراء النهرتحدّيًا للإمبراطوريّة الصّينية، حين سيطرت الجيوش الفاتحة، على كل حواضر تركستان الغربي وأشهرها سمرقند وبخارى وكيش، وكذا على كشغر وختان حيث تواجدت الحاميات العسكرية الصينية التي كانت تعتبر المنطقة نطاقها وعمقها الاقتصادي، وممرًّا تجاريّا حيويًّا لبضائعها نحو الممالك الغربيّة .

وبقيت الصين على حذر وتترقب،ضمن علاقات ديبلوماسية، ظاهرها ودِّي مع الخلفاء المسلمين، وفي باطنها عملت على تأليب الممالك التركية ضدَّهم، إلى أن جاءت معركة سهل" **طراز**"المعروفة اليومبـ " أوليا–أطا ""Aoulié-ata"، والتي عرفت أيضا بمعركة نهر **طلاس** 134هـ/ 751م، جنوب كازاخستان Kazakhzstan، حيث اصطدم الطّرفان،

وانتصرت الجيوش العباسية على جيوش أسرة تانغ الصينية، ووُضع فيها حدّا للنّفوذ الصّيني، وتحدّدت فيها الهويّة الإسلاميّة للمنطقة الى الأبد، كما كانت بدايةً للتقارب الإسلامي ـ التركي، وإقبال العنصر التركي على اعتناق الإسلام .

ويمكن القول أن الوجود الإسلامي، ترسَّخَ فيما وراء النهر، بالتدرج وعبر مراحل زمنية معينة، ساهمت فيه عناصر هامة، كان أبرزها سياسة قائد بني أمية الفاتح " قتيبة بن مسلم الباهلي" في المنطقة، ثم انتصار المسلمين في معركة طراز، حيث انفتحت على إثرها كل أبواب تركستان الشرقية ومنغوليا، أمام التجار والدُعاة المسلمين، ثم تأتي المجهودات العسكرية لآل سامان، وتشجيعهم لدور التجار ونشاطهم في ما وراء نهر سيحون وفرعه الشاش.

عرفت المسالك البرّية،الرابطة بين أراضي الخلافة الإسلامية والصين، استقرارا كبيرًا فلم تكن هناك عراقيل من أي نوع، حول تنقل القوافل التجارية بين المحطات، ولعل أكبر الصعوبات التي كان يوجهها التاجر، هي مشقة الطريق ومتاعبه ومخاطر المرور عبر صحراء غوبيGobile desert deوتكلامكانTakla-Makan.

ساهمت عناصر محلية عريقة في تنشيط، حركة تجارة التوابل والحرير في آسيا الوسطى وسواحل المحيط الهندي، أوَّلُها كان **التجار الصُّغد: Les Soghdak**الإيرانيين، الذين عرفوا أيضا بـ "**تجار الحرير**"، وهم أقدم العناصر البشرية، المكونة لمجتمع ما وراء النهر والأكثر نشاطًا، في أسواقها الداخلية والخارجية، وذلك بالرغم من وجود مُنافسة قوية مع جيرانهم من خوارزميين وفرس، لاسيما وأنهم كانت تربطهم صلات تجارية قوية مع الصين، وذلك منذ القرن الثاني للميلادي إلى حدود القرن الثامن، فكانوا أساسًا للتبادل

التجاري، كما كانوا المتعهد التجاري لهم في منطقة الإستبس وآسيا الوسطى، وبعد تحولوهم الى الإسلام، حافظوا على ريادتهم في تجارة الشرق .

لم يكن العنصر الصُغدي ضليعٌ في التجارة والمبادلات التجارية فحسب، وإنما كان متمرس في مجالات حضارية ثقافية كثيرة، ففي بلاد الصغد بلاد معتقدات عديدة، فهي في الأساس كانت على الديانة المزودية (الزراداشتية)، كبلاد الفرس التي طالما كانت مُرْزبَانها وتابعتها. وبكونهم تجارُ مُتَنقلين بين المراكز والحواضر التجارية، وقعوا تحت تأثير برجال الدين الكهنة البوذيين والدعاة الأوائل لها، القادمين من حدود الهندية خلال القرن الثاني والثالث الميلادي، ثم بعدها بثلاثة قرون ساهموا بنشر الديانات الجديدة القادمة من الغرب كالمانويةle Manishéisme ، والمسيحية النسطورية le Christianisme Nestorien، فانتشرت بين بعض القبائل التركية وفي الصين .ومع وصول الإسلام للأهالي الصغد وتبنيهم إياه ساهموا في نشرهِ فكانوا في القرن العاشر الميلادي ، الدُّعاة إليه من خلال نشاطهم التجاري في السهوب الشمالية لنهر السيرداريا، حيث كانوا الحاضنة الأولى للأتراك القراخانيين les Qarakhanides في أول إسلامهم.

كما كان للعنصر الفارسي ثاني الوسطاء التجاريين، دور الرِّيادة في التجارة الآسيوية، وقد عرفوا بـ "**سارطاقطايSartaqtay**، يعود نشاطهم التجاري في الصين إلى إلى عهد حكم أسرة "وي" Weï في منتصف القرن الخامس الميلادي وقد عُرِفَ الفرس في الكتابات الصينية تحت مسمى "بو–سي"**Po-sse**، شَمِل نشاطهم المسلك البري والبحري، وأنشأوا لهم أحياء تجارية خاصة بهم في الهند والصين والجزر المجاورة، وحافظوا على مكانتهم في التجارة البرِّية والبَّحْرية حتى بعد الإسلام، وهم الذين أشار اليهم المسعودي عام 304هـ= 916م عند تنقله بين المدن الساحل الهندي ومن جملتها صيمور فذكر ان التجار المسلمين المعروفين بـ

"**البياسِرة**" – يبدو واضحا ان التسمية مشتقة من فرس les persans– ينشطون هناك بكثرة، ويقدرون بعشرة آلاف من المسلمين، وأغلبهم من التجار، الذين قدموا من سيراف وغيرها واستوطنوها، وقد ساهموا مساهمة كبيرة في انتشار الإسلام بين القبائل التركية، في منطقة ماوراء نهر سيحون وفي الإستبس المغولي .

كما كان ثمة وسيطا تجاريا محليا في المنطقة، لا يقلُّ أهمية عن الوسيطين الصُغدِي والفارسي، وهم التجار الأتراك، المعروفون بـ**الأورطاق L'Ortaq**، فمنذ عام 552 م هو تاريخ بداية سيطرت الأتراك البدو على آسيا الوسطى، شرعوا في منافسة الفرس في الشراكة التجارية مع الروم البيزنطيين، فتسبب طموحهم التجاري في قيام حرب بين الفرس وبيزنطا . وأصبح العنصر التركي واحد من أهم عناصر المعادلة التجارية، في آسيا الوسطى ومن أهم الناشطين في هذا المجال، حتى أن هذا الإقليم أصبح ينسب إليهم وعُرِف بتركستان. وغدت القبائل التركية هي القائمة على **خِفَارات المسالك والممرات التجارية**، والمسؤولة على أمن القوافل التجارية.

من أهم شواهد انفتاح النّشاط التّجاري في الأراضي الإسلامية ، وبلاد الشرق الأقصى أمام التّجار ووكلائهم، من كلّ أنحاء العالم، نشاط الوسطاء التّجار اليهود **الرذّانية/ الرَّدْهانِيّةRadahanites**' القادمين من بلاد الفِرنجة (فرنسا) الذين كانوا يتقنون لغات عديدة وهي العربية والفارسية والرّومية (اليونانية) والإفرنجيةوالأندلسية والصقلية، وكان مجال نشاطهم واسعًا يتنقلون بحُرِّية من الغرب نحو الشرق ، وعبر المسالك البرّية والبحرية، ناقلين البضائع الشرقية الثمينة من الشرق نحو أوروبا، وهو مايدل على أن اوروبا أخذت نصيبها من تجارة الشرق، ولم يتم إغلاق المنافذ التجارية، التي كانت ضمن أراضي الخلافة الإسلامية، أمام الفرد الأوروبي كما تدعيه بعض الدراسات الاستشرافية، إلا انه يبدو أن

الطابع الريفي الفلاحي الذي طغى على شكل الحياة الاقتصادية في أوروبا، وعدم ممارسة الأوروبيين اللاتين للتجارة، هو ما أخَّر مشاركتهم في المنافسة التجارية العالمية حينها .

كما يتضح من الدراسة أن رغبة القوى الدولية، في السيطرة على تجارة آسيا الوسطى، كانت السبب في قيام أشهر الحروب في التاريخ وأكثرها، شراسة، ابتداء من الحملات العسكرية الصينية في نهاية القرن الثاني والأول قبل الميلاد، ومرورا بالقرن السادس الميلادي، حين تسببت مملكة " التوكيو " في حرب بين الإمبراطورية الفارسية وبيزنطا، حول احتكار تجارة الحرير (571-590 م) أنهكت الطرفين، ولعل حادثة **مقتلالتجار المُغوُل في أوترا Otrar**715هـ/1218م،هي أحسن مثال على ذلك .

ولم تبق أوروبا الغربية بعيدة عن منافع تجارة الشرق، حيث ساهم العهد المغولي – لا سيما في القرن الثالث عشر – من فتح كل أبواب آسيا أمامهم، ونظرا لأسباب معروفة وهي فشل الحملات الصليبية، كانت البابوية أول المبادرين لإقامة علاقات وُدِّية تحالفية مع المغول، فاتحةً في ذات الوقت باب النشاط التجاري أمام التجار الإيطاليين اللاَّتين، فكتب الرُّهبان السفراء، تقاريرهم التي ضمنوها دليلا مفصلا، عن الطرق التجارية في آسيا، ومختلف السلع الثمينة المتداولة فيها.

وفي هذا الصدد تعتبر وثائق الأرشيف البابوي بروما، المتعلّق بنشاط إرسالياته ومبعوثيه الديبلوماسيين لدى المُغُول، أحد المصادر المعتمد عليها لدراسة النّشاط التّجاري للإيطاليين في آسيا، لاسيما نصوص تقارير رجال الدّين، كما "تشير إلى التّجار اللاّتين ونشاطهم في المنطقة، الذين كانت مباسط سلعهم تمثّلُ سندًا معنويًّا وماديًّا لا يُستهان به بالنّسبة لرسل البابوية، ويبدو أنّ هذه العلاقة لم تخفَ على أهالي المنطقة، وما يدلُّ على

ذلك حادثة مقتل الرُّهبان الفرانسسكان المُنصِّرين 1339م، في مدينة ألماليغ **Almaligh**، حيث كان من جملتهم تاجر جنوي غيلوتوس مركاتور **Gillotus Mercator**، والمعروف بغيوم دي مودينا **Guillaume de Modena**.

بلغت كثافةالتّبادل التّجاري في هذه المرحلة " **ذروة الثّورة التّجارية**"، حسبوصف المؤرّخ لوبيز **L. Lopez**، وهي التي أحدثت تغيرات في أوروبا، لا تقلُّ أهمّية عن تلك التي ستُحدثُهاالثّورة الصّناعية فيها، بداية القرن التاسع عشر، حيث اتّسع نطاق التّأثير الاقتصادي والتّجاري على أوروبا ورفع مستواها المعيشي، وهو ما يعكس حجم الكبير لنشاط التّجار الإيطاليين في الإمبراطورية المُغُولية.

يتضح مما دوَّنَه بيغولوتي F.B Pegolotti1330-1340م، التاجر الفلورنسيالإيطالي، مدى تأثير المفردات العربية على لغة التجار الإيطاليين، لاسيما في الموازين، والمكاييل، ومعاملات البيع والشراء في الأسواق الآسيوية، وحوض البحر الابيض المتوسط، مثل: سوغو sugo وأصلها السوق، "الرابة RABA "وأصلها " الرَّحْبَة " وهي من الأسماء العربية التي تطلق على السوق، و"فيدو" Fedoوأصلها فضاء، والمصطلح الفارسي الأصل" بازارا Bazarra" أو السوق، وفونداقو Fondacoو يقصد به الفندق أوالخان، وهو مكان إقامة واستراحة القوافل التجارية، وغيرها من المصطلحات العربية أو الفارسية الأصل.

اندرج النشاط التجاري في سواحل وجزر المحيط الهندي، ضمن ما عرف اصطلاحا بـ" تجارة الشتات" " the Trading Diaspora "،وقوامها اشتراك مجموعات من الأقليات التجارية الوسيطة في النشاط التجاري بشكل سلمي تناغمي، وهي على نوعين أحداهما تتحرك لتستقر في المراكز التجارية المعروفة حيث تنشط ضمن مستوطنات معينة، والأخرى

تظل في حركة دائمة ذهابا وإيابا دون استقرار، في هذه المرحلة يأتي في مقدمة الأمم التجارية النشطة في المحيط الهندي، مراكب التجار المسلمين، إلى جانب مراكب الممالك الهندية والجاوية " سيريفيجايا SiriviJaya "، فضلا عن نشاط السفن التجارية الصينية.

وتبين من الدراسة كيف اندمج التجار المسلمون، وذابوا في المجتمع الهندي السواحلي سواء في شبه القارة الهندية، وفي جزر جنوب شرق آسيا، المعروفة بالهند الكبرى، حيث الممالك المالوية والإندونيسية " جاوة، بورنيو، سوندا، المولوك .."، ليس هذا فحسب، وإنما سادوا سلميًا دون غيرهم من التجار الأجانب، فحملوا مسؤولية إدارة موانئها، وأسواقها، فكان لهم دورهم التجاري الرَّائد فيها، في وقت مُبكِّر، قبل أن يكون لهم دور سياسي مع مطلع القرن السادس عشر.

وإن نجاح التجار المسلمون، في خلق لهم مكانة خاصة ومرموقة بين الأهالي الهنود، كسب ثقتهم، لدليل على طريقة تعاطي هؤلاء التجار مع أهالي المنطقة في ظروف خاصة زمانا ومكانا، لاسيما وأن من عادة الأهالي الاشتباه بصفة تلقائية في الأجانب، فالتاجر المسلم كان معروفا بأخلاقه، ومسالمته، وهذا ماجعله موضع ترحيب فحضي بالأمن ومنح امتيازا خاصا، لاسيما وأن مظهره ومعاملاته وطريقة عيشه أكسبته ثقة الآخر وقبوله.

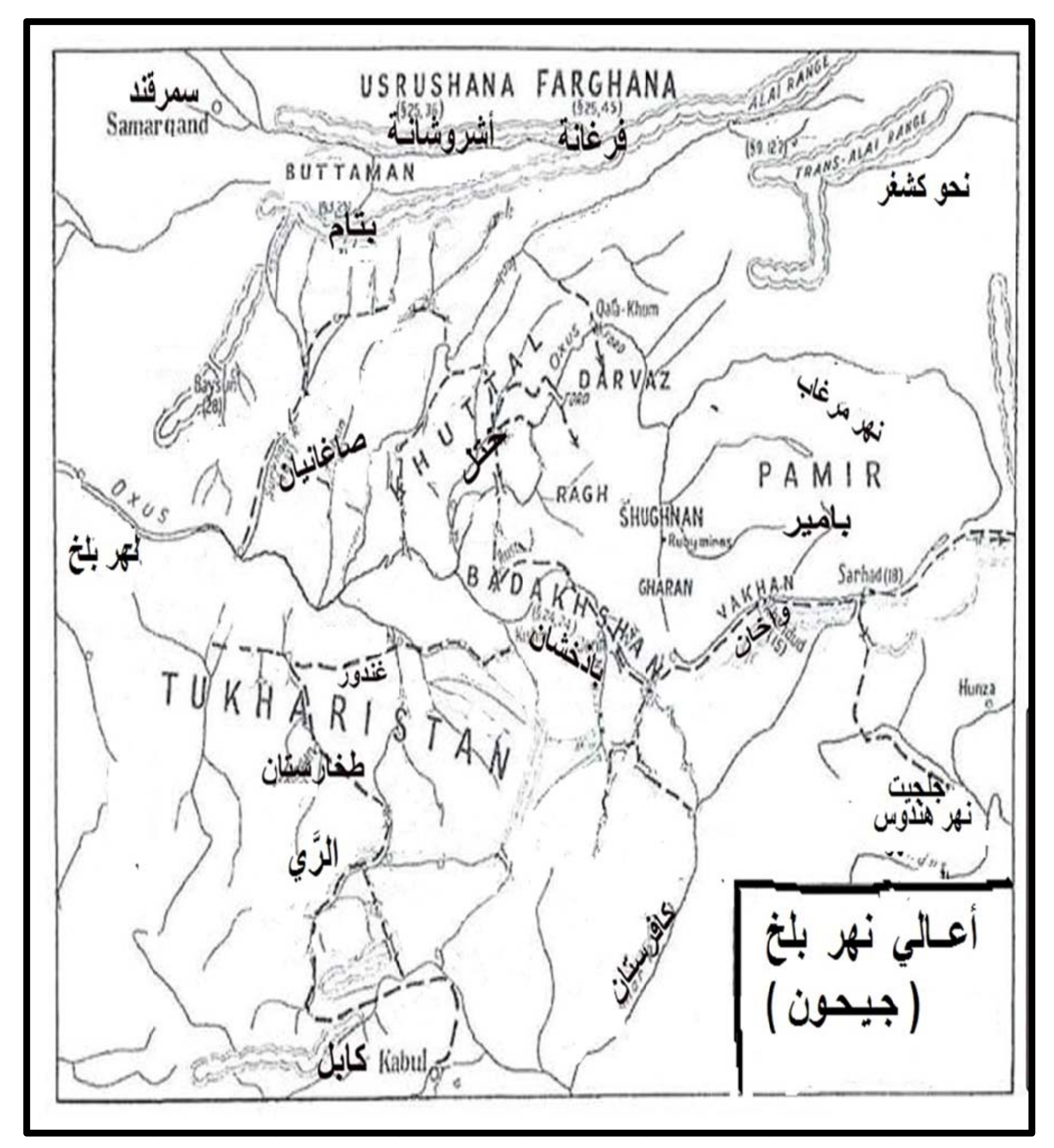
لكن مع مجيئ أسرة مينغ (Ming Dynasty1368-1644م) لحكم الصين، حدث تطور كبير في السياسة الصينية اتجاه النظام التجاري العالمي في المحيط الهندي، حين انتهجت نهج فرض القوة العسكرية على أكبر الممالك التجارية في المحيط الهندي.

وتجسدت في خروج الملاَّح " شانغ هو" قائد الأسطول الصيني والسفير الأول للإمبراطور " يونغ – لو" في أول حملة استكشافية عسكرية صينية عام 1405م، من جملة

سبع حملات (1405-1433م) على ممالك وجزر البلاد الغربية، غير أن الهيمنة الصينية على تجارة المحيط الهندي لم تستمر، حيث ألغتها أسرة مينغ، وذلك بعد أن خطت الصين خطوات كبيرة نحو الهيمنة على تجارة أهم السواحل الاستراتيجية في المحيط الهندي حينئذ، وهو ما أفضى إلى القضاء على المكانة الكبيرة التي تبوأها الصين في المنطقة، وجردت آسيا من قوة عسكرية يحسب لها ألف حساب، وفتحت المجال أمام البحرية الأوروبية البرتغالية التي شرعت في فرض هيمنتها بالقوة ابتداء من منتصف القرن التاسع الهجري /الخامس عشر الميلادي.

الملاحق

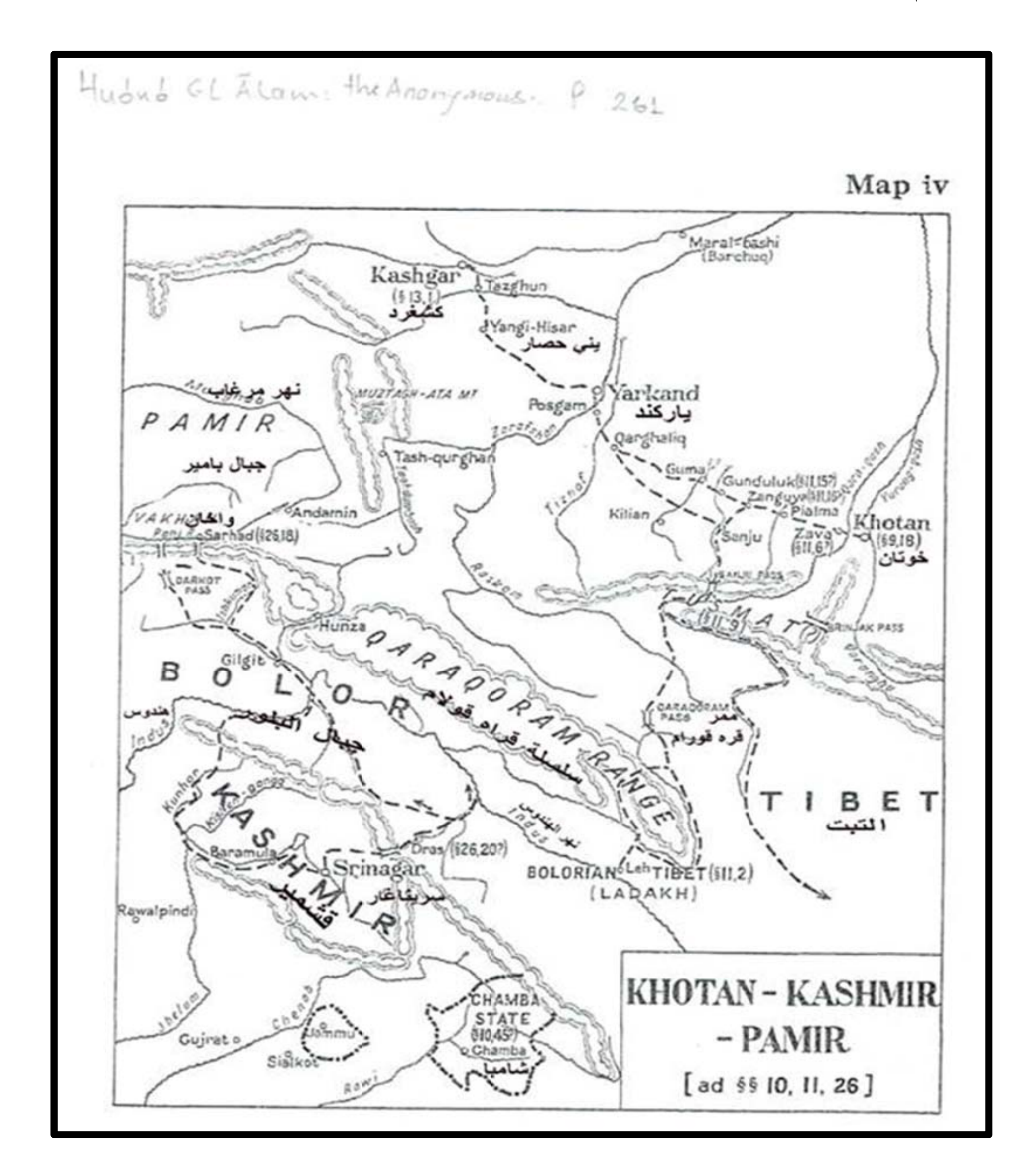
ملحق رقم:1



القسم الجنوبي الغربي من آسيا الوسطى لدى الجغرافيين المسلمين، نقلا عن / the

Anonymous : Hudud el ÂLAM, the regions of the world ,P .339.

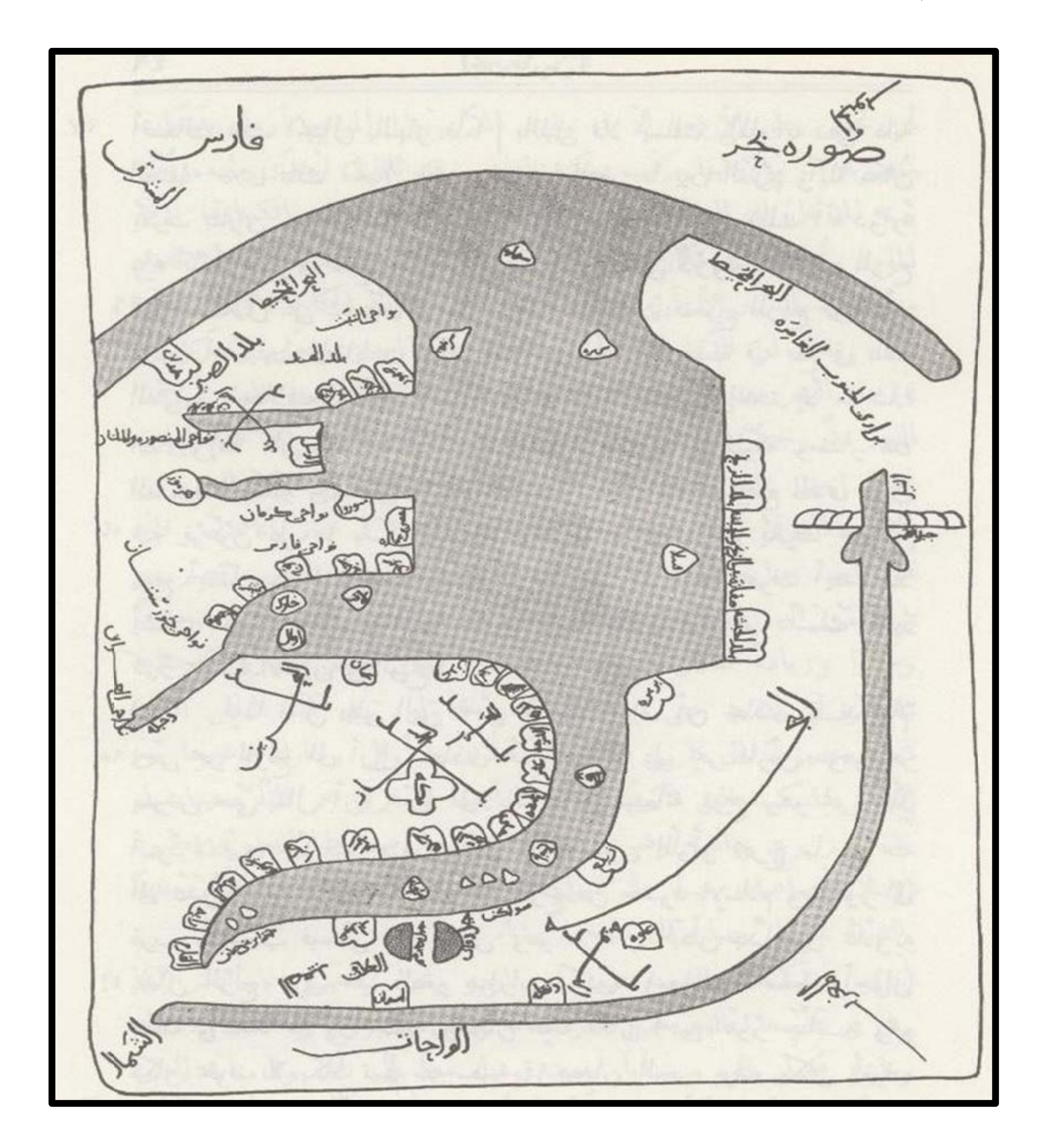
ملحق رقم:2



قسم من آسيا الوسطى ؛ كشغر، بامير، قراقورام ، بولور.

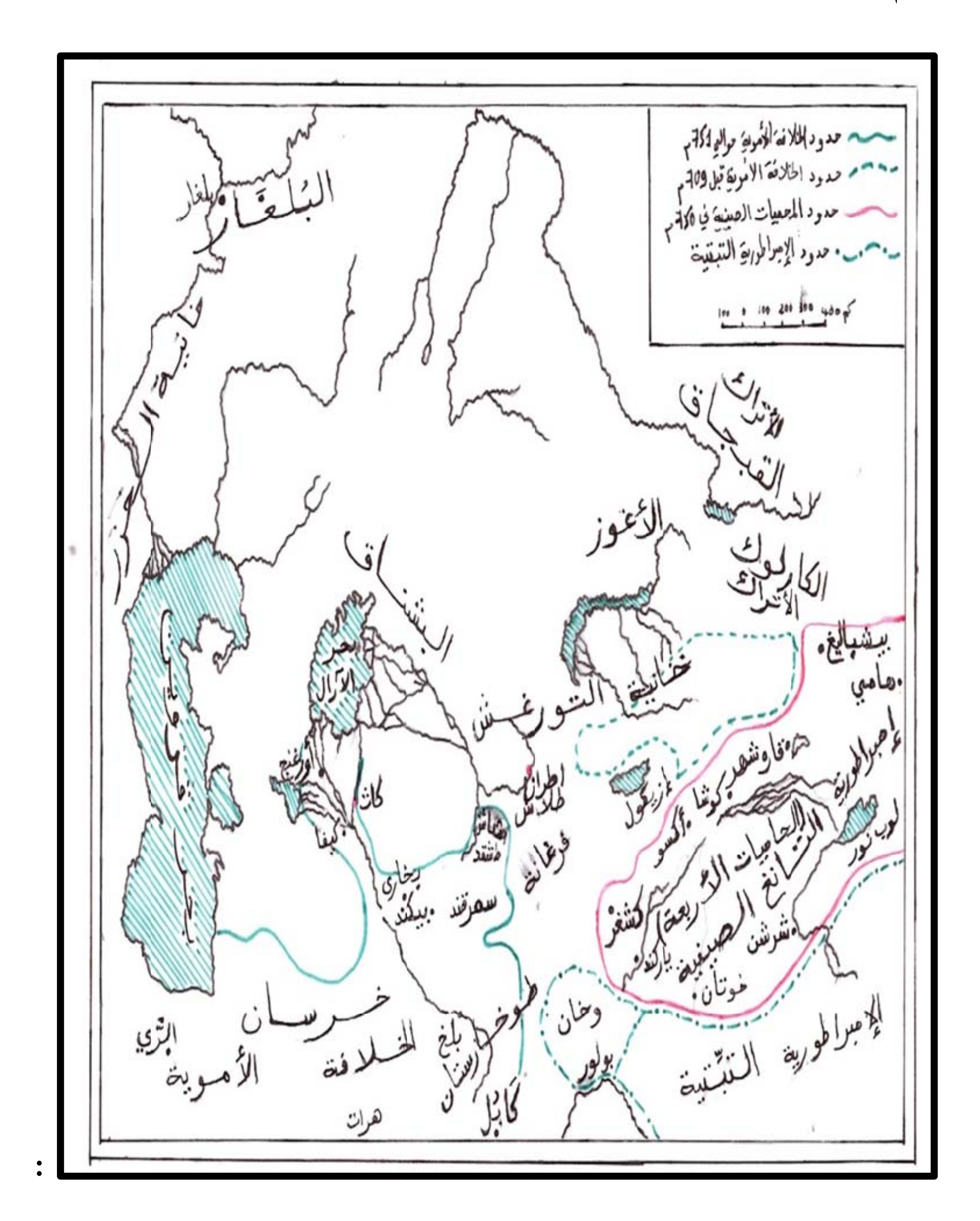
the Anonymous : Hudud el ÂLAM, the regions of the world ,P .261.

ملحق رقم:3



بحر فارس من الأصل من" كتاب صورة الأرض " لابن حوقل النصيبي القسم الأول، ص.45.

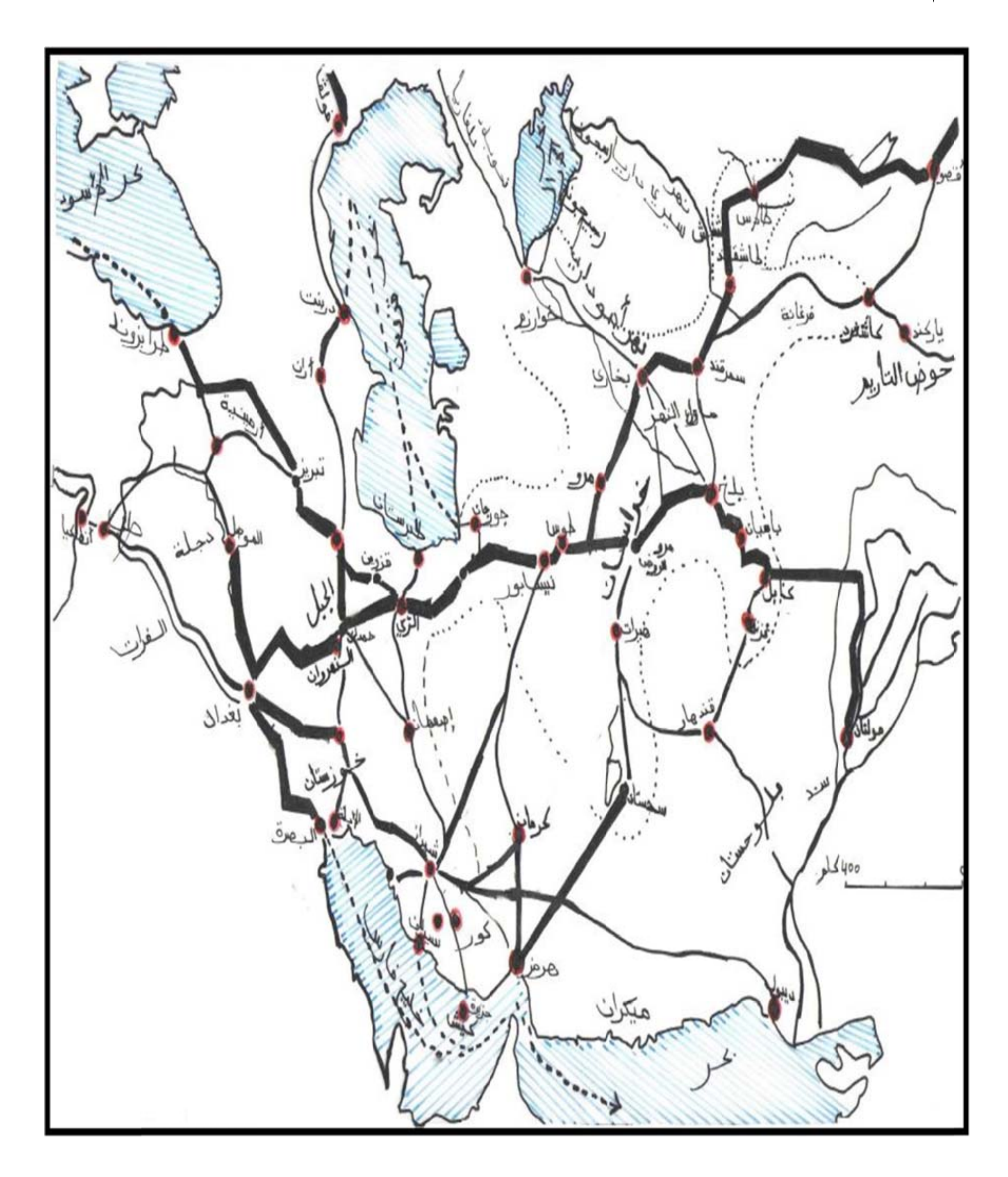
ملحق رقم: 4



:

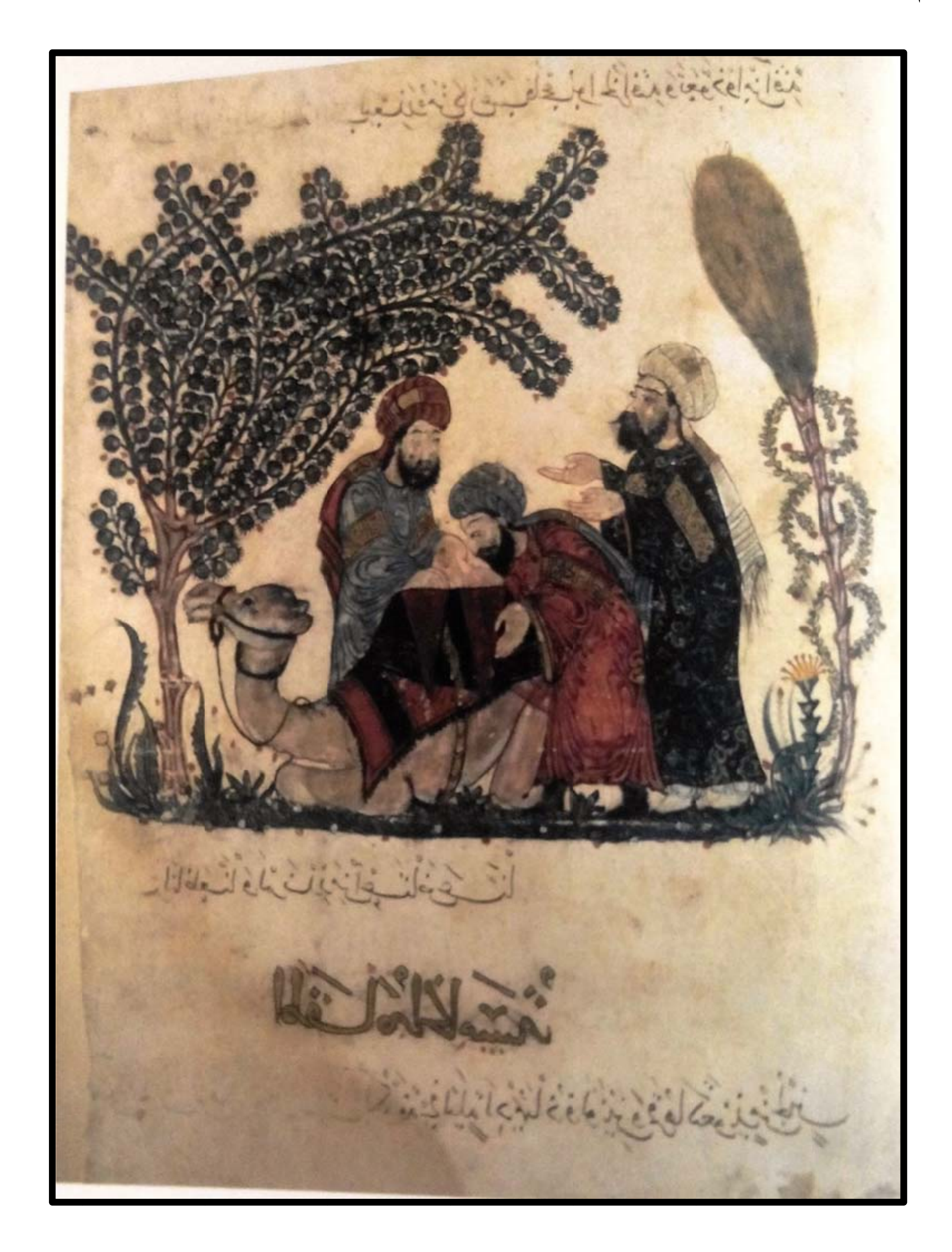
آسيا الوسطى النصف الأول من القرن الثامن الميلادي الدولة الأموية، الخانات التركية، مناطق النفوذ الصيني، وإمبراطورية الّتبِت/ عن: Yuri Beregel :An Historical Atlas of central Asia,P.19.

ملحق رقم:5



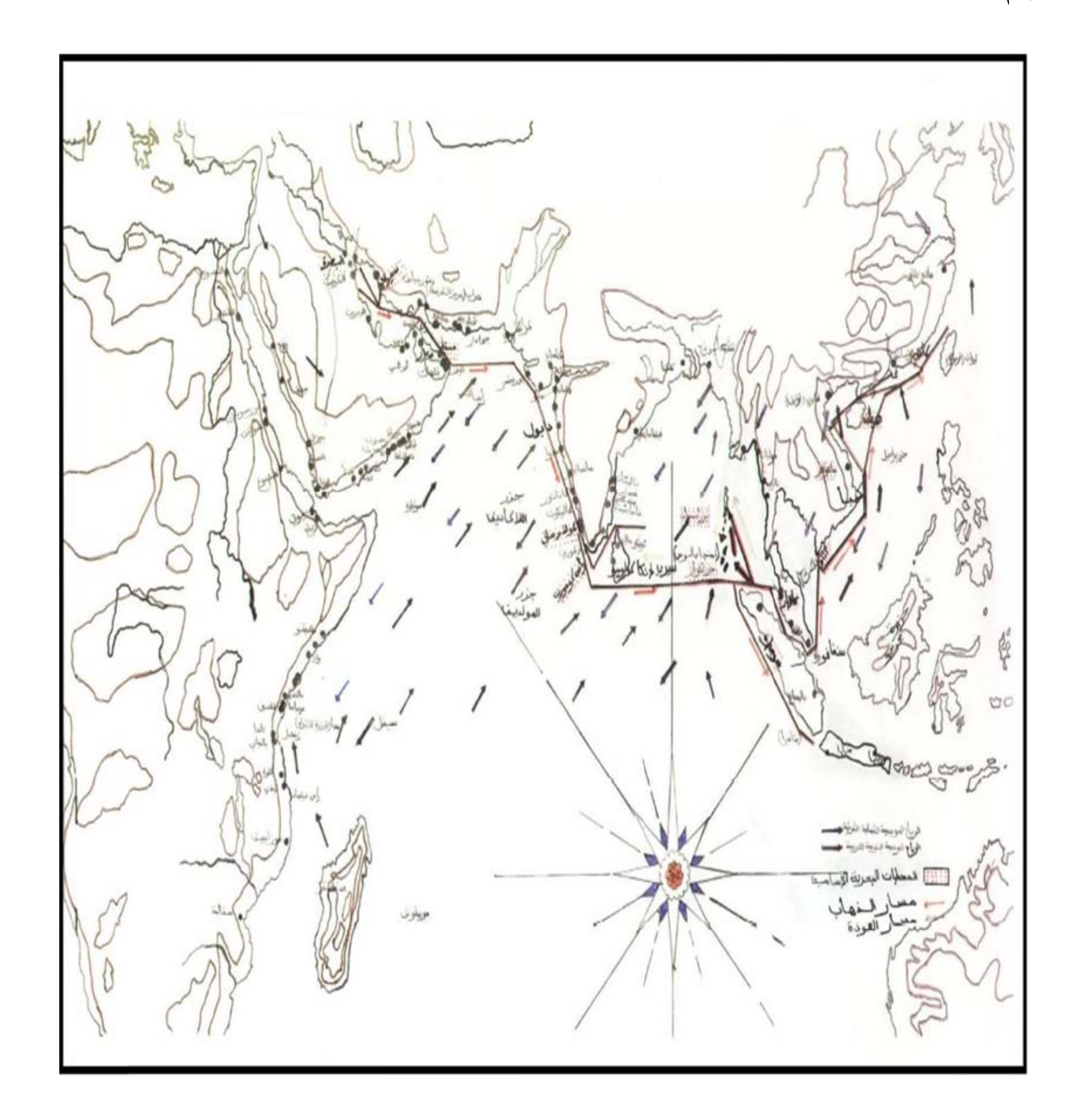
شبكة الطرق التجارية في آسيا الوسطى والغربية

ملحق رقم:6



العنوان: قافلة تجارية من المقامة الثامنة والعشرون "السَّمرْقَندِّية "،من مقامات محمد القاسم ابن علي الحريري/ المكتبة الوطنية الفرنسية.

ملحق رقم:7



مسار الرحلة البحرية التجارية من موانئ الخليج الى ميناء كانتون في الصين

في القرن الثالث الهجري / التاسع الميلادي.

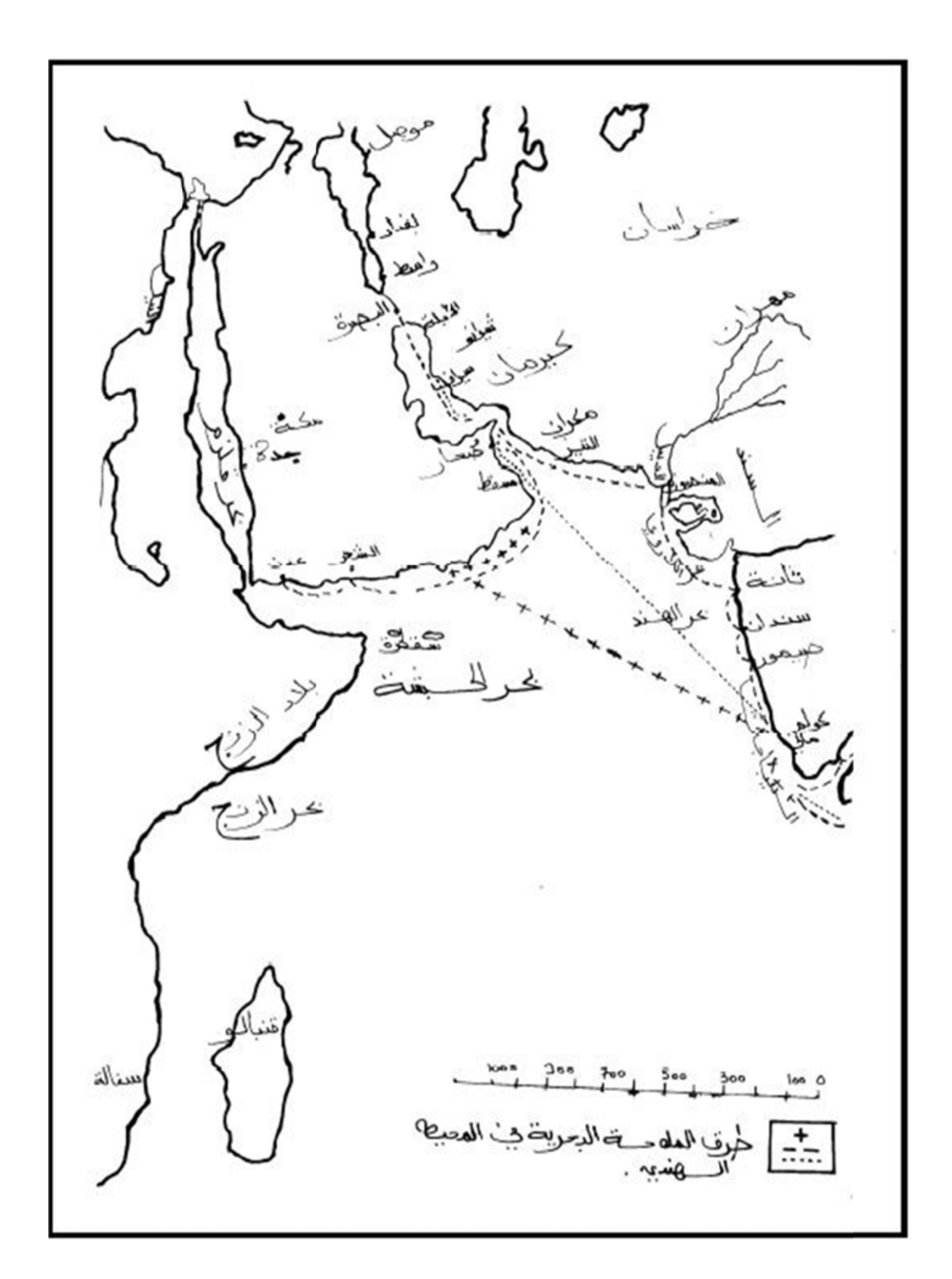
عن / عمان وتاريخها البحري، ص.90

ملحق رقم : 8



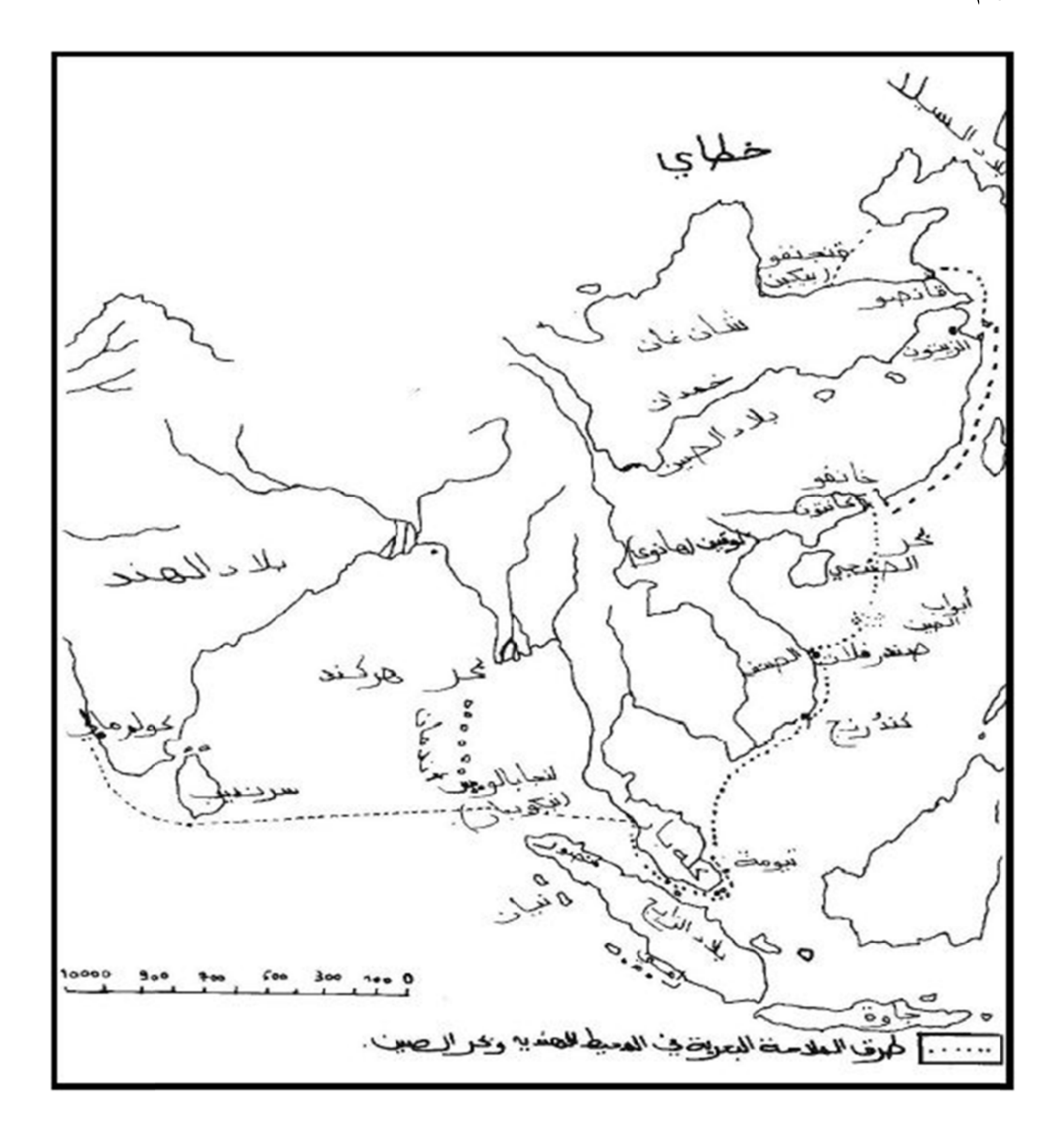
مركب لتجار مسلمين في المحيط الهندي، منمنماتيحي بن محمود الواسطي (القرن 13م) من مقامات محمد القاسم ابنعلي الحريري،/المكتبة الوطنية الفرنسية

ملحق رقم:9



الطرق التجاريةالبحرية بين المشرق وإفريقيا الشرقية في العهد العباسي عن/
HOURANI George Fadlo : Arabe seafaring in the Indian Ocean in ancient and early medieval times.P.85.

ملحق رقم:10



الشرق الأقصى المعروف لدى المسلمين في العصر العباسي

نقلا عن/ HOURANI George Fadlo : Arabe seafaring in the Indian Ocean in ancient and early medieval times.P.86.

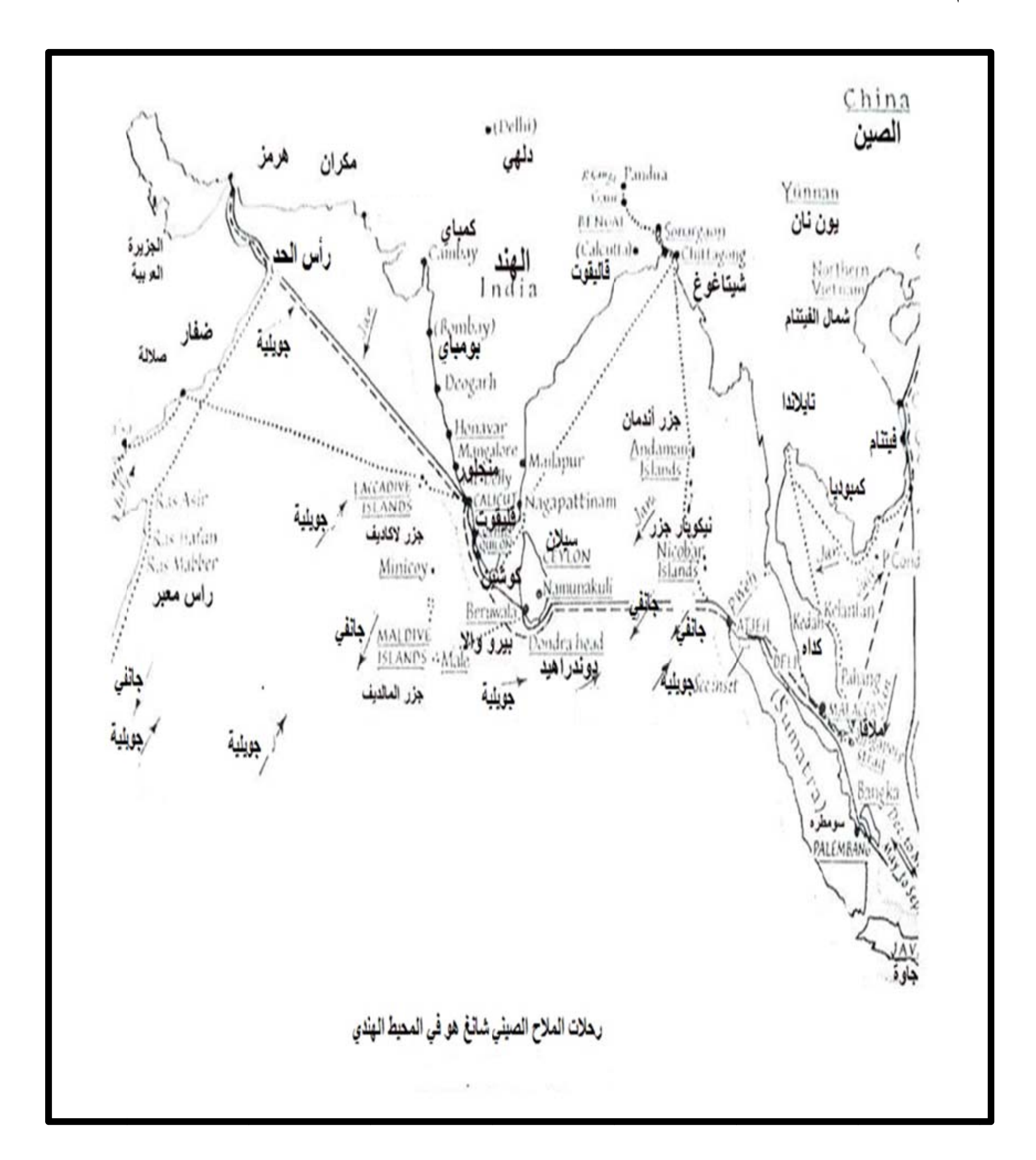
ملحق رقم:11



مركب " الضاو" نموذج للمراكب العربية التجارية المخروزة القاطعة للمحيط الهندي.

نقلا عن/ Sezgin Fuat : science et technique en Islam, tome3, P.55

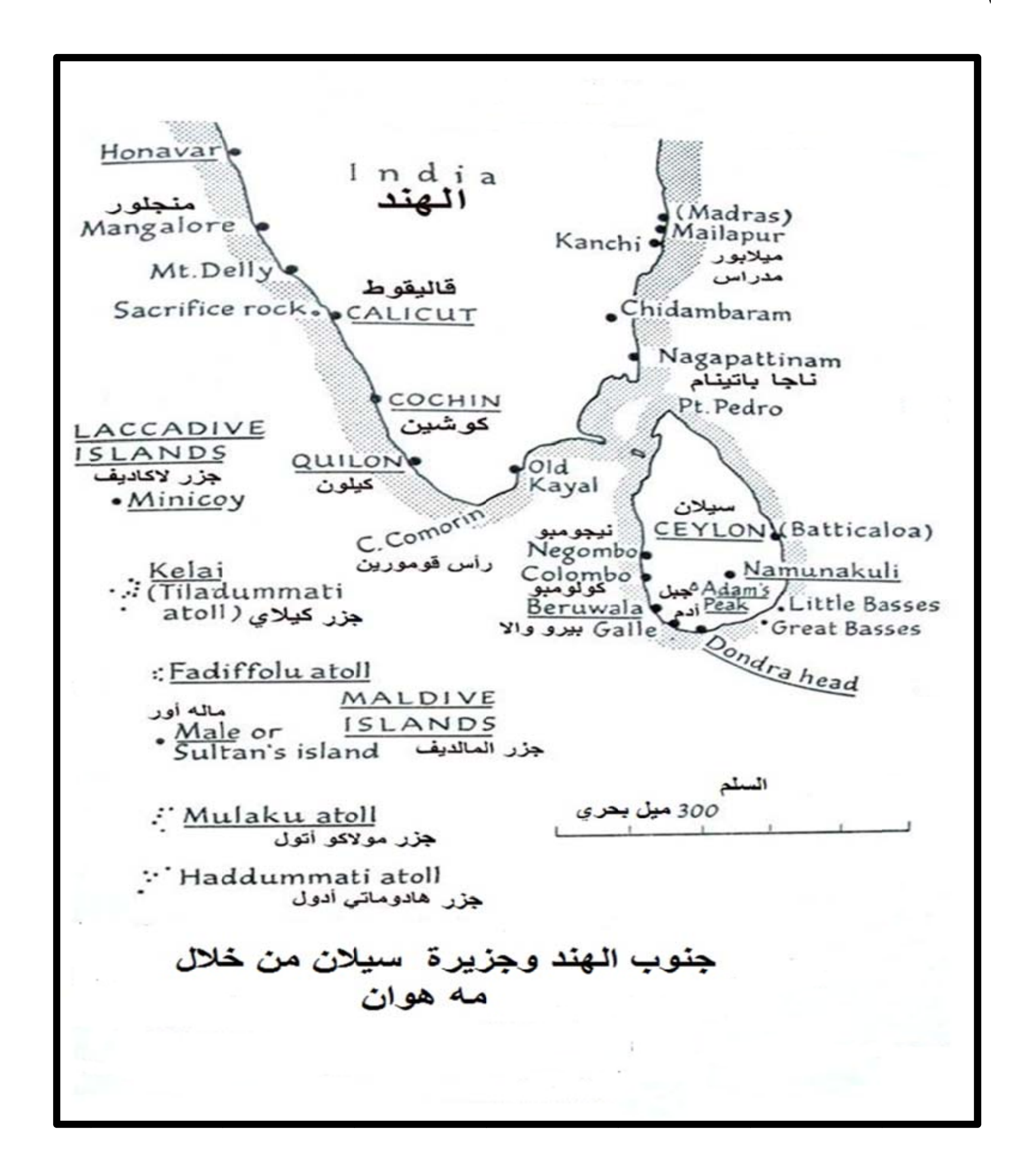
ملحق رقم:12



مسار الحملات العسكرية الصينية في المحيط الهندي بقيادة الملاَّح شنغ هو عن/

MA HUAN : Ying-yai sheng-Lan, the overall Survey of the Ocean's Shores,P. 16.

ملحق رقم:13



جنوب الهند وجزيرة سيلان التصف الاول القرن التاسع الهجري- الخامس عشرالميلادي.

عن / MA HUAN : Ying-yai sheng-Lan, the overall Survey of the Ocean’s Shores,P. 131 .

القائمة البيبليوغرافية

القائمة البيبليوغرافية:

1 – المصادر باللغة العربية

2 – المراجع باللغة العربية

3 – المصادر باللغة الأجنبية

4 – المراجع باللغة الأجنبية

5 – المقالات باللغة الأجنبية

6 – الموسوعات والقواميس

1 – المصادر باللغة العربية :

ابن الأثير (عز الدين علي بن أبي الكرم محمد) (555–639هـ):

1) **الكامل في التاريخ**، ج.4، دار الكتب العلمية بيروت، لبنان، ط1، 1407هـ/1987م.

الإدريسي (أبو الريحان محمد بن أحمد) (ت650هـ):

2) **نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، في الجغرافيا الإسلامية**، مج 1، منشورات معهد تاريخ العلوم العربية والإسلامية جامعة فرانكفورت، 1413 هـ –1992.

الإشبيلي (أبو الخير) (القرن السادس الهجري):

3) **عمدة الطيب في معرفة النبات**، تحقيق محمد العربي الخطابي، مطبوعات أكاديمية المملكة المغربية الهلال العربية، الرباط 1990، جزئين.

الإصطخري (أبو اسحاق إبراهيم بن محمد) (ت 346هـ):

4) **مسالك الممالك**، ضمن سلسلة الجغرافيا الإسلامية، مج 34، منشورات معهد تاريخ العلوم العربية والإسلامية جامعة فرانكفورت1413 هـ –1992.

برزك بن شهريار الناخذة الرامهرزي:

5) **كتاب عجائب الهند برها وبحرها وجزائرها**، تحقيق: ب.أ. فان درليت مع ترجمة فرنسية من عمل مارشيل دقيس، طبعة لندن 1883–1886 هـ.

ابن بطوطة (أبو عبد الله محمد) (ت779هـ) :

6) **رحلات ابن بطوطة " تحفة النظار من غرائب الأمصار وعجائب الأسفار "**، النص العربي مع ترجمة فرنسية من عمل شارل دفرمري، وي . سانجتي، إصدار فؤاد سزكين في سلسلة الجغرافيا الاسلامية، مج 177، ج.4، منشورات معهد تاريخ العلوم العربية والإسلامية، جامعة فرانكفورت 1414هـ – 1994.

البلاذري (أحمد بن يحيى بن جابر بن دود أبي العباس)(ت279هـ/892 م):

7) **كتاب فتوح البلدان**، نشره دي خويه، ضمن سلسلة الجغرافيا الإسلامية، مج 42، إصدار فؤاد سزكين، منشورات جامعة فرانكفورت 1992.

8) **كتاب جمل الأنساب الأشراف**، تحقيق: سهيل زكار، رياض زركلي،دار الفكر، ط1، 1417هـ/1996 م، ج.13.

البيروني (أبو الريحان محمد بن أحمد) (ت440هـ):

9) **كتاب تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في العقل أو مرذولة**، تحقيق: إدوارد سخاو، ضمن الجغرافيا الإسلامية، مج 105، منشورات معهد تاريخ العلوم العربية والإسلامية، جامعة فرانكفورت، 1413هـ – 1993.

الثعالبي (أبوالمنصورعبدالملكبن محمد بن اسماعيل النيسابوري) (350– 429هـ):

10) **كتاب لطائف المعارف**، ليدن،MDCCCLXVII.

11) **ثمار القلوب في المضاف والمنسوب**، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف، القاهرة، 1985.

12) **التمثيلوالمحاضرة**،تحقيقد.قصيالحسين.

الجاحظ (أبو عثمان عمر بن بحر البصيري) (163–255هـ):

13) **كتاب التبصر بالتجارة في وصف ما يستظرف في البلدان من الأمتعة الرفيعة، والأعلاق النفيسة،** تعليق وتصحيح: حسن حسني عبد الوهاب، الطبعة الرحمانية، مصر 1354هـ–1935 م.

الجويني (علاء الدّين عطا الله الملك) (ت 681هـ):

14) **تاريخ جيهانكشاي " تاريخ فاتح العالم"**،ج.1،تحقيق: محمد عبد الوهاب القزويني، تر: الساعي محمد السباعي، المركز القومي للتّرجمة، القاهرة، ط.1، 2008.

ابن حوقل (النصيبي أبو القاسم محمد) ت 367هـ:

15) **كتاب صورة الأرض،** تحقيق : كرامرس، ضمن الجغرافيا الإسلامية، مج 35، جامعة فرانكفورت، 1992.

ابن خرداذبة (أبوقاسم عبيد الله بن عبد الله) (280–205هـ):

16) **كتاب المسالك والممالك،** تحقيق.ي. ديخويه، في الجغرافيا الإسلامية، مج 39، منشورات معهد تاريخ العلوم العربية والإسلامية، جامعة فرانكفورت، 1413هـ – 1992.

ابن خلدون (ولي الدين عبد الرحمن بن محمد بن أبي بكر) (808 – 732هـ):

17) **العبَر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، تاريخ ابن خلدون،** ج.3، بيت الأفكارالدولية،الأردن، د.ت.

ابن خلكان (أبوالعباس شمس الدين أحمد بن محمد أبي بكر) (608–681هـ):

18) **وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان**، تحقيق: إحسان عباس، دار صادر، بيروت، 1971.

أبو دلف (الخزرجي):

19) **الرسالة الأولى: (الرحلة بدأت سنة 331هـ) في مجموع الجغرافيا مما ألفه ابن الفقيه وابن فضلان وأبو دلف**، ضمن سلسلة عيون التراث، مج 43، إصدار فؤاد سزكين، منشورات معهد تاريخ العلوم العربية والإسلامية، جامعة فرانكفورت 1407هـ -1987م.

الدمشقي (شمس الدين محمد) (ت727هـ) :

20) **كتاب نخبة الدهر في عجائب البر والبحر**، نشره م فيرين ثم اغسطس مهرن، إصدار فؤاد سركين، في الجغرافيا الإسلامية، مج 203، منشورات معهد تاريخ العلوم العربية والإسلامية، جامعة فرانكفورت 1414هـ - 1994.

الدمشقي (أبوالفضل جعفر بن علي):

21) **الإشارة إلى محاسن التجارة ومعرفة جيد الأغراض ورديئها وغشوش المُدلسين فيها**، انتهى منه 570هـ، تحقيق: البضرى الشوربجي، مكتبة الكليات الأزهرية، القاهرة، 1977.

الدينوري (أبو حنيفة أحمد بن داوود) (ت. 282هـ):

22) **كتاب النبات، قطعة من الجزء الخامس**، عنى بنشره برنهارد لوين، طبع في مدينة ليدن، 1953م.

الذهبي(شمس الدين أبوعبد الله محمد بن أحمد) (673-748هـ):

23) **تاريخ الإسلام ووفايات المشاهير والإعلام،** تحقيق بشارعواد معروف، دارالغرب الإسلامي، بيروت، 2003.

ابن رستة (أبو علي أحمد بن عمر) (القرن 3هـ):

24) **كتاب الأعلاق النفيسة،** ج 7، تحقيق م.ي.دي خويه، طبعة لندن 1891.

سليمان التاجر وأبي زيد السيرفي:

25) **أخبار رحلات العرب والفرس إلى الهند والصين في الجغرافية الإسلامية،** مج 164، منشورات معهد تاريخ العلوم العربية والإسلامية، فرانكفورت 1414هـ-1994.

الطبري(محمدبنجرير بن يزيد بن كثير الآملي) ت 310هـ:

26) **تاريخ الأمم والملوك،** مج.4،دار الكتب العلمية، بيروت لبنان، 1411هـ-1991م.

ابن العبري (غريغوريوس أبي الفرج جمال الدين) (623-685هـ):

27) **تاريخ الزمان،** ترجمة الأب اسحق أرملة، دار المشرق، بيروت، 1991.

أبو الفدا الحموي (عماد الدين إسماعيل بن محمود بن محمد) (672-732هـ):

28) **كتاب تقويم البلدان،** تحقيق: ج رينو ودي خويه، مج 13، ضمن سلسلة الجغرافية الاسلامية، منشوراتجامعةفرانكفرت، 1992.

الفردوسي أبوالقاسم:

29) **الشاهنامه،** تر: الفتح بن علي البنداري، تصحيح وتعليق عبد الوهاب غرام، ط2، دارسعادة الصباح، القاهرة، 1413هـ-1993 م.

ابن الفقيه الهمذاني (أبي بكر أحمد بن محمد بن إسحاق) (ت 340هـ):

30) **مختصر كتاب البلدان،** ضمن سلسلة الجغرافيا الاسلامية، مج. 38، منشورات جامعة فرانكفورت،1998 .

الفيروزآبادي (مجدالدين محمدبنيعقوب) (ت 817 هـ):

31) **القاموس المحيط،** تحقيق: محمد نعيم العرقسوسي، ط.2، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1993 م.

القزويني (زكرياء بن محمد) (ت672هـ) :

32) **كتاب آثار البلاد وأخبار العباد،** مج 198، نشره فرديناند ستنفيلد، في الجغرافيا الإسلامية، منشورات معهد تاريخ العلوم العربية والإسلامية جامعة فرانكفورت 1414هـ - 1994.

القَلقشندي (أبو العباس أحمد بن علي بن أحمد الفزاري) (ت821هـ):

33) **كتاب صبح الأعشى،** ج. 3، دارالكتب المصرية، القاهرة، 1340هـ-1922م.

الكرديزي (أبوسعيد عبد الحي بن الضحاك بن محمود) (ت 443هـ):

34) **زين الأخبار،** ترجمة: عفاف السيد زيدان، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، 2006.

المروزي (شرف الزمان الطاهر):

35) **فصول حول الصين والترك والهند منتخبة من كتاب طبائع الحيوان**، كتبه نحو 514هـ مع ترجمة للإنجليزية لق . منورسكي، طبعة لندن، 1942.

المسعودي (علي بن الحسين) (ت346هـ/907م) :

36) **مروج الذهب ومعادن الجوهر**، طبعة باربيه دي وبافيه دي كرتاي، تحقيق شارل بلا، الجزء 1، بيروت، 1966، والجزء 6، فهارس عامة 1979.

المقدسي (أبو عبد الله محمد بن أحمد بن ابي بكر البناء البشاري) (336–380هـ):

37) **كتاب أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم**، تحقيق ي.دي. خويه، في الجغرافيا الإسلامية، مج 36، منشورات معهد تاريخ العلوم العربية والإسلامية جامعة فرانكفورت 1413هـ–1992.

ابن منظور (محمد بن مكرم بن علي، أبو الفضل جمال الدين) 630–711هـ:

38) **لسان العرب**، مج4.، دار صادر، بيروت، 1968.

مؤلف مجهول:

39) **حدود العالم:** كتب بالفارسية سنة 372هـ، ترجمة انكليزية من عمل ق. منورسكي، في الجغرافيا الإسلامية، مج 1، منشورات معهد تاريخ العلوم العربية والإسلامية جامعة فرانكفورت 1413هـ – 1993.

النّسوي (محمد بن أحمد) :

40) **سيرة السلطان جلال الدين المنكبرُتي**، نشر وتحقيق: حافظ أحمد حمدي، دار الفكر العربي، القاهرة، 1953.

ياقوت (أبو عبد الله شهاب الدين الحموي) 574-226هـ:

41) **كتاب معجم البلدان،** مج 212-214، نشره فرديناند قستنفلد، إصدار فؤاد سركين، ضمن سلسلة الجغرافيا الإسلامية، منشورات معهد تاريخ العلوم العربية والإسلامية، جامعة فرانكفورت 1414هـ-1994.

اليعقوبي (أحمد بن إسحاق بن جعفر بن وهب بن واضح) (ت بعد 292هـ):

42) **كتاب البلدان،** مج 40، ضمن سلسلة الجغرافيا الإسلامية، منشورات جامعة فرانكفرت، المانيا، 1998.

2 – المراجع باللغة العربية:

البياتي بهجت محمد علي:

1) "الفتح الإسلامي لبخارى في المصادرالعربية" في مجلة كلية التربية، المجلد، 23، ج.4، عدد 2012.

حسين محمد فهيم:

2) **أدب الرحالات،** سلسلة عالم المعرفة، الكويت 1989م.

الدوري عبد العزيز:

3) **العصر العباسي الأول دراسة في التاريخ السياسي والإداري والمالي،** دارالطليعة، بيروت، ط3، 1997.

زكي محمد حسن:

4) **الرحالة المسلمون في العصور الوسطى**، دار المعارف 1945.

سزكين فؤاد:

5) **محاضرات في تاريخ العلوم**، الناشر جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، الرياض 1399هـ/1979م.

6) **مساهمة العرب والمسلمين في صنع خارطة العالم**، سلسلة د.م2، معهد تاريخ العلوم العربية والإسلامية في إطار جامعة فرانكفورت، جمهورية ألمانيا الاتحادية 1408هـ-1987م.

الشامي صلاح الدين:

7) **الرحلة عين الجغرافية المبصرة**، منشأة المعارف، 1982.

عبد الكريم غالب:

8) **موسوعة العمارة الإسلامية**، ط.1 بيروت، 1408- 1988.

عبد الله جمعة محمود:

9) **إقليم الشاش من الفتح الإسلامي حتى نهاية القرن الخامس الهجري، دراسة تاريخية حضارية**، دراسة مقدمة للحصول على درجة ماجستير في الحضارات الآسيوية، جامعة الزقازيق، 2006.

فامبري أرمينوس:

10) **تاريخ بخارى منذ أقدم العصور حتى العصر الحاضر**، ترجمة: أحمد محمود السداتي، راجعه وقدم له: يحي الخشاب، مكتبة نهضة الشرق، جامعة القاهرة، 1987م.

فلوتنفان:

11) **السيادة العربية والشيعة والإسرائيليات في عهد بني أمية**، ترجمة: حسن إبراهيم حسن ومحمد زكي إبراهيم، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، 1965.

فوزي محمد حميد:

12) **عالم الأديان بين الأسطورة والحقيقة**، منشورات الدعوة الإسلامية، 1991.

كالتالوج: عمان وتاريخها البحري، إصدار وزارة الإعلام والثقافة، سلطنة عمان، 1979.

كراتشكوفسكي، فلاديميير:

13) **تاريخ الأدب الجغرافي**، نقله عن الروسية، صلاح الدين هاشم، دار الغرب الإسلامي، بيروت 1408هـ-1987، ط1.

ميكال أندري:

14) **جغرافية دار الإسلام البشرية حتى منتصف القرن الحادي عشر**، تر: إبراهيم خوري، منشورات وزارة الثقافة والإرشاد القومي، دمشق، 1983.

3 – المقالات باللغة العربية:

بارثولد فلادمير:

1) مادة "**جنكيزخان**" ضمن "دائرة المعارف الإسلامية"، تر: أحمد الشيناوي، إبراهيم زكي خورشيد، مجلد 7، دون مكان طبع، 1933.

البساني (بطرس):

2) مادة " **برهم**"، دائرة المعارف، بيروت 1881، مج 5.

البياتي بهجت محمد علي:

3) "**الفتح الإسلامي لبخارى في المصادر العربية**" في مجلة كلية التربية، المجلد، 23، ج.4، عدد 2012.

الحفيان فيصل:

4) " تراث العرب والمسلمين من العلاقات الخارجية" في " التسامح"، مسقط سلكنة عمان، صيف 1426هـ/2005م.

ذانج هو:

5) " **المعاملات بين الصين والعرب في العصر الوسيط** " في حصاد ندوة الدراسات العمانية، 10 مجلدات، مج6، ذو الحجة 1400هـ/ نوفمبر 1980.

السيد رضوان:

6) " **البوذية والإسلام وغربة الأديان**" في" **التسامح**، مسقط سلكنة عمان، صيف 1425هـ/2000م.

عبد الصالح محمد علي:

7) "**البريد في العصور الوسطى الإسلامية**"، في **مجلة جامعة الأنبار للعلوم الإسلامية**، المجلد 4، عدد 15، نيسان 2013م.

قحطانعبدالستارالحذيفي:

8) "**دراسات في التنظيمات الاقتصادية لخرسان في القرن الرابع للهجرة، التجارة**"، في مجلة الخليج العربي، المجلد العشرون، العدد 4، 1988.

لي تشين تشونغ:

9) " الإسلام والثقافة الصينية" في" التسامح" مسقط، سلطنة عمان، صيف 1425هـ/200م.

4 – المصادر باللغة الأجنبية:

Abel-Rémusat. M :

1) Nouveaux Mélanges Asiatiques ou Recueil de morceaux de critique et de mémoires, T1, librairie orientale de Don Dey- Dupré, Paris, 1829.

Aboul-Gahzi Bèhâdour Khan :

2) Histoire des Mogols et de Tatares, traduits par: Le Baron Des maisons, édited by Frankfurt University ,1998, in I.G., Vol. 226.

Benjamain of tudela:

3) The étinerary of benjamain of tudela, translated by Marcus Nathan Adler, Frankfurt University 1995, edited by fuat sezguin, In : Islamic world in foreign travels accounts ,vol.60.

BRETSCHEIDER,E :

4) Mediéval Researches from Estern Asiatic sources , Fragments Towards the knowLedge of the Geographey and History of central and westarn Asia From the 13 th to the 7 th century , Vol_{1+2} , TRÜSNER and CO, Ludgate Hill , London.1988 .

Chau- Ju-Kua :

5) His work on the Chinese and arabe trade in the twelfth and thirteenth centries entiled. Chu-fan-chi, Translated by Friderich Hirth and ww. Rochkhill, in Islamic world in foreign travel accounts, Frankfurt University, 1996.

Chavannes Edouard:

6) Les Pays d'occident d'aprésle Heou Han Chou,in ,T'oung Pao,série2,vol.8 ,E.J.Brill,Leiden

D'Ancône Jacob di Salomone:

7) La cite de Lumière , traduction mise en conformité avec le manuscrit Original et annoté par David SELBOURNE, traduit de l'Anglais par Pierre-Emmanuel DAUZAT, Librairie Arthème Fayard,Paris ,2000.

De Conti (Nicolo):

8) Le Voyage aux Indes(1414-1439) , Présenter par Anne Loure Amilhat Szary , Edition Chandeigne ,Paris,2004.

De Plan Carpin , (Jean) :

9) Histoire des Mongols. Traduit et annoté par Dom Jean Baquet et par Louis Hambis. Librairie d'Amérique et d'Orient Adrien Maisonneunve .Paris, 1965.

De Pordenone (Odoric) :

10) les voyages en Asie auXIVe siècle du bienheureux frère Odoric de Pordenone,Religieux de saint-François, De Venise a Pekin au Moyen Age. Commenter par : Henri Cordier,Ernest Le Roux,Paris, MDCCCXCi. .

Fei, Hsin:

11) Hsing- Ch'a Sheng- Lan , The Overall Survey of the Strar Raft ,Translated by: J.V.G Mills,annotated and edited by Roderiek Ptak Harrassowitz Verlag ,Weisboden,1996.

Gonzales De Clavijo (Ruy) :

12) Relation de Voyage de l’Ambassade de Castille a la Cour de Timour Beg (1403-1406). Traduit et commentée par Kehren (Lucien). Imprimerie Nationale, Paris, 2007.

Guillaume de Rebrouck:

13) Voyage dans l’empire Mongol, traduction et commentaire : Claude et Reni Kappler, Payot, Paris, 1980.

Hefele Karl-Joseph:

14) Histoire des concilesd’après les documents originaux, traduit par: Dom H, Leclercq, Tome V, deuxième partie, le Touzey et Ané, Paris, 1913.

Hiouen.Thsang :

15) Mémoires sur les contrées occidentales voyages des pèlerins Bouddhistes (629 - 645) , traduit par : M.StanisLas JuLien , Tome 2, Imprimerie Imeriale ,Paris , M DCCC LV III.

Hye Ch’o :

16) The Hye Ch’o Diary, Mémoir of Pilgrimage to the Five Regions of India, Translation Text and editing by Young , Han- Sung , Jan, Yun-Hua , Asian Humanities Press, , Berkeley,California,1984.

MA HUAN :

17) Ying-Yai Sheng-Lan, the overall survey of the ocean’s shores 1433, translated from the Chinese by: Ch’eng-chün,with introduction,note and appendices by:J.V.G.Mills,Cambridge published for the HAKLUYT Society,1970.

MAJOR, R.H :

18) India in the Fifteeth century.Being a coLLection of : Narratives of voyages To India in the century Preceding the Portuguese Discovery of the cape of good Hope : From Latin, PERSIAN , Russian , and Italian sources. Printed For The HakLuyt society . London , M. DCCC.Lv II.

Major.R.H :

19) INDIA in the fifteeth century.Being a CoLLection of , Narratives of voyages To India in the century preceding the Portuguese Discovery of the cape of good hope : From Latin , Persian , Russian and Italian sources ,printed for the HakLuyt society , London, M.DCCC, L , VII.

Marco Polo:

20) La déscription du Monde, Louis Hambis, Librairie C. Klincksieck, Paris, 1955.
21) Mémoire concernant L'Histoire,les sciences, les Art, Les usages,des chinois,par les missionnaire de Pe-kin, Tome cinquieme , chez Nyon,M.DCC.LXXX.

Pelliot, Paul :

22) Histoire secrète Des Mongols, Restitution du Texte Mongol et Traduction Francaise des Chapitres I a VI, Librairie D'Amérique et d'Orient. Paris, 1949.

Schiltberger Johannes:

23) Captif des Tatars, tradiut de l'Allemand par Jacques Rollet,Préface de Michel Balivet,Anacharsis éditions,2008.

Sezgin (Fuat):

24) Chinese sources on Islamic Countries, in Islamic World in foreign travel accounts, publication of the institute for the history of Arabic Islamic science, vol .74, Frankfurt .1996.

Yule Henri:

25) Cathay and the way thither, a collection of mediéval notices of china Preliminary essay, Vol.1 -3, London, MDCCCCXV.

5 – المراجع باللغة الأجنبية:

Amiot Joseph :

1) Mémoire concernant L'Histoire, Les sciences les Arts Les mœurs, Des chinois par les missionnaires de Pékin 1780, Nyon L'ainé, Paris MDCC.LXXX, Vol05

Arminius Vambery:

2) History of Bokhara, from the earliest Period Down to the Present, Henry s. King and Co. London, 1873.

Arnold , T.W:

3) the Preaching of Islam , A History of the Propagation of the Muslim Faith , constable and company LTD , second édition. London ,1913.

Audemard , L :

4) Les Jonques Chinoises.Rotherdam, Holland،1957.

Babelon, Ernest :

5) Du Commerce des Arabes dans Le Nord de l’Europe avant les Croisades, Paris, 1882.

Barthold .W:

6) Histoire des Turcs D'Asie centrale ,Traduit par :M.Donskis,Adrien- Maisonneuve, Paris, 1945.

Bernand, Henri :

7) La découverte de Nestoriens Mongols aux Ordos et Histoire Ancienne du Christianisme en Extréme Orient. Tienstin.Chine, 1938.

Bernard Lewis:

8) The Cambridge History of Islam: The further Islamic Lands, Islamic society and civilization.volume2, Edited by P.M Holt; ANN. K.S Lombton, Cambridge at the university Press,1970.

Bosworth, (CE) :

9) History of Civilization of Central Asia .. The age of achievement (AS 750 to the end of the fifteeth century), Volume IV, Part one. The historical, special and économic setting .Paris, 1998.

Boulnois, Luce :

10) La Route de La soie : Dieux, Guerriers, et Marchands. Olizane, Genève, 2010.

Cagnat, René :

11) Le Milieu des Empires : ou le destin de l’Asie centrale . Paris, 1981.

Cahun Léon:

12) Introduction à l'histoire de l'Asie :turcs et Mongols des origines à 1405 ,Armand Colin ,paris,1896.

Chang Jih- Ming:

13) Les Musulmans sous les Tang(618-905), Taipei, 1980 .

Chavannes , Edouard :

14) Mémoire Composé a l'Epoque de la Grande Dyanastie Tang Sur Les Religieux Eminent Qui Allérent Chercher La Loi dans Les Pays d'Occident. Paris,1894.
15) Mémoire Concernant l'Asie Orientale, Paris ,1916.

Cohen, Monique :

16) La Serinde, Terre D'échanges : Art, Religion, Commerce du I au X[e] siécle.Paris,2000.

Cordier, H :

17) Les Musulmans du Yunan, Imprimerie TunKinging. Hanoi, 1927.

Cordier, Henri :

18) Deux Voyageurs dans l'Extréme Orient au XX et XVI. Leiden, (1920).
19) Les Marchands Hanistes de Conton , Leiden, 1902.
20) Histoire Générale de La Chine et de Ses Relations avec Les Payes Etrangers, Tome .2, Librairie Paul Gautner .Paris, 1920.
21) Les Douanes Impériales Maritimes Chinoises, Paris,1902.
22) les Musulmans de Yunan,imprimerie Tunkin-ding, Hanoi,1929.

Darby De thiersant .P:

23) Le Mahométisme en chine et dans le Turkestan Oriental, T1, Ernest Lernoux, Paris, 1878.

Day Clive:

24) A History of commerce, Lorv GMAN Green and CO, New york, 1914.

De Backer, Louis :

25) L'Extréme Orient au Moyen age , Ernest Leroux , Paris, 1877.

DE Gruyter:

26) The origine of Ashkenazi Jewry, the Contreversy unraveled Walter de Grruy, Germany, 2011.

De la vaissière Etienne :

27) Histoire Des Marchands soghdiens, collège de France, Institut des hautes études chinoises, Paris, 2002.

28) Les Sogdiens en Chine. Paris, 2005.

29) Histoire des Marchands Sogdiens, Collège de France, Institut des Hautes Études chinoises, Paris, 2002.

De Rialle, Girard :

30) Mémoire sur L'Asie centrale son Histoire ses populations, deuxième édition, Ernest L'eroux, Paris, 1875.

Denys, Lombard ; Aubin, Jean :

31) Marchands et Hommes d'Affaires Asiatiques dans l'Océan Indien et la mer de Chine 13-20e siécles.édition de l'ecole des Hautes etudes en sciences sociales, Paris,1988.

Depping G. B.:

32) Histoire du commerce entre le levant et l'Europe, Depuis les croisades Jusqu'a la fondation des colonies d'Amérique, imprimerie Royale, T.1, Paris, MDCCXVX,

Élisseeff, Vadime:

33) The silk roads: highways of culture and commerce. New York , 2000.

F.HIRTH :

34) China and the Roman Orient , Reserches into their Ancient and Mediéval Relation as Preserved in oLd Chinesse Records, Leipsic , Munich and ShanGhai, Hongkong,1885.

Fernoud (Gabriel):

35) Le Turkestan chinois et ses habitants, mission scientifique dans la haute Asie, Ernest Leroux, Paris, 1898.

36) Histoire de l'Asie, L'Inde et la chine l'Inde ancienne la chine jusqu'à la conquête Mongole les civilisation de l'Indochine , Paris, 1922.

37) études sur la géographie arabo-islamique ,Vol.2, Frankfurt university ,1956.

Folts, Richard .C:

38) Religions of The Silk Road: Overland Trade and Cultural Exchange From Antiquity to the Fifteenth Century. London, 1999.

Foret, Philippe:

39) The Journey of Maps and Images on The Silk Road .Leiden, 2008.

Gafurou, B.G:

40) Les montagnards d'Asie Centrale, Tashkent.Aix en Provence, 2003.

41) Central Asia: pre- historic to pre-modern times. Volume 2 . Delhi, 2005.

Ghose, Rajeshwari :

42) Kizil on the silk road : cross roads of commerce and meeting of minds. Inde Marque publications,2008.

Gib .Hamilton .A.R:

43) the Arab conquests in central Asia ,the royal Asiatic society,London,1923.

Grenard Fernand :

44) Le Turkestan Chinois et ses habitants, dans la haute Asie, Pierre Palpante,Paris, 2011.

Grousset René:

45) L'Empire des steppes, Attila, Gengis khan, Tamerlan, Payot, Paris, 1985.

Grshenina, S :

46) La Route de Samara Kande : l'Asie Centrale dans l'Objectif des Voyageurs d'Autrefois. Geneve, 2000.

Hall D.G.E :

47) A history of South east Asia, MacMillan & co, London, 1955 .

48) A history of South east Asia,Macmillan & co, London, 1955

Hambis Louis:

49) l'Asie Central Histoire et Civilisation. Fayard Paris,1977.

Hansen , Valérie:

50) The silk Road, Key papers the pre- Islamic period . Leiden, 2012.

Heyd Wilhelm.:

51) Histoire du commerce de levant au moyen- âge, T.1-2, LEIPZIG, Paris. ,1886.

Hirth, F :

52) China and the Roman Orient : Researchers into their Ancient and Medieval Relation as Represented in Chinese Reccords ,Leipsic, Munich , Shanghai , Hongkong, 1985 .

53) China and the Roman Orient : researches into their Ancient and Medieval relations as represented in old Chinese records, Hong Kong, 1885.

Jera – Bezard Monique :

54) L'Architecture des Monnuments Civils et Religieux dans l'Asie Centrale Sédentaire depuis l'Ere Chretienne jusqu'a la Conquete Musulmane,1981.

Jih- Ming :

55) Chang :Les Musulmans sous la chine des Tang (618-905) . Cheng Wen-Taipei, 1980.

Kouzniesov Pierre :

56) Lutte des civilisations et des Langues Dans L'asie centrale ,Jouve et C**ie**, Paris,1912.

Le strange Guy:

57) the land of eastern caliphate, in (I.G) Vol 85.

Liu , Xinru:

58) The silk road : a brief history with documents .Boston,2012.

Majumdar,R.C :

59) Ancient Indian colonies in the far east, vol. 2 ,Suvarnadvipa, Dacca , 1937 .

Majumdar,R.C :

60) Ancient Indian colonies in the far east, vol. 2 ,Suvarnadvipa, Dacca , 1937.

Marsane, Pierre :

61) Le christianisme Syriaque en Asie Centrale et en Chine.Paris, 2015.

62) Termez sur oxus : capitale d'Asie centrale, Pierre Leriche .Paris,2008.

Maurice Lombard:

63) L'Islam dans sa première grandeur (VIII- XIème siècle), Flammarion, Paris, 1971,

Mc Covern William Montgomery :

64) The early empires of central Asia , a study of scythians and the huns and the part they played in world history, the university of north Carolina Press, 1939.

MENZIES Gavin :

65) 1421 L’année ou La Chine a decouvert L’Amérique,Edition Intervalles,Paris,2006.

Mester, Edouard :

66) Monnaies Métalique et Valeurs d’échange en Chine.Paris, 1937.

Mochiri. I. Iskender :

67) History of civilization of central Asia, the crossroads of civilizations : A.D. 250 To 750, Vol III, UNESCO Publishing, 1996.

Pelliot, Paul :

68) Histoire secrète Des Mongols, Restitution du Texte Mongol et Traduction Francaise des Chapitres I a VI. Librairie D’Amérique et d’Orient. Paris, 1949.

69) Recherche sur les Chrétiens d’Asie Centrale et d’Extréme Orient. Paris, 1973.

Reinaud.M :

70) Relations Politique et commerciales de L'empire Romain avec l'Asie Orientale (L'Hycarnie, l'Inde, la bactriane et le chine), imprimerie impériale, Paris, MDCCCLXIII.

Richard Jean:

71) La Papauté et les missions d’orient au Moyen-âge, (XIII^e^-XV^e^ siècles), Ecole Française de Rome, Palais Farnèse, 1977.

Roux ,Jean Paul:

72) Histoire des turcs deux milles ans, du pacifique a la Méditerranée, Fayard, Paris, 2000.

73) L'Asie centrale, Histoire et civilisation, Fayard, Paris, 1997 .

74) L'Islam en Asie, Payot, Paris 1958.

Salmon , Claudine et Denys , Lambard:

75) Islam and Chine,unesco, 1994.

Siroux Maxime :

76) Caravansérails D’Iran et petits construction Routiére , Mémoires PubLiés Par L’Institu Français D’Archéologie orientale Du Caire , 1949, Tome 81.

StokweLL Foster :

77) Religion in china Today , new world Press , Beijing , china 1993.

Touati François Olivier :

78) Vocabulaire historique de Moyen-âge, La boutique de l’Histoire, Paris, 1995.

Vissiére, A :

79) Etudes Sino-Mahométanes, deuxiéme serie, avec la collaboration deMM.G. Cordier et CI.Huart, Ernest Leroux,Paris,1913.
80) Recherches sur Les Musulmans Chinois Par Le commandant D’iLLone .. Notes De Blochet . Ernest Leroux ,Paris , 1911.

6 – المقالات باللغة الأجنبية:

Aubin, Françoise:

1) **«Xiongnu»** ,in dictionnaire de la civilisation chinoise, Encylopaedia universalis, Albin Michel, Paris, 1998.
2) « **Zeng He , Héros ethinque Des Hui ou Musulmans chinois** » , in : Cahier de Linguistique ,d'orientalisme et de Slavestique,n°1-2, édité par : cloudine salmon/ Roderich Patak , wies baden , 2005.

Bensidoum Sylavain:

3) **"L'Asie centrale caracteristiques Physico-géographique d'après E.Mourzaev",** in, Annales de géographie, année 1964, volume 37, n° 398, P.490.

Berthold Laufer:

4) **«Arabic and chinese Trade in Warlus and Narwhal Ivory»,** in T'oung-Pao, vol.14, E.J.BRILL, LEIDEN, 1913. PP.316-364.

Bivar A.D.H:

5) **«Hayatila»,** in Encylopaedia of Islam, new édition E.J.Brill, Leiden 1986, vol 3,PP303-304.

Blake, P, Robert:

6) « **The Circulation of Silver in the Moslem East Down to the Mongol Epoch**». Harvard Journal of Asiatic Studies. Volume 2 , Harvard yenching institute . Cambridge, Press , USA, 1937. PP 292-328.

Chavannes Edouard

7) **«Documents sur les Tou-Kiue occidentaux »,** in T'oung Pao , série2, vol5, Brill, leiden 1906.
8) **«Les pays d'occident D'après le "Heou Han Chou"** » ,in T'oung Pao, série.2, ,E.J.Brill,LEIDE,1907, vol.8PP.149-234
9) **«Notes additionnelles sur les tou-kiue»** , in T'oung Pao, série2, vol5, Brill, leiden 1906,PP. 1-110.
10) **«Trois généraux chinois de la Dynastie des Han Orientaux »** , in T'oung Pao, archives concernant l'Histoire les langues, la Géographie et l'éthnographie de l'Asie Orientale, E.J.Brill, leide, 1906, serie2, Vol 7.

Chen , Dasheng .Salmon, Claudine :

11) **«Rapport Préliminaire sur la Découverte de Tombes Musulmanes dans l'Ile de Hainan»**, in,Archipel ,tome.38, Paris ,1989.

Choussendre , Damien :

12) **« Le Bureau de L'Histoire en Chine Sou la dynastie des Tang (618-907)»** , in Journal Asiatique,Tome 3, 2012 , Numéro 1 , PP 528-544, Publier par la société Asiatique.

GAARD STEENS :

13) **«HARIR»,** in Encylopaedia of Islam ,leiden, Brill, 1986.

Ghity Nashat:

14) **«Turks»** in: EncycloPaedia of the world Muslims, Tribes, castes and communities, Global vision Publishing House, Delhi, India, 2001, Vol.4, PP.1458-1504.

HerGoulac'H,Michel :

15) **« une étape De la route Maritime de la soie»,** in **J-A** ,Tome 286, n°1, 1998.

Ibrahim Moosa:

16) **«Toghuz.oghuz»** ,in :Encychopaedia of the world Muslims, Tribes, Castes and communities, Global vision Publishing House ,Delhi, India, 2001, vol.4, PP.1445-1446.
17) **«Toghuz.oghuz»,** in Encyclopaedia of the world Muslims, Tribes, Castes and communities, Global vision Publishing House , Delhi, India, 2001,vol.4, PP.1445-1448.

Jahn , Karl:

18) **«Rachid El Din and chinese Culture»** .in: Central Asiatic Journal, Volume. XIV, 1970, PP. 135-174.

Juillard Ollivier :

19) **«Le Thé» in :**D.C.C, Encyclpaedia universalis., Albin Michel, Paris, 1998.

LARRE, Claude :

20) **« Tao »** in , Dictionnaire des Religions , sous ladirection de Paul Poupard , Presse Universitaire de France, Paris, 1984, Vol2

Lopez Robert.S :

21) **« Nouveaux documents sur les marchands Italiens en chine à l'époque mongole, communication du 11 février 1977** »,in comptes rendus des scéances de l academie des inscriptions et belles lettres,121 é année,n.2,1977

Messrech , L. Vender :

22) **«Les Relation sino-Arobes Au XY^{e} et XVI siecle : un chapitre de L'Histoire des Ming »** , inCahiers de l'Inguistique , d'orientalisme et de slavitisme n° 1-2.

Moses.L.W:

23) **"Uyghür"** in «Encyclo Paedia of the world Muslims» , Global vision Publishing House ,Delhi, India, 2001, Vol4.PP.1504-1506.

Mukhamedjanov.A.R:

24) «**Economy and social system in central Asia in the kushan age»,** in colloque History of civilizations of central Asia, Unesco Publishing, Vol.2

Pelliot ,Paul :

25) **«Le Nom Turc du Vin dans Odoric de Pordenom»** in :.T'oung Pao, Volume. 15, E.J.Brill, Leide , 1914.

26) **«Les Mongols et la Papauté».** inRevue de l'Orient Chrétien , troisième série, Tome 3 (Vol. 23), Paris, 1922-1923,PP.3-33.

27) **« L'origine de Tou-kiue , nom chinois des Trucs.»** In,T'oung Pao, Volume XXIII ,E.J. Brill, Leide , 1924.

28) **« Les Abdal de Painap».**in, Journal Asiatique , 1906.

29) « **Notes additionnelles sur Tcheng Houo et sur Ses Voyages**».in :T'oung Pao, Volume 31 ,E.J. Brill ,Leiden, 1935.

30) «**Les Grand Voyages Maritimes Chinois au Début du Xx^{e} siécle»,** in,T'oung Pao, Volume XXX , Leide, Brill , 1933.

31) **«les grands voyages Maritimes chinois au début du XVe siècle»,** in : T'oung-Pao, vol.30, E.J.BRILL, LEIDE, 1933. PP.237-452.

32) «**La ville de Bakhouan dans Géographie D'Idris».** In T'oung Pao, Série II, Volume VII, Numéro 5, 1906.

Petech Luciano :

33) **«Les Marchands Italiens dans l'Empire Mongol»** , in Journal Asiatique,N°250,1962, PP.549-574.

QADRI S.M :

34) **«Khazar»,**in, Encychopaedia of the world Muslims, Tribes, Castes and communities, Global vision Publishing House ,Delhi, India, 2001,vol.2, PP.718-729.

Rockhill , Hon W.W:

35) **«Notes On the Relation and Trade of China with the Eastern Archipelago and the Coast of the Indian Ocean During the Fourteeth Century»,**In: T'oung Pao, Part 1,Volume 15, E.J.Brill, Leide , 1914;Part 2,vol.16,1916. E.J.Brill, Leide .

Rossabi, M.:

36) **«Ming China and Tur Fan .1406-1517»,** in:Central Asiatic Journal , Volume .16, 1972, PP 207-225

Ruska.J:

37) **"RADANITES":** in Encyclopedia of the world trade, from Ancient time to the Present, Vol. 3, Sharp Réference, California, 2005,
38) **«AL-Nüshādir»** ,T.8**,** in **E.I**, Leiden, E.J.Brill 1995.

Salmon , Claudine :

39) **« Les Persans a l'Extrémité Orientale de la Route Maritime . II^e AE, XVII^e siécle»,**in : Archipel,n° 68 , Paris , 2004.

40) **«Les persans à l’extremité orientale de la route maritime(2-7éme siécle)»** ,in ,Archipel , tome.68,Paris , 2004.

Schiper Kristofer :

41) «"**Shi Huangdi**» in «dictionnaire de la civilisation chinoise, Encylopaedia universalis», Albin Michel, Paris, 1998.

SPECHT .M . Edouard:

42) **«Etudes sur l’Asie centrale, D’après les historiens chinois»,** in Journal Asiatique, Octobre-Décembre,Tom.2 ;8série,octobre-novembre-décembre 1883,PP. 317-351.

TENSEN.SEN :

43) «the formation of chinese maritime networks To soutern Asia 1200-1450 » in JESHO N°49, 4 , BriLL Leiden , 2006.

Trombert Eric:

44) **« Textiles et tissus sur la route de la sois, éléments pour une géographie de la production et des échanges»,** in:la sérindé tèrre d’échange, Roncontres de l'Ecole du Louvre,13-15 février 1996, Paris.

Vesel, H. Beikbaghban et B. Thierry de Crussol :

45) **« La Science dans Le Monde Iranien a L’Epoque Islamique»** , Acte de Colloque tenu a l’Université des Sciences Humaines de Strasbourg (6-8 juin 1995), Institut Français de Recherche en Iran , Téhéran , 1998,PP 119-121.

Vissiére , A :

46) **«Le Seyyide Edjel Chams Ed-In Omar 12-10-1279 et Ses Deux sépultures en Chine »,** in , Revue du Monde Musulman. Vol .4, Février, Numéro 11, Ernest Leroux , Paris,1908 , PP 1-17.

7- أطالس جغرافية باللغة الاجنبية:

Jean sellier et andré sellier:

1) Atlas des peuples D'orient, Moyen-orient caucase, Asie centrale, La découverte, Paris, 2006.

Yuri Beregel :

2) An Historical Atlas of central Asia,Leiden,Brill-Boston,2003.

فهرس المواضيع

المحتويات